وزارة الثقافة

المركز القومي للمسرح
والموسيقى والفنون الشعبية

كلاسيكيات المسرح المصري

ألبوم أبو نظارة
يعقوب صنوع

تأليف: بول دي بينيير

ترجمة: د. حمادة إبراهيم

دراسة وتعليق

د. سيد على إسماعيل

(10)

2009

البوم أبو نظارة يعقوب صنوع

تأليف : بول دي بينـــــيير
ترجمة : د. حمادة إبراهيم

دراسة و تعليق
د. سيد علي إسماعيل

وزارة الثقافة
المركز القومي للمسرح
والموسيقى والفنون الشعبية

دراسات في المسرح المصري

تصدر عن المركز القومي
للمسرح والموسيقي والفنون الشعبية

وزارة الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. سامح مهران
●
رئيس التحرير
عبد القادر حميدة
●
مدير التحرير
محمد أمين عبد الصمد
●
سكرتير التحرير
أحمد محمد عبد الله
●
الإخراج الفني والتنفيذ
بمركز المعلومات
محمد أحمد محمد
رباب شوقي فتوح
مي خيرى عبد الستار
رشا مختار عبد العزيز
●
تصميم الغلاف
الفنان محمد أبو طالب

فاكس : ٢٧٣٦٩٣٨٧
الرقم البريدي: ١١٢١١
الموقع على شبكة الانترنت
www.egthater.com



حضور التراث وتراث الحضور

عاشت مصر الدلالتين السابقتين في تتابع غير مرتب في فترات تاريخية كان حضـــور مصر فيها فاعلاً في الحضارة الإنسانية ويشكل نموذجاً لما يكون عليه الحضور المؤســـس . ووجدنا سعياً من مفكري ومؤرخي الحضارات الأخرى وراء نقل التجربة الحضاريـــــة المصرية وأركانها من فنون وعلوم، بل ولا أبالغ أن أضيف"وعقائد"، لتكون إضافة لبنـــاء حضاراتهم كما حدث من اليونان،والرومان اللذين سعى فلاسفتهم وأطباؤهم وعلماؤهم وراء دراسةأسباب ازدهارحضارة مصر الفرعونيـــة.ثم توالت الحقب والعصـــور،وتتابعت فترات الازدهار والتراجع الحضاري الذي تسببت فيه قوى استعمارية تعمدت تراجعهـــا، لكن المؤكد أن مصر عاشت في فترات التراجع الحضاري على تراث هذا الحضور ، وأعني به أصداء هذا الدور المصـــري المزدهر في الفترات التي سبقت هذا التراجـــع . ولكن هل استمرت مصر معتمدة على "تراث الحضور" هذا ؟.

أعتقد أن التوجه الحالي نحو تحديث أركان دولة الثقافة في مصر وكذلك النهضــــة التي تشهدها مجالات الثقافة المختلفة ، وعمليات الإحياء للعناصر الثقافية التي تمثلها الآثار والمخطوطات القديمة ، والفنون المصرية . . هو ما أعني به "حضور التراث" ..وأشد مـــا نكـــون إلى استمرار عمليات الإحياء هذه حتى تتوحد الدلالتان، رأس المقال، وبخاصـــة إحياء تراث مسرحنا العريق.



وزير الثقافة

مُقدّمة

كان من دواعي سروري؛ أن وافق الدكتور سامح مهران – رئيس المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية – على ترجمة هذا الكتاب ونشره باللغة العربية. وازدادت سعادتي أكثر عندما قام الدكتور حمادة إبراهيم بترجمته من الفرنسية إلى العربية؛ لأن من يقرأ ترجمات الدكتور حمادة؛ كأنه يقرأ إبداعاً عربياً، لا ترجمة عربية من لغة فرنسية.

والكتاب المُترجم هنا، هو مرجع فرنسي نادر عن شخصية (يعقوب صنوع)، نُشر في باريس سنة ١٨٨٦م. وعنوانه (مصر الساخرة : ألبوم أبو نظارة – نظرات ومحاضرات الشيخ أبو نظارة)، L'EGYPTE SATIRIQUE : ALBUM D'ABOU NADDARA - VISIONS ET CONFERENCES DU CHEIKH ABOU NADDARA، أما المؤلف فهو (بول دي بينيير Paul de Baignières)، وقد حصلت على صورة هذا الكتاب من الدكتورة نجوى عانوس، عندما كنت أعدّ كتابي (محاكمة مسرح يعقوب صنوع)، فلها مني جزيل الشكر.

وهذا الكتاب يُعد أول كتاب بلغة أجنبية يُكتب عن يعقوب صنوع، ويُنشر في فرنسا، أثناء وجود صنوع في باريس. لهذا السبب كان أهم مرجع لجميع الدراسات الأجنبية، التي كُتبت عن صنوع، ولبعض الدراسات العربية أيضاً. ولأن المركز القومي للمسرح، أخذ على عاتقه – منذ إنشائه – الحفاظ على تراث المسرح

المصري، بُغية إفادة الباحثين، اقترحت على رئيس المركز الدكتور سامح مهران، أن نضمّ إلى هذا الكتاب ترجمة المقالات الفرنسية المكتوبة عن حياة يعقوب صنوع ومسرحه، المنشورة في صحيفة (أبو نظارة) في القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، إضافة إلى مقالة مهمة نادرة، نشرتها جانيت تاجر – بالفرنسية أيضاً – عام ١٩٤٩م. وجميع هذه المقالات تتفق مع هدف الكتاب الأساسي المُترجم. أي إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، يضم ترجمة عن الفرنسية لكتاب، وعدة مقالات كُتبت عن حياة يعقوب صنوع ومسرحه في مصر وفرنسا، وإليك أيها القارئ الكريم نبذة عن محتويات الكتاب:

كتاب (ألبوم أبو نظارة) لبول دي بينيير – المنشور في فرنسا عام ١٨٨٦م – يشتمل على معلومات شخصية عن يعقوب صنوع ومسرحه، أثناء وجوده في مصر، حتى انتقاله إلى فرنسا عام ١٨٧٨م. كما سنجد أيضاً معلومات عن حياة صنوع في فرنسا، مثل: عمله في التدريس، وإصداره لصحيفته (أبو نظارة)، وسياحته في عدة دول أوروبية، وإلقائه بعض الخطب. بعد ذلك يطرق المؤلف غرضه الأساسي، وهو شرح بعض الصور الكاريكاتورية المنشورة في صحيفة صنوع (أبو نظارة)، مع وضع نماذج كثيرة من هذه الصور، وبذلك يكون المؤلف أتمّ النصف الأول من كتابه، وحقق عنوان (ألبوم أبو نظارة).

أما القسم الآخر – أو العنوان الآخر – وهو (نظرات ومحاضرات الشيخ أبو نظارة)، فهو ينقسم إلى جزئين : الأول (النظرات)، وجاء بعنوان (أبشع طغاة وادي النيل: توفيق وأبوه إسماعيل)، وهو عبارة عن مواقف خيالية، حاور فيها صنوع بعض الشخصيات، أمثال: محمد علي باشا الكبير، والخديوي إسماعيل، والخديوي توفيق، والأمير عبد الحليم. أما الجزء الآخر وهو المحاضرات، ففيه نشر المؤلف ثلاث محاضرات لصنوع، هي: مصر في القرن التاسع عشر، والغزو الإنجليزي، والمهدي.

أما المقالات التي أُضيفت إلى هذا الكتاب، فكانت : أولاً، مجموعة مقالات في شكل سلسلة – مكونة من عشر مقالات – نُشرت تحت عنوان (مصر في القرن التاسع عشر: قصة رجل محكوم عليه بالنفي)، بقلم السيد إيميه فانترينييه الموظف بوزارة المعارف العمومية. ونُشرت هذه السلسلة في صحيفه صنوع (أبو نظارة) من

عام ١٨٩٧م إلى ١٨٩٩م. وثانياً، مقالة (الحزب الوطني المصري) لعمـــر غالـــب، ونُشرت في صحيفة صنوع (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٩٧/٨/١٨. وثالثاً، مقالة (موليير مصر) لجاك شيلي، ونُشرت أيضاً في صحيفة صنوع (أبو نظـــارة) عـــام ١٩٠٦م. ورابعاً، مقالة صغيرة بقلم بونفال مدير صحيفة (أتينيه فرنسا)، عن صنوع بوصـــفه صحافياً ومحاضراً، نشرها صنوع في جريدته عام ١٩٠٦. وأخيراً، نجد مقالة جانيت تاجر (بدايات المسرح الحديث في مصر) المنشورة عام ١٩٤٩م، والمحفوظة بمكتبة دير الدومينكان بالقاهرة.

وتمثل عملي المتواضع في هذا الكتاب – فضلاً عن مقدمتـــه – فـــي دراســـة بعنوان (أسطورة لاعب القراقوز)، ناقشت فيها ما جاء في هذا الكتاب من معلومـــات عن حياة صنوع ومسرحه، وفق رؤية جديدة، استخلصتها من الجديد المُكتشف عـــن يعقوب صنوع. هذا بالإضافة إلى تعليقاتي في حواشي الكتاب السفلية بجانب العلامـــة (*) أو (**) أو (***). أو (****). وتنوعت هذه التعليقات بين: التوضيح، والتفـــسير، والإقرار، والتفنيد، والشرح، والمقارنة لبعض الأمور الفنية والتاريخية المتعلقة بمادة الكتاب.

والله ولي التوفيق

دكتور

سيد علي إسماعيل

الدوحة ٢٠٠٨/٦/٩م

أسطورة لاعب القراقوز

للدكتور

سيد علي إسماعيل

من خلال القراءة المتأنية لترجمة هذا الكتاب، وتعليقاتي التي جاءت في حواشيه – وكتاباتي السابقة عن صنوع ومسرحه – أستطيع أن أدلي بدلوي الجديد في الشخصية الأسطورية، التي شغلتني عشر سنوات، وهي شخصية يعقوب صنوع! والسبب في رؤيتي الجديدة، المعلومات الجديدة عن صنوع ومسرحه، التي تُرجمت في هذا الكتاب، وتعليقاتي عليها في الحواشي، مما جعل صورة صنوع أكثر ضبابية، وفي حاجة إلى إعادة رسمها من جديد، لتحديد ملامحها، خصوصاً أن هذا الكتاب، هو ترجمة لأقدم المصادر والمراجع الأجنبية – وتحديداً الفرنسية – التي كُتبت عن صنوع ومسرحه، والتي تُمثل أساس جميع الدراسات والأبحاث والكُتب، التي صُنفت حول حياة صنوع ومسرحه.

من هو ؟

يعقوب صنوع في هذا الكتاب: نبيّ غير مرسل .. يُوحي إليه .. وكلماته آيات، وصاحب كرامات ونبوءات، وعلم من أعلام مصر في القرن التاسع عشر، وخصم الخديوي إسماعيل، ومُفجر الثورة العُرابية، وباعث الروح الوطنية، ومُعلم أبناء مصر الحرية، وأستاذ النبلاء والأمراء، ورئيس الجمعيات الأدبية، وخطيب الخطباء، ورائد المسرح العربي، والمنفي من وطنه، والمُصادرة أملاكه، والمحكوم عليه بالإعدام،

والمُهدر دمه .. و .. و .. إنه مصر كلها في صورة رجل! ولكن: لو حاولت – عزيزي القارئ – معرفة : متى وُلد هذا الرجل الأسطوري، وما اسمه الحقيقي، وما أصله؟ .. لن تجد إجابة محددة!

فعن ميلاده .. ! ستجد أنه وُلد أربع مرات في أربع سنوات مختلفة : ١٨٢١، و١٨٢٩، و١٨٣٩، ١٨٤١م! ولو حاولت تستوثق من سنة واحدة، فلن تفلح لأن مرجعك في ذلك سيكون يعقوب صنوع نفسه، المدوِّن لهذه التواريخ في صحفه! وإذا أردت معرفة اسمه الحقيقي ستجد – في هذا الكتاب – أن اسمه الذي أُطلق عليه وقت ميلاده، هو (جاك)، ثم تجده غيرّه – من غير سبب – إلى (جيمس)، وأخيراً استقرّ على اسمه المعروف (يعقوب صنوع) ! وإذا أردت معرفة أصله، ستجد عبارة غريبة في هذا الكتاب تقول: إنه " مصري الأصل، من دم مصري خالص "! والسؤال الآن: هل هناك مصري – في هذا الزمن – يؤكد مصريته بهذه العبارة ؟! أم أنها عبارة عفوية خرجت من إنسان، يشعر بعقدة النقص لكونه غير مصري، فحاول إثبات مصريته بهذه العبارة والتأكيد عليها ! والدليل على ذلك أنه كررها مرتين في صحفه المنشورة – قبل ذلك – الأولى ذكرها عام ١٨٧٨م – عندما كان في القاهرة – قائلاً: " لم أزل مصرياً " ! والأخرى ذكرها عام ١٨٧٩م – عندما كان في فرنسا – قائلاً: "أنا مصري ابن مصري "!

والسؤال الآن: أين الحقيقة في تاريخ ميلاد صنوع ؟! ولماذا تعمد صنوع إخفاء تاريخ ميلاده الحقيقي، وكتب – وأعطى كُتّابه وأصدقاءه – أكثر من تاريخ ميلاد له؟! تُرى هل كان يقصد ذلك؛ لعدم معرفة تاريخ ميلاده، أو أصل مولده ؟! وأسماؤه المتعددة .. هل كان يقصد من ورائها، عدم معرفة شخصيته الحقيقية ؟! وتأكيد مصريته .. هل كان يخشى من خبر جريدة الجوائب سنة ١٨٧٢م، الخاص بجيمس الإنجليزي، الذي عرض عرضاً مسرحياً عربياً بالأزبكية ؟ وهل صنوع فعلاً كان إنجليزياً ؟!

صنوع أستاذاً

سنقرأ في هذا الكتاب أن صنوعاً كان يعمل – في مصر – مدرساً لأبناء الأعيان والباشوات والأمراء. وإذا عُدنا إلى ما كتبه بنفسه في صحفه المنشورة في مصر حول عمله هذا، سنجد بتاريخ ١٨٧٨/٥/٢م، محاورة منشورة بين أبي نظارة

ويوسف رملة، قال أبو نظارة له: " أنا رجل مدرس ألسن شرقية وغربية على باب الله". وبتاريخ ١٨٧٨/٥/١٨م، محاورة منشورة بين أبي العينين وأبي الشكر، وفيها سأل أبو العينين عن أبي نظارة، فأجابه أبو الشكر، قائلاً : " من الصبح للظهر داير على زباينه يعلمهم ألسن قراءة وكتابة ". فهل هذه الأقوال توحي أن تلاميذ صنوع من أصحاب السمو والفخامة، أم من عامة الشعب ؟! وهل هذا الكلام يوحي أن صنوعاً مدرس بالفعل، أو مدرس جوّال على شاكلة مدرسي الكتاتيب ؟!

الإشكالية ليست في هذه النقطة! الإشكالية أنه قال بعد ذلك – عندما سافر إلى فرنسا – أنه كان – في مصر – مدرساً أوّل في مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة)، حيث أمضى بها بضع سنين، ولكن الخديوي إسماعيل فصله منها، ونقرأ في موضع آخر أن علي باشا مبارك هو الذي فصله! وهذه القصة تكررت كثيراً في هذا الكتاب! وفي كثير من تعليقاتي في الحواشي، فندت هذا الأمر، ووصلت إلى نتيجة مفادها: أن صنوعاً لم يكن أستاذاً في هذه المدرسة، بل كان تلميذاً بها، وهذا بناءً على أقوال صنوع نفسه! والسؤال الآن: لماذا أدّعى صنوع – وهو في فرنسا – أنه كان يعمل في مصر أستاذاً في هذه المدرسة ؟! الإجابة – من وجهة نظري – يسيرة : فهذه المدرسة تخرّج فيها الزعيم أحمد عُرابي ورفقاؤه، وعندما يدّعي صنوع إنه كان أستاذاً في هذه المدرسة، فهذا يعني أنه كان أستاذاً للزعيم أحمد عُرابي ورفقائه، وبذلك يكون صنوع – بوصفه أستاذاً لهم – مُفجر الثورة العُرابية، ومُحركها الأول، وأن زعماء الثورة العُرابية، تشربوا منه روح الثورة !!

والغريب أن هذا التفسير، لاقى رواجاً كبيراً بين دارسي صنوع، فصدقوه، وأثبتوه في دراساتهم، أمثال الدكتور لويس عوض، الذي قال: " إن صنوعاً كان حلقة الوصل بين الأمير حليم وزعماء الحزب الوطني من جهة، وبين العرابيين من جهة أخرى"! ولو تمعن أي باحث في هذه الأقوال، وقرأ وبحث في مذكرات عُرابي، أو المقالات، أو الكُتب التي كُتبت عن الثورة العُرابية وحولها، لن يجد كلمة واحدة عن صنوع، أو عن دوره، أو عن علاقته بعُرابي أو بثورته. وإن وُجدت هذه الكلمة، ستكون منقولة من كتابات صنوع، أو من أصدقائه، أو من دارسيه ممن عاونوه – بقصد أو بغير قصد – لترسيخ دوره الوطني المُتخيل !

هل توقف عمل صنوع في مجال التدريس عند هذا الحد! لا .. ففي هذا الكتاب سنقرأ أن صنوعاً كان – أيضاً – مفتشاً بالمدارس الحكومية المصرية! ووجهة نظري في هذه الأقوال، أن صنوعاً لم يكن تلميذاً مصرياً ! فلو حصل على شهادة الابتدائية – مثلاً في عهد سعيد باشا، أو في عهد الخديوي إسماعيل – لأصبح موظفاً مرموقاً، ذا شأن عظيم، وكنا سمعنا عنه وعن أفعاله. فما بالنا لو كان أستاذاً في المهندسخانة، وما شأن حاله لو كان مفتشاً بالمدارس الحكومية المصرية! الواضح – من وجهة نظري – أن صنوعاً كان غير موفق في تعليمه، فلم يحصل على أية شهادة – حتى ولو كانت الابتدائية – فعوّض هذا النقص بهذه الإدعاءات، بدليل أننا لم نعرف تلميذاً واحداً من تلاميذ صنوع! بل ولم نجد فيما كُتب في هذا الزمان – من مقالات أو مذكرات أو يوميات – أن أحداً قال إنه تتلمذ على يد صنوع، أو أنه عرف صنوعاً بوصفه مدرساً، أو أنه شاهد صنوعاً يقوم بالتدريس ؟!

صنوع و الخديوي

سنقرأ في هذا الكتاب أن صنوعاً مثّل مجموعة مسرحيات عربية أمام الخديوي إسماعيل – وبحضور كبار القوم – وعلى مسرحه الخاص بقصر النيل عام ١٨٧٠، وعلى مسرح الكوميدي الفرنسي عام ١٨٧١م. وعندما أُعجب الخديوي بهذه العروض منح صنوعاً لقب (موليير مصر) ! وعلى الرغم من أننا سنعود إلى مسرح صنوع لاحقاً، إلا أننا سنطرح هذا السؤال: هل من الممكن أن تُقام عروض مسرحية في قصر الخديوي – أو في الكوميدي الفرنسي – وفي حضور كبار القوم، وفي مقدمتهم الخديوي شخصياً، الذي يمنح لقباً لصنوع .. ولم تهتم أيه صحيفة – مصرية أو عربية – بهذا الحدث، بوصفه مادة صحفية فنية جديرة بالتسجيل والتوثيق ؟!

ولو حدث هذا: فأي مُسوغ من الممكن أن يُقبل لمجلة وادي النيل على تجاهل هذه العروض المسرحية، ونشر مقالة عن افتتاح الملاعب الخيلية في يناير ١٨٧١م؟! وأي تفسير من الممكن قبوله لتجاهل جريدة الجوائب لهذه العروض، وفي الوقت نفسه نجدها تنشر أخباراً عن عروض الأوبرا والكوميدي الفرنسي في إبريل ١٨٧١م ؟! وأي منطق من الممكن قبوله لتجاهل مجلة الجنة لهذه العروض، واهتمامها في الوقت نفسه بعرض مسرحي أُقيم في مدرسة الفرير بالإسكندرية في سبتمبر ١٨٧١م ؟! وأي

حجة من الممكن قبولها لتجاهل مجلة الجنان لهذه العروض، واهتمامها في الوقت نفسه بعروض حفلات حلوان الترفيهية في نوفمبر ١٨٧١م ؟!

سنقرأ أيضاً في هذا الكتاب أن صنوعاً – بعد إغلاق مسرحه عام ١٨٧٢م – أصدر في مصر جريدته (أبو نظارة) عام ١٨٧٨م، وبعد صدور العدد الخامس عشر، أصدر الخديوي إسماعيل أمراً بإلغائها. وهذه الصحيفة لها وجود بالفعل في مصر، ولكن قصة إلغائها من قبل الخديوي لم نعلمها إلا من خلال أقوال صنوع وحده، وما جاء عنها في هذا الكتاب! وبالبحث وجدنا أن صنوعاً أصدر عدده الأول من الصحيفة يوم ٢١ ربيع أول سنة ١٢٩٥ هـ، الموافق ١٨٧٨/٣/٢٥. والعدد الأخير – الخامس عشر – يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هـ، الموافق ١٨٧٨/٥/١٨. وبالبحث الدقيق، لم نجد دليلاً واحداً عن إلغاء هذه الصحيفة، أو مصادرتها من قبل الخديوي، أو من قبل أية جهة أخرى !

والمعروف – في هذه الفترة – أن خبر مصادرة أية صحيفة في مصر، كان يتصدر الصفحات الأولى في بقية الصحف، مع التعليق على أسلوب الصحيفة المصادرة، وأسباب مصادرتها، خصوصاً وإن كانت المصادرة من قبل الخديوي. فهل يتصور القارئ أن خبر مصادرة صحيفة صنوع لا وجود له فى أية صحيفة مصرية طوال عام ١٨٧٨م، وما قبله وما بعده ؟! وأكبر دليل على ذلك، ما ذكره د.إبراهيم عبده – ناشر مذكرات صنوع – عن هذه المصادرة قائلاً في كتابه – (تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، مطبعة التوكل، ١٩٤٤، ص٢٧٤/٣٧٨) – : " وما كان يمكن أن يحتمل إسماعيل وبطانته صحافة من هذا اللون فأغلق جريدة يعقوب صنوع .... وقد بقى صنوع وحده فى فرنسا إلى أن زامله أديب إسحق في عهد الخديوي توفيق، فقد أغلقت صحيفتاه (مصر والتجارة)". وعندما ذكر الدكتور خبر إغلاق صحيفتي أديب إسحاق – مصر والتجارة – وثّق هذا الخبر من خلال جريدة الوطن في ١٨٧٩/١١/٢٢، التي نشرت خبر المصادرة.

وهنا نطرح هذا السؤال: لماذا لم يوثق د.إبراهيم عبده أيضاً خبر مصادرة صحيفة صنوع أسوة بصحيفتي أديب إسحاق ؟! الإجابة تتمثل في أن هذه المصادرة لم تتحدث عنها أية صحيفة؛ لأنها كانت من خيال صنوع نفسه، وليس لها أي أساس أو تاريخ في مصر ! وكل ما في الأمر، أن صنوعاً أغلق صحيفته بنفسه، لأن عرضاً

جديداً جاءه من وليّ نعمته الأمير حليم، كي يتابع إصدار صحيفته من باريس، ويخصصها للهجوم على الخديوي إسماعيل، بوصفه العدو الأول للأمير حليم، بسبب اغتصاب حق الأمير في الخديوية! والأدلة على ذلك كثيرة، يُمكن الرجوع إليها في تعليقاتي بحواشي هذا الكتاب.

لم تتوقف ادعاءات صنوع في علاقته بالخديوي إسماعيل إلى هذا الحد، بل ادعى أن الخديوي دبر محاولات لاغتياله، بعد مصادرة جريدته – كما سنقرأ في هذا الكتاب – مرة بالقهوة المسمومة، ومرة أخرى عندما كان يتنزه في شبرا، عندما هاجمه أحد أعوان الخديوي بسكين، ومرة أخيرة بطلق ناري لم يصبه، ولكنه أصاب باب منزله! وهذه القصص الخيالية لم نقرأ عنها إلا في أقوال صنوع – وفي هذا الكتاب – فقط، ولم يظهر دليل واحد على حدوثها حتى الآن ! ومن الواضح أن صنوعاً ألفّ هذه القصص الخيالية المتعلقة بالخديوي إسماعيل، لعدة أسباب، منها: إيهام قُراء جريدته بحقه في الهجوم على الخديوي إسماعيل، انتقاماً منه. وإقناع الأمير حليم المُمول المالي لجريدته؛ أنه كُفؤٌ ليكون عميلاً له ضد عدوه اللدود الخديوي إسماعيل. وتعظيم شأنه – وتضخيم مركزه – أمام الناس والقُراء في فرنسا؛ أنه كان – في مصر – خصماً للخديوي إسماعيل! ومما ساعده في ذلك، أن جميع كتاباته عن الخديوي إسماعيل، نشرها في صحفه بعد تاريخين مهمين: الأول بعد عزل الخديوي إسماعيل سنة ١٨٧٩م، والأخر بعد وفاة الخديوي إسماعيل سنة ١٨٩٥م، وبذلك ضمن عدم تكذيبه !!

تكوين الأسطورة

الأمور السابقة، كانت مجرد خطوط لأسطورة صنوع، وآن الآوان لإضافة مبالغات أخرى، حتى تكتمل هذه الأسطورة ! ففي هذا الكتاب سنقرأ أن صنوعاً كوّن محفلين– أو جمعيتين أدبيتين سياسيتين – وهذه القصة ذكرها صنوع في صحفه – قبل نشرها في هذا الكتاب – عام ١٨٧٩م، قائلاً: "وعملت لي جمعيتين علم للشبان. الأولى دعيتها محفل المتقدمين. والثانية جمعية الخلان. وكانوا يحضروا جمعية الخلان ناس عظام ومشايخ الأزهر الكرام ونور العلم الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني فصيح اللسان وظريف المعاني وكان هو وهم يتلوا علينا مقالات عظام. درجت أغلبهم في صحيفتها الأهرام. فلما وصل الخبر إلى

فرعون [يقصد الخديوي إسماعيل] زعق ودبدب كالمجنون وحرّج من تحت لتحت على المشايخ والمستخدمين بأنهم لا يجتمعوا ليلاً في محافل وإلا يصيروا مرفوتين. فطبعاً انقفلت الجمعية الداعية للتمدن والحرية ".

وحتى الآن، لم نجد باحثاً واحداً، استطاع أن يثبت بدليل واحد أن صنوعاً كوّن جمعية واحدة من هاتين الجمعيتين! ولم نجد خبراً واحداً معاصراً للأحداث يشير إلى هذا الموضوع. وبالرغُم من ذلك، يصعب على أي باحث الحديث عن هذا الموضوع بعيداً عن أقوال صنوع، لأنها المصدر الوحيد. ولكن إذا أمعنا النظر في قول صنوع السابق، سنجد فيه بعض الأدلة التي ترشدنا إلى حقيقة الأمر! فقد ذكر أن جريدة الأهرام نشرت مقالات هذين المحفلين! ولكننا لم نجد سطراً واحداً في جريدة الأهرام، يشير إلى هذا الأمر! كما أن الدكتور إبراهيم عبده – ناشر مذكرات صنوع – اطلع على جميع أعداد جريدة الأهرام، وكتب كتاباً ضخماً بعنوان (جريدة الأهرام : تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة)، ولم يجد إشارة واحدة عن محفلي صنوع؛ كي يعضد كلام صنوع في هذا الشأن! وبالمنطق نفسه نقول : إذا كانت جريدة الأهرام ذكرت أية إشارة عن محفلي صنوع، لكان أثبتها د.محمد يوسف نجم، عندما تحدث عن صنوع في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث)؛ لأن اعتماده الأساسي في مراجع هذا الكتاب، كان على جريدة الأهرام منذ صدورها!

أما قول صنوع إن الشيخ جمال الدين الأفغاني كان ضمن أعضاء هذين المحفلين! فهذا القول كان القشة التي قصمت ظهر البعير! ففي عام ١٨٧٩م خطب الأفغاني – في مصر – خطبة عامة تحدث فيها عن موضوع (تربية الأمم)، موضحاً الأثر الإيجابي للصحف على الأمة العربية. وفي هذه الخطبة، ذم الأفغاني يعقوب صنوع وصحيفته ذماً شديداً، ونفى أية علاقة تربطه به، فقام الشيخ محمد عبده بنشر هذه الخطبة، وشرح ما فيها – في جريدة التجارة المصرية بتاريخ ١٨٧٩/٦/٣ – حتى وصل في شرحه إلى صحيفة صنوع، قائلاً عنها وعن صاحبها:

> " .... جرنال أبي نظارة. ذاك الجرنال الهزأة الذي لم يدع قبيحة من القبائح إلا احتواها ولا رذيلة من الرذائل إلا أحصاها. أتى من العبارات ما لا يستطيع السوقة وأدنياء الناس أن يأتوا به. وجعل ديدنه السب والثلب وثلم الأعراض وتمزيق حجاب الإنسانية والقدح في السير

الشخصية بما لا يليق أن يتفوه به الصبيان، مما يفسد الأخلاق ويذيب ماء الوجوه خجلاً وحياءً .... مع إنه لا يحتوى على سياسة ولا أخبار ولا مضحكات ولا فكاهات، بل هو محض الشتم واللطم .... ولم يكن ذلك من محرر هذا الجرنال الهزء البارد إلا لدناءة الطبع والميل إلى كسب الدنانير والدراهم .... ولقد تغالى منشئه في الوقاحة حتى أشار في كتاباته وخزعبلاته أن أبناء المجامع المقدسة ذات المقاصد العالية المبنية على محض الأدب والإنسانية هم مشاركوه في عمله هذا. حاشاهم حاشاهم أن تتدانى همتهم لهذه المقاصد السافلة فقد كذب وافترى واعتسف واعتدى "!

ومن الأمور التي استدرّ بها صنوع عطف الفرنسيين عليه، ادعاؤه أن الخديوي إسماعيل نفاه من مصر! وهذه القصة سنقرأ عنها في هذا الكتاب كثيراً، كما أنها منتشرة في جميع الدراسات التي كُتبت عن صنوع! والحقيقة أن صنوعاً تحدث عن هذا الأمر كثيراً في محاورات صحفه، ولكن بصورة متناقضة! فتارة يقول إنه نُفي إلى فرنسا، وتارة أخرى يقول إنه سافر إليها! وربما يقول القارئ إن هذه الأقوال غير صريحة، لأنها جاءت ضمن محاورات فكاهية صحفية! والرد على هذا الاحتمال يتمثل في قول صنوع الصريح الذي ذكره في مقدمة كتابه (البدائع المعرضية بباريس البهية) عام ١٨٩٩م، قائلاً : ".... كل إنسان له مشرب لا يشبه الآخر وإن كان من أب وأم واحدة وكان مشربي القيام بالدفاع عن الإنسانية ولذلك لما لم يرضني الاستبداد الذي كان جارٍ بالديار المصرية هجرت أوطاني واخترت عاصمة باريس مستقراً ومسكناً وكان إذ ذاك في زمن معرض سنة ١٨٧٨م، مضى عليه عشرون عاماً ". وهذا يعنى أن يعقوب صنوع لم ينفَ من مصر، بل سافر إلى باريس بمحض إرادته.

وإذا كان الدليل السابق، هو دليل نقلي، فإليك أيها القارئ الدليل العقلي: ذكر صنوع في مذكراته – المنشورة في كتاب الدكتور إبراهيم عبده (أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، مكتبة الآداب، ١٩٥٣م، ص٦٠) – إنه نُفي إلى فرنسا يوم ١٨٧٨/٦/٢٢م. وإذا علمنا أن العدد الأول من صحيفته في باريس صدر بتاريخ ١٨٧٨/٨/٧م، سيتضح لنا أن يعقوب صنوع سافر ولم يُنف! لأن من غير المعقول، أن منفياً إلى فرنسا يستطيع إصدار صحيفة بعد نفيه بشهر ونصف! فهذه الفترة من الممكن أن تمر على المنفيّ من غير أن يجد له عملاً

يقتات به! هذا بالإضافة إلى أن الصحف المصرية في ذلك الوقت لم تأتِ بأية إشارة، أو خبر عن نفيه! فمن المؤكد أن يعقوب صنوع سافر بمحض إرادته. ومن غير المستبعد أن يكون وهو في مصر، قد اتفق مع آخرين – من أعوان الأمير حليم – على عمله وإصدار صحيفته في فرنسا، للهجوم على الخديوي إسماعيل. والدليل على ذلك، أنه في آخر عدد من صحيفته في مصر بتاريخ ١٨٧٨/٥/١٨م – وقبل سفره إلى فرنسا – قال (إنه مسافر باريس)! فكيف عرف صنوع إنه سُينفى قبل إصدار أمر النفي بشهر تقريباً ؟! هل كان يعلم الغيب ؟!

وإذا كانت قصة نفي صنوع من مصر قصة منتشرة في كتابات صنوع ودارسيه، إلا أن الجديد في هذا الكتاب، أن البعض سيقول إن أملاكه في مصر تمت مصادرتها، وكان دمه مُهدراً، وحُكم عليه بالإعدام ! علماً بأننا لم نسمع أن صنوعاً كان صاحب أملاك! وكيف هذا؟ وهو الذي طالما كان – في صحفه – يشتكي من قلة زاد اليد، وكان يدور على البيوت لإعطاء الدروس الخصوصية لأولاد الفقراء. أما إهدار دمه، والحُكم عليه بالإعدام .. فهما من الأمور التي تدعو إلى الضحك بسخرية، لأنهما أداتان من أدوات صنوع في استدرار عطف الآخرين، وبالتالي ترسيخ وجوده في المجتمع الفرنسي.

ومما سبق يتضح، أن ترجمة المادة المنشورة في هذا الكتاب، شكّلت صورة صنوع أنه أستاذ الأمراء والوطنيين، ومُفجر الثورة العُرابية، وباعث روح الوطنية في ضباطها، وخصم الخديوي، والمُتعرض لمحاولات الاغتيال، والمنفي من وطنه، والمُصادرة أملاكه، والمُهدر دمه ! ورغم ذلك فهو مازال على قيد الحياة ! إذن فهو إنسان غير عادي ! إنه نبيّ غير مرسل .. يُوحي إليه .. وكلماته آيات !! هذه ليست أوصافي .. بل هي أوصاف سنقرأها في هذا الكتاب عن صنوع !! لأنه تنبأ بنفي الخديوي إسماعيل، قبل نفيه بسنة !

وحقيقة هذه النبوءة، إنها خرافة من خرافات صنوع ! لأن قصة هذه النبوءة لم يذكرها صنوع – قبل نشر كتاب بول دوبينيير سنة ١٨٨٦م – إلا مرة واحدة في عدد جريدته (أبو النظارة) المنشورة في باريس بتاريخ ١٨٧٩/٧/١م، قائلاً: " التزمت أسافر من وطني العزيز [أي إنه لم يُنفَ] وأقيم بين الأجانب بباريز. إنما في سبعة وعشرين يونيو سنة ثمانية وسبعين، يعني منذ سنة تمام قلت للحاضرين ببورصة

إسكندرية من الشبان الظراف الأفاضل الشرفاء اللطاف، بأن لا تمضي من اليوم سنة تمام إلا ويكون أشرف على السقوط الظالم ابن الحرام [يقصد الخديوي إسماعيل]. ومنذ أربعة أيام قبلها بالتنازل. أمروه الفرنساوي والإنكليزي". هذا الكلام نشره صنوع بعد عزل الخديوي إسماعيل بعدة أيام! والسؤال الآن: إذا كانت هذه نبوءة قالها بالفعل صنوع، فلماذا لم ينشرها في صحفه طوال عشرة أشهر قبل عزل إسماعيل، حتى نصدقها بوصفها نبوءة، قرأنا عنها قبل حدوثها، لا بعد حدوثها ؟!

لم يكتفِ صنوع بادعائه قصة هذه النبوءة، بل استغلها فيما بعد ليضفي على نفسه صفة الأولياء الصالحين. ففي عدد جريدته بتاريخ ١٨٨٧/١/٢٢م، كتب جزءاً من حياته، تحت عنوان (ترجمة حال أبي نظارة خادم الحرية)، قال فيه: " قلت للأخوان يوم رحيلي من الأوطان: قلبي يحدثني بأن زي اليوم بعد سنة. يُطرد مثلي إسماعيل من هنا. فلبى ربي دعوتي وانطرد إسماعيل. شوفوا يا أخوتي. وأتتني الجوابات من كل خلاّني وهي تلقبني بالوليّ". ورسّخ صنوع هذا المعنى بنشره مرة أخرى في جريدته بتاريخ ١٨٩٦/٥/١٤م، حيث جاء في هذا العدد عن الشيخ أبو نظارة: "... وله فكر ثاقب ورأي صائب أخترق طباق النوائب. فلقد قال يوم خروجه من مصر. لأحبائه وخلانه وكانوا يأسفون على ما لحقه من الضرّ. كما سلكت الآن طريق الإبعاد والغربة يسلكه إسماعيل باشا بعد سنة وتلحقه الكربة. لأنه أبعدني عن هذه الديار. لوقوفي بالذب عن الحرية في مصاف الأحرار فصادف قوله الصواب. وحفظ له حق الصدق بالقطر المصري لدى أولي الألباب ".

وأخيراً صَدّق صنوع ادعاءه، ونسى تماماً أنه من اختراعه، فشرد بخياله وتوهم أنه أحد الأولياء من أصحاب النبوءات، فسرد هذا الزعم في مذكراته المخطوطة – التي نشرها الدكتور إبراهيم عبده – في كتابه (أبو نظارة أمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، ص٦١) – قائلاً: " وفي اليوم التالي حوالي الظهر ركبت السفينة (فريسينيه FREYCINET) التي أقلعت بي إلى مارسيليا. لقد كان المشهد جليلاً. وقد أراد الخديوي أن يراني بنفسه وأنا أغادر البلاد فمرّ راكباً عربته وقد أحاط به حراسه، في الوقت الذي نزلت فيه إلى الزورق الذي سينقلني إلى السفينة. ولم تجرؤ الجماهير على الهتاف بـ(يسقط إسماعيل) لكثرة عدد رجال الشرطة، فأخذت تصيح (ليحيى أبو نظارة) وتعالت النداءات بعد ذلك (نريد نبوءة منك

أيها الشيخ). وأعترف أنني احترت فيما يجب عليّ أن أقوله. ولكني شعرت كأن وحياً ألهمني ووضع في فمي تلك العبارة: سوف يُنفى إسماعيل بعد سنة كما أُنفى أنا اليوم. وقد شاءت المصادفات أن تتحقق نبوءتي حرفياً مما جعل الناس في الشرق كله يلقبونني بالوليّ ". هذه هي أقوال صنوع وأوهامه، ومع الأسف، فإن معظم من كتبوا عنه؛ صدقوا هذه الادعاءات، ورسخوها في كتاباتهم، فأصبحت من المسلمات !!



الشيخ أبو نظارة (يعقوب صنوع)

وأرجو أيها القارئ ألا تنزعج عندما تقرأ في هذا الكتاب وصفاً لصنوع أنه (سليل الرسول) !! ولا تبتهج عندما تشاهد صورته مرتدياً العمامة والجبّة والقفطان ويُلقب بـ(الشيخ) ! ولا يغرنك كلامه الذي يبدؤه بالبسملة ! ولا تتعجب من أن والدته وهبته للإسلام عند مولده ! ولا تفرح عندما يُضمّن نظراته المنشورة بعض الآيات القرآنية ! ولا تسعد عندما تقرأ في بعض الدراسات أنه كان مسلماً ! لأن يعقوب صنوع عاش يهودياً، ومات يهودياً، ودُفن في مقابر اليهود في باريس سنة ١٩١٢م. وما مظاهر الإسلام التي كان يتحلى بها، إلا مظاهر خادعة يجذب بها الناس من حوله، متظاهراً بالسماحة الدينية من أجل مآرب أخرى ! فعندما ظن فيليب طرازي خطأً عام ١٩١١م أن صنوعاً مسلم – أثناء إعداده لسيرة صنوع من أجل نشرها في كتابه (تاريخ الصحافة العربية) – كتب له صنوع خطاباً – أوردنا توثيقه في تعليقات الحواشي – صوّب فيه الأمر، قائلاً: " قلت في ابتداء الصفحة الثانية (فتبع الفتى حينئذ دين الإسلام) المرجو حذف هذا لأني لم أغيّر اعتقاد والديّ ... إني من بني إسرائيل"!

انتشار الأسطورة

وهكذا كتب صنوع أسطورته بنفسه! ولا بُدّ الآن من ترسيخها في أذهان الناس، وانتشارها بين القُراء، ووصولها إلى الدارسين ! ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟! لا بُدّ من استكتاب آخرين – أو تكليف بعض الأصدقاء، والمعارف – لينشروا أسطورة الرجل ! هكذا فكرّ صنوع فيما أعتقد ! ولنضرب أمثلة بمادة هذا الكتاب المُترجم، باعتبارها أدلة على ما نعتقده !

كما قلنا من قبل أن الكتاب – الذي بين أيدينا – هو ترجمة كتاب بول دي بينيير (ألبوم أبو نظارة) المنشور بالفرنسية عام ١٨٨٦م، وسلسلة مقالات فرنسية كتبها إيميه فانترينييه تحت عنوان (قصة رجل محكوم عليه بالنفي)، نُشرت بين عامي ١٨٩٧ – ١٨٩٩م. ومقالة (موليير مصر) لجاك شيلي المنشورة بالفرنسية عام ١٩٠٦م. وهذه المواد هي أهم مواد الكتاب، لأنها كُتبت ونُشرت في حياة صنوع.

ولنبدأ بمؤلف كتاب (ألبوم أبو نظارة) بول دي بينيير، ونسأل: هل هذا المؤلف له علاقة بصنوع ؟! سنجد الإجابة في أول صفحة من الكتاب، حيث يقول بول: " أبو نظارة فهو من المعجبين جداً بصورنا الشعبية "! وهذا يعني أن بول دي بينيير رسام،

وأن صنوعاً معجب برسوماته – وليس المقصود الصور الفوتوغرافية تبعاً لسياق الموضوع في الكتاب – ولكن هذا الإعجاب لا يُعد دليلاً على أن بول دي بينيير كان عوناً على انتشار أسطورة صنوع، حتى ولو كتب كتاباً كاملاً عنه ! ولكن يا تُرى سيكون هذا رأينا لو علمنا أن بول دي بينيير هو رسام جريدة (أبو نظارة) لصاحبها صنوع عام ١٨٨٦م، وهو العام نفسه، الذي أصدر فيه بول كتابه (ألبوم أبو نظارة)؟! والدليل على ذلك أن بول دي بينيير كتب في بداية كتابه الآتي: " المراسلات وطلب النسخ باسم المؤلف على العنوان التالي : مكتبة لوفيبفر ٨٧-٨٩ مُمّر القاهرة، باريس". وهذا العنوان، هو عنوان جريدة (أبو نظارة) في باريس، وكان صنوع يضعه في نهاية كل عدد من أعداد جريدته طوال عام ١٨٨٦م ! وهكذا يتضح أن بول دي بينيير كان أحد العاملين في جريدة (أبو نظارة)؛ وتحديداً هو رسام الجريدة !

وربما يسأل القارئ قائلاً: ما الضرر في كون بول دي بينيير رساماً لجريدة صنوع، أو عاملاً لديه، أو من أصدقائه، أليست المادة المنشورة صحيحة، وأن كاتبها بول بالفعل ؟! الإجابة على هذا السؤال تقول: أن بول دي بينيير قسّم كتابه إلى ثلاثة أقسام: الأول بعنوان (ألبوم أبو نظارة)، والثاني نظرات صنوع، والثالث خطب صنوع. وفي القسم الأول، كتب بول دي بينيير مقدمة طويلة عن حياة صنوع في مصر وفرنسا، اعتمد – في جانب كبير منها – على مذكرات صنوع المنشورة في صحيفة أبو نظارة، وفي مواضع قليلة جداً اعتمد على مقالة جريدة (الستاردي ريفيو) عام ١٨٧٩م – وسنتوقف عندها كثيراً فيما بعد – وبقية القسم عبارة عن تعليقاته على صور جريدة صنوع في عشر سنوات. أما القسم الثاني فهو نظرات صنوع بقلمه، والقسم الأخير كان خطب صنوع نفسه. أي أن صنوعاً كتب أغلب أقسام الكتاب، إن لم يكن الكتاب بأكمله! وبذلك أصبح هناك كتاب باللغة الفرنسية منشور سنة ١٨٨٦م عن يعقوب صنوع، مؤلفه هو بول دي بينيير! ذلك الكتاب الذي أصبح أول المراجع وأهمها في معظم الدراسات الأجنبية والعربية، التي كُتبت عن صنوع !! وهذا الأمر فعله صنوع أيضاً مع (جاستون لفيبفر)، الذي كتب مقالتين في هذا الكتاب ! ولفيبفر هذا، هو مدير مطبعة جريدة أبو نظارة، وكان دائماً يكتب مقدمات لمجموع الجريدة، عندما تُطبع في مجموعات سنوية، مثل مجموعة عام ١٨٨٩، وعام ١٨٩٠م.

أما سلسلة المقالات العشر، التي كتبها إيميه فانترينييه – عن قصة حياة صنوع – تحت عنوان (قصة رجل محكوم عليه بالنفي) – المنشورة في صحف صنوع بفرنسا بين عامي ١٨٩٧/١٨٩٩م – فكاتبها لا نعرف عنه شيئاً ! ومن وجهة نظرنا، نشك في وجود رجل بهذا الاسم يعمل بوزارة المعارف العمومية في مصر – كما جاء في عنوان المقالات – ويسب حُكام مصر في مقالاته، وينشر اسمه صراحة! وبناء على ذلك نقول: إن كاتب هذه المقالات، ربما يكون يعقوب صنوع نفسه – أو أحد معاونيه من محرري جريدته – بدليل أنها مقالات منشورة في صحفه، وبها أمور شخصية وحياتية، لا يعلم تفاصيلها إلا صنوع نفسه. وتأكيداً على ذلك، أن مقالات إيميه فانترينييه، هي إعادة صياغة لمذكرات صنوع المنشورة في صحفه قبل أن تُنشر باسم إيميه فانترينييه !! وبهذا الفعل أصبح لصنوع مرجع جديد لحياته بقلم إيميه فانترينييه، وهذا المرجع اعتمده دارسو صنوع من الأجانب والعرب !!

وتُعتبر مقالة (موليير مصر) لجاك شيلي، هي آخر مقالة تُكتب بالفرنسية عن صنوع في حياته، وتُنشر كذلك في صحيفته (أبو نظارة) عام ١٩٠٦م. وهذه المقالة عندما نشرها صنوع، قدّم لها بكلمة قال فيها: " زميلنا العزيز السيد جاك شيلي، رئيس تحرير مجلة (لافون سين) وكاتب المقال التالي – وقبل نشره – تفضل بإرساله إلينا لكي يكون لنا سبق تقديمه لقرائنا وأصدقائنا. ونحن من جانبنا نقدم له جزيل الشكر والعرفان على هذه اللفتة الرقيقة"! وهنا نسأل: هل جاك شيلي باعتباره رئيساً لتحرير صحيفة فرنسية، عندما كان يكتب مقالة، يقوم بإرسالها – قبل نشرها – إلى من يكتب عنه ؟! واللافت للنظر، أن هذه المقالة لم تُنشر إلا في صحيفة صنوع فقط !

والسؤال الآخر: هل هذه المقالة كتبها فعلاً جاك شيلي ؟! الحقيقة أن دور جاك شيلي في هذه المقالة كان عبارة عن تعريف القارئ بصنوع في عدة أسطر، من خلال معلومات معروفة، ومنشورة في صحف صنوع ! أما المقالة بأكملها، التي تتحدث عن مسرح صنوع، فإن كاتبها يعقوب صنوع نفسه ! لأن المقالة عبارة عن محاضرة ألقاها صنوع عن مسرحه عام ١٩٠٢م، ونصها المكتوب، هو المنشور في هذه المقالة! فأين دور جاك شيلي في هذا كله ؟! والمُستغرب أن هذه المقالة، كانت من أهم المراجع وأقواها لدى الدارسين !

والجدير بالذكر، إننا اكتشافنا أن مقالة جاك شيلي، هي نفسها مذكرات صنوع التي نشرها الدكتور إبراهيم عبده في كتابه (أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر) عام ١٩٥٣م، وهي أيضاً مذكرات صنوع التي نشر مقتطفات منها الدكتور أنور لوقا في دراسته (مسرح يعقوب صنوع) بمجلة المجلة عام ١٩٦١م، وهي أخيراً مذكرات صنوع المنشورة في مُلحق كتاب الدكتور فيليب سادجروف (المسرح المصري في القرن التاسع عشر) ١٩٩٦م !

وهكذا يتضح لنا أن أقدم المراجع المكتوبة بالفرنسية عن حياة صنوع ومسرحه – على اعتبار أن فرنسا موطن صنوع – كتب أغلب موادها صنوع نفسه، والباقي كان منقولاً من صحفه !! وربما يغضب القارئ من تحاملي هذا على صنوع، ويسأل: إذا كانت هذه هي نتيجة المراجع الفرنسية، أليست هناك مراجع إنجليزية أو عربية، كُتبت في حياة صنوع ؟! الإجابة : نعم .. هناك مقالة إنجليزية واحدة، نُشرت في جريدة (الستاردي ريفيو) عام ١٨٧٩م، وخمس صفحات عربية – عن حياة صنوع ونشاطه – كتبها فيليب طرازي ونشرها في كتابه (تاريخ الصحافة العربية) عام ١٩١٣م ! أما المقالة الإنجليزية فسأتحدث عنها فيما بعد لأهميتها في محور آخر.

أما صفحات طرازي، فهي الباب العربي الأول الذي فُتح لصنوع، كي يدخل إلى الثقافة العربية وتاريخها من أوسع الأبواب! بل إنها السبب المباشر في جميع الكتابات العربية عن صنوع! فمن النادر أن تجد مقالة، أو دراسة، أو بحثاً ، أو كتاباً، أو أطروحة مكتوبة عن صنوع، من غير وجود صفحات طرازي ضمن مراجعها !! ومن حُسن حظ صنوع أن كتاب طرازي صدر عام ١٩١٣م، أي بعد وفاة صنوع بسنة! فأصبحت صفحات طرازي بريئة من التدخل الصنوعي فيها ! وظل كتاب (تاريخ الصحافة العربية) – طوال قرن تقريباً – المرجع المحايد والأصيل عن حياة صنوع ومسرحه حتى الآن، ولكن ما بعد الآن .. فالأمر سيختلف!!

نُشر في لندن عام ١٩٨٧م كتاب بعنوان (يهود مصر The Jews in Egypt)، قدّم له (شيمون شامير Shimon Shamir)، به مجموعة من الدراسات، منها دراسة (شمويل موريه Shmuel Moreh) بعنوان (يعقوب صنوع: صفاته الدينية وعمله في المسرح والصحافة وفقاً لأرشيف العائلة Ya'qub Sanu': His Religious Identity and Work in the Theater and Journalism, According to the Family Archive). وفي

نهاية هذه الدراسة ملحق به سبعة عشر خطاباً – من صنوع وإليه – في الفترة ما بين عامي ١٨٨١ و١٩١١م. ضمن هذه الخطابات خطاب من طرازي إلى صنوع مؤرخ في ١٩١١/١/٢٥م، يقول في مقدمته: " قياماً بالوعد مُرسل لك صورة الترجمة التي نظمتها، وهي تتضمن مختصر تاريخ حياتك الطافحة بكل لذيذ ومفيد، وهي عشر صفحات". ويختتم طرازي خطابه بقوله: " أظن يا حضرة الشيخ المهذب أن الترجمة توافق ذوقك .... إذا رأيتم أني قصّرت في أشياء أو اخطأت في سواها فالرجا أن تنبهوني كي أجري اللازم قبل طبع كتابي. واعلموا أني حتى الآن ما كتبت لأحد الصحافيين ترجمة نظير ترجمتك حتى لأحمد فارس [الشدياق] نفسه، ورفاعة بك الطهطاوي، ورزق الله حسون، وعبد الله النديم، وغيرهم مثل جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وبشارة باشا تقلا، والكونت دحداح، وبعض المشاهير. ومن ذلك تتأكد عظيم اعتباري لشخصك " !! .. لا تعليق !

ريادة المسرح العربي

عبارة " يعقوب صنوع رائد المسرح العربي في مصر "، هي العبارة الوحيدة التي لازمت سيرة صنوع في جميع المقالات، والدراسات، والكُتب، ووسائل الإعلام العربية والعالمية حتى الآن ! وهذه الريادة لم يذكرها إنسان إلا صنوع نفسه في كتاباته، أو في كتابات أصدقائه، أمثال: بول دي بينيير، وجاك شيلي، وإيميه فانترينييه. وقد أوضحنا – فيما سبق – أن كتابات هؤلاء؛ ما هي إلا كتابات صنوع نفسه ! أي أن صنوعاً، هو مصدرها الوحيد !

وريادة صنوع هذه – كما جاءت في هذا الكتاب – مرت بمرحلتين: الأولى قال فيها صنوع بالريادة في صحفه عام ١٨٧٩م من غير تفصيل، أو شرح، أو توضيح ! وفجأة في عام ١٩٠٢م – تبعاً لأقواله في مقالة جاك شيلي – ألقى محاضرة – وهي نص المقالة – شرح فيها كافة تفاصيل ريادته للمسرح العربي ! فعلمنا أنه أنشأ المسرح العربي عام ١٨٧٠م، عندما قام خيري باشا بتقديم مسرحيته الأولى إلى الخديوي إسماعيل، الذي وافق على تمثيلها وصرّح لصنوع بافتتاح مسرحه، فقام صنوع بعرض مجموعة من المسرحيات أمام الخديوي إسماعيل – كما ذكرنا سابقاً – وأن صنوعاً ألفّ اثنتين وثلاثين مسرحية، وكوّن فرقتين مسرحيتين ضمّتا فتاتين، وعرض مسرحيته (الضرتين) ٥٣ مرة، ومسرحيته (آنسة على الموضة) ١٠٠ مرة،

وبلغت عروضه في عامين أكثر من ٣٠٠ ليلة عرض، وكانت الجماهير تحضر بالآلاف، وظل مسرحه يعمل حتى أمر الخديوي إسماعيل بإغلاقه عام ١٨٧٢م.

وبناءً على هذه المعلومات والأرقام – وبعيداً عن أقوال صنوع وأصدقائه – أطرح على القارئ هذا اللُّغز، في صور أسئلة: كم إعلان حصلنا عليه لمئات عروض صنوع المسرحية ؟ وكم مقالة – مادحة أو قادحة – نُشرت عن هذه العروض المسرحية ؟ وكم صحفي أدلى برأيه في هذه العروض ؟ وكم وثيقة وجدناها تتعلق بهذا النشاط المسرحي الريادي ؟ وكم وثيقة وجدناها تتعلق بإنشاء أو بإغلاق هذا المسرح ؟ وكم حوار وجدناه منشوراً لأعضاء فرقتي صنوع المسرحية ؟ وكم مقالة نُشرت لمدح – أو ذم – أول فتاتين مصريتين تعملان في المسرح ؟ وكم .. وكم .. وكم .. عزيزي القارئ إليك الإجابة : لم نجد سطراً واحداً منشوراً، يُجيب – من قريب أو من بعيد – على سؤال واحد من هذه الأسئلة، طوال الفترة ما بين عامي (١٨٧٠ – ١٨٧٢م)، وهي فترة نشاط مسرح صنوع، تبعاً لأقوال صنوع نفسه !!

وربما يتعجب القارئ، فيسأل : إذا كانت هذه هي الحقيقة، فكيف كُتبت المقالات والدراسات والكتب ورسائل الماجستير والدكتوراه عن مسرح صنوع ؟! سأجيبه قائلاً: كل هذه الدراسات اعتمدت فقط على أقوال صنوع وأصدقائه ! وربما يسأل القارئ مجدداً : ألا تُعد مسرحيات صنوع، التي نشرها الدكتور محمد يوسف نجم في بيروت عام ١٩٦٣م، دليلاً على نشاطه المسرحي؟! سأجيبه قائلاً: هذه النصوص أول من حصل عليها – في كراسة مخطوطة – كان الدكتور إبراهيم عبده عام ١٩٥٣م من ابنة صنوع (لولي)، ثم انتقلت إلى الدكتور أنور لوقا، الذي شرح موضوعاتها عام ١٩٦١م، ثم انتقلت إلى الدكتور محمد يوسف نجم، الذي نشرها ونسبها إلى صنوع عام ١٩٦٣م. وحتى الآن لم يستطع باحث واحد إثبات نسبتها إلى صنوع؛ لأنها خالية من أي توثيق أو بيانات، بل أن خطها ليس خط صنوع !

وربما آخر سؤال من الممكن أن يُطرح في هذا الشأن، يقول: ما هو موقف الكتابات العربية المنشورة عن ريادة المسرح العربي في مصر؟ الإجابة تقول: إن رائد المسرح العربي في مصر، هو سليم خليل النقاش اللبناني ! والدليل على ذلك قوله في مقدمة مسرحيته (ميّ) المنشورة عام ١٨٧٥م، إنه سيخدم الخديوي إسماعيل " بإدخال فن الروايات في اللغة العربية إلى الأقطار المصرية ". وقول مجلة الجنان

في يولية ١٨٧٥م " بأن الحضرة الخديوية السنية قد اهتمت بإنشاء روايات عربية .... ولذلك صممت على إنشاء الروايات العربية " وأن يقوم بهذه المهمة في مصر سليم النقاش. كذلك نجد مجلة الجنان في أغسطس ١٨٧٥م، تنشر مقالة بقلم سليم النقاش قال فيها عن الخديوي إسماعيل: ".. بلغت فوق ما تمنيت من أفضال جنابه العالي وأحسن إليّ بقبول طلبي وذلك بأن أدخل فن الروايات باللغة العربية إلى الأقطار المصرية ". هذه هي الأقوال المنشورة أثناء وجود صنوع في مصر !!

أما بعد سفره إلى فرنسا، فنجد قول محمود واصف – في مقدمة مسرحيته (عجائب الأقدار) المنشورة عام ١٨٩٥م – " أن فن التشخيص بلغتنا العربية لم يدخل إلى بلادنا المصرية إلا منذ عهد قريب على يد طيب الذكر سليم أفندي النقاش ". وقول مجلة الهلال – ديسمبر ١٨٩٦م – " لم يدخل فن التمثيل العربي إلى هذه الديار إلا في أواخر حكم المغفور له الخديوي إسماعيل باشا، وأول من مثل رواية تشخيصية فيها المرحومان أديب إسحاق وسليم نقاش ". وقول جريدة الأخبار – في ١٩١٢/١/٤ – " هيهات أن ننسى الأديبين الكبيرين المرحومين سليم النقاش وأديب إسحاق اللذين أخرجا فن التمثيل إلى عالم الوجود في مصر ". هذه هي الأقوال المنشورة، حتى وفاة صنوع في فرنسا !!

والمستغرب أن الأقوال لم تتغير، حتى بعد وفاة صنوع، فنجد مثلاً قول جورج طنوس – في كتابه الشيخ سلامة حجازي وما قيل في تأبينه، المنشور عام ١٩١٧م – " ظهر التمثيل العربي في هذه الديار. وكانت نشأته الأولى في الإسكندرية على أيدي الأديبين الشهيرين إسحاق والنقاش ". وقول محمد تيمور عام ١٩١٩م – في كتابه حياتنا التمثيلية – " أتانا التمثيل ... وأول من جاءنا به قوم من فضلاء السوريين أمثال النقاش وأديب إسحاق والخياط ... ولقد نجحوا في بناء أساس ذلك الفن نجاحاً كبيراً ... وأنشئوا بأيديهم فن التمثيل في مصر". وكذلك قول خليل مطران – في مجلة الهلال ١٩٢١/٢/١ – " المرحوم سليم النقاش ... أول من أنشأ فرقة للتمثيل بمصر باتفاق بينه وبين الحكومة ". وقول محمد فاضل في كتابه الشيخ سلامة حجازي، المنشور عام ١٩٣٢م – " كان ظهور هذا الفن في مدينة الإسكندرية، حيث كانت أصونة الأدباء إسحاق والنقاش والخياط مخيمة في ميدان المنشية ". وقول أحمد شفيق باشا في مذكراته عن التمثيل " ثم بدأت تفد على مصر بعض الفرق السورية، فكان

ذلك منشأ المسرح العربي الأهلي، وأولى هذه الفرق هي فرقة سليم النقاش". وما جاء في عدد جريدة الأهرام التذكاري عام ١٩٥٠م: " أما التمثيل العربي، فقد حمل لــواءه إخواننا السوريون وعلى رأسهم سليم نقاش ". وقول عبد الرحمن صدقي فــي مجلــة الكتاب، يناير ١٩٥١م " كانت بداية المسرح في مصر الحديثة في الشطر الثاني مــن القرن التاسع عشر على عهد الخديوي إسماعيل ... ثم كان على يديه مطلع التمثيــل العربي ... حين وفدت فرقة للتمثيل العربي من لبنان قوامها ســليم النقــاش وأديــب إسحاق ويوسف خياط "!! يا تُرى أين رائد المسرح يعقوب صنوع من هذه الأقوال ؟!

مقالة الستاردي ريفيو

أشرنا من قبل إلى مقالة جريدة (الستاردي ريفيو Saturday Review) الصادرة بتاريخ ١٨٧٩/٧/٢٦م، التي اعتمد عليها بول دي بينيير فــي كتابــه (ألبــوم أبــو النظارة). وهذه المقالة تُعتبر أول مقالة تُكتب عن صنوع ومسرحه، وأقــدم مرجــع يُمكن الرجوع إليه، وأفضل مرجع محايد – من وجهة نظرنا – لأنها لم تُنــشر فــي مصر، ولا في فرنسا، ولا في صحف صنوع، ولكنها نُشرت في لندن. ومن المُحتمل أن صنوعاً لم يتدخل فيها، عندما نُشرت في الأصل، ولم يؤثر على صاحبها! وهــذا يعني أنها تخالف قولنا: إن صنوعاً هو المصدر الوحيد لمسرحه في مصر.

يقول بول دي بينيير – نقلاً عن مقالة الستاردي ريفيو – عن مــسرح صــنوع العربي في مصر:

> " أخذ على عاتقه وحده تأسيس مسرح عربي يتولى فيه كل شــيء. فقد كان المؤلف في أغلب الأحيان، والممثل والمدير والملقن وغير ذلــك. ولا ينبغي أن نسخر من ذلك، فقد كانت هذه المسرحيات التي تعتمد علــى شخصية واحدة، تتضمن نظرات ثاقبة وملاحظات صائبة، وتثير ضــحكاً تلقائياً ودموعاً صادقة، بحيث لم يلبث الجميع أن أسرعوا لمشاهدتها. كــان الفلاحون يهرولون إليها لاهثين، والباشوات يأتون إليها بــدافع الفــضول والاستغراب. بل أن الخديوي نفسه شاهدها، واستمتع بها. وعند انــصرافه خلع على صنوع لقب (موليير مصر) .... دأب عدد كبير من رجال الثقافة والذوق الرفيع على متابعة عروض أبو نظارة بشغف كبير. كان ينبغي أن نشاهده وهو يحاور ويجادل الفلاحين المصريين، فنظنه واحداً منهم، مــن

فرط تقمصه وتلبسه لشخصياتهم. ينبغي أن نسمعه وهو يُبدي ملاحظاته الذكية الساخرة ويطلق قهقهاته الصبيانية! ينبغي أن نرى آثار الدموع الصامتة تسيل على وجنتيه النحيلتين. كان هذا الرجل يتمتع بالقدرة الخارقة التي تجعله قادراً على أن يجمع في شخصه وحده شعباً بأكمله".

وبناءً على هذا النقل من جريدة (الستاردي ريفيو) عام ١٨٧٩م، لا بُدّ لأي عاقل من الإقرار بريادة صنوع للمسرح العربي في مصر ! ولكن تاريخ هذه الجريدة يُثير إشكالية، تؤدي إلى الشك ! فصنوع عام ١٨٧٩م كان في فرنسا، ولم يكن في مصر ! فمن أين جاءت هذه الجريدة بأخبار مسرح صنوع في مصر، الذي أُغلق عام ١٨٧٢م، لا سيما وأن كاتب المقالة غير معروف ؟! الإجابة وجدناها في قول بول دي بينيير، عندما عرّفنا بكاتب المقال، قائلاً: هو " كاتب كبير ورحّالة إنجليزي عرف أبو نظارة في القاهرة قبل عدة سنوات " ! إذن فكاتب هذه المقالة أحد أصدقاء صنوع، وبالتالي يصبح صنوع مصدرها الوحيد، ونعود إلى طرحنا السابق، ونقول: إن صنوعاً هو المصدر الوحيد لمسرحه العربي في مصر !

وعلى الرغم من ذلك، فهناك احتمال آخر لم نناقشه ! إذا كان هذا الرحّالة عرف صنوعاً في القاهرة، فلماذا نقول إن صنوعاً أثّر عليه؟! ولماذا لم نقل إن هذا الرحّالة شاهد مسرح صنوع بالفعل في القاهرة، وكتب عنه هذه المقالة فيما بعد ؟! هذا الاحتمال أثبته لنا الدكتور محمد يوسف نجم في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث) الصادر عام ١٩٥٦م، عندما اطلع على أصل جريدة (الساتردي ريفيو Saturday Review)، ونقل منها ما نقل، وعندما ذكر تاريخ العدد قال إنه في ١٨٧٦/٧/٢٦م !! إذن فمن المُحتمل أن بول دي بينيير تجنب الصواب في نقل تاريخ العدد على أنه يوم ١٨٧٩/٧/٢٦م !

والفرق بين التاريخين كبير جداً فيما نحن فيه! فإذا كانت المقالة نُشرت بالفعل عام ١٨٧٦م – بناءً على اطلاع الدكتور نجم – فهذا يعني أن المقالة نُشرت أثناء وجود صنوع في مصر، وهذا يعني أن كاتب المقالة رأى مسرح صنوع، وشاهده بالفعل في القاهرة !! ولم نشك – ولو للحظة – أن الدكتور نجم هو المُتجنب للصواب في تاريخ الجريدة، لأنه ذكره مرتين : الأولى في متن الدراسة، والأخرى في مصادر ومراجع الدراسة ! ومن أين يأتي عدم الصواب، بعد أن اطلع الدكتور نجم على أصل

الجريدة، ونقلّ منها – عن مسرح صنوع – فقرات بول دي بينيير نفسها، قائلاً في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث)، ص ٧٩:

"وقد وصف لنا محرر الساتردي ريفيو عمله هذا في عددها الصادر في ٢٦ من يوليو (تموز) سنة ١٨٧٦، قال: ألم يحاول هو وحده، أن يخلق مسرحاً عربياً؟ وإذا قلت هو وحده، فإنني أقرر الواقع، لأنه كثيراً ما كان يقوم في هذا المسرح، بأعمال المؤلف والممثل والمدير والملقن، وغير ذلك. وعلينا ألا نسخر من هذا، لأن مسرحياته، ذات الشخصية الواحدة، كانت تحتوي على سيل من الملاحظات، وسلسلة متصلة من الضحك، فضلاً عن دموع إنسانية مُرّة، جعلت جميع الناس يحرصون على مشاهدتها. فكان الفلاحون يهرعون إليها، وكان الباشوات يترددون عليها، على سبيل التسلية المقرونة بالاستغراب وأخيراً شهدها الخديوي إسماعيل نفسه، فسر بها أيما سرور، حتى أنه عند مغادرته، خلع على جيمس سنوا لقب موليير مصر. ولا حاجة إلى أن يذهب الناس في إعجابهم، إلى الحد الذي بلغه الخديوي إسماعيل. فإن عدداً كبيراً من ذوي الإحساس الرقيق، والذوق السليم، كانوا يتابعون تمثيل أبي نظارة، باهتمام كبير. ومما هو جدير بالإعجاب حقاً، تقمصه شخصية الفلاح المصري، أثناء اندماجه في تمثيل دوره. فيحلو عندئذ سماع ملاحظاته اللاذعة، وضحكاته البريئة، إلى جانب عبراته الصامتة وهي تتساقط على خديه الضامرين. وقد كان باستطاعة هذا الرجل، أن يجمع في شخصيته شعباً بأسره".

وبناءً على هذا النقل، أصبح كتاب الدكتور نجم، المرجع الأساسي لمسرح صنوع العربي في مصر، وبفضل تصويبه لتاريخ جريدة (الستاردي ريفيو)، أصبح لمسرح صنوع تاريخ موثق بعام ١٨٧٦م، أثناء وجود صنوع في مصر !! تُرى من يجرؤ – بعد ذلك – على الشك في ريادة صنوع للمسرح العربي، بعد أن ثبّتها الدكتور محمد يوسف نجم المتخصص في تاريخ المسرح العربي، في كتاب، يُعتبر المرجع العمدة المُعتمد في أغلب الدراسات العربية والأجنبية، طوال أكثر من نصف قرن، وهو كتاب (المسرحية في الأدب العربي الحديث) !!

ولكن حدث ما لم يكن في الحُسبان ! فعندما كنت أعدّ كتابي (محاكمة مسرح يعقوب صنوع)، المنشور عام ٢٠٠١م، لاحظت أن الدكتور إبراهيم عبده في كتابه (أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر)، اعتمد مقالة

(الستاردي ريفيو Saturday Review) وأرخها بتاريخ ١٨٧٩/٧/٢٦م، وهنا اعتقدت أن الدكتور نجم جانبه الصواب، عندما ذكر أن الجريدة صدرت عام ١٨٧٦م، بل وتوهمت أنه لم يطلع على أصل الجريدة، وأنه نقل منها بالواسطة ! وهذه الأقوال وجهتها إليه، عندما أجبرني على الدخول معه في معترك جدلي محتدم على صفحات جريدة (أخبار الأدب) عام ٢٠٠١م. وفي رده – المنشور بتاريخ ٢٠٠١/٦/١٠، في جريدة (أخبار الأدب)، عدد ٤١٣ – على إشكالية تاريخ جريدة (الساتردي ريفيو Saturday Review)، برر ذلك بقوله إن رقم ٦ هو معكوس رقم ٩ في اللغة الإنجليزية، وأقرّ في رده: إن تاريخ الجريدة هو عام ١٨٧٩م، لا عام ١٨٧٦م، وأن هذا الخطأ كان خطأً مطبعياً! وفي رده على اتهامي له إنه لم يطلع على أصل الجريدة، وأنه نقل منها بالواسطة، قال : " سألحق بهذا الرد بعض فقراتها، لتراها رأي العين " ! وللأسف الشديد .. لم يذكر الدكتور نجم فقرة واحدة من مقالة جريدة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، ولم ترَ عيني سطراً واحداً منها في رده !! ولا أعلم حتى الآن لماذا لم يفعل، حتى يدفع تهمة النقل بالواسطة عن نفسه ؟!

من العوامل المهمة، التي ساعدتني في اكتشاف حقيقة الأمر: توفيق الله عزّ وجلّ أولاً، والعمل الدؤوب ثانياً، والسعي وراء الحقيقة ثالثاً ! ففي عام ٢٠٠٧م أصدر المركز القومي للمسرح كتاب الدكتور فيليب سادجروف (المسرح المصري في القرن التاسع عشر)، ترجمه الدكتور أمين العيوطي، وقمت بتقديمه والتعليق عليه. وفي أثناء عملي هذا، لاحظت أن المؤلف – في حديثه عن مسرح صنوع – اعتمد مقالة (الستاردي ريفيو The Saturday Review)، وذكر عنوان المقالة هكذا : (بنش العربي "An Arabic "Punch)، أما المؤلف فقال (بدون مؤلف Anonymous)، كما أنه أكد على تاريخها هو يوم ١٨٧٩/٧/٢٦م. والمُلاحظ على توثيق سادجروف لهذه المقالة، أنه الوحيد الذي ذكر عنوانها – (بنش العربي) ! – وهنا تساءلت: لماذا لم يذكر بول دي بينيير، أو الدكتور نجم هذا العنوان؟! ولماذا قال بول دوبينيير إن المؤلف: كاتب كبير ورحّالة إنجليزي عرف أبو نظارة في القاهرة، رغم أن المقالة (بدون مؤلف) ؟! أيعقل أنهما لم يطّلعا على أصل المقالة ؟! إذا كان هذا الاتهام وجهناه إلى الدكتور نجم، ولم يُدافع عن نفسه – حتى الآن – هل في مقدورنا توجيهه إلى بول دي بينيير ؟!

حاولت الإجابة على ذلك، بمقارنة الاقتباسات المنقولة عن مسرح صنوع – من مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review) – عند الثلاثة : بول دي بينيير، والدكتور محمد يوسف نجم، والدكتور فيليب سادجروف! ولاحظت أن الاقتباسات عند بول دي بينيير، والدكتور نجم متطابقة، وقد أوردناها سابقاً. أما فيليب سادجروف فاقتباساته – عن مسرح صنوع – كانت مختلفة تماماً عن اقتباسات بول دي بينيير والدكتور نجم ! فاقتباسات سادجروف تتحدث عن: عروض فجة ومشاجرات مضحكة مألوفة في القاهرة، وفي مدن الشرق لفن القراقوز. وأن صنوعاً قام بتدريس اللغات الأوروبية، والعلوم لأطفال الخديوي والباشوات والأغنياء، وأن المعجبين بصنوع زعموا أنه كان شاعر القصر. وأنه يمتلك سهولة جديرة بالملاحظة في تحسين فن الكتابة في كلا النثر والشعر في لغته العربية ... إلخ وصفه لأسلوب صنوع في صحيفته الهزلية أبو نظارة !! فأين مسرح صنوع من هذا الكلام ؟! وأين ما اقتبسه بول دي بينيير والدكتور نجم – من مقالة الساتردي ريفيو نفسها – عن قيام صنوع بتأسيس مسرح عربي، كان فيه المؤلف والممثل والمدير والملقن ؟! وأين اقتباسهما الذي يتحدث عن مسرحيات صنوع المعتمدة على شخصية واحدة ؟! وأين .. وأين .. وأين ؟! أيعقل أن سادجروف أغفل كل هذه الاقتباسات ؟! ألم يقرأها .. ألم تلفت نظرة .. أكانت غير ذات أهمية لديه فلم ينقلها .. أين الحقيقة ؟!

الحقيقة تكمن في مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review) ! من يحصل عليها، سيكتشف الحقيقة ! حاولت من جانبي بكل الطُرق الحصول على نص هذه المقالة، طوال عام كامل، دون جدوى ! اتصلت بالأصدقاء في لندن، وراسلت بعضهم، وأوصيت بعض الزملاء ممن لهم طلاب هناك، وجعلت أحد الدارسين هناك يتصل بسادجروف نفسه .. ولكن كل هذا لم يُسفر عن شيء ! وبالتالي اكتشفت أن الحصول على نص هذه المقالة ضرب من المستحيل ! وفي إحدى محاضراتي بجامعة قطر – في ربيع ٢٠٠٨م – ضربت مثلاً بهذه المقالة على النقل بالواسطة، عندما يتعذر على الباحث الحصول على المرجع الأساسي. وبعد المحاضرة جاءني أحد الطلاب – واسمه عبد الله، وهو طالب كويتي يدرس في جامعة قطر – وطلب مني بيانات هذه المقالة، لأنه سيحاول الحصول عليها .. ففعلت رغم ثقتي – في النتيجة مسبقاً – أنه لن ينجح في الحصول عليها، كما لم ينجح الآخرون ! وبعد شهر تقريباً، فوجئت باتصاله يخبرني إنه حصل على نص المقالة !!

112 The Saturday Review. [July 26, 1879.

AN ARABIC "PUNCH."

MOST visitors to Cairo, or indeed any town in the Levant, have seen a ludicrous exhibition of rude jests, bear-fighting, and unseemly gestures carried on by two fantastically dressed personages known as Cáracús and Iwás, the Turkish equivalents for Punch and Judy, and this exhibition dates from a remote antiquity, and has been supposed to represent the Fescinnine games. But though the East has thus its Punch and its Charivari, it has hitherto had no literary representative of the hero of the cudgel, and satire has till now been a weapon almost exclusively wielded by poets and generally couched in the most classical language. The march of events has, however, developed a new phase of literature, and the East has lately produced some most successful lampoons, written in the popular, vulgar Arabic dialect, while the Government of the ex-Khedive of Egypt has very naturally formed a butt for the native satirist. The late Risk Allah Hassoun, one of the most brilliant Arabic writers of modern times, wrote a series of political satires, amongst which were a version of Kriloff's fables in verse, full of clever hits at Turkish politics, and a poem in which Ismail Pasha's financial misdoings were sharply criticized. Both these productions were written in elegant Arabic, but the same author also wrote for private circulation a collection of poems in the vulgar Syrian dialect, in which a private person was the object of satire, and which would compare favourably with the most scathing invectives of Western journalism. We have now before us a publication consisting of thirty numbers of an Arabic comic illustrated journal, directed against the ex-Khedive and his policy, and published in Paris for surreptitious circulation in Egypt. This is a remarkable production, and deserves to be known beyond the limits of an Arabic-speaking audience. It is ostensibly written by a certain "Professor James Sanua," of 65 Rue de Provence, Paris, though both the style and the portrait which adorns the title-page remind us of another Oriental gentleman and scholar well known in Paris. The *nom de plume* of the author-editor is Abou Naddarah Zerka, "the father (that is, the possessor) of blue spectacles," of whose career a short French introduction gives an amusing and characteristic account, principally extracted from the Cairo correspondence of *L'Europe Diplomatique*.

Possessing a knowledge of several languages beside his own, Abou Naddarah gained his livelihood by giving lessons in European languages and sciences to the sons and even the daughters of Pashas and other wealthy persons in Cairo, and numbered amongst his pupils several members of the Viceroy's family. Having a remarkable facility for improvizing composition both in prose and poetry in his own native Arabic, together with a great power of histrionic declamation, he invented a species of drama which he used to recite to a select audience of friends. The pungent sarcasm and humour of these declamations, and the real pathos with which they were varied, soon made them more widely known, and attracted, amongst others, the ex-Khedive, who was frequently present at Abou Naddarah's "evenings," and gave him the title of the Egyptian Beaumarchais. Unfortunately for himself, Abou Naddarah was an enthusiast and a patriot; and the wrongs of the Fellah and the corruption of Ismail's Government were treated by him in terms which quickly brought upon him the displeasure of the authorities, and made it necessary for him to seek a change of climate. Once safe in Paris, he began to publish his journal, in which he unmercifully exposed the misdoings of Ismail and his ring; and the paper, widely, though secretly, circulated in Cairo and Turkey, went no little way in stirring up those feelings of indignation which have since resulted in the deposition of the Khedive. The effect produced by it may be judged from the following incident. A certain noble in Cairo had given a grand *fête*, at which Ahmed Salem, the celebrated singer, was to execute some of his choicest pieces. It so happened that a clandestine vendor managed to dispose of some copies of Abou Naddarah's last number among the guests; and, as their attention was thus distracted from the singing, the host wished to turn the man out. The guests, however, rebelled at this, and insisted upon Ahmed Salem singing a song which this number contained, and which, although apparently harmless, is full of covert and seditious allusions, all of which the audience perfectly understood and sympathized with. The refrain of this song was:—

Wel Halim yehlam bihilmo
We be ahkámo lutáf
We bi' amláke Khesmo
Thomm yerfa' minuá náf.

"And the Clement One will be clement to us by his excellent judgments; and will sell the estates of his Opponent, and then raise the yoke from our necks." This appears merely a pious and harmless hymn; but, when we remember that Halim, "the Clement One," is the name of the Prince whose cause Abou Naddarah espoused, and whom so many people in Egypt wished to see on the throne instead of Ismail, and when we remember the troublesome questions which arose about the latter's estates, the verse assumes a very different complexion. Ahmed Salem was thrown into prison with his troupe of musicians, and was only released, at the intercession of the princesses and ladies of the harem, on the express condition that they should never again perform within the city.

Abou Naddarah's paper does not consist of news, or even of political articles, in our acceptation of the term; but is a *mélange* of dialogues, epigrams, letters, and popular songs, all, however, having the same end and object in view. The Khedive is seldom mentioned by name, but is spoken of as Pharaoh, or by some other choice appellation, such as "Sheikh ul Harah," "Chief Man of the Quarter," a term which in Arabic slang is also equivalent to the word which arouses so much indignation in the breast of the freedman in Lord Lytton's *Last Days of Pompeii*. One short story, taken at random from the contents, will give some idea of the style, and it is far from being an exaggeration of the truth:—

Amongst the many strange and wonderful things that have happened is this, that one of the followers of the "chief man of the quarter" gave a poor fellah, say a hundred eggs, with orders to get him fowls hatched out of them without losing an egg. The poor fellah took them, in spite of himself, and having other oppressive imposts which prevented him from attending to this duty, handed them over to his wife. After she had attended to them for some time half the eggs turned out bad, and the rest were hatched into chickens, which she brought up with great care and tenderness. Notwithstanding this, the greater part of them died, and out of the hundred eggs there were scarcely twenty fowls after all her trouble. They, however, made up the hundred from their own stock and gave them to the officer, who complained that they were too small, and that the cock was weak; and that it was all the poor fellah's fault. And this is the sort of thing that goes on; but which, I think, no one ever did before from Adam's time until our own.

The illustrations, though only rude pen-and-ink sketches, for the most part horribly out of drawing, are very clever, and represent the ex-Khedive under all sorts of ridiculous or disgraceful circumstances. In one he is dressed as a mountebank, and singing for joy at Abou Naddarah's departure from Cairo; in another he is transformed into a fox, and exhibited by a fellah at a fair. Again, he is sitting on a throne, bloated with good living and indolence, while Mr. Rivers Wilson, standing in front of him, exhibits the keys of the public treasury to appease the clamorous bankers and bondholders, and the Viceroy's creatures fill their master's pockets secretly with the taxes that have been collected. Later on we see him, with Nubar Pasha, making off with the money-chest at the fire at Abdine; in another place he recoils horror-struck from the phantom of Ismail Sadik, who appears to him at a banquet, and accuses him of his murder. On another page we have three small tableaux, representing (1) an officer, with his wife and family starving around him; (2) the same officer drinking coffee at an audience with the Khedive, in which he asks for his arrears of pay; (3) the coffin of the officer, the necessary consequence of the coffee he has drunk. The last of the pictures represents Ismail Pasha standing on the ruins of Egypt, regardless of the starved corpses of his subjects, which lie around, while Halim Pasha mounts to the rescue followed by his officers and encouraged by Abou Naddarah. One or two pictures show a remarkable political prescience on the editor's part; that, for instance, in which the *émeute*, which actually took place two months after the appearance of the number containing it, is described under the form of a vision. It is indeed impossible to read the paper without feeling that the exiled humourist must have had private means of ascertaining what was going on in the palace at Cairo, and that he was in all probability supplied with information and means by members of the Khedive's own family. He did not succeed in raising Halim Pasha to the throne; but it is certain that "Professor James Sanua" had more to do with the changes that have lately taken place in Egypt than most people in Europe know of. It is a pity if such a man cannot live under Turkish rule without the fear of coffee before his eyes; for satire of the kind, coarse and often bloodthirsty though it be, is in some measure corrective to terrorism and oppression.

صورة مقالة (Saturday Review) المؤرخة في ١٨٧٩/٧/٢٦م

وبعد ساعات قليلة أصبحت مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review) في حوزتي! فوجدتها في صفحة واحدة – من صفحات الصحف القديمة – على عامودين، الأول كاملاً، والآخر به الثلثان. فسهرت – حتى الصباح – أتأملها، وأقرؤها، وأترجمها .. كلمة .. كلمة ! وعندما انتهيت من معرفة ما فيها، صُعقت من هول نتائج هذه المعرفة : النتيجة الأولى، كانت تأكدي من أن الدكتور إبراهيم عبده لم يطلع عليها، وأنه نقل عنها عام ١٩٥٣م في كتابه (أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر)، بواسطة كتاب بول دي بينيير ! والنتيجة الثانية، اليقين التام أن الدكتور محمد يوسف نجم، لم يطلع عليها أيضاً، ولم يرها في حياته، وأنه نقل عنها عام ١٩٥٦م في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث)، بواسطة كتاب بول دي بينيير أيضاً !! أما النتيجة الثالثة، فكانت مفاجأة، وهي أن بول دوبينيير نفسه، لم يطلع على هذه المقالة !! وأن اقتباساته منها أملاها عليه صنوع، بعدما حذف منها ما حذف، وأضاف إليها ما أضاف !! أما النتيجة الرابعة، فكانت الوثوق من أن الدكتور فيليب سادجروف، هو الباحث الوحيد – تبعاً لاطلاعي على ما كُتب عن صنوع – الذي اطلع بالفعل على أصل المقالة، ونقل منها. أما النتيجة الأخيرة، فكانت صاعقة؛ لأنني اكتشفت أن مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، لم تتحدث عن صنوع بوصفه رائداً للمسرح العربي البشري المعروف، بل تحدثت عن عروض القراقوز، رابطة بينها وبين مواهب صنوع وكتاباته في صحفه، ووصفته بلاعب القراقوز العربي في عنوانها (بنش العربي " AN ARABIC " PUNCH)، على غرار بنش لاعب القراقوز الإنجليزي !!

ومن الأدلة على هذه النتائج، أن بول دي بينيير في كتابه (ألبوم أبو نظارة)، كان يضع علامات التنصيص – الدالة على الاقتباس – كثيراً حول فقرات كتابه، لدرجة أن القارئ لا يستطيع أن يُميّز بين ما هو منقول من الآخرين، وما هو من كلام بول دي بينيير نفسه، خصوصاً في الأجزاء المنسوب اقتباسها إلى جريدة (الستاردي ريفيو Saturday Review) – وقد أوردنا بعض النماذج في تعليقات حواشي هذا الكتاب – وعندما قارنا بين مقالة الستاردي وكتاب بول دي بينيير، استطعنا التمييز بين كلام بول، والأجزاء المقتبسة من المقالة، وهذه الأجزاء وجدنا فيها تغييرات كثيرة بالحذف والإضافة، تثبت أن هناك من تعمد ذلك، سواء كان بول

نفسه، أو صنوع ! والاحتمال الأرجح أنه صنوع، وإلا كيف عرف بول دي بينيير أن كاتب المقالة " كاتب كبير ورحّالة إنجليزي عرف أبو نظارة في القاهرة "، رغـم أن المقالة منشورة بدون مؤلف ؟! وهذا الأمر كان السبب في اكتشاف أن الدكتور إبراهيم عبده، والدكتور محمد يوسف نجم، قاما بالنقل من بول دي بينيير – من غير الاطلاع على أصل المقالة – لأنهما نقلا كلام بول دي بينيير على أنه اقتباس مـن المقالـة ! وسأضرب مثلاً على هذا.

يقول بول دي بينيير في كتابه: يروي لنا كاتب صحيفة " ستاردي ريفيـو" دور أبو نظارة في مصر تحت حكم إسماعيل:

> " في الصباح، ولكي يحصل على قوت يومه، نراه يتنقل من قصر إلى قصر، ومن فندق إلى فندق، يدرِّس لأبنـاء الأمـراء، والباشـوات، اللغات أو العلوم الأوروبية، ويدرِّس لبناتهم الموسيقى والتصوير وغيـر ذلك من الفنون. ولا يمكن أن نقول إن صنوعاً كان أستاذاً في الـرقص، ولكن هذا الرجل الداهية كان قادراً على فعل كل شيء بواسـطة النـاي الصغير الذي كان ينفخ فيه.
>
> أما في فترة العصر والمساء، فكان أبو نظارة يخلو إلى نفسه. ألم يكن قد أخذ على عاتقه وحده تأسيس مسرح عربي؟ يتولى فيه كل شيء. فقد كان المؤلف في أغلب الأحيان، والممثل والمدير والملقن وغير ذلك. ولا ينبغي أن نسخر من ذلك، فقد كانت هذه المسرحيات التي تعتمد على شخصية واحدة، تتضمن نظرات ثاقبة وملاحظات صائبة ..." إلخ

سيلاحظ القارئ أن هذا الاقتباس المنقول من مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، مكون من فقرتين متصلتين: الفقرة الأولى، موجودة بالمعنى فـي مقالـة الستاردي، بعد إضافة أمور غير واردة في الأصل، مما يؤكد أن بول دي بينيير لـم يطلع على أصل المقالة، وأن صنوعاً أملاها عليه! فهذه الفقرة جاءت هكذا في أصـل المقالة:

" Possessing a knowledge of several languages beside his own, Abou Naddarah gained his livelihood by giving lessons in European languages and sciences to the sons and even the daughters of Pashas and other wealthy persons in Cairo, and numbered amongst his pupils several members of the Viceroy's family ".

وترجمتها : " لمعرفته بعدة لغات، بجانب لغته، كان أبو نظارة يحصل على رزقه (معيشته) – في القاهرة – بإعطاء دروس في العلوم الأوروبية ولغاتها؛ لأبناء الأغنياء والباشوات، وعدد من تلاميذه كانوا من أسر الأمراء". فأين من هذا النص، ما ذكره بول دي بينيير عن: الانتقال من قصر إلى قصر، ومن فندق إلى فندق، ودروس الموسيقى والتصوير، والناي الذي ينفخ فيه صنوع ... إلخ ؟!

أما الفقرة الثانية، وهي الخاصة بمسرح صنوع، والتي جاءت بعد الفقرة الأولى، على أنها منقولة من جريدة (الستاردي) تبعاً لسياق الكلام .. هذه الفقرة لا وجود لها في المقالة بأكملها !! لأنها كلام بول دي بينيير، لا اقتباس من الستاردي ريفيو !! ولأن الدكتور محمد يوسف نجم، لم يطلع على أصل المقالة، اعتبر أن الفقرة الأولى متعلقة بالثانية، وهما مقتبستان من مقالة (الستاردي ريفيو)، فقال إنه اطلع على أصل المقالة، ونقل كلام بول دي بينيير، باعتباره اقتباساً من مقالة الستاردي ريفيو، قائلاً في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث) ص ٧٩: " وقد وصف لنا محرر الساتردي ريفيو عمله هذا في عددها الصادر في ٢٦ من يوليو (تموز) سنة ١٨٧٦، قال : ألم يحاول هو وحده، أن يخلق مسرحاً عربياً؟ وإذا قلت هو وحده، فإنني أقرر الواقع، لأنه كثيراً ما كان يقوم في هذا المسرح، بأعمال المؤلف والممثل والمدير والملقن، وغير ذلك. وعلينا ألا نسخر من هذا، لأن مسرحياته، ذات الشخصية الواحدة، كانت تحتوي على سيل من الملاحظات " ! .. وهذا هو كلام بول دي بينيير في الفقرة الثانية، وليس اقتباساً من مقالة الستاردي ريفيو !!

لاعب القراقوز .. بنش العربي

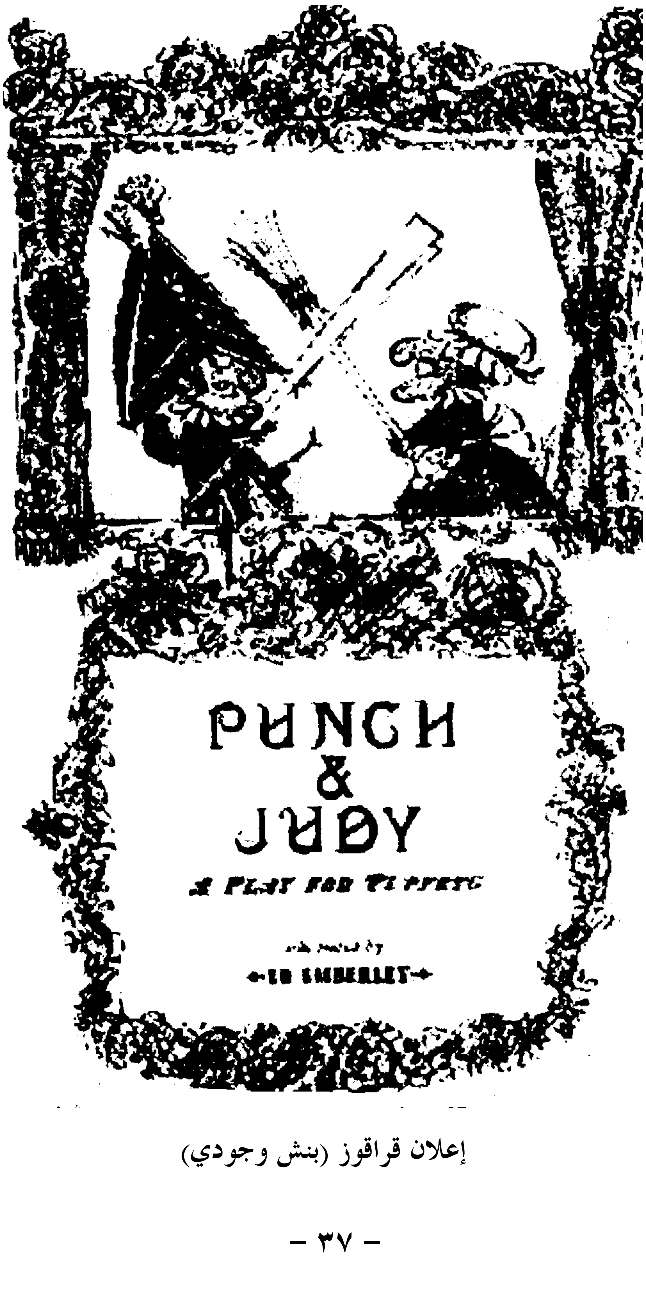
مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، تتحدث بالفعل عن يعقوب صنوع، وتبدأ بالحديث عن عروض القراقوز الفجة في هجائها – والمضحكة في أدائها، والزاهية في ملابسها – المنتشرة في القاهرة والمدن الشرقية، التي تشبه عروض (بنش وجودي) – وهي عروض لعرائس القفاز – ثم يبين كاتب المقال أن هذه العروض تطورت إلى هجاء سياسي بالشعر العامي العربي، تمّ توجيهه إلى الحُكام في الشرق، وضرب مثلاً على ذلك بأشعار رزق الله حسون العامية. ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن صنوع من خلال ثلاثين عدداً من أعداد صحيفته (أبو نظارة)، التي بين يديه، فينقل منها معلومات عن صنوع، كان صنوع نشرها عن نفسه فيها، ومنها: أنه

يمتلك عدة لغات، ويعطي دروساً، ويلقي الخطب .. إلخ. ثم ينتقل الكاتب إلى ابتكار صنوع الملفت للنظر، وهو ابتكاره للمحاورات المنشورة في صحفه، والتي اعتبرها كاتب المقال، نوعاً فريداً من الكتابة الدرامية اللاذعة المنشورة، التي لاقت رواجاً كبيراً بين أصدقائه، وقرائه! ثم يستشهد الكاتب بكتابات صنوع المنشورة في صحفه، التي أغضبت الخديوي، فأصبح صنوع غير آمن، ومن ثم سافر إلى فرنسا.

ويستمر الكاتب في تتبع حياة صنوع – من خلال صحفه – فيتحدث عن استمرار صنوع في الهجوم على الخديوي، وهذا الهجوم كان من نتيجته – في مصر – أن أحد النبلاء أقام حفلة، غنّى فيها المطرب أحمد سالم، وفي أثناء الغناء دخل أحدهم، وكان معه عدد من صحيفة (أبو نظارة) منشور بها قصيدة، فطلب الحاضرون من المطرب أن يغني القصيدة المنشورة في صحيفة أبو نظارة ففعل. وكانت كلمات الأغنية ذات دلالات سياسية، ومطلعها يقول: (والحليم يحلم بحلمه) دلالة على الأمير حليم. وبسبب هذه الأغنية وُضع المطرب في السجن. ثم ينتقل الكاتب في بقية المقالة – حتى نهايتها – إلى وصف أعداد صحيفة (أبو نظارة)، التي يصفها أنها خالية من الأخبار أو المقالات السياسية، وإنما هي خليط من الحوارات والأمثال والرسائل والأغاني، كلها تهدف إلى الهجوم على الخديوي إسماعيل. ثم يأتي ببعض القصص المنشورة في الصحيفة، ويختتم مقالته بشرح بعض الرسومات المنشورة في صحف صنوع.

هذا هو مضمون مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، التي تُعد أول مقالة تُكتب عن صنوع خارج مصر وفرنسا، ولم تُنشر في صحف صنوع، وتُعتبر أيضاً أقدم مرجع مكتوب عن صنوع، وأصدق ما كُتب عن صنوع حتى الآن – من وجهة نظرنا – لأنها نُشرت بعد عام واحد فقط من سفر صنوع إلى فرنسا، أي قبل أن يستغل صنوع صحفه، وكتابات أصدقائه في تكوين أسطورته. هذا بالإضافة إلى أن كاتب المقالة – غير المعروف – كان رحّالة بالفعل، وزار القاهرة – بدليل قصة المُطرب – وربما عرف صنوعاً، وشاهده! ورغم ذلك لم نجد في المقالة أي حديث عن مسرح صنوع العربي البشري، الذي قال به صنوع! ولكننا وجدنا كاتب المقالة يتحدث عن فن القراقوز، الذي تطور إلى هجاء سياسي بأشعار عامية، فأصبح محاورات على شكل دراما مكتوبة، ومنشورة في صحف صنوع. وهذه الأشكال الفنية

عمادها الأساسي – في المقالة – كان يعقوب صنوع ! ألـم يـصفه كاتـب المقالـة بـ(بنش العربي)، وجعل هذا الوصف عنواناً للمقالة ؟! وهذا يعني أن كاتب المقالـة اعتبر صنوعاً لاعباً للقراقوز العربي! والمعروف أن شخصية (بـنش)، هـي لـنجم استعراضي إنجليزي ظهر عام ١٦٦٢م، اشتهر بعروض عرائس القفاز (القراقـوز)، المعروفة بعروض (بنش وجودي Punch and Judy)!



إعلان قراقوز (بنش وجودي)

ومما سبق يتضح لنا أن كاتب مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، أراد أن يقول إن يعقوب صنوع – ربما – بدأ عمله الفني في القاهرة بعروض القراقوز الضاحكة التهكمية الساخرة – رغم عدم ذكر اسم صنوع صراحة في حديثه عن هذه العروض، ولكن عنوان المقالة يُشير إلى هذا المعنى بوضوح – وعروض القراقوز هذه، تطورت في شكل هجاء سياسي بلغة عامية في صحيفة صنوع (أبو نظارة)، التي صدرت في القاهرة. وهذا الهجاء جعله غير آمن فسافر إلى فرنسا، فطوّر فنه الهجائي هذا إلى أشكال من المحاورات المكتوبة، التي نُشرت في صحفه بفرنسا على شكل دراما مكتوبة، عُرفت باسم (اللعبات التياترية) !

هذا الفكر الجديد – المستخلص من مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review) – ربما يجعلنا نُعيد التفكير مرة أخرى في حياة صنوع، وما فيها من أقوال غير منطقية، وادعاءات، وأباطيل! ولو حاولنا إنصاف صنوع – بناء على هذا التفكير – من خلال التماس بعض التبريرات لادعاءاته الكثيرة، ربما نقول: أنه ادعى أستاذيته في مدرسة المهندسخانة، حتى يجد له عملاً في فرنسا، حيث كان يُعلن عن عمله هذا في ترويسة صحيفته: إنه مدرس ألسن شرقية وغربية! وعندما ادعى إن الخديوي إسماعيل أمر بمصادرة صحيفته المصرية وإلغائها، ربما قال ذلك حتى يروّج إصدارها الجديد في فرنسا! وربما ادعى إنه نبيّ ووليّ، حتى يسبغ على نفسه السماحة الدينية، فيلتف الناس من حوله! وربما ادعى إن الخديوي إسماعيل نفاه من مصر، حتى يستدر عطف قراء صحيفته، ويقنعهم بهجومه المستمر على الخديوي! وربما ادعى إنه كان عدواً للخديوي إسماعيل، حتى يكسب عطف وتأييد وتمويل الأمير حليم! وربما ادعى علاقته بعُرابي ورفقائه، ليضفي على نفسه صفة الوطنية! .. إلخ ما يُمكن تبريره لادعاءات صنوع، التي استغلها استغلالاً قوياً، فأصبح أسطورة الأساطير!

وإذا كانت المُسوغات السابقة – رغم عدم قبولها – يُمكن عدّها تبريرات لأقوال وإدعاءات صنوع، إلا أننا لم نجد تبريراً واحداً لقوله إنه أنشأ المسرح العربي في مصر ؟! بل ولم نجد سبباً واحداً يجعلنا نقبل هذا الادعاء! وهنا يبرز سؤال فيقول : إذا كانت ادعاءات صنوع السابقة، لها ما يبررها – رغم عدم منطقية التبرير – إلا أن نتائجها عادت بالنفع على صنوع .. إذن فما نفع صنوع من قوله إنه مؤسس

المسرح العربي في مصر ؟! بعد أن أصبح – بفضل ادعاءاته الأخرى – نبياً غير مرسل، ومفجراً للثورة العرابية، وخصماً للخديوي إسماعيل ... إلخ ؟!

لم أجد إجابة محتملة، غير القول: إن هذا الادعاء من قبل صنوع – ربما – كانت له نسبة ضئيلة من الحقيقة! أي إن يعقوب صنوع بالفعل له نشاط مسرحي محدود، تضخم بفعل طبيعة صنوع – كثيرة الادعاءات – وكتاباته، وكتابات أصدقائه! ولكن ما هو هذا النشاط، وما طبيعته، وما نسبته؟! هنا يأتي دور مقالة (الستاردي ريفيو Saturday Review)، ووصفها يعقوب صنوع – في عنوانها – إنه (بنش العربي)، أي لاعب القراقوز العربي ! أي أن مسرح صنوع في مصر – ربما – كان عبارة عن عروض فنية تُقام في المقاهي، أو الشوارع، أو الميادين، أو الحدائق العامة مثل عروض القراقوز! فهل إذا عُدنا إلى كتابات صنوع وأصدقائه ودارسيه، سنجد ما يؤيد هذه الفكرة ؟! .. سنحاول ذلك.

في هذا الكتاب، سنقرأ أن صنوعاً عرض مسرحيته (الضرتين) ٥٣ مرة، ومسرحيته (آنسة على الموضة) ١٠٠ مرة، وبلغ مُجمل لياليه أو عروضه في هذين العامين إلى ٣٠٠ ليلة عرض، أي بواقع عرض مسرحي كل يومين !! أيعقل أن هذا العدد الذي يفوق أكبر عروض مسارح العالم منذ ظهور المسرح الإغريقي إلى الآن، لا نجد مقابله إعلاناً واحداً، أو خبراً واحداً، أو مقالة واحدة لعرض واحد من مئات هذه العروض ؟! الإجابة : نعم من المعقول قبول ذلك في حالة واحدة، وهي اعتبار هذه العروض عروضاً لفن القراقوز، التي لا يُعلن عنها، ولا يُنشر عنها أية أخبار في الصحف !

كما سنقرأ في هذا الكتاب أيضاً، أن صنوعاً ألفّ أكثر من اثنتين وثلاثين مسرحية في عامين ! أي بواقع مسرحيتين في الشهر الواحد تقريباً. فهل أسبوعان مدة كافية لتأليف مسرحية، وتدريب الممثلين عليها، والإعلان عنها، وتجهيز المسرح بأدواته، ومن ثم تمثيلها ؟! وهل يُصدق أن اثنتين وثلاثين مسرحية عربية، يتمّ عرضها في عامين على أحد المسارح في القاهرة، في تلك الفترة ؟! وأين هذا المسرح الأسطوري، الذي عُرض على خشبته هذا العدد الضخم من العروض في عامين فقط ؟! فالأوبرا الخديوية، ومسرح الكوميدي الفرنسي مجتمعين، لم يعرضا

هذا الكم الهائل من المسرحيات في عامين، وهما مسرحان يتبعان الخاصة الخديوية مباشرة، وميزانيتهما تتبع ميزانية الخاصة الخديوية !!

الإجابة على ذلك أن هذه النصوص، كانت نصوصاً لعروض القراقوز، المعتمدة على الارتجال، والتي لا تستغرق وقتاً في التأليف أو التمثيل أو التجهيز، وأن المسرح الذي يعرض هذه العروض، هو عُلّبة خشبية تُحمل على الظهر، موضوعة في ميدان عام، أو في حديقة عامة ! فهذا هو مسرح صنوع، وهذه هي عروضه! ألم يذكر صنوع – في هذا الكتاب – عبارة (إدارة المقهى)، عند حديثه عن عروضه الأولى ؟! فهل هذا يعني أن عروضه كانت تُقام في أحد المقاهي؟! وهل المقاهي في هذا الزمن، كانت تعرض مسرحيات أدبية، أو عروضاً لفن القراقوز ؟! ألم يُوصف مسرح صنوع – في هذا الكتاب – إنه يخلو " من كل أثر للزوّاق"، وأن جمهوره من صغار التجار، والموظفين، والطبقة الشعبية. وكانت الجماهير تترقب كل عرض بفارغ الصبر، وتهرع لمشاهدته، وهي تلهث ؟! أهذا الوصف ينطبق على عروض المسرح، أم ينطبق على عروض القراقوز ؟!

سنقرأ كذلك في هذا الكتاب، وصف صنوع لعرضه المسرحي الأول، عندما قال: " ثم ارتفع الستار، فتقدمت أنا وحولي الممثلون إلى الجمهور. كان المشهد الذي كنت أراه أمامي طاغياً؛ وأنا لا أبالغ في ذلك. كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف شخص"! وصف صنوع هذا كان في عام ١٨٧٠م، وفي هذه الفترة لم يكن في مصر إلا مسرحان كبيران، الأول مسرح الأوبرا الخديوية وكان به من المقاعد ٨٥٠، والآخر مسرح الكوميدي الفرنسي، وكان به من المقاعد ٣٠٠، وذلك بناء على الوثائق الرسمية، التي ذكرها سادجروف في كتابه! فمن أين جاء صنوع بمسرح يتسع لثلاثة آلاف شخص ؟! علماً أنه لم يذكر اسم المسرح، أو مكانه، أو مكان العرض ! ألم يكن صنوع يصف عرضه الأول لفن القراقوز، المُقام – ربما – في ميدان عام، أو في حديقة الأزبكية أمام آلاف المشاهدين ؟!

ألم تستشهد جانيت تاجر – في مقالتها المنشورة في هذا الكتاب – باقتباس من جريدة (مصر L,EGYPTE) الفرنسية عام ١٨٧١م – وللأسف لم يحصل عليها أي باحث حتى الآن – عن عروض – ربما تكون لصنوع – يصفها إنها فن درامي ساذج في وسائله، ويُرضي الجمهور العربي، وهذا الجمهور يهرع إليه، وأن الكاتب

والفنانين والجمهور يتعاونون في تقديمه وعرضه .. إليس هذا الوصف ينطبق على عروض القراقوز ؟! ألم يقل بول دي بينيير أن صنوعاً في مسرحه كان المؤلف والممثل والملقن، وأن مسرحياته كانت تعتمد على شخصية واحدة، تثير الضحك ؟! أليس هذا وصفاً للاعب القراقوز وعروضه ؟!

خاتمة

هذه هي رؤيتي لمسرح صنوع، بناء على الجديد المُكتشف عنه ! وستظل حياة صنوع ومسرحه عُرضة للتأويلات، والتفسيرات، ومختلف الاحتمالات المتنوعة، طالما نفتقد الأدلة التي تؤيد أقوال صنوع وإدعاءاته. وسيظل صنوع هدفاً لأسنة أقلامي، حتى يظهر الدليل القاطع المانع، الذي يُبعده عن مرمى هذه الأسنة. فليس هدفي التشكيك في حياة صنوع، أو أنشطته المتنوعة، أو ريادته للمسرح العربي في مصر، بل هدفي، هو كتابة تاريخ المسرح المصري بصورة علمية صحيحة، بغية الوصول إلى الحقيقة، الواجب إثباتها وتسجيلها في عقول الدارسين، حتى يأخذ كل إنسان حقه من التقدير العلمي والتاريخي! فشهرة صنوع جابت الآفاق، وكُتب عنه ما لم يُكتب عن غيره، وسيرته أصبحت مثلاً يُحتذى! ثم أكتشف أخيراً أنها سيرة مرجعها الوحيد صاحبها !

وإذا كنت قد أوضحت رؤيتي في حياة صنوع ومسرحه، فهذا جهدي المتواضع – ربما أكون مُصيباً فيه، أو مُخطئاً – متمنياً أن يستكمله الباحثون في مجالات أخرى. فمثلاً أدعو المتخصصين في مجال تاريخ التعليم في مصر – بعيداً عن أقوال صنوع في مذكراته وصحفه، وكتابات أصدقائه – البحث عن اسم يعقوب صنوع، بوصفه تلميذاً أو أستاذاً أو مفتشاً، سواء في مدرسة المهندسخانة، أو في أية مدرسة أخرى. كما أدعو المتخصصين في مجال تاريخ أسرة محمد علي باشا الكبير، البحث عن روفائيل صنوع – والد يعقوب صنوع – بوصفه موظفاً أو مستشاراً لفرد من أفراد أسرة محمد علي. وأدعو كذلك المتخصصين في مجال الجمعيات الأدبية والسياسية والمحافل الماسونية، ربما يجدون اسم صنوع ضمن أعضائها. وربما هذه الدراسة، تُثير حفيظة المتخصصين في تاريخ الخديوي إسماعيل، فيبحثون عن دور صنوع في حياته. أو المتخصصين في مجال القوانين والأوامر والفرامانات، ربما

يجدون أوامر إغلاق مسرح صنوع، أو مصادرة جريدته، أو نفيه. كذلك المتخصصين في تاريخ الثورة العُرابية، ربما يجدون دوراً لصنوع فيها، أو تأثيراً له على زعمائها. وأخيراً أدعو المتخصصين في تاريخ اليهود المصريين البحث عن اسم يعقوب صنوع الحقيقي، ومعرفة تاريخ مولده، وعمله، ونشاطه، وجنسيته !!

أما ريادة صنوع للمسرح العربي في مصر، من عام ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢م، فلا مجال لحسمها عن طريق التأويل، أو التفسير، أو التخمين! بل يجب حسمها – بعيداً عن أقوال صنوع وكتاباته، وكتابات أصدقائه – عن طريق الدليل القاطع المانع المنشور في مدة (١٨٧٠-١٨٧٢م) – وأن يشتمل هذا الدليل على عبارات واضحة عن المسرح، وأن يُذكر فيه – صراحة – اسم (يعقوب صنوع)، أو (صنوع)، أو (James Sanua)، أو (Sanua). وهذا الدليل ربما يوجد في: الوثائق العربية، أو التركية، أو الصحف العربية، أو الصحف الأجنبية، أو المذكرات، أو اليوميات، أو كتابات الرحالة ... إلخ. ومن وجهة نظري، هذا الدليل – ربما – يظهر في حالات ثلاث – بكل أسف – لم أستطع تحقيق إحداها .. حتى الآن :

الأولى: الحصول على عددي جريدة (نزهة الأفكار)، التي أصدرها – في أغسطس عام ١٨٧٠م – محمد عثمان جلال، وطُبعت في مطبعة جمعية المعارف، لصاحبها إبراهيم المويلحي، لا سيما أن محمد عثمان جلال من كُتّاب المسرح الأوائل – ويُقال إنه على علاقة بصنوع، كما جاء في مقال جاك شيلي المنشورة في هذا الكتاب – والآخر إبراهيم المويلحي، ذُكر اسمه كثيراً في الخطابات، التي نشرها شامويل موريه في دراسته سابقة الذكر. وهذا يعني أن الجريدة، ربما تكون ذكرت مسرح صنوع، لا سيما أنها صدرت في أول أعوام نشاط مسرح صنوع ١٨٧٠م، تبعاً لأقوال صنوع في كتاباته!

الثانية: الحصول على بقية أعداد مجلة (وادي النيل) بعد عام ١٨٧١م، لعلنا نجد أخباراً عن مسرح صنوع العربي – لأننا لم نجد هذه الأخبار في أعداد المجلة المتوفرة في عامي ١٨٧٠ و١٨٧١م. فهذه المجلة كانت مهتمة بجميع الأنشطة الفنية، لا سيما المسرح. هذا بالإضافة إلى أن صاحبها عبد الله أبو السعود من المسرحيين القُدامى، والمُعرّب الأول لأوبرا (عائدة) عام ١٨٧١م.

الثالثة: الحصول على جميع أعداد جريدة (الجوائب) في المدة (١٨٧٠-١٨٧٢م)، التي كان يصدرها أحمد فارس الشدياق في الأستانة، حيث إنها كانت تنشر أخبار المسرح، فقد ذكرت خبراً عن رجل إنجليزي اسمه (جيمس)، مثّل مسرحية عربية في الأزبكية لأول مرة عام ١٨٧٢م! وبعض الدارسين ظنوا الخبر يخصّ مسرح صنوع العربي، وفاتهم أن مسرح صنوع أُغلق عام ١٨٧٢م – تبعاً لأقواله – فكيف يكون تاريخ أول عرض مسرحي عربي لجيمس الإنجليزي، هو نفسه تاريخ آخر عرض لجيمس سنوا، أو (يعقوب صنوع) ؟! لذلك يجب الاطلاع على أعداد جريدة (الجواب)، لتتبع هذا الخبر، وغيره، ربما نكتشف الرائد الحقيقي للمسرح العربي في مصر !

والله ولي التوفيق

دكتور

سيد علي إسماعيل

الدوحة ٢٠٠٨/٦/٩م

يباع في جميع المكتبات

٢ فرنك ٢ فرنك



بول دي بينيير

ألبــوم أبــو نظـــارة

مع

٤٨ صفحة من الصور

مصـــر الســـاخـرة

نظرات

ومحاضرات

الشيخ

أبو نظارة



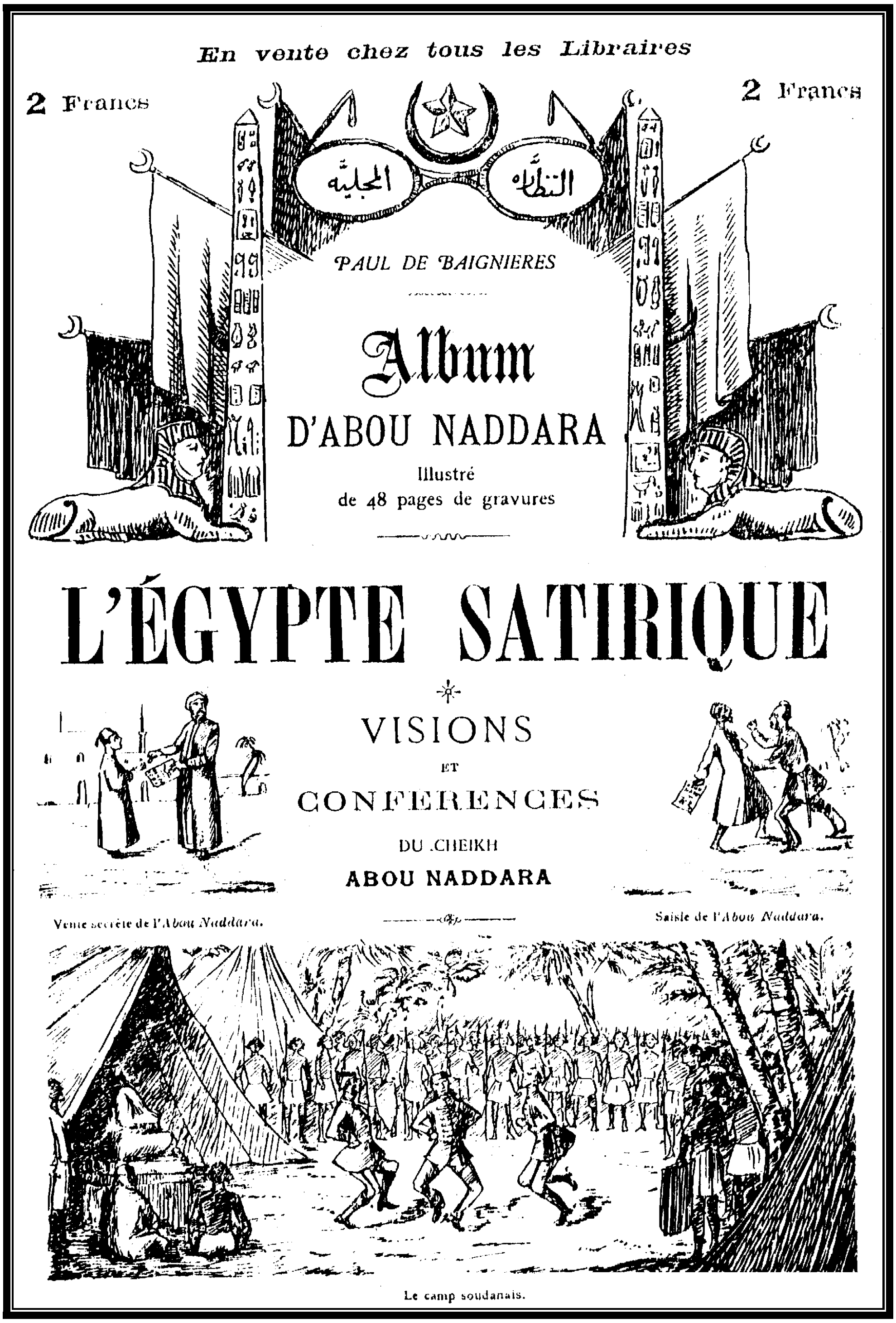
Vente secrète de l'*Abou Naddara.*



Saisie de l'*Abou Naddara.*



Le camp soudanais.


En vente chez tous les Libraires

2 Francs — 2 Francs

PAUL DE BAIGNIERES

Album

D'ABOU NADDARA

Illustré
de 48 pages de gravures

L'ÉGYPTE SATIRIQUE

VISIONS
ET
CONFERENCES
DU CHEIKH
ABOU NADDARA

Vente secrète de l'*Abou Naddara*.

Saisie de l'*Abou Naddara*.

Le camp soudanais.

باريس

مطبعة لوفيبفر

٨٧ – ٨٩ ممر القاهرة ٨٧ – ٨٩

١٨٨٦

المراسلات وطلب النسخ

باسم المؤلف على العنوان التالي

مكتبة لوفيبفر ٨٧ – ٨٩ ممر القاهرة، باريس (❋)

(❋) – المؤلف (بول دي بينيير) – وقت نشر كتابه هذا عام ١٨٨٦م – كتب عنوانه، أو عنوان مراسلته على العنوان المذكور في المتن. وهذا العنوان هو عنوان (مكتبة / مطبعة) جريدة (أبو نظارة) الخاصة بصنوع عام ١٨٨٦م، أي في العام نفسه الذي نُشر فيه الكتاب! وهذا يعني أن مؤلف الكتاب (بول دي بينيير) هو أحد العاملين في جريدة (أبو نظارة)؛ وتحديداً هو رسام الجريدة، لأنه قال في بداية الكتاب – كما سنرى – أن صنوعاً " من المعجبين جداً بصورنا الشعبية ". هذا بالإضافة إلى أنه سينقل عدداً كبيراً من رسومات صحيفة (أبو نظارة)، بعد إعادة رسمها من جديد، وهذا سنطلع عليه في الجزء المصور من (ألبوم أبو نظارة). والصورتان التاليتان هما الدليل على أن عنوان المؤلف، هو نفسه عنوان جريدة (أبو نظارة) عام ١٨٨٦م..

à l'IMPRIMERIE LEFEBVRE, 87-89, passage du Caire, Paris.

عنوان مطبعة الكتاب عام ١٨٨٦م، كما جاء في أصل الكتاب بالفرنسية.

ibre, Pas. du Caire, 87.89. Paris Le Gérant: G. Lefebvre.

عنوان مطبعة جريدة (أبو نظارة)، كما جاء في نهاية كل عدد من أعداد عام ١٨٨٦م.



الشيخ ابو نظارة المصري

LE CHEIKH ABOU NADDARA (*)

(*Reproduction du portrait paru dans les journaux illustrés d'Europe.*)

الشيخ أبو نظارة المصري

نسخة من الصورة المنشورة في الصحف

الأوروبية المصورة

ألبوم أبو نظارة

أجل، ليس هذا سوى الألبوم، لا شيء سوى ألبوم أبو نظارة الذي نسمح لأنفسنا بتقديمه للقراء. وحينما نقول ألبوماً، فهو أيضاً لفظ ادعائي فيه بعض المغالاة. لــذلك لنقل " صوراً " فهذا أكثر تواضعاً وأقرب للحقيقة. على أية حال، هذا اللفــظ الأخيــر سيعجب أبو نظارة فهو من المعجبين جداً بصورنا الشعبية (*) الخاصة بإيبينال (١).

فكم من مرة سمعناه يُعرب عن أسفه لأنه لا يستطيع أن يزوق رسومه البسيطة الخبيثة على طريقة الفنون الشعبية، باستخدام كثير من اللــون الأزرق، وكثيــر مــن الأحمر، وكثير من الأخضر وبخاصة كثير من الذهبي. كان الرجل يصيح قائلاً: "مــا أعظم النجاح الذي كنت سأحققه بين الفلاحين في بلدي، وكم كنت سأضــحكهم، هــم الذين لديهم الكثير من الأسباب التي تدفعهم للبكاء! ".

من المؤكد أن من بواعث أسفنا ألا نستطيع أن نعيد طباعة المقالات والأغــاني والحوارات التي تصاحبها الصور التي سنشاهدها، والتي ستكون بمثابة تعليقات لها أو مداخل. غير أن من النادر جداً أن نجد في باريس من يقرأ هــذه النــصوص باللغــة العربية. أما ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، فلا ينبغي أن نفكر في ذلك. لأن أبو نظــارة لا يمكن ترجمته.

(*) – هذا القول يثبت أن مؤلف الكتاب (بول دي بينيير) على علاقة وطيدة بصنوع. وإذا جمعنا بين هذا القول، وبين عنوان المؤلف – الذي هو في الأصل عنوان جريدة (أبو نظارة)، كما أوضحنا في تعليق سابق – سيتضح لنا أن مؤلف الكتاب، هو أحد العاملين بجريدة صنوع، وتحديداً هو رسام جريدة (أبو نظارة)!!

(١) – (إيبينال): احتفال شعبي يُقام في فرنسا (المترجم).

هذه العبارة ليست من عندنا، وإنما هي لكاتب كبير ورحّالة إنجليزي عرف أبو نظارة في القاهرة قبل عدة سنوات. ورسم له في صحيفة " ستاردي ريفيو " في العدد الصادر في ٢٦ يوليو ١٨٧٩م، الصورة التالية (*):

" أبو نظارة ليس سوى اسم يرمز لكاتب، ومعناه بالعربية الرجل الذي يلبس نظارة" الاسم الحقيقي لأبو نظارة هو جيمس صنوع، أما عن حالته الاجتماعية فهو يلقب ب "الشيخ" حينما يريد أن يتبع النمط العربي، أما حينما يريد أن يتبع النمط الإيطالي، فهو يلقب بالبروفيسور أو الأستاذ. أما عن كونه أستاذاً، فهو أستاذ بالفعل، من أم رأسه حتى أخمص قدمه وبالعكس.

" تصور رجلاً معتدل القامة متوسط الطول، نحيفاً، قليل شعر الرأس الأسود – الذي يُميز الجنس الإسرائيلي – مصاباً برمد، أو بمعنى أصح جحوظ في عينيه، انتقل هذا المرض إليه بالوراثة من جيل إلى جيل. وكم من مرة سمعت من يقول من

(*) – من وجهة نظري أن مؤلف الكتاب (بول دي بينيير)، لم يطلع على مقالة جريدة (الساتردي ريفيو) المؤرخة في ١٨٧٩/٧/٢٦م – وقد تحدثنا عن ذلك في دراستنا في بداية الكتاب – أو أنه استقى معلوماتها من صنوع نفسه! الدليل على ذلك قوله إن كاتب مقال (الساتردي ريفيو) هو "كاتب كبير ورحّالة إنجليزي عرف أبو نظارة في القاهرة قبل عدة سنوات". وعندما اطلعنا على أصل المقالة وهي بعنوان (بنش العربي " AN ARABIC " PUNCH)، وجدنا أولاً : أنها مقالة منشورة – في عمودين – بدون مؤلف! أي لا يوجد اسم كاتب لها! فكيف عرف بول دي بينيير أن كاتبها هو كاتب كبير؟! ثانياً: ادّعى المؤلف أن كاتب المقالة رحّالة، والمقالة – مجهولة المؤلف – لم تذكر أن كاتبها رحّالة! ولكنها تبدأ بعبارة يُفهم منها أن كاتبها زار القاهرة، أو بعض البلاد الشرقية. فهل هذا يعني أنه رحّالة؟! ثالثاً: يزعم المؤلف أن كاتب المقالة عرف صنوعاً في القاهرة قبل عدة سنوات. والحقيقة أن المقالة ليست فيها هذا المعنى بصورة صريحة، أي أن كاتبها لم يقرّ بمعرفته بصنوع بصورة مباشرة، ولكنه بدأ مقالته بالحديث عن فن القراقوز الموجود في مصر وتركيا، وشبهه بفن العرائس في إنجلترا المعروف بفن (بنش وجودي)، ثم ربط هذا الفن بصور صنوع الكاريكاتورية المنشورة في جريدته. وهذا الأمر فيه احتمالان: الأول، أن كاتب المقال شاهد صنوعاً – أو تعرّف إليه – في القاهرة عندما كان يجوب صنوع الشوارع عارضاً فنونه العرائسية (القراقوز)، بدليل أن عنوان المقالة – التي تتحدث عن صنوع – هو (بنش العربي)! أي أن صنوعاً هو لاعب القراقوز العربي – في نظر كاتب المقالة – مثل (بنش) لاعب القراقوز الإنجليزي! والاحتمال الآخر، أن الصور الكاريكاتورية المنشورة في صحف صنوع، عدّها كاتب المقال فناً من فنون العرائس المرسومة، الشبيهة بعروض القراقوز (بنش وجودي) الإنجليزية.

حولي إن جيمس صنوع عيناه مثل عيني المرحوم " جيمس روزفيلد "، وهو لم يأخذ عنه غير ذلك! " (*).

" كان ذلك صحيحاً. كان صنوع ذا طبيعة متمردة إلى أقصى درجة ضد كل ما هو أرقام، كل ما هو حساب اقتصادي؛ فهو والرياضة في خصام أزلي. وعلى النقيض من ذلك، فهو يتحدث ويكتب بكل مهارة اللغات العبرية والعربية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والأسبانية والبلغارية والروسية والبولندية، وماذا أيضاً؟ إن ما أنقذ صنوع، وحقق له التفّرد الكافي، هو أنه إذا كان يتحدث جميع اللغات المعروفة وغير المعروفة، فقد كان لحسن حظه ولما لديه من إصرار، لا يفكر إلا باللغة العربية " (**).

مستعرب عجيب! ولكن العربية التي يستعملها أبو نظارة ليست اللغة العربية الكلاسيكية أو الفصحى، ولا اللغة العربية الدّارجة، لكنها عربية وسطى، ابتدعها هو كوسيلة للذيوع أو للنشر (***). وهي وسيلة مُثلى، إذا أدركنا أن أبو نظارة يقرؤه

(*) – هذا القول يثبت – بدون أدنى شك – أن بول دي بينيير لم يطلع على مقالة (الساتردي ريفيو)، لأنها خالية تماماً من كل كلمة ذُكرت في هذا الاقتباس!!

(**) – لم يُوضح المؤلف: هل هذا الاقتباس منقول من (الساتردي ريفيو)، أو هو من كلامه؟ فإذا كان منقولاً من مقالة (الستاردي ريفيو)، سنضيف بذلك دليلاً جديداً على عدم اطلاعه على مقالة (الساتردي ريفيو)؛ لأنها لا تتضمن هذا الكلام عن الحساب والاقتصاد والرياضة أو أسماء اللغات ... إلخ، بل أشارت فقط إلى أن صنوعاً كان يعرف عدة لغات! وإذا كان الاقتباس من كلام المؤلف بول دي بينيير، سنقول: إن معلومة معرفة صنوع بعدد كبير من اللغات، معلومة مأخوذة من أقوال صنوع في صحفه، حيث نشرها صنوع – قبل نشر كتاب بول دي بينيير – في (محاورة أبي خليل وأبي العينين وأبي الشكر على قهوة البورصة بالأزبكية)، جريدة (أبو نظارة)، عدد١، ١٨٧٨/٨/٧م.

(***) – لهجة صنوع في صحفه، هي لهجة عامية مبتذلة، ويُعتبر صنوع من أوائل من شجعوا على شيوع العامية في مصر، وتُعتبر صحيفته (أبو نظارة) من أوائل الصحف العربية المنشورة باللهجة العامية. ومثال على أسلوب صنوع المبتذل في صحفه، ما أورده في مشهد تخيله – بصحيفته (أبو زمارة) بتاريخ ١٨٨٠/٧/١٧ – يجمع بين الخديوي توفيق، ورئيس وزرائه رياض باشا، والوزير مصطفى فهمي باشا، قائلاً: ".. وبعتوا ندهوا الواد مصطفى [أي مصطفى فهمي باشا] وبالأقلام ورّموا له الخدّ والقفا. وقالوا له شابرق شابرق أحجز جريدة الصفارة ولا نُحطّك على خازوق. فارتعش فهمي وخَرى في لباسه".

ويفهمه ويذوقه جميع طبقات المجتمع العربي (*). ولكنها وسيلة ضارة من ناحية أخرى، إذ أن أبو نظارة يستحيل ترجمته إلى أية لغة أوروبية.

١ - أبو نظارة في مصر

يروي لنا كاتب صحيفة "ستاردي ريفيو" دور أبو نظارة في مصر تحت حكم إسماعيل:

" في الصباح، ولكي يحصل على قوت يومه، نراه يتنقل من قصر إلى قصر، ومن فندق إلى فندق، يدرِّس لأبناء الأمراء، والباشوات، اللغات أو العلوم الأوروبية، ويدرِّس لبناتهم الموسيقى والتصوير وغير ذلك من الفنون. ولا يمكن أن نقول إن صنوعاً كان أستاذاً في الرقص، ولكن هذا الرجل الداهية كان قادراً على فعل كل شيء بواسطة الناي الصغير الذي كان ينفخ فيه (**).

(*) – هذا الحكم غير صحيح، حيث إننا لم نجد إلا إشارتين في الصحف المصرية عن صحيفة (أبو نظارة): الأولى في جريدة الأهرام عندما أشارت إلى الصحيفة عندما صدرت لأول مرة في مصر، والأخرى في جريدة التجارة عندما هاجمت صحيفة (أبو نظارة)، من خلال خطبة للشيخ جمال الدين الأفغاني، نشرها في الجريدة الشيخ محمد عبده، وسيأتي ذكر ذلك في تعليق لاحق. وغير هاتين الإشارتين لم نجد ذكراً لصحيفة (أبو نظارة)، دلالة على عدم اهتمام الناس بها، وهو ما يخالف رأي المؤلف.

(**) – هذا الاقتباس يعدّ دليلاً جديداً على عدم اطلاع المؤلف (بول دي بينيير) على مقالة (الساتردي ريفيو). فهذا الجزء جاء في أصل مقالة (الساتردي ريفيو) بالإنجليزية هكذا:

Possessing a knowledge of several languages beside his own, Abou Naddarah gained his livelihood by giving lessons in European languages and sciences to the sons and even the daughters of Pashas and other wealthy persons in Cairo, and numbered amongst his pupils several members of the Viceroy's family.

وترجمته: "لمعرفته بعدة لغات، بجانب لغته، كان أبو نظارة يحصل على رزقه (معيشته) – في القاهرة – بإعطاء دروس في العلوم الأوروبية ولغاتها لأبناء الأغنياء والباشوات، وعدد من تلاميذه كانوا من أسر الأمراء". فأين من هذا النص، مما ذكره المؤلف عن: الانتقال من قصر إلى قصر، ومن فندق إلى فندق، ودروس الموسيقى والتصوير، والناي الذي ينفخ فيه صنوع ... إلخ ؟! ومن الواضح أن بول دي بينيير، كتب هذه الأمور من خلال صنوع، وبتأثر مما كتبه صنوع عن نفسه، ونشره في صحيفته (أبو نظارة) – عدد ١٥، يوم السبت السادس عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هجرية، الموافق ١٨٧٨/٥/١٨م – من خلال إحدى المحاورات، قال فيها أبو الشكر عن صنوع: " من الصُبح للظهر داير على زباينه يعلمهم ألسن قراءة وكتابة ".

أما في فترة العصر والمساء، فكان أبو نظارة يخلو إلى نفسه. ألم يكن قد أخذ على عاتقه وحده تأسيس مسرح عربي (*)؟ يتولى فيه كل شيء. فقد كان المؤلف في

(*) — لم يقل أحد إن صنوعاً هو مؤسس المسرح العربي في مصر، غير صنوع نفسه، عندما قال بذلك في صحفه بتاريخ ١٨٧٨/٤/١٧، ١٨٧٩/٣/٢١م - قبل نشر هذا الكتاب المُترجم — وحدد نشاطه هذا بالفترة بين عامي (١٨٧٠-١٨٧٢م). وإذا نحينا جانباً أقوال صنوع في هذا الشأن، ونظرنا إلى ما نشرته الصحف والكتب — المعاصرة لوجود صنوع في مصر وفرنسا حتى وفاته وما بعد وفاته - سنجدها تقول إن المؤسس الحقيقي للمسرح العربي في مصر هو سليم خليل النقاش عام ١٨٧٦م. ومن هذه الأقوال على سبيل المثال: ما ذكره سليم النقاش في مقدمة مسرحيته ميّ المنشورة عام ١٨٧٥م، بأنه سيخدم الخديوي إسماعيل " بإدخال فن الروايات في اللغة العربية إلى الأقطار المصرية ". وقول مجلة الجنان في يولية ١٨٧٥م " بأن الحضرة الخديوية السنية قد اهتمت بإنشاء روايات عربية .... ولذلك صممت على إنشاء الروايات العربية " وأن يقوم بهذه المهمة في مصر سليم النقاش. كذلك نجد مجلة الجنان في أغسطس ١٨٧٥م، تنشر مقالة بقلم سليم النقاش قال فيها عن الخديوي إسماعيل: ".. بلغت فوق ما تمنيت من أفضال جنابه العالي وأحسن إلى بقبول طلبي وذلك بأن أدخل فن الروايات باللغة العربية إلى الأقطار المصرية ". وقول محمود واصف - في مقدمة مسرحيته عجائب الأقدار المنشورة عام ١٨٩٥م - " أن فن التشخيص بلغتنا العربية لم يدخل إلى بلادنا المصرية إلا منذ عهد قريب على يد طيب الذكر سليم أفندي النقاش ". وقول مجلة الهلال — ديسمبر ١٨٩٦م — " لم يدخل فن التمثيل العربي إلى هذه الديار إلا في أواخر حكم المغفور له الخديوي إسماعيل باشا، وأول من مثل رواية تشخيصية فيها المرحومان أديب إسحاق وسليم نقاش ". وقول جريدة الأخبار — في ١٩١٢/١/٤ — " هيهات أن ننسى الأديبين الكبيرين المرحومين سليم النقاش وأديب إسحاق اللذين أخرجا فن التمثيل إلى عالم الوجود في مصر ". وقول جورج طنوس — في كتابه الشيخ سلامة حجازي وما قيل في تأبينه، المنشور عام ١٩١٧م — " ظهر التمثيل العربي في هذه الديار. وكانت نشأته الأولى في الإسكندرية على أيدي الأديبين الشهيرين إسحاق والنقاش ". وقول محمد تيمور عام ١٩١٩م — في كتابه حياتنا التمثيلية — " أتانا التمثيل ... وأول من جاءنا به قوم من فضلاء السوريين أمثال النقاش وأديب إسحاق والخياط ... ولقد نجحوا في بناء أساس ذلك الفن نجاحاً كبيراً... وأنشئوا بأيديهم فن التمثيل في مصر". وكذلك قول خليل مطران — في مجلة الهلال ١٩٢١/٢/١ — "المرحوم سليم النقاش... أول من أنشأ فرقة للتمثيل بمصر باتفاق بينه وبين الحكومة ". وقول محمد فاضل في كتابه الشيخ سلامة حجازي، المنشور عام ١٩٣٢م — " كان ظهور هذا الفن في مدينة الإسكندرية، حيث كانت أصونة الأدباء إسحاق والنقاش والخياط مخيمة في ميدان المنشية ". وقول أحمد شفيق باشا في مذكراته عن التمثيل " ثم بدأت تفد على مصر بعض الفرق السورية، فكان ذلك منشأ المسرح العربي الأهلي، وأولى هذه الفرق هي فرقة سليم النقاش". وقول عبد الرحمن صدقي في مجلة الكتاب، يناير ١٩٥١م " كانت بداية المسرح في مصر الحديثة في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر على عهد الخديوي إسماعيل ... ثم كان على يديه مطلع التمثيل العربي ... حين وفدت فرقة للتمثيل العربي من لبنان قوامها سليم النقاش وأديب إسحاق ويوسف خياط ". ورغم كثرة هذه الشواهد، لم نجد شاهداً واحداً صريحاً — في اللفظ والمعنى - يقول إن صنوعاً هو مؤسس المسرح العربي في مصر، إلا كتابات صنوع وبعض أصدقائه!!

أغلب الأحيان، والممثل والمدير والملقن وغير ذلك. ولا ينبغي أن نسخر من ذلك، فقد كانت هذه المسرحيات التي تعتمد على شخصية واحدة، تتضمن نظرات ثاقبة وملاحظات صائبة، وتثير ضحكاً تلقائياً ودموعاً صادقة، بحيث لم يلبث الجميع أن أسرعوا لمشاهدتها. كان الفلاحون يهرولون إليها لاهثين، والباشوات يأتون إليها بدافع الفضول والاستغراب (*). بل أن الخديوي نفسه شاهدها، واستمتع بها. وعند انصرافه خلع على صنوع لقب "موليير مصر" (**).

(*) – جاء وصف مسرح صنوع في هذه الفقرة، بأن صنوعاً يتولى فيه كل شيء من تأليف وتمثيل وتلقين .. إلخ!! وكانت مسرحياته تعتمد على شخصية واحدة! تتضمن نظرات ثاقبة وملاحظات صائبة، وتثير ضحكاً تلقائياً!! والسؤال الآن: ما هو نوع هذا الفن الذي يتصف بهذه الصفات؟! أليس هو عروض الشوارع، مثل: عروض القراقوز وخيال الظل والحواة والمحبظين وأولاد رابية!! أليست هذه العروض تجذب الفلاحين فيهرولون إليها، لأنه من غير المعقول أن يهرع الفلاح إلى مسرح راقٍ ويدفع ثمناً لتذكرة الدخول! بل هو يهرع إلى عرضٍ – زهيد الثمن – يُعرض في الشوارع والميادين والحدائق والحقول. وإذا كان مسرح صنوع مسرحاً راقياً – كما قال صنوع وأصدقاؤه – فلماذا يشاهده الباشوات بدافع الفضول والاستغراب؟! ألم تكن دار الأوبرا الخديوية موجودة، وكذلك مسرح الكوميدي الفرنسي بالأزبكية موجوداً، فهل كان الباشوات يذهبون إليهما بدافع الفضول والاستغراب؟! وهذا يثبت أن الفضول والاستغراب هما نتيجتان طبيعيتان لعروض غير مألوفة، والمقصود بها عروض الشوارع، أي عروض صنوع الفنية. وتأكيداً على ذلك، نسأل: ألم يصف كاتب مقالة (الستاردي ريفيو) عام ١٨٧٩م صنوعاً ببنش العربي، أسوةً بلاعب العرائس بنش الإنجليزي؟! ألم يدرس د.علي الراعي نصوص مسرحيات صنوع، بوصفها نصوصاً شعبية كوميدية لمسرح القراقوز وخيال الظل، في كتابه " فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحاني" عام ١٩٧١م؟! ألم يشر فيليب سادجروف – في كتابه (المسرح المصري في القرن التاسع عشر) – إلى دراسة عطية أبو النجا عام ١٩٧٢م، الذي ذهب فيها إلى أن مسرحيات صنوع كانت نصوصاً ارتجالية؟! ألم يكتب شامويل موريه ثلاث دراسات، ربط فيها عروض صنوع المسرحية بعروض خيال الظل والمحبظين وأولاد رابية: الأولى عام ١٩٧٣م بعنوان " المسرح العربي في مصر في القرنين الثامن والتاسع عشر" (ص١١٣)، والثانية عام ١٩٨٦م بعنوان " المسرح الحي في العالم الإسلامي في القرون الوسطى " (ص٦٠٩–٦١١). والأخيرة عام ١٩٨٧م بعنوان "يعقوب صنوع: صفاته الدينية وعمله في المسرح والصحافة وفقاً لأرشيف العائلة " (ص١٢١، ١٢٢). وأخيراً نجد دراسة المرحوم د.محسن مصيلحي " من الذي كتب مسرحيات يعقوب صنوع؟ " عام ٢٠٠٥م، ذهب فيها إلى أن عروض صنوع هي عروض أولاد رابية.

(**) – لم يذكر أحد إن الخديوي إسماعيل شاهد مسرحيات صنوع، حتى لقب (موليير مصر) فهو زعم من مزاعم صنوع الكثيرة! وأكبر دليل على ذلك عدم وجود أية إشارة في جميع الصحف العربية والأجنبية – التي اطلعت عليها، واطلع عليها جميع الدارسين ممن كتبوا عن صنوع – تذكر صراحة

في ذلك العصر، دأب عدد كبير من رجال الثقافة والذوق الرفيع على متابعة عروض أبو نظارة بشغف كبير. كان ينبغي أن نشاهده وهو يحاور ويجادل الفلاحين المصريين، فنظنه واحداً منهم، من فرط تقمصه وتلبسه لشخصياتهم. ينبغي أن نسمعه وهو يُبدي ملاحظاته الذكية الساخرة ويطلق قهقهاته الصبيانية! ينبغي أن نرى آثار الدموع الصامتة تسيل على وجنتيه النحيلتين. كان هذا الرجل يتمتع بالقدرة الخارقة التي تجعله قادراً على أن يجمع في شخصه وحده شعباً بأكمله.

كان عن طريق حركاته وإيماءاته وعباراته الموحية، بل وبفضل ما يعبر عنه بالأنين والشكوى من عذاب أليم، يجّسد بكل صدق وإخلاص معاناة شعب ليس لها نظير في العالم، تحمل جميع صنوف الغزو الخارجي، وقاسى جميع ألوان القهر الداخلي، وارتفع فوق ذلك كله وواصل الحياة بعده بفضل استكانته الصامدة.

وإلى جانب هذا الشعب المقهور، يصور أبو نظارة أنماطاً أخرى من المصريين يعيشون في ترف من العيش. ذات يوم وهو يخطب في الناس رفع إصبعه وأشار به إلى الحاضرين وهو يقول الآتي أو ما معناه: " هناك الكثير من الأشخاص الواحد منهم لا يساوي في الرجولة عُشْر رجل، بل ولا واحد على مائة من الرجل، ومع ذلك فهم يملكون في قصورهم مئات النساء. وأستطيع أن أحددهم بالاسم ". كان لهذا الكلام تأثير الصاعقة ورسم الابتسامات الساخرة وعلامات التعجب والاستهجان (*).

أو تلميحاً — في الفترة بين عامي ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢م، أو بعد ذلك - بأن الخديوي شاهد مسرح صنوع أو خلع عليه أي لقب من الألقاب، بل ولم نجد أية إشارة تفيد وجود علاقة ما بين الخديوي وصنوع!! وربما هذا الأمر يثير فضول الدارسين فيبحثون في هذا الأمر لعلهم يجدوا دليلاً صريحاً دامغاً يخالف ما أقول به، لا سيما أن الصحف كانت تنشر كل شادرة وواردة عن الخديوي.

(*) — مزاعم تعوّد صنوع على ترديدها في كتاباته، والإيعاز بها إلى أصدقائه، من غير وجود أي دليل يؤيدها، أو يدل على حدوثها. ناهيك عن عدم منطقيتها! فلم نسمع أو نقرأ عن إنسان في مصر — في هذا الزمن — استطاع أن يخطب خطبة عامة بين الناس، ويتفوه بمثل هذا الكلام! بل ولم نجد مقالة واحدة منشورة — طوال وجود صنوع في مصر — تشير إلى أنه خطب خطبة واحدة في مصر بين الناس! لا سيما أنه هنا يقصد رجال الحكم والباشوات، لأنهم أصحاب القصور المُشار إليها في حديثه .. فهل يُعقل هذا؟! وهل هذا الموقف كان من الممكن أن تتركه الصحافة من غير الإشارة إليه؟!

" وأما فيما يتعلق بنقد الإدارة الحكومية، فقد حمل أبو نظارة عليها تحت حكم إسماعيل، وواتته الجرأة لكي يعلن أن الخديوي يزداد سمنة وبدانة في الوقت الذي يزداد فيه الفلاح المصري نحولاً وضعفاً. ولم يكتف أبو نظارة بالكلام، بل أتبع ذلك بالكتابة والنشر، مما عرّضه للتهديد والوعيد" (*).

" كان التهديد من العنف بحيث إن أبو نظارة استجاب لنصائح بعض الأصدقاء الذين حذروه من تناول أي قهوة خديوية تقدم له. وعلق أبو نظارة على ذلك قائلاً: "لو حاولت أن أذوق هذه القهوة فإن معدة الفقير إلى الله ابن أبي (يقصد نفسه) لن تتحمل ذلك، وسيكون الوقت قد فات. علينا إذن أن نبتعد " (**). وابتعد أبو نظارة قاصداً فرنسا وباريس بالذات، الملاذ الآمن والأزلي للشعراء من جميع الأقطار ومن جميع الجنسيات (***).

٢ - أبو نظارة في باريس

نحن نعرفه، نحن: وسنحاول أن نوجز ذلك في عبارات قليلة بقدر المستطاع. مع أنه شاعر، وأي شاعر، شاعر حقاً، بالمعنى الفطري للكلمة؛ فإن صنوعاً ليس بالرجل النفور العبوس على شاكلة " دانتي "، ممن يجدون خبز المنفى مُراً، حتى ولو

(*) – هذا الكلام يوحي بأن صنوعاً جاهر بذلك أمام الناس في مصر، وهو كلام غير صحيح لأنه لم يحدث، ولا دليل على حدوثه. والحقيقة أن هذا الكلام جاء من خلال رسم كاريكاتوري نُشر في صحيفة (أبو نظارة) في باريس – وليس في مصر – بتاريخ ١٨٧٨/١٠/٢٢م. وهذا الرسم منشور في صفحة (٧٥) من هذا الكتاب.

(**) – هذا الكلام يشير إلى حادثة مقتل إسماعيل صديق المفتش، الذي قال صنوع إن الخديوي إسماعيل قتله بالسم عندما وضعه له في فنجان القهوة. وقول صنوع حول هذه الحادثة لم يُذكر صراحة أثناء وجود صنوع في مصر كما يُشير الكلام، بل نشره صنوع في صحفه من خلال إشارات كثيرة تلميحاً، ومن خلال الرسم الكاريكاتوري المنشور في صحفه بباريس. وحول هذه الإشارات، ينظر: صحيفة (أبو نظارة) — ٢٥ إبريل، ٥ مايو، ١٤ أغسطس، ١٥ سبتمبر، ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٧٨م.

(***) – هذا القول الصريح يؤكد أن صنوعاً سافر بمحض إرادته إلى فرنسا، ولم يُنفَ كما سيقول لاحقاً!

كان كعكاً أو فطيراً، أو يتبرمون من قساوة ووعورة طريق المنفى (*)، حتى ولو كان هذا الطريق مفروشاً بالسجاد. كذلك لم يكن الرجل من النوع اليئوس القنوط الذي سرعان ما ينطوي على نفسه ويعتزل الناس بمجرد إصابته بالجروح الأولى التي يُصاب بها المرء في الحياة. على النقيض من كل ذلك، فقد كان بشوشاً حيياً حركياً. يسعد بطبيعة الحال للرخاء واليسر، لكنه لا يعبس ولا يكفهر أمام الشدّة وعند المصيبة. كان في الحالين يبتسم ابتسامة صافية لا يعكر صفوها شيء (**).

(*) – في الأسطر القليلة السابقة يعترف مؤلف هذا الكتاب بأن صنوعاً سافر بإرادته إلى فرنسا. وهنا يتناقض مع نفسه ويقول بأن صنوعاً نُفي من مصر إلى فرنسا. وهذا التناقض وقع فيه صنوع قبل مؤلف هذا الكتاب، حيث كان صنوع – قبل نشر هذا الكتاب سنة ١٨٨٦م – يقول بنفيه إلى فرنسا تارة، وبسفره إلى فرنسا تارة أخرى!! وهذا التناقض منشور في محاورات صنوع ولعباته التياترية في صحفه بتواريخ: ١٨٧٨/٨/٧، ١٨٧٨/٩/٢٢، ١٨٧٩/٤/١١، ١٨٧٩/٦/٤. وربما يقول القارئ إن هذه الأقوال غير صريحة، لأنها جاءت ضمن محاورات ولعبات فكاهية! والرد على هذا الاحتمال يتمثل في قول صنوع الصريح الذي ذكره في مقدمة كتابه (البدائع المعرضية بباريس البهية) عام ١٨٩٩م، عندما قال : "..... كل إنسان له مشرب لا يشبه الآخر وإن كان من أب وأم واحدة وكان مشربي القيام بالدفاع عن الإنسانية ولذلك لما لم يرضني الاستبداد الذي كان جارٍ بالديار المصرية هجرت أوطاني واخترت عاصمة باريس مستقراً ومسكناً وكان إذ ذاك في زمنٍ معرض سنة ١٨٧٨م، مضى عليه عشرون عاماً". وهذا يعنى أن يعقوب صنوع لم ينفَ من مصر، بل سافر إلى باريس بمحض إرادته. وللمزيد، ينظر: الشيخ ج سانوا أبو نظارة – البدائع المعرضية بباريس البهية – باريس – ١٨٩٩م – ص(٥). وهذا الكتاب مخطوط ومحفوظ نسخة وحيدة منه بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٨٢٤) وفن (جغرافية).

(**) – هذا الوصف لصنوع بوصفه رجلاً منفياً – في حال الإقرار بنفيه – لا يتفق مع المنطق السليم! فهذا وصف لرجل في رحلة إلى فرنسا، وليس منفياً إليها. وهذا يؤكد قولنا إن صنوعاً لم يُنف إلى فرنسا. وهناك دليل آخر على ذلك، وهو أن صنوعاً ذكر في مذكراته – المنشورة في كتاب الدكتور إبراهيم عبده (أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، مكتبة الآداب، ١٩٥٣م، ص ٦٠) – بأنه نُفي إلى فرنسا يوم ١٨٧٨/٦/٢٢م. وإذا علمنا أن العدد الأول من صحيفته في باريس صدر بتاريخ ١٨٧٨/٨/٧م، سيتضح لنا أن يعقوب صنوع سافر ولم يُنف! لأنه من غير المعقول، أن منفياً إلى فرنسا يستطيع إصدار صحيفة بعد نفيه بشهر ونصف! فهذه الفترة من الممكن أن تمر على المنفيّ دون أن يجد له عملاً يقتات به! هذا بالإضافة إلى أن الصحف المصرية في ذلك الوقت لم تأتِ بأية إشارة أو خبر عن نفي صنوع! فمن المؤكد أن يعقوب صنوع سافر بمحض إرادته. ومن غير المستبعد أن يكون وهو في مصر، قد اتفق مع آخرين، على عمله وإصدار صحيفته في فرنسا. والدليل على ذلك، أنه في آخر عدد من صحيفته في مصر بتاريخ ١٨٧٨/٥/١٨م – وقبل سفره إلى فرنسا – قال (إنه مسافر باريس)! فكيف عرف صنوع إنه سيُنفى قبل إصدار أمر النفي بشهر تقريباً؟! هل كان يعلم الغيب؟!

الحظ (١) امرأة. ومن النادر ألا تعود إلى من عاملها – لا أقول بالإهمال والازدراء – ولكن بفلسفة الرياضي. إذاً، فقد عادت إلى صنوع في الظروف المتواضعة ظروف الكدّ والجدّ التي يحبها. ونحن نعتقد أنه من الغبن لو جرؤ وزعم أن باريس كانت عليه أقسى وأشد عداء من القاهرة. لقد وجد على ضفاف نهر السين الدروس المختلفة التي كان يلقيها على ضفاف النيل. بل إنه زاد مفرداتها. حيث كان يكلف في بعض الأحيان بإعطاء دروس في الرياضيّات ودروس في الرسم، بل ودروس في الفلك وهي علوم كان يجهلها تماماً. ولكنها كانت فرصة بالنسبة له لكي يتعلمها، وقد انتهز الفرصة ولم يفوتها. ربما لم يكن من بين تلامذته في باريس من هم أصحاب السمو وأصحاب الفخامة بقدر ما كان لديه في الماضي تحت سماء مصر الدائمة الزرقة (*). لكنه لم يأسف لذلك.

كان صنوع يعتقد في فلسفة الفكر الجمهوري، مما جعله يشعر وهو يقوم بتدريس مبادئ اللغة العربية لمجرد ملازم ثان في الجيش الفرنسي يتوق إلى السفر إلى أفريقيا، بل ولابن تاجر سلع تصدر للمستعمرات يستعد للسفر إلى السنغال أو الجابون، يشعر وهو يدرّس ذلك بالقدر نفسه من الفخر والتكريم الذي كان يشعر به وهو يقوم بتدريس مبادئ اللغة الفرنسية لأمير في مصر أو في تونس بل وحتى في المغرب.

لقد كنت أعني ما أقول حينما ذكرت أن الفكر الجمهوري عند صنوع لم يكن سوى فكر فلسفي. لأن هذا الفكر الجمهوري هو الأقل حصرْية والأقل نفوراً وجفولاً، والأكثر تسامحاً وقبولاً للآخر. كان صنوع جمهورياً وماسونياً. وهو يعلن ذلك ويجب

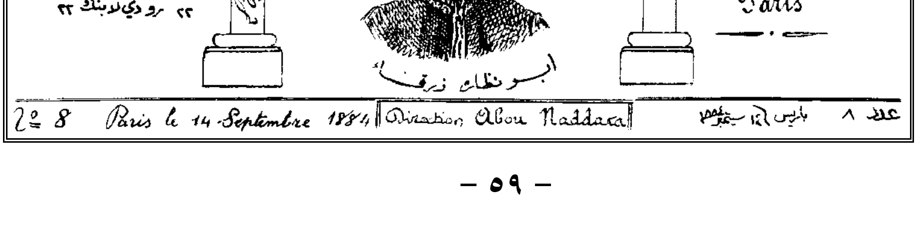
(١) – Fortune الحظ أو البخت مؤنث في اللغة الفرنسية (المترجم).

(*) – هذا الكلام يوحي بأن أولاد الملوك والأمراء والوزراء والباشوات – أصحاب السمو وأصحاب الفخامة – كانوا يتلقون دروسهم على يد صنوع، أثناء وجوده في مصر، قبل انتقاله إلى فرنسا!! ولو عُدنا إلى ما كتبه صنوع بنفسه في صحفه المنشورة في مصر حول هذا الأمر، سنجد بتاريخ ١٨٧٨/٥/٢م، محاورة منشورة بين أبي نظارة ويوسف رملة، قال أبو نظارة له: " أنا رجل مدرس ألسن شرقية وغربية على باب الله". وبتاريخ ١٨٧٨/٥/١٨م، محاورة منشورة بين أبي العينين وأبي الشكر. وفيها سأل أبو العينين عن أبي نظارة، فأجابه أبو الشكر: " من الصبح للظهر داير على زباينه يعلمهم ألسن قراءة وكتابة ". فهل هذه الأقوال توحي بأن تلاميذ صنوع من أصحاب السمو والفخامة، أو من عامة الشعب؟! وهل هذا الكلام يوحي بأن صنوعاً يعمل في التدريس الرسمي، أو أنه كان معلماً جوالاً على شاكلة مدرسي الكتاتيب؟!

أن نصدقه. لكنه لا يذهب أبعد من ذلك. ولعل من التطفل أن نسأله إلى أي درجة من الجمهورية أو الماسونية ينتمي بالضبط (*).

لما كان صنوع قصير النظر (بالمعنى الحرفي للكلمة فهو مصاب بحالة قصر النظر ومن ثم لبس النظارة)، فإن تفاوت الدرجات الطفيف ليس موضوع اهتمامه.

(*) – هذا الكلام يُوحي بأن صنوعاً أعلن عن ماسونيته – وارتباطه بها – بعد سفره إلى فرنسا، ولم يكن ماسونياً أثناء وجوده في مصر. والدليل على ذلك ما نشره في صحفه بفرنسا حول هذه الماسونية، لدرجة أنه وضع رمز الماسونية (المثلث والفرجال) – كتمثيل لـ (نجمة داوّد) – فوق صورته، فى ترويسة جريدته طوال عام ١٨٨٤م – والصورة الموجودة أسفل هذا التعليق خير دليل – وذلك مقابل عدم نشره كلمة واحدة عن الماسونية في صحفه المنشورة في مصر. ولأن صنوعاً كان ذا غير شأن أثناء وجوده في مصر، فأوحى إلى الجميع في فرنسا – بعد سفره إليها – بأنه كان ذا قيمة كبيرة في مصر، وأنه كان ماسونياً! ووصل به الأمر إلى القول بأن ماسونيته في مصر كانت الحامية له من بطش الخديوي إسماعيل. وفي ذلك يقول صنوع في مذكراته المنشورة – في كتاب د.إبراهيم عبده (أبو نظارة أمام الصحافة ...، السابق، ص٦٠): " ولما كنت في حماية الماسونية التي كان يخشاها الخديوي إسماعيل كثيراً ... فإن مضطهدي [أي إسماعيل] لم يكن في استطاعته قتلي، ولكن بوصفه خديوي مصر كان في مقدوره أن ينفيني". وحول كتابات صنوع عن الماسونية في صحفه الصادرة في فرنسا، ينظر: جريدة (أبو نظارة) – عدد ٢٤ – ١٨٧٩/٩/٩، وعدد ١١ – ١٨٨٢/٦/٩، وعدد ١٤ – ١٨٨٢/١٠/٦، وعدد ١ – ١٨٩١/١/٢١، وعدد ٤ – ١٨٩١/٤/١٨، وعدد ١ – ١٨٩٣/١/١٥، وعدد ٥ – ١٨٩٥/٦/١٠، وعدد ٤ – ١١ شعبان ١٣١٨، جريدة (المنصف) – عدد ٣ – شعبان ١٣٢٠، جريدة (أبو نظارة) – عدد ٩ – رجب ١٣٢٢، وعدد ١ – ذو الحجة ١٣٢٣، وعدد ٧ – رمضان ١٣٢٤، آخر عدد في ذي الحجة ١٣٢٨.



وهذا من حُسن حظه لأن هذه الإصابة بقصر النظر سمحت له بأن يكسب عدداً لا يُحصى من الأصدقاء، ولا يكون له عدو واحد، وذلك داخل ما تحتويه الديمقراطية الفرنسية من مختلف الأحزاب التي لا سبيل إلى التصالح بينها.

في هذين المقالين قد نلاحظ أن موليير مصر يرسم لنفسه صورة لا تتسم بالتواضع حقاً. فمن يسمعه يعتقد أنه وحده أعدّ كل شيء ووجّه كل شيء وتوقّع كل شيء وتنبأ بكل شيء. والحقيقة أن هذه كلها مبالغات شاعرية طفيفة من الأوفق ألا نعيرها انتباهاً. وهي مبالغات شائعة في الغرب كما هي في الشرق (*). وإذا كنا قد رأينا من قبله " الفريد دي موسيه " واثقاً من أنه وحده صنع ثورة يوليو، و" لامارتين " مقتنعاً بأنه هو الذي أشعل ثورة فبراير، فلماذا نأخذ على صنوع اقتناعه الصريح

(*) – هذا الكلام يجب ألا ينطلي على القارئ الحصيف، بل العكس هو الصحيح! فيجب أن يُعير القارئ كل الانتباه والاهتمام لمبالغات صنوع عن نفسه، لأنها مبالغات جسيمة وليست طفيفة!! فهذه المبالغات هي التي رسمت صورة صنوع الأسطورية. والحق يُقال بأن أغلب من كتبوا عن صنوع توقفوا ملياً عند هذه المبالغات وأدلوا برأيهم فيها، ومنهم الدكتور أنور لوقا الذي قال: "والمؤرخ الذي يريد اجتلاء ملامح هذا الوجه [أي صنوع] لابد أن يجاهد.... ضد دعاية شخصية مليئة بالمبالغات، بثها أصدقاء يعقوب صنوع على صفحات جرائدهم ومجلاتهم الصغيرة وفيها يتناولون بالإطناب والتمجيد فصول سيرة أملاها صاحبها عليهم في مناسبات مختلفة أو قدمها لهم مدبجة بقلمه نثراً وشعراً وحواراً، أي في قوالب فنية مؤثرة، وبوحي من نفس يعقوب... [و] لا ينبغي أن تدفعنا إلى تصديق كل ما جاء به، ناسين أنه من إنشاء الرجل الذي كان يعنيه أن يكتسب برواية جهاده وتجديده شهرة وتعظيماً". أما الدكتور محمد يوسف نجم، فقال: ".. وأنا شخصياً بعد أن استقريت حياة صنوع، ودرست ما كتبه عن نفسه، أرى أنه يميل إلى المبالغة والتنفج، وخاصة أن أحاديثه تلك عن نفسه كانت في الأغلب أحاديث صحفية وخطباً ألقاها خارج مصر، وفي وقت متأخر، وهو آمن من النقد والنقاد، وممن يستطيعون أن يصوبوا كلامه إذا خرج فيه عن جادة الحقيقة والواقع". كذلك قال الدكتور لويس عوض: " ليس من الضروري أن نصدق كل كلمة قالها صنوع عن نفسه حرفياً، فلو أننا صدقناه لسلمنا بأنه مؤسس الحزب الوطني القديم ومفجر الثورة العرابية ومنشئ المحافل الماسونية والنوادي الأدبية إلى جوار أنه منشئ المسرح المصري ومنشئ الصحافة المصرية". للمزيد ينظر: د. أنور لوقا – مسرح يعقوب صنوع – مجلة (المجلة) – عدد ٥١ – مارس ١٩٦١ — ص(٥١، ٥٣)، د. محمد يوسف نجم – المسرح العربي : دراسات ونصوص (يعقوب صنوع) – دار الثقافة – بيروت — ١٩٦٣ — المقدمة ص(ز)، د. لويس عوض – تاريخ الفكر المصرى الحديث – الجزء الأول – مكتبة مدبولى — ١٩٨٦ — ص(٢٨٥).

الساذج بأنه هو وحده الذي أشعل الثورة المصرية وأنه وحده الذي صنعها (*). ومن ناحية أخرى، فإن هذه الثورة المصرية لم تؤتِ الثمار المرجوة التي تجعله يتجرأ وينسبها إلى نفسه حصرياً.

ومع كل، فكيف يتسنى لكرامة صنوع أو عزة نفسه أن تقاوم إغراءات بعض الأوساط المحيطة حينما تنبري بعض الصحف الاقتصادية، وعلى رأسها صحيفة "الإصلاح الاقتصادي " وتذهب إلى حد أن تجعل لصحيفته الوطنية الأثر الخاص الذي لم يفكر فيه هو على الإطلاق، وترحب به على النحو التالي حيث تقول: " نرجو من قرائنا الإذن لنا بأن نقدم لهم الرجل الذي عمل وحده من أجل حاملي الأسهم المصرية

(*) – الثورة المصرية المقصودة في هذا الموضع، هي الثورة العُرابية. وصنوع أشار في صحفه – في خمسة عشر موضعاً من ١٨٨١/١٠/٧ إلى ١٨٨٥/٤/١٨ - بالقول والرسم الكاريكاتوري إلى أحمد عرابي وثورته، من غير الإشارة إلى معرفته الشخصية بعرابي أو معرفة عُرابي به! ووقوف صنوع بجانب عرابي في هذه الإشارات لم يكن بدافع الوطنية، بل لأن أحمد عرابي كان ضد الخديوي توفيق والإنجليز، وهما من ألد أعداء الأمير حليم راعي صنوع وصحيفته في باريس، حيث إن صحف صنوع كانت تصدر بتمويل خاص من الأمير حليم. وأهم ما نشره صنوع - عن عرابي - كان خطاباً فكاهياً ساذجاً عاماً موجهاً إلى عرابي، يحثه فيه على عزل الخديوي توفيق من الخديوية وتسليمها إلى الأمير حليم، لأن أحمد عرابي لا يجوز له أن يكون خديوي مصر؛ لأنه ليس من أسرة محمد علي. وبسبب ميل صنوع إلى المبالغة سعياً وراء الشهرة، أوعز لبعض أصدقائه بأن أحمد عُرابي من تلاميذه، وأن أغلب ضباط الثورة العرابية تشربوا الثورة من أقواله، وأن عُرابي وأصدقاءه شجعوه على إصدار صحيفته (أبو نظارة).. إلخ هذه الترهات غير المقنعة، ولو كانت صحيحة بنسبة ١%، لكان صنوع دبج حولها كُتباً كثيرة!! والغريب أن بعض أصدقاء صنوع صدقوا هذه الأكاذيب وسجلوها في مقالات نشرها لهم صنوع في صحيفته – كما أوضحنا في دراستنا لهذا الكتاب، وكما سنرى لاحقاً – ومن ثم تسربت هذه الأقوال إلى الدراسات الأجنبية التي كُتبت عن صنوع، ومنها إلى الكتابات العربية، خصوصاً ما كتبه الدكتور لويس عوض: بأن صنوعاً كان حلقة الوصل بين الأمير حليم وزعماء الحزب الوطني من جهة، وبين العرابيين من جهة أخرى! وأن صنوعاً عندما كان أستاذاً في مدرسة المهندسخانة – وسوف نثبت ادعاء هذه المعلومة لاحقاً – استطاع أن يفجر في تلاميذه حب الوطنية، وهؤلاء التلاميذ كانوا أعوان أحمد عرابي في ثورته! بل أن أحمد عرابي نفسه كان أحد تلاميذ صنوع وقد تعرف عليه في المهندسخانة! ووصلت المبالغات إلى مداها غير المنطقي، عندما قال لويس عوض إن صنوعاً قال في مذكراته: " إن الذين شجعوه على إصدار جريدة ثورية تدعو للحرية وتوقظ الشعب من سباته هم العسكريون: أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي"، وهذا الكلام لا أساس له من الصحة، بل لم يقل به صنوع في مذكراته أو صحفه، وربما كان إضافة أضافها الباحثون، وما أكثر إضافاتهم التي شكّلت أسطورة صنوع! وللمزيد، ينظر: د.لويس عوض – السابق – ص(٢٥٤، ٢٧٤، ٢٩٥، ٢٩٦).

أكثر مما عملت لجان الدَّيْن مجتمعة مع أعضاء لجنة التحقيــق وجميــع الــصحفيين المصريين" (*).

" إن هذا التأكيد، المبالغ فيه في الظاهر، هو في الواقع حقيقي وواقعــي. فــإن إقرار الخديوي كان يلزمه ما هو أكثر من التهديدات الأوروبية؛ كان لابــد لــه مــن صحوة الشعب المصري والعرب والفلاحين الذي يسوقهم الخديوي بعصاه. هذا الهدف أمكن تحقيقه عن طريق نشر الصحيفة العربية " أبو نظارة " التي علّم فيهــا صــنوع أبناء مصر المغلوبين المقهورين أن إسماعيل يعتصرهم، ليس من أجل تلبية مطالــب الأوروبيين، وإنما من أجل زيادة ثروته الخاصة الفادحة. وقد أدرك العــرب ذلــك، ورأي الفلاحون كراهيتهم للأوروبيين تهدأ وتخمد، ثم تشتد وتقــوى ضــد الخــديوي الخائن".

" إن الأستاذ صنوع، وهو يخاطب المصريين بلغتهم، وبالأسلوب الشرقي البليغ، قد أخرجهم من حالة الركود والخمود، وخلصهم من الانصياع والاستكانة لما يُفرض عليهم من ضرائب جائرة. كان من نتيجة ذلك أن رأى أبو نظارة نفــسه مطــروداً، مضطراً لمغادرة القاهرة، والمجيء إلى فرنسا ليواصل مشروعه لإيقاظ مصر وبعثها"

" إن الرجل الذي استحق مسرحه أن نطلق عليه " موليير مصر "، أصــبح الآن في باريس. وهو مستمر في تعليم الشعب المصري، مع تكريس وقته في تدريس اللغة الإيطالية واللغة العربية واللغة الإنجليزية. فمرحباً به بيننا".

" ومن ناحية أخرى، وفي العصر نفسه، هيأت الصداقة لصنوع مجالات أخرى للنشاط غير الاقتصادي. فهذا رئيس تحرير صحيفة " فرنسا الفتــاة " علــى شــاكلة صنوع الذي كان رئيساً لتحرير صحيفة " مصر الفتاة " (**). وهو في السطور التالية يحيي صنوع فيقول:

(*) – يُلاحظ أن المؤلف لم يشر إلى هوية هذه الصحيفة، فلم يذكر: هل هي مصرية، أو عربية، أو أجنبية؟ بل ولم يذكر تاريخها، مثلما ذكر تاريخ صحيفة (الستاردي ريفيو)؟ كما أن الاقتباس الذي جاء به المؤلف، لم يُذكر فيه اسم يعقوب صنوع أو جيمس سنوا صراحة؟!

(**) – هذه مبالغة أخرى من مبالغات صنوع، ومن روّج لها خارج مصر! فاسم (مصر الفتاة) هو اسم لجمعية سرّية ظهرت في الإسكندرية عام ١٨٧٩م، على يد محمد أمين ومحمود واصف وعبد الله النديم وأديب إسحاق وسليم النقاش. وهذه الجمعية اتخذت لها صحيفة – ربما سرّية أيضاً – باسم

" جيمس صنوع، واحد من أصدقائي، هو رئيس تحرير صحيفة أبـــو نظـــارة، وهي صحيفة نقدية عربية تصدر في باريس. حينما وصل صنوع إلى باريس كان بلا أي مورد للرزق. واضطر لكي يعيش أن يعطي دروساً في بعض الفنادق، عرف من خلالها بعض الأصدقاء. أما ما كان يحصل عليه من مبالغ من هـــذه الـــدروس فقـــد خصصه أبو نظارة للإنفاق منه على مواصلة إصدار صحيفة " أبو نظارة " (❋).

ومن الجدير بالذكر إن هذه الصحيفة كان يقرؤها في مصر خفية، كل من كـــان فوق أرض مصر من وطنيين؛ ولقد شاهدنا بعض أعدادها يباع بخمسة فرنكات. وهو أمر مفيد لمراسلي صنوع إذ لم يكن هو يهتم بالمزايدة بعملية البيع. وتتبعت الـــشرطة الصحيفة، ثم أصدر الخديوي قراراً بمنعها من الدخول إلى مصر. فكـــان لابـــد مـــن التغلب على هذه المشكلة وإليكم كيف تصرف صنوع.

عمد صنوع، الذي يفعل كل ما يريد، إلى تعلم العزف بالناي. وأصبح يعـــزف إلى حد ما. بل لقد شاهدت " فالس " بالناي والبيانو بعنوان " سيدة القصر " من تأليفه. وكما قلنا، منعت صحيفة أبو نظارة من دخول مصر، فعمد الرجل إلى تغيير اســـمها

(مصر الفتاة) رئس تحريرها أديب إسحاق. وهذه الصحيفة لا وجود لأي عدد منها، وهناك رأي يقول بأنها صحيفة (مصر) المعلنة التي أصدرها أديب إسحاق، بوصفها أول صحيفة تنشر عبارة (مصر الفتاة)! ومن الملاحظ عدم ذكر اسم صنوع مطلقاً ضمن أعضاء الجمعية، أو أنه كان رئيس تحرير الصحيفة. وأكبر دليل على ادعاء صنوع في ذلك، أنه تحدث - أثناء وجوده في باريس - في صحيفته (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٧٩/١٢/٢٤ - عن تعطيل الحكومة المصرية لمجموعة من الصحف الصادرة في الإسكندرية، وهي: فتاة مصر، والميمون، والتجارة، ومصر، ولم يشر صنوع إلى علاقته بصحيفة (فتاة مصر). كما أن إشارته لهذه الصحيفة أثناء تعطيلها في مصر، وهو في باريس، تُعتبر أكبر دليل على عدم علاقته بها. وللمزيد حول (مصر الفتاة)، ينظر: د.علي شلش — مصر الفتاة ودورها في السياسة المصرية — دار الكتاب الجامعي — ط١ — ١٩٨٢م.

(❋) — هذا الكلام لا منطق له! فإذا كان صنوع جاء إلى باريس بلا أي مورد للرزق يوم ١٨٧٨/٦/٢٢م، فاضطر أن يعمل مدرساً جوالاً كي يعيش، فهل نصدق أنه يضحي بلقمة العيش في سبيل إصدار صحيفته؟! ولو صدقنا ذلك، أنصدق أن أموال الدروس الخصوصية خلال شهر ونصف من حضوره إلى باريس، تكفي لاستئجار مطبعة وكتابة - واستكتاب الآخرين - لمجموعة مواد، تكفي العدد الأول من جريدته (أبو نظارة)، التي صدرت باللغة العربية في باريس يوم ١٨٧٨/٨/٧م؟! أم المنطق يقول بأن هناك من ساعده بالمال — مثل الأمير حليم — كي يصدر صحيفة للهجوم على الخديوي توفيق، والترويج لحق الأمير حليم في عرش مصر! ومن غير المستبعد أن خروج صنوع من مصر إلى باريس، كان بالاتفاق مع الأمير حليم عن طريق أعوانه في مصر.

إلى أبو صفارة (*) (المقصود بالصفارة الناي) وتحايل على الرقابة في إدخالها إلـى مصر. وبذلك وصل إلى الفلاحين ما يريد أن يقوله المحكوم عليه بـالنفي. غيـر أن الحيلة كُشفت. فما كان من صنوع إلا أن أطلق علـى الـصحيفة اسـماً ثالثـاً هـو "الحاوي"(**).

وصنوع كما سبق أن قلت، موسيقي. وهو أيضاً شاعر. ومع أنني لا أستطيع أن أحكم على شعره المكتوب باللغة العربية، مع أنهم يقولون إنـه ممتـاز (***)، فإنـه يتعامل مع الشعر الفرنسي ببراعة فائقة بالنسبة لـشخص أجنبـي. فكـرة مبتكـرة، مطبوعة بذلك السحر الشرقي، وحافلة بتلك الصور الخيالية التي لا يستطيع صياغتها سوى الخيال العربي.

" وأنا لا أستطيع أجزم، مع أنني أرجو له ذلك، إذا كانت القضية التـي يـدافع عنها صنوع سوف تنتصر (****)، وليس لي أن أدافع عنها أو أن أهاجمها هنا؛ غير

(*) – هذا الكلام ذكره صنوع من قبل في صحفه، ولم يتحدث به إنسان آخر غير صنوع. ينظر: جريدة (أبو زمارة) ١٨٨٠/٧/١٧.

(**) – حِيّل صنوع في هذا الأمر، والحديث عن مصادرة صحفه، كلها أمور تحدث بها صنوع وحده في صحفه، قبل ذكرها في هذا الكتاب. ورغم ذلك لم نجد إشارة واحدة في الصحف المصرية – حسب ما أُتيح لنا الاطلاع على صحف هذه الفترة – تحدثت عن هذه المصادرة، علماً بأن خبر مصادرة أية صحيفة في مصر، كان يتصدر الصفحات الأولى في بقية الصحف!! ويمكن الاطلاع على أقوال صنوع عن مصادرة صحفه في: أبو نظارة زرقا الولي ١٨٧٨/٨/٧، ١٨٧٨/٩/٨، ١٨٧٨/٩/٢٢، ١٨٧٨/١٠/٣٠، أبو نظارة زرقا ١٨٧٩/٦/٤، ١٨٨٢/٤/٢١، النظارات المصرية ١٨٨٠/٤/٦، أبو زمارة ١٨٨٠/٧/١٧، أبو نظارة ١٨٨٦/٩/٢٥.

(***) – لم يقل صنوع شعراً عربياً بالمعنى المعروف؛ ولكنه كان يكتب أزجالاً وسطوراً عامية ذات موسيقى. ينظر ذلك على سبيل المثال في: جريدة (أبو نظارة) ١٨٧٨/٨/١٤، ١٨٧٨/٨/٢٢، ١٨٧٨/٩/٨، ١٨٧٨/٩/٢٢.

(****) – ربما يُفهم مما سبق أن قضية صنوع التي يدافع عنها هي حرية الشعب المصري من ظلم الخديوي إسماعيل، ومن بعده ابنه الخديوي توفيق. والسبب في هذا الفهم أن صنوعاً كان يهاجم – بصورة مستمرة – في صحفه الخديوي إسماعيل أولاً، ثم الخديوي توفيق ثانياً. والحقيقة التي لا شك فيها أن صنوعاً كان يهاجم الخديوي ليس حباً في الشعب المصري، أو وقوفاً في وجه الحاكم الظالم، أو إظهاراً لوطنيته، بل كان هجوم صنوع هجوم المرتزقة، أو هجوماً مدفوع الأجر، من قبل الأمير عبد الحليم بن محمد علي. فقضية صنوع الحقيقية – التي لم تنتصر – هي الدفاع عن أحقية هذا الأمير في تولي حُكم مصر، ذلك الحق الذي سُلب منه بسبب فرمان عام ١٨٦٦م. ففي هذا العام استطاع الخديوي إسماعيل أن يستصدر من السلطان العثماني فرماناً بتغيير نظام الوراثة.

أن الذي أستطيع أن أؤكده هو أننا لا نصادف كل يوم رجلاً مثل أبو نظـــارة يجـــسد الإرادة. ذلك هو السبب الذي من أجله تحدثت عنه ".

ما دام الجميع، عند الحديث عن أبو نظارة، يتفقون على تمكنه من نظم الـــشعر بالفرنسية، فإننا نورد هنا القصيدتين اللتين نُشرتا في صحف باريس والريف:

عرفان واعتراف بالجميل
يقدمه المحكوم عليه بالإعدام (*) إلى فرنسا
بمناسبة العيد القومي في ١٤ يوليو

فرنسا! تحيا جمهوريتك!
تلك صيحة المصري
الذي يحبه شعبك،
كحب شعبه له.

اللهم! بارك هذا العيد!
الذي حطم نير الطغاة!
أكثر من شعب يدين له،
بأيام حريته واستقلاله.

نخب أبو نظارة
في وليمة جمعية الفنون بمدينة نويّى

المصري يحب فرنسا،
بلد الرجال الكرام،
بلد الكروم والرخاء،
بلد الشعراء والعشاق.

في باريس، المدينة الخالدة،
ذقت السعادة ثمانية أعوام.
السعادة في مصافحة أيادٍ شقيقة،
لرجال فكر ورجال شرفاء.

من بلاد الأهرامات الحارة،

حيث إن نظام الوراثة كان يقضي بتولي الخديوية أكبر أفراد عائلة محمد علي باشا. وقد تغير هذا النظام – تبعاً للفرمان – إلى تولي الخديوية أكبر أبناء أسرة الخديوي إسماعيل. لذلك تولى الخديوي توفيق الحُكم – تبعاً للنظام الجديد – بدلاً من عمّ أبيه الأمير عبد الحليم، الذي من حقه الخديوية تبعاً للنظام القديم. وهذا الأمر كان يردده صنوع في صحفه كثيراً، ومن الصعب أن تجد عدداً واحد من أعداد صحف صنوع – طوال ثلاثة عقود – لم يُذكر فيه اسم (الأمير حليم)، وحقه في الحُكم سواء بالتصريح، أو التلميح! ومن هنا يأتي السبب وراء سفر صنوع – وليس نفيه – إلى فرنسا؛ التي كانت ترشح الأمير عبد الحليم لتولي الخديوية، بدلاً من إسماعيل وتوفيق، كي تقاوم نفوذ إنجلترا في مصر.

(*) — رغم مزاعم صنوع ومبالغاته، إلا أنه لم يقل قبل نشر هذا الكتاب بأن حكماً بالإعدام صدر ضده! وربما استغل صنوع فكرة نفيه من مصر، فضخمها إلى مبالغة الحكم عليه بالإعدام؛ كي يستدر عطف الفرنسيين عليه، ويستطيع أن يعيش بينهم أطول فترة ممكنة — كما هو واضح من عبارات القصيدتين المنشورتين – خصوصاً أن ذكر هذه المبالغة جاء في عنوان قصيدة له مدح فيها فرنسا في عيدها القومي! وربما عبارة (المحكوم عليه بالإعدام) جاءت بصورة مجازية – من وجهة نظرنا – على اعتبار أن المنفي في حُكم الميت! هذا لو كان صنوع منفياً بحق!!

عيشي هنيئة، يا فرنسا العزيزة،
وشعبك سعيد في ظل قانونك.
متى أستطيع أن أرى وطني،
مصر، حراً مثلك؟

طردني الطغاة ببشاعتهم.
كشفت عن أغراضهم الدنيئة،
فأهين كبرياؤهم وصلفهم.

في بلدكم، بلد النور،
وجدت الضيافة الكريمة،
الصادقة.
فرنسا، أنا أشرب نخب حبك.

٣ – أبو نظارة

في ريف فرنسا – في بلجيكا – في إنجلترا، في هولندا وسويسرا (*).

كأنما كل آيات هذه الضيافة الحارة التي قوبل بها صنوع في باريس لم تكن كافية، لذلك أراد كل من الريف الفرنسي وبلجيكا وهولندا وإنجلترا، أن يدلي بدلوه ويشارك في الترحيب والحفاوة بالرجل.

ذات يوم، كان صنوع مدعواً من قبل السيد أوجين بيرير المدير العظيم لشركة "ترانس أطلانتيك "، لحضور افتتاح أحد خطوط السكك الحديدية وهو خط "أسطوريس، جاليس، ليون ". وتوقفت البعثة في عاصمة جيروند. وفي الحال انبرت جريدة بوردو معبرة عن آيات الترحيب الحار بالشاعر الأستاذ قائلة:

" أبو نظارة متعدد لغات عجيب، ومترجم عظيم، ورجل فكر وصحفي ذو خبرة عريضة. نظره معوق بسبب رمد وراثي لا يجد حرجاً من ذكره في أحاديثه، لكنه لا يمنعه من الملاحظة الثاقبة والتمييز بين الأشياء بمهارة بالغة. ومن ناحية أخرى، إذا كانت عينه بها غموض، فإنه " ينظر في الداخل ". أبو نظارة يفكر كثيراً، وحينما يتكلم يشك من يسمعه أنه يضع الكثير من ذاته في التأويلات والتفسيرات التي تُطلب

(*) – سيلاحظ القارئ أننا لن نُعلق على أمور كثيرة حدثت لصنوع أثناء وجوده في فرنسا؛ لأن اهتمامنا هو نشاط صنوع أثناء وجوده في مصر.

منه (*). فهو قادر على أن يقدم الفكرة واللغة. أضف إلى ذلك أنه يختفي خلف عدستي نظارة. مؤسس صحيفة لاذعة، تلهب العدو بضربات الريشة والقلم. ولقد شارك في جميع المعارك التي دارت حول الخديوي الأسبق (**). كان قوياً، وطردوه؛ ولكنه حينما يحتاج إلى مصدر رزق يجد في متناوله ثمانية أو تسعة مصادر، بعدد اللغات التي يتحدثها. أنت تفاجأ به موجوداً في بنسيون في باريس يعطي دروساً لتلاميذ بؤساء (***). باختصار، لقد أدهش جميع الرجال الذين استمعوا له، وذلك بسعة أفقه وذكائه ".

بمجرد أن اجتاز صنوع جبال البرانس، قدموه إلى ملك وملكة أسبانيا؛ وعلى الفور ارتجل أرجوزة أو أنشودة غزلية على شرف الملكة كريستين التي دعته بعبارات حارة إلى مواصلة طريقه حتى مدريد.

وما أن ظهر صنوع في بروكسيل، حتى سارعت صحيفة " استقلال بلجيكا " بالإعلان عن وجوده كما تعلن عن وجود أمير من الأمراء: " يمر ببروكسيل هذه الأيام صحفي أجنبي، هو السيد صنوع، وهو رئيس لتحرير صحيفة أبو نظارة. وهو معروف جداً في مصر وفي أوروبا. وهو ناشر من ألمع الناشرين، إلخ؛ إلخ ".

وإذا حط به الرحال في إنجلترا، لم تكن ألبيون (١) الغادرة، التي لا يشعر نحوها بود صادق، بأقل ترحيباً به واحتفالاً. وهذه صحيفة " ساتردى ريفيو " التي سبق أن ذكرناها طويلاً، ترى في الرجل المؤسس والباعث للانتفاضة العربية. تقول الصحيفة: " يحلّ بيننا اليوم مؤسس مطبوعة هي صحيفة عربية مصورة مضحكة، موجهة ضد الخديوي السابق وسياسته، وضد ابنه توفيق بعجزه وقصوره. هذه الصحيفة من الأهمية والتأثير بحيث لا ينبغي أن تظل محصورة في دائرة قرائها والمعجبين بها من العرب وحدهم. النشر والتحرير تحت اسم أبو نظارة. أما الاسم الحقيقي فهو جيمس صنوع الأستاذ السابق، إلخ، إلخ".

(*) – إشارة من الآخرين إلى مبالغات صنوع، وإقحام ذاته في كل أحاديثه.

(**) – المقصود الخديوي إسماعيل.

(***) – القول بأن صنوعاً يعطي دروساً في فرنسا لتلاميذ بؤساء؛ يتناقض مع ما جاء سابقاً، بأنه كان يعطي دروساً لضباط في الجيش الفرنسي، ولأبناء التجار! ويؤكد في الوقت نفسه ادعاءات صنوع التي تناقض بعضها بعضاً.

(١) – اسم أطلقه القدماء على إنجلترا (المترجم).

صحيفة " الديلى نيوز " تذكر ذلك أيضاً وتضيف أن أبو نظارة، من وجهة نظر معينة يلفت الاهتمام. أما صحف " دى إيست " و " مورنينج أدفيرتيزار " و " ليودز " و " نيوز بيبار "، و " مورنينج بوست " فتقدم كلها مقتطفات من أعمال الصحفي المصري اللاذع.

وأما صحيفة " الحقيقة (ذي تراث) " فتذهب إلى أبعد من ذلك فهي تخص قراءها بعرض رسم كاريكاتوري للخديوي توفيق وشريف باشا واللورد دوفرين ظهر في صحيفة أبو نظارة. وتضيف الصحيفة أن سمو الخديوي يصوّر على شكل ثعلب، أما شريف باشا فعلى شكل ديك رومي (شخص أبله). ثلاثة آلاف نسخة من هذه الصحيفة تخاطفها القراء في القاهرة. وحينما ذاع الخبر، تم عقد اجتماع في مقر قيادة الشرطة. ومن ناحية أخرى زاد إقبال الشعب على شراء هذا العدد من الصحيفة بحيث اضطرت الشرطة إلى التدخل لفض المظاهرة التي لم تنفض إلا على صيحات تهتف قائلة: " الله ينصرك يا أبو نظارة " (*) ومن الواضح، والواضح تماماً، أن هذه الصحيفة العربية تمثل شيئاً مهماً وأن محررها شخص مهم. إن الدليل على حماقة الحكومة المصرية الذي قدمناه في موقعه، لن يكون الأخير. ومع كل فنحن لا نستطيع أن نحتفظ بفيلق من الجيش البريطاني في القاهرة لمجرد مساعدة الخديوي ووزرائه وأعوانه على منع حرية الصحافة.

حينما زار صنوع معرض أمستردام، ماذا حدث؟ خصصت الصحف الهولندية مقالات طويلة لسيرة حياة الرجل. أما رحلته إلى سويسرا، فيلخصها هو بنفسه في رسالته الأخيرة التي كتبها باللغة الفرنسية في " صحيفة جنيف " وباللغة الألمانية في صحيفة "باستير ناكريكلين " الصادرة في مدينة بال (**)، حيث يقول:

(*) – هذه القصة رواها صنوع في صحفه أكثر من مرة، قبل نشرها في هذا الكتاب. بل أن أغلب ما تناقلته الصحف الأوروبية، نشره صنوع في صحفه. ومن المحتمل أن مؤلف الكتاب لم يطلع على أية جريدة أجنبية من تلك الجرائد التي ذكرها في هذا الموضع – وما قبله – بل نقل ما نقل من صحف صنوع، التي كانت تقول إن الصحف الأجنبية تكتب عن صنوع وصحيفته. والدليل على ذلك أن مؤلف الكتاب لم يذكر تاريخاً واحداً لصحيفة واحدة من هذه الصحف، حتى نتأكد من صدق ما يدعيه. وهذا يدل على أنه ينقل من مصدر وسيط، وهو صحف صنوع. وللمزيد حول هذا الأمر، ينظر: صحيفة (أبو نظارة زرقا الولي) ١٨٧٨/٨/٧، ١٨٧٨/٩/٨، ١٨٧٨/٩/٢٢، ١٨٧٨/١٠/٣٠، أبو نظارة زرقا ١٨٧٩/٦/٤، ١٨٨٢/٤/٢١، النظارات المصرية ١٨٨٠/٤/٦، أبو زمارة ١٨٨٠/٧/١٧، أبو نظارة ١٨٨٦/٩/٢٥.

(**) – يُلاحظ أن المؤلف لم يذكر تاريخاً، أو توثيقاً واحداً لصحيفة من هذه الصحف!!

باسم الله الرحمن الرحيم! الحمد لله رب العالمين! حققت حلم عبدك أبو نظارة. حفظتني رحمتك وهدتني ملائكتك، فرأيت سويسرا، تلك الجنة الأرضية؛ التي من يراها فكأنما رأى جنات عدن في السماء. حدت الرغبة الدفينة بي لمشاهدة بديع صورتك. حتى بلغت قمم جبالك الشاهقة التي توحي بالجلال والعظمة. وتأملت الوديان الباسمة والبحيرات الجميلة بلون الزمرد، التي أدمن عشقها الشعراء. كم من ذكريات مريرة وعذبة في وقت واحد، أثارتها في نفسي هذه الطبيعة الرائعة! يا وادي النيل، يا أيتها الأهرامات الشاهقة، ظننت أني أراك، ونسيت لحظة أنني مطرود بعيداً عنك. زرت هذه المدن البديعة، وهذه القرى الخلابة. وأينما ذهبت لقيت نفس الحفاوة. صافحت بمرارة الأيادي الأخوية، أيادي أسلاف جوم تلْ العظام وأكدت لهم على حرارة الود الصادق الذي يحمله لهم أبناء مصر. وتشرفت بالتعبير عن آيات الامتنان الشديد إلى رئيس الكونفيديرالية. وعبرت له عن حبي وحب أبناء الشرق لسويسرا وشعبها الكريم النبيل. أحييك أيتها الأرض المضيافة. وأتمنى لك، وأنا أغادرك، السعادة والرخاء والازدهار. السلام عليكم يا أبناء " هيلفيتى " الكرام. وأسأل الله تعالى أن يسبغ عليكم نعمه وبركاته. آمين!

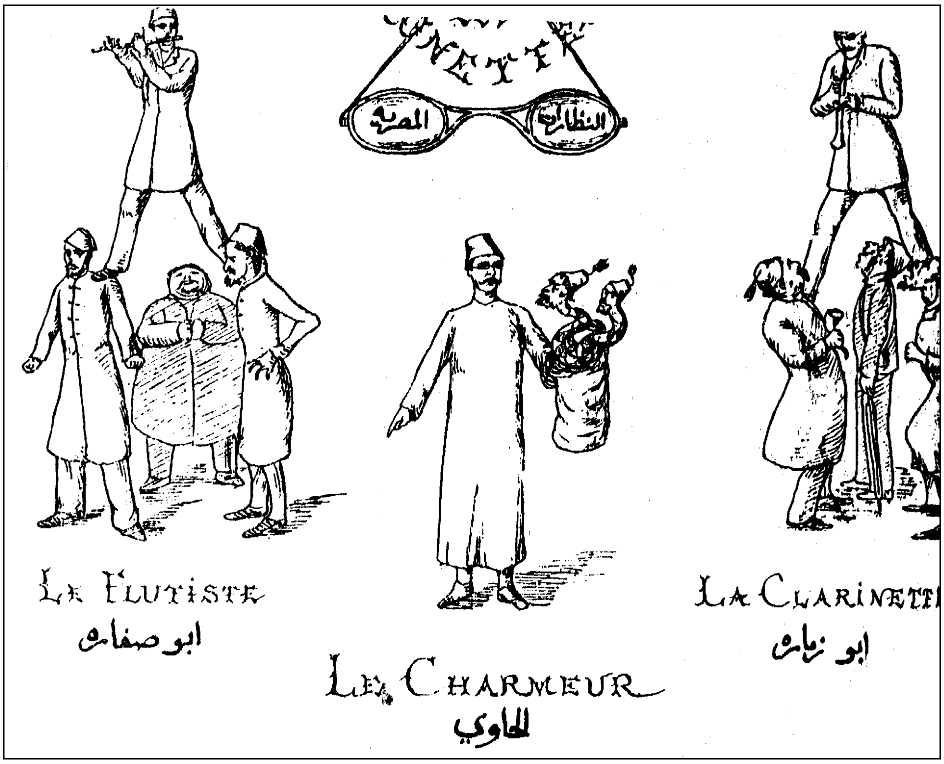
٤ – عمل أبو نظارة في باريس

ما هو إذاً إبداع أبو نظارة الذي يبدو أن الجميع متفقون عليه، ليس فقط في فرنسا وبلجيكا وإنجلترا، بل وفي كل مكان؟

ولأننا لا نستطيع، كما قلنا، أن ندرسه في نصه، فسنحاول على الأقل أن نعطي فكرة عنه، وذلك عبر الـ ٤٨ صفحة من الرسوم والكروكي والكاريكاتور، المختارة من بين الصور المنشورة خلال عشر سنوات من عمر صحيفته (*).

(*) – الصفحات التالية – المشتملة على صور الألبوم – تقع في أصل الكتاب الفرنسي في ثماني وأربعين صفحة (٤٨)، ولكنها هنا منشورة في أكثر من هذا الرقم، وسبب ذلك أن الصفحة الواحدة – في الأصل الفرنسي – كانت تشتمل على أكثر من صورة. لذلك فضلت أن أجعل كل صورة في صفحة مستقلة، لأن بول دي بينيير كان يُعلق على الصورة من وجهة نظره. وأخبرني المُترجم – د.حمادة إبراهيم – أن في الصور عبارات باللغة الفرنسية، تختلف عن تعليقات المؤلف بول دي بينيير. وبناء على ذلك وضعت تعليقات المؤلف في المتن، وترجمة المُترجم لهذه العبارات في الحواشي. كما أنني لاحظت أن الصور المُختارة من قبل المؤلف، تختلف عن الصور المنشورة بالفعل في صحيفة صنوع (أبو نظارة)، لذلك وضعت كثيراً من نماذج الصور المنشورة في صحيفة صنوع في حاشية الصورة المختارة – أو المرسومة – من قبل المؤلف بول دي بينيير، للمقارنة والإفادة.

عام ١٨٧٧م

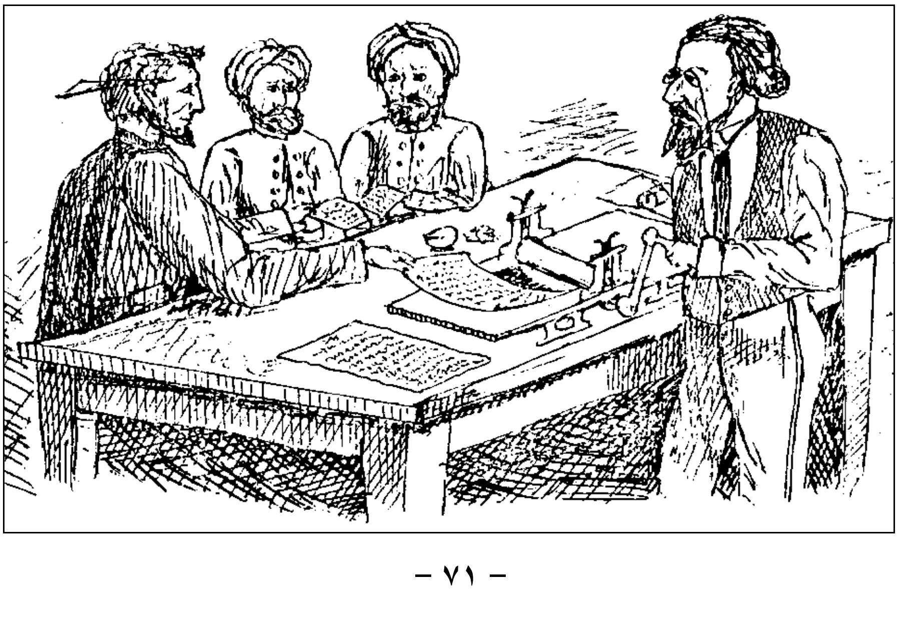


صفحة غلاف حقيقية نجد فيها الحليات المطبوعة التي يصدرها صنوع، ذلك في أشكالها المختلفة التي فُرضت عليه من قبل الاضطهاد الخطير الذي مارسته مختلف الوزارات المصرية. أعلى الصفحة نجد النظارة الزرقاء الشهيرة، النظارة الأسطورية الخاصة بالصحيفة البدائية. في اليسار، نجد صنوع وهو ما يزال مستمسكا بنظارته وقد أصبح " أبو صفارة " يعزف بالصفارة وقد وضع قدماً فوق توفيق وقدماً فوق حسن. أما إسماعيل أبو كرش فينظر إليه مذهولاً. في اليمين استبدل بالصفارة الزمارة، وصنوع قد وضع قدماً فوق نوبار وقدماً فوق فيتزجيرالد. يذهلهما بآلته الجديدة القوية. أما رايفرز، وبيده مظلته البريطانية الشهيرة وأنفه في الهواء، فيستمع إليه ولا يفهم شيئاً. وفي الأسفل نجد " أبو زمارة " يرتدي جلباب " الحاوي " (حاوي الثعابين). أما الثعبانان اللذان يخرجان من خرجه ولا يظهر عليهما أي تأثير لسحره، فهما ليسا سوى سلطان باشا ونوبار.



وأخيراً، يحلو لصنوع أن يعود إلى ذكرى جميلة، فيرسم نفسه بنفسه، كما كان قبل المنفى، وهو يقوم في القاهرة بكتابة صحيفته وطبعها وتوزيعها على زبائنها من العرب (١)(*).

(١) – أبو نظارة يطبع صحيفته ويوزعها على أصحاب الاشتراكات (المترجم).
(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.



عام ١٨٧٨م



الشاعر المنفي يغادر الإسكندرية على ظهر المركب، التي تحمله إلى عــرض البحر، ليستقل الباخرة " ميسّاجيرى ". ومع أنه يقف بجوار مسافرة جميلــة، إلا أنــه حتى لا ينظر إليها. إن عينيه المليئتين بالدموع، لا يستطيع تحويلهمــا عــن شــاطئ الإسكندرية (١)(❁).

(١) – رحيل أبو نظارة من الإسكندرية، بعد أن أمر الخديوي إسماعيل بنفيه من البلاد (المترجم).
(❁) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Le Khédive heureux de ce départ et déguisé en saltimbanque, danse de joie au son des tambours tenus par ses femmes –

قولوا على شيخ الحارة · صبح مشقرق يا اخواني * راح في داهيه ابو نظاره · ماعنده رجوع بالتاني ·

ولكن، إذا كان أبو نظارة يبكي، فبمقدوره أن يجعل إســماعيل يــضحك، بــل ويرقص أيضاً. وإذا كانت حركات إسماعيل، وبنوع خاص، حركات إحدى نسائه فيها من المجازفة ما لا يُحمد عقباه، فإن موليير مصر لا ينظر إلى الموضــوع بالحــذر الواجب. فمزاحه من النوع الفج الغليظ كمزاح آبائنا. وهو دائماً ليس أســوء أنــواع المزاح (١)(*).

(١) – الخديوي سعيدٌ بهذا الرحيل، وهو هنا متنكر في زي راقصة، يرقص فرحاً على دق طبول نسائه (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Foire de Saint-Cloud. Le Khédive transformé en renard est montré dans une cage par un arabe qui raconte à la foule que cette métamorphose est le châtiment d'un cruel tyran.

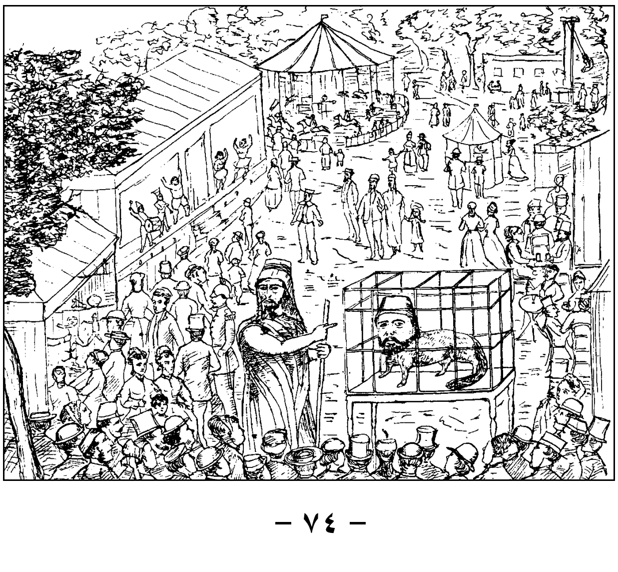
سحار مصري سخط اسمعيل وقلبه تعلب واخذه فرجة في مولد سنكلو يفرج عليه العالم ويحكي لهم قصته

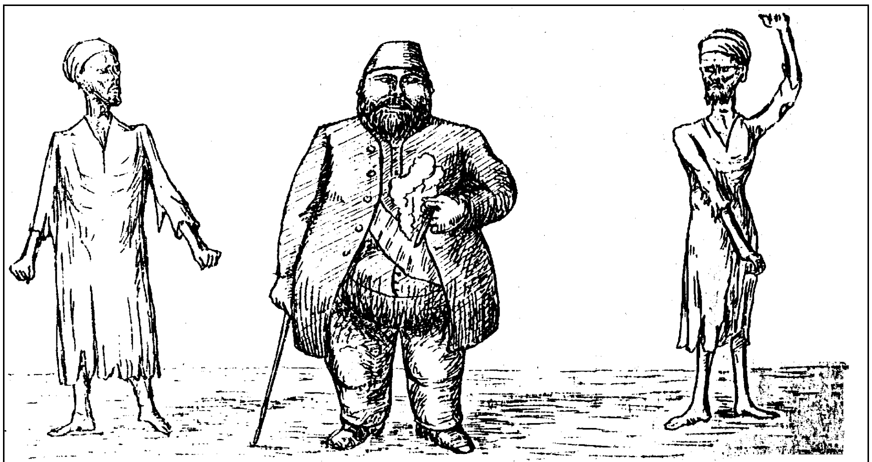
حينما وصل أبو نظارة إلى فرنسا، قام بزيارة لسوق ومولد " سان كلو ". وقد أوحت له هذه الزيارة رسماً غريباً ومن النوع القوي، مع أنه لا يخرج على أسلوبه. لم يرسم لنا شخصياته الساذجة البسيطة المعتادة. بل إن ريشته هنا تنحو منحىً عصرياً. ومع تعدد المشاهد والشخوص، يظن المرء أنه أراد أن ينافس " ليونس بوتى " في أسلوبه. فهل يخاطر الفنان المصري بفقدان أصالته وتفرده ليتحول إلى فنان باريسي؟ إذاً لكانت خسارة كبرى (١)(*).

---

(١) – في مولد (سان كلو) الخديوي وقد تحول إلى ثعلب، وضعه رجل عربي داخل قفص، وهو يروي للجمهور أن هذا المسخ إنما هو عقاب أنزله الله بطاغية لم يرحم شعبه (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Les fellahs amaigris par la faim et la misère maudissent Ismaïl engraissé de leurs dépouilles

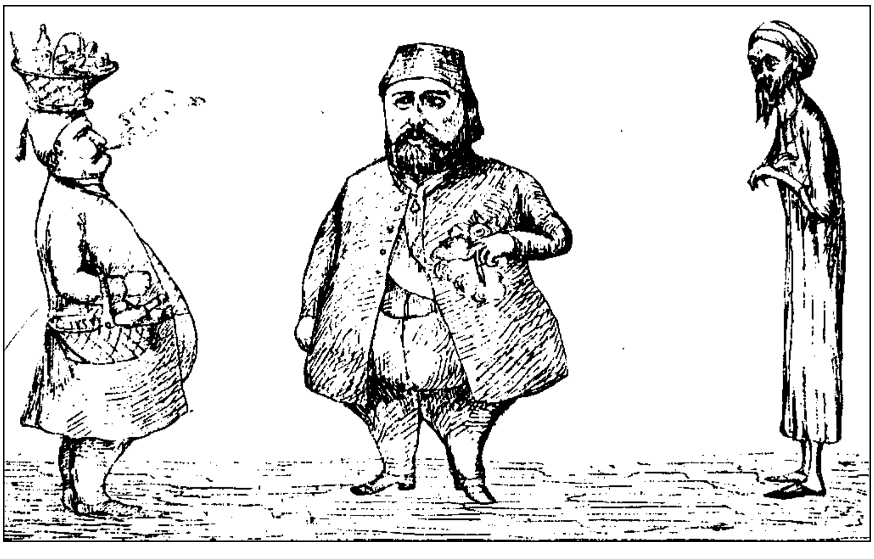
الفلاحين يلعنوا اسمعيل اللى فجّهم بظلمه وجوره في عدم وندم

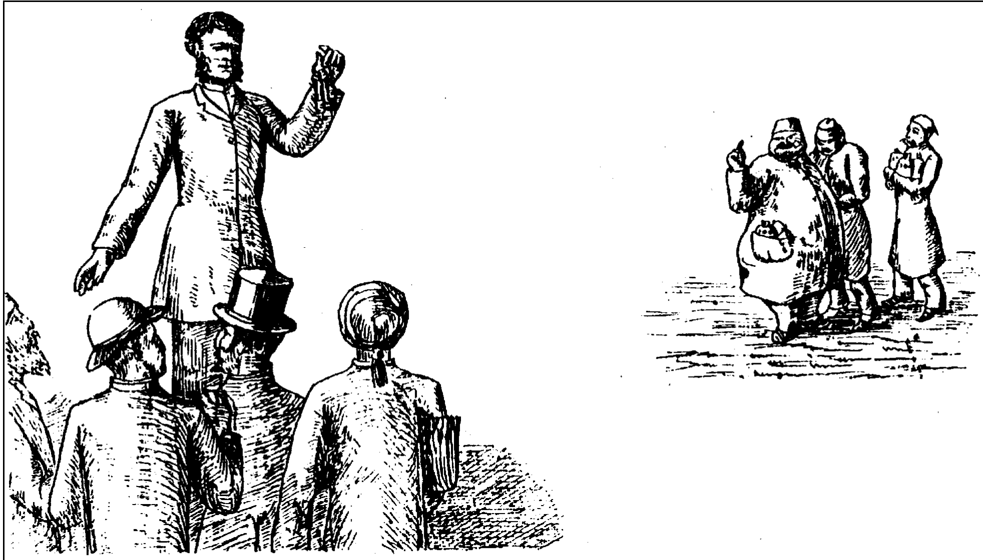
من حُسن الحظ أن هذا الرسم يعيد الطمأنينة إلى نفوسنا. فيالها من بساطة في الرؤية وقوة في التنفيذ نطالعها في صورة هذين الفلاحين النحيلين بجوار الخديوي البدين (١)(❋).

---

(١) – الفلاحون وقد نحلت أجسامهم من الجوع والبؤس، يلعنون إسماعيل الذي سمن من أعلافهم وغلاّتهم (المترجم).

(❋) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.



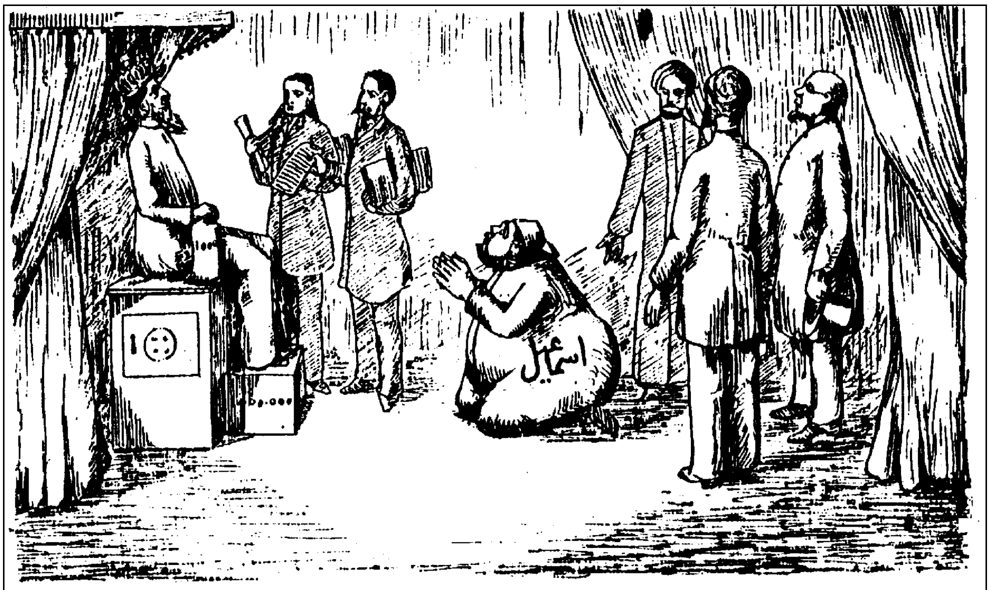


Rivers Wilson montrant aux banquiers pour les tranquilliser, les clefs de la caisse de la dette publique, pendant que les percepteurs secrets du vice-roi lui emplissent les poches des contributions prélevées à l'insu du ministre.

بينما ويلسون يوري البنكيريه مفاتح مالية مصر . معاونين اسمعيل يملوله جيوبه بالجنيهات اللي بيحصلوها سراً .

النتيجة هي حرب ضروس بين أبو نظـارة وإسـماعيل. هنـا المقهور يقهر القاهر، لدرجة أن هذا القاهر يسقط من فوق العـرش، ويأخذ بدوره طريق المنفى. وهكذا لا يتردد أبو نظارة فـي اتهـام " رايفر ويلسون " وزير المالية الإنجليزي فـي الـوزارة الإنجليزيـة الشهيرة، بإحدى حيل إسماعيل الذي يريد أن يواصل حيـاة البـذخ والإسراف الجنونية فيعمد إلى إقرار نوع من الجباية الخفية (١).

(١) – ريفر ويلسون يُري أصحاب المصارف والماليين مفاتيح خازنة الدين العام، في الوقت الذي يقوم فيه جباة الوالي السرّيون بملء جيوبه بالضرائب التي جمعوها (المترجم).



La Cour du roi des Finances Rotschild Wilson plaide et offre des garanties pour un emprunt. Les banquiers font agenouiller le Khédive aux pieds du Grand Roi.

البنكرية يجبروا اسمعيل بان يسجد امام روتشيلد ملك الكنوز - ومسيو ولسن يترجاه يلو بسلفة ملايين لمصر ويقدم له الضمانة اللازمة

ولكن ما أن تحقق هذه الجباية الخفية ثمارها وتجد الوزارة الأوروبية نفسها أمام خزانة فارغة على الدوام، حتى تضطر إلى قرض " روزسيلد ". هنا يتصور أبو نظارة أنه يجعل المجرم الحقيقي يركع على ركبتيه عند قدمي ملك البنك المعاصر ويجعله يتردى إلى وضع القرد المزري. إنه انتقام شاعر، لكنه انتقام كامل (١).

(١) – بلاط روتشيلد، ملك المالية، في موقف الدفاع، يقدم ضمانات من أجل الحصول على قرض. وأصحاب المصارف (الماليون) يضطرون إسماعيل للركوع عند قدمي ملك المالية (المترجم).



Initiation d'un Français à la société secrète d'Abou-Naddara. Un des panneaux de la salle représente le Khédive fumant le haschisch et contemplant les têtes de ses victimes.

تكريز رجل فرنساوي حرّ في شركة ابي نظاره زرقاء السرّية

والرسم المعلق هو صورة فرعون مصر بيده بوز شاهد روس اسرا دولته

الشاعر يتواري ويعود المتآمر للظهور، لكي يدخلنا إلى جمعية أبو نظارة السرية، وهي جمعية سرية خيالية. اللوحة المعلقة تـصور الخديوي يدخن الحشيش وهو يتأمل رءوس ضحاياه (١).

(١) – رجل فرنسي يتعرف على جمعية أبو نظارة السرية. واللوحة المعلقة تمثل الخديوي وهو يدخن الحشيش ويتأمل رؤوس ضحاياه (المترجم).



Un officier marié de force à une concubine du vice-roi ramène, sa femme à Khalil-Agha, premier eunuque, parceque la dot promise ne lui a pas été payée.

خليل اغا زوّج سرّيه من سراري اسماعيل الجهادي وما اعطاه المهر الموعود فالجهادي رجعها له ثاني يوم

أما هذه الصورة فهي أبلغ وأوضح، لأنها تنبع من فكرة واضحة. أمام رغبة إسماعيل في أن يخلص حريمه من إنتاجهم السفلي ليدخل مكانه عناصر جديدة، لم يتفتق ذهنه إلا عن أسلوب الإسطبلات الأوروبية. فمدراء الإسطبلات يحاولون بكل وسيلة وبثمن بخس إلحاق الحيوانات التي لم تعد تعجبهم بعهده الفلاحين في الضواحي. وإسماعيل يتبع الأسلوب نفسه بالنسبة لمحظياته. فهو يعهد بهن إلى ضباط جيشه. ولكن هؤلاء الضباط، على الرغم من وداعتهم المعتادة فإنهم يتذمرون هذه المرة، ولا يرفضون الدفع فقط، بل يطالبون بتعويضهم عن هذه الزيجات الإجبارية. ويعدهم إسماعيل بدفع جميع المهور المطلوبة، لكنه لا يفي بوعده. مما يؤدي إلى مشاهد مضحكة، كالتي يعرضها علينا أبو نظارة (١).

(١) – ضابط أُرغم على الزواج من إحدى عشيقات الوالي، يُعيد زوجته إلى خليل أغا لأنه لم يقبض (المهر) الذي وعدوه به (المترجم).

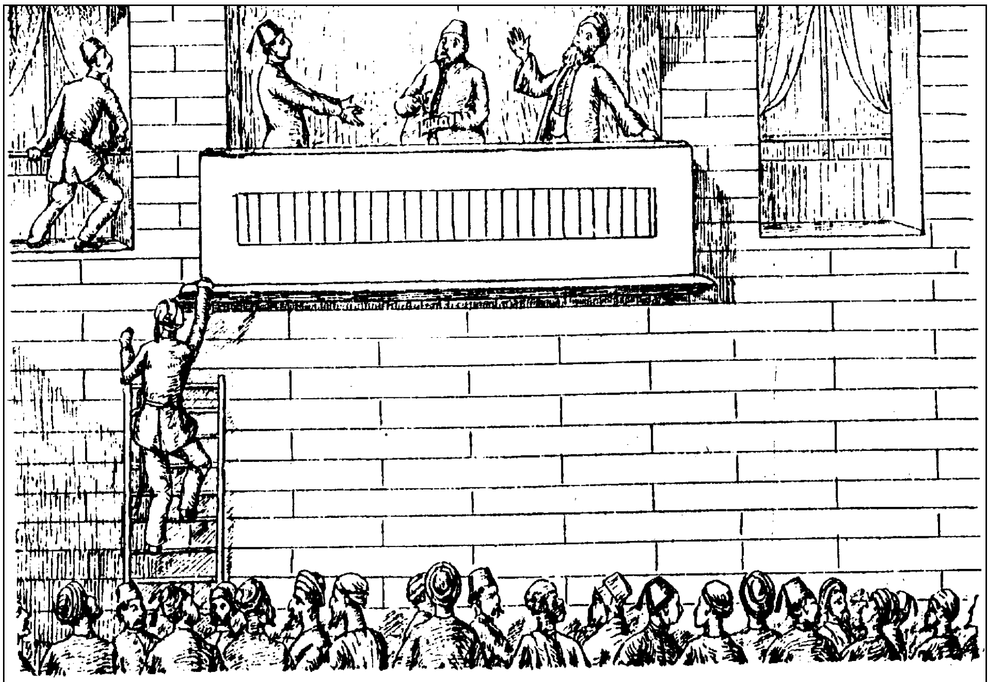


Les percepteurs obligent un indigène à payer les impôts d'un terrain qu'il n'a pas Celui-ci demande qu'on lui montre cette terre pour laquelle il est débiteur. Sur l'indication des percepteurs il veut en prendre possession; les fellahs l'en chassent car ce terrain est leur cimetière.

معاونين اسماعيل جبروا مزارع يدفع عوائد على ارض ماهيش ملكه فلما اراد يعزقها قامت عليه الفلاحين لان ارض فيها ترب جدودهم

مشهد آخر، لكنه مشهد فاجع هذه المرة، فحينما يكون هناك في بلد ما أسلوبان للجباية، أحدهما رسمي، والآخر سري، فإن مهمة الجباة تكون صعبة. وصل الأمر إلى فرض جبايات على الناس عن الأراضي التي يملكونها وعلى الأراضي التي لا يملكونها. هذا الفـــلاح فرضـــوا عليه ضريبة أرض ليست في حوزته، فلما أراد أن يعزقها، قام عليـــه الفلاحون، لأن الأرض بها مقابر أجدادهم (١).

(١) – جباة الخديوي يجبرون فلاحاً على دفع الضرائب عن أرضٍ لا يملكها، فطلب أن يعيّنوا له هذه الأرض. وحسب إرشاداتهم ذهب إلى الأرض ليتسلمها ويعزقها. فما كان من الفلاحين إلا أن طردوه من الأرض لأنها تضم مقابر ذويهم (المترجم).



Vision d'Abou-Naddarah. Il prévoit l'émeute qui eut lieu 2 mois après l'apparition de ce N°

رُؤية ابي نظاره وهي قيامة ظابطان الجهاديه التي حصلت بعد ظهور هذا النمره بشهرين .

في الشرق، كل شاعر نبي، إلى حد ما. لذلك فهو له رؤية خاصة تستشرف المستقبل. كذلك أبو نظارة، له رؤيته التي يعرضها هنا. لقد تنبأ بوقوع الانتفاضة العسكرية الأولى قبل حدوثها بشهرين، تلك الانتفاضة التي أدّت إلى إلغاء الوزارة الأوروبية، وعجلت بسقوط إسماعيل. هذه الواقعة حقيقة بكل دقائقها (١).

(١) – نبوءة أبو نظارة بقيام ضباط الجيش بتمرد وقع فعلاً بعد شهرين من صدور هذا العدد من صحيفته (المترجم).

عام ١٨٧٩م



ولكن في انتظار هذه الانتفاضة، يستمر إسماعيل في الحكم، ويستمر أبو نظارة في انتقاده وفضح اختلاساته. ونحن من جانبنا لن نعلق على الرسوم التي تظهر فهي تشرح نفسها بنفسها. كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السيد رايفرز ويلسون ما يزال مقتنعاً كما كان منذ خمس سنوات، بأن نوبار إن لم يكن مشاركاً، فهو على الأقل متواطئ في عمليات الاختلاس التي يقوم بها الخديوي السابق (١).

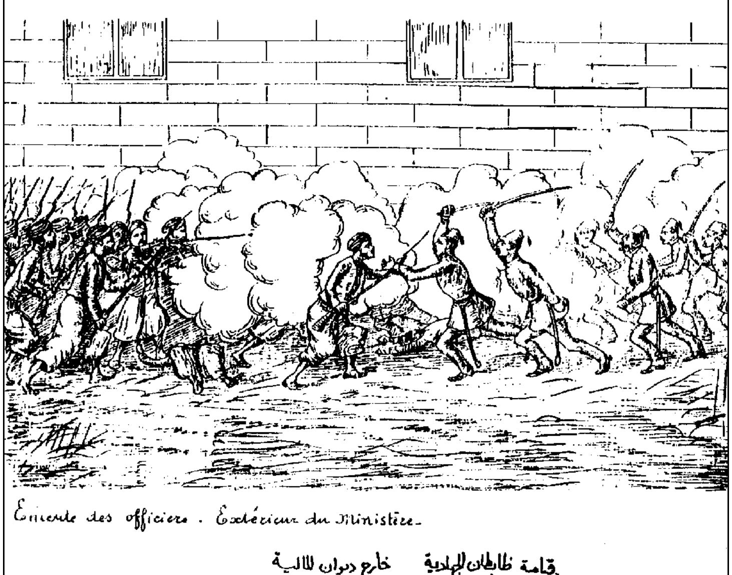
---

(١) – برميل من البيرة يمثل مالية مصر. ويلسون يقبض على الصنبور ليصب منه لأصحاب المصارف والماليين الذين يمسكون بالكؤوس في أيديهم. لكن الخديوي ونوبار باشا سبق أن قاما بإفراغ البرميل من الخلف. والصورة السفلى يسار: ويلسون يقرص الخديوي من أذنه لأنه نهب أموال الخزانة. والصورة السفلى يمين: ويلسون يكيل اللكمات لنوبار لأنه ساعد الخديوي في نهب الخزانة (المترجم).



Emeute des officiers – Intérieur du Ministère des Finances.

قيامة ظابطان الجهادية داخل ديوان المالية

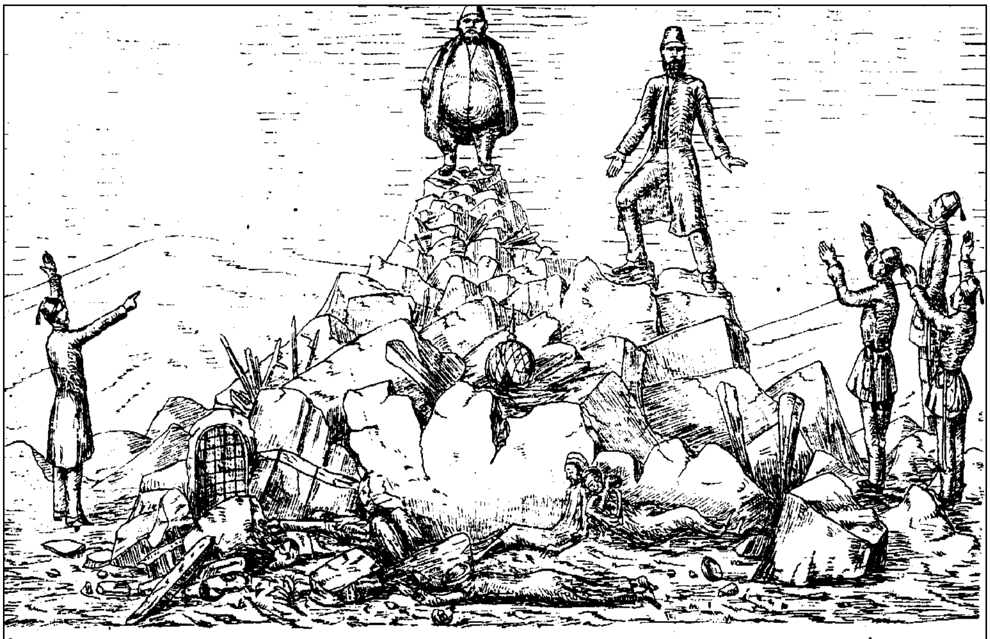


Emeute des officiers. Extérieur du Ministère.

قيامة ظابطان الجهادية خارج ديوان المالية

الانتفاضة! الانتفاضة في داخل وزارة المالية وفي خارجهـــا. صـــورة معبـــرة وبليغة، ولها قيمتها التاريخية التي تماثل القيمة التاريخية لمعركة " سيدان " التي قادها " إيميل بابار " (١).

(١) – الصورة العلوية : التمرد الذي قام به الضباط داخل ديوان المالية. والصورة السفلية : التمرد الذي قام به الضباط خارج الديوان (المترجم).



Egypte en ruines et le Khédive sur les décombres. Le prince Halim monte pour le renverser, aidé par les officiers et encouragé par Abou-Nada

قال ابو نظاره خربتها يا فرعون وقعدت على تلها انما ربنا كريم حليم آهو طالع يشقلبك بهمة مجدع اللطيف واخوانه منصورين ان شاء الله

في هذه الصورة يظهر أبو نظارة في صورة جديدة. فحتى الآن، كنا نعرف من هو الحاكم الذي لا يريده أبو نظارة هو وأصدقاؤه. لكننا لم نكن نعرف حتى الآن من هو الحاكم الذي يريدونه لمصر. هذه الصورة تحدد الشخص المرغوب، إنه الأمير حليم. إن آخر أبناء محمد على سيحتل من الآن فصاعداً مكانة كبيرة في الرسوم التي نقوم بتحليلها (١).

(١) – مصر في حالة خراب، والخديوي فوق الأنقاض. الأمير حليم يصعد لكي يطيح به بمعاونة الضباط وتشجيع أبو نظارة (المترجم).

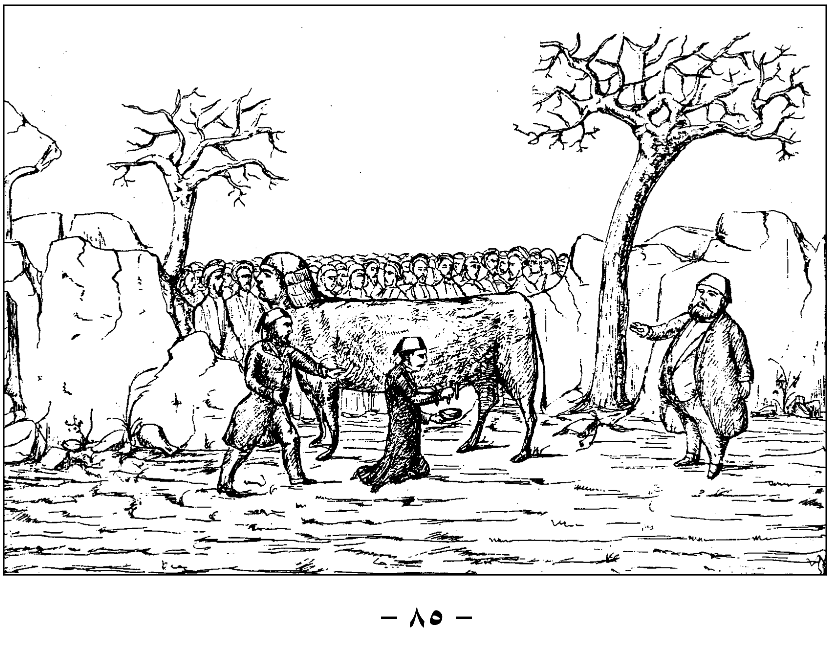


يشرع حليم، بدءاً من هذه الصورة، فيسدي لتوفيق الذي عينه أبوه رئيساً للوزارة، نصيحة من أهم النصائح الأبوية فيما يتعلق بمصر (١)(*).

---

(١) – الأمير حليم يقول للخديوي : إرحم مصر، البقرة المسكينة! أبوك لم يدع فيها نقطة من اللبن (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





لكن إسماعيل يسخر من ذلك. فهو مشغول بشيء آخر، وهو التهرب من الرقابة الأوروبية التي تشتد يوماً بعد يوم. وتقيم من حوله جداراً بعد جدار. وأبو نظارة يطبق عليه مثلاً له نظيره عند الفرنسيين (١)(*).

(١) – توفيق يقول لمندوبي الدول: تريدون أن تحيطوني بالجدران! هل نسيتم أن أجنحتي ستساعدني على الطيران؟ (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





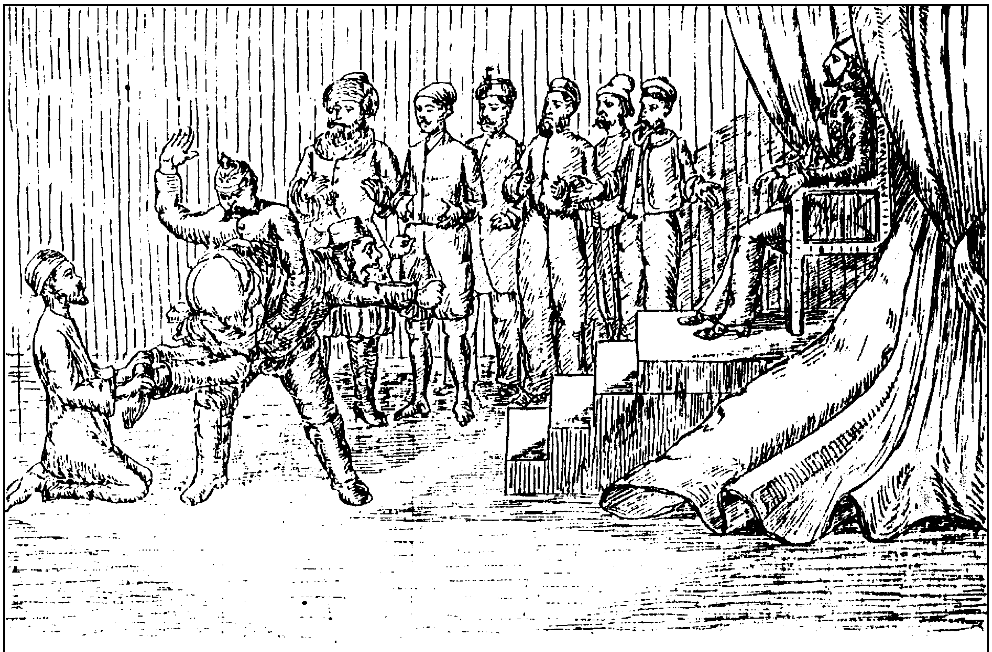
نحن نفضل الرسم الذي يصور لنا إسماعيل وقد أصبح لا يعرف ماذا بقى له أن يبيعه في مصر، فعرض الأهرامات في المزاد العلني. شيء عجيب، وتنفيذه أعجب (١)(*).

---

(١) – الخديوي بعد أن باع محصول مصر لسبع سنين مقدماً، يبيع الأهرامات بالمزاد العلني للسواح (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Une correction bien méritée mais pas suffisante.

بيزمارك امام امير المؤمنين ودول اوروبا قافش اسمعيل ونازل على طيزه احباط ارقاع الفهدي فرحان، وماسك رجليه

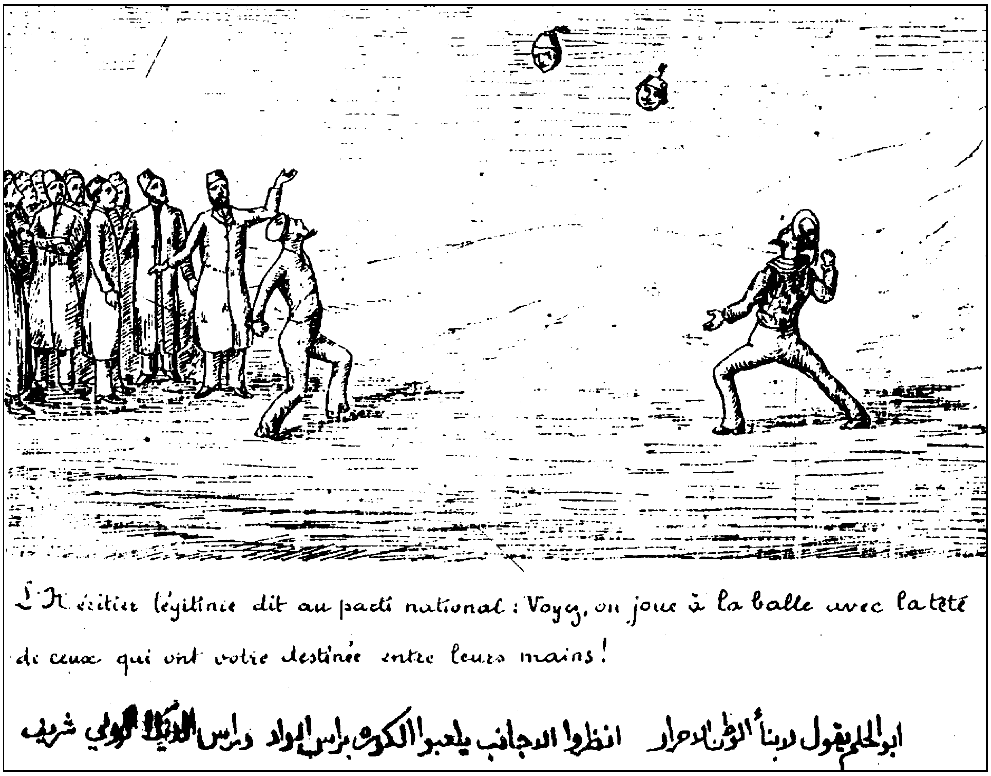
أما الضرب على المؤخرة الذي يمارسه نمساوي على إسماعيل، في حضور السلطان نفسه، فيحتاج إلى بعض التفسير. فبعد حل الوزارة الأوروبية الذي فرض عليه، لم يجد إسماعيل أفضل من أن يقوم بمحض إرادته بتخفيض فائدة الدين. لكن السيد بيسمارك لم يوافق على ذلك. ومن ناحية أخرى، رأى أنه لا فائدة من تقديم إنذار آخر لهذا الخديوي الذي لا سبيل إلى إصلاحه، مما جعله يلجأ مباشرة إلى السلطان، الذي قال له: " عاقبه أنت بنفسك، وكل ما ستفعله سيكون صواباً ". فقام بيسمارك نفسه بعملية الضرب على المؤخرة. وعلى عادته كان الضرب شديداً (١).

(١) – بسمارك يقول للسلطان: هذا عقاب يستحقه، لكنه ليس كافياً (المترجم).



لم يكن ذلك سوى مقدمة لعقاب أشد وأردع. فها هو ذا إسماعيل وقد طرد من مصر من ابنيه حسين وحسن. فلماذا هذان بالذات وليس معهما توفيق؟ هذا سر الوزارتين الإنجليزية والفرنسية. وأياً كان الأمر، فقد ابتهج أبو نظارة، ليس فقط لسقوط الرجل الذي اضطهده؛ ولكن أيضاً لأن السلطان حينما حرّم على إسماعيل دخول أراضي تركيا الأوروبية والآسيوية جعل من إسماعيل، على نحو ما، يهوديا هائماً مسلماً (١).

(١) – القناصل يطردون فرعون وابنيه من مصر، أمام فرحة الشعب الكبرى. وأمير المؤمنين يمنع المطرودين من دخول أسطنبول (المترجم).



أما الأمير حليم، وهو عقلية سياسية متزنة، فهو ينأى بنفسه عن الابتهاج لسقوط الفرع الإسماعيلي من أسرته. أما تنصيب توفيق مع إقامة الكوندومينيوم (سيادة الدولتين) الإنجليزي / الفرنسي، فقد جعله يدرك سريعاً أن مباراة من نوع معين، تكون رءوس الأمير ووزرائه هي الكرات فيها، ستقام بين باريس ولندن، وهو يقول ذلك صراحة للوطنيين المصريين (١).

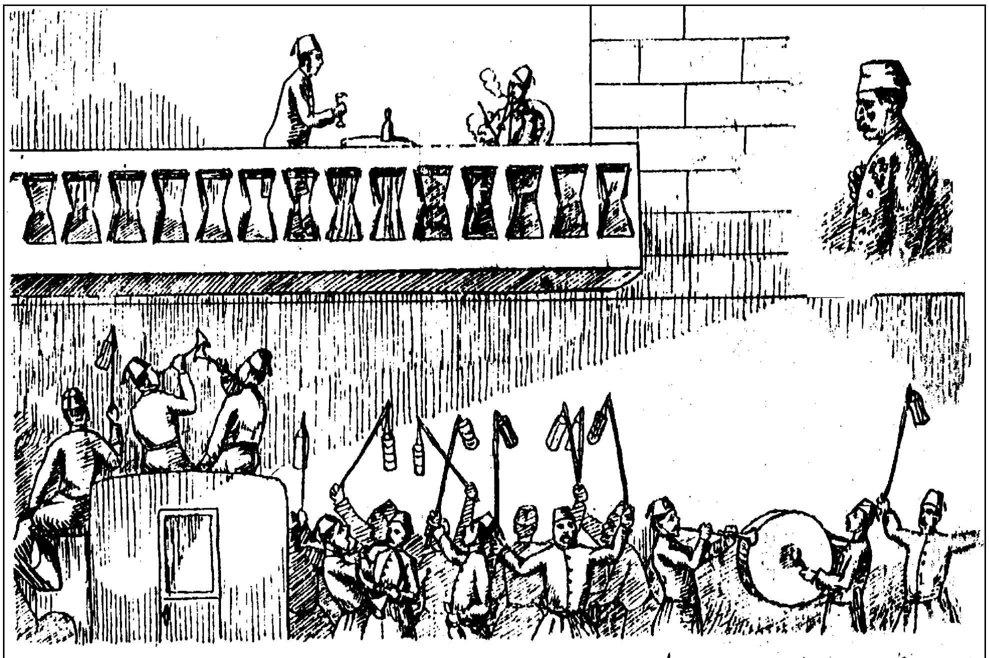
(١) – الأمير حليم، الوارث الشرعي للعرش، يقول للحزب الوطني: انظروا كيف أن الأجانب يلعبون الكرة برؤوس من يملكون مصائركم في أيديهم (المترجم).



LE PREMIER DE L'EGYPTE DONNE A SON SEIGNEUR LE LAIT DE LA SAGESSE ....
LES AMIS FÊTENT SON INVESTITURE EN LUI OFFRANT DE JOLIS PRÉSENTS.
شريف باشا قال مرضعه وبيسقي لبن الحكمة لتوفيق اللي الدول جايبين له لعبات يهنوه بها على وصول الفرمان بتوليته

ومن ناحية أخرى، لم يلبث أبو نظارة أن أدرك أنه ابتهج قبل الأوان بتغيير الحكم الذي حدث. فمن هو الخديوي الجديد؟ مولود كبير يرضع من ثدي رئيس وزرائه. وتقدم له القوى العظمى اللعب (١).

(١) – رئيس وزراء مصر (شريف) يسقي سيّده (توفيق) لبن الحكمة. والدول الصديقة تحتفل بمناسبة توليه العرش ويقدم له لعبات جميلة (المترجم).



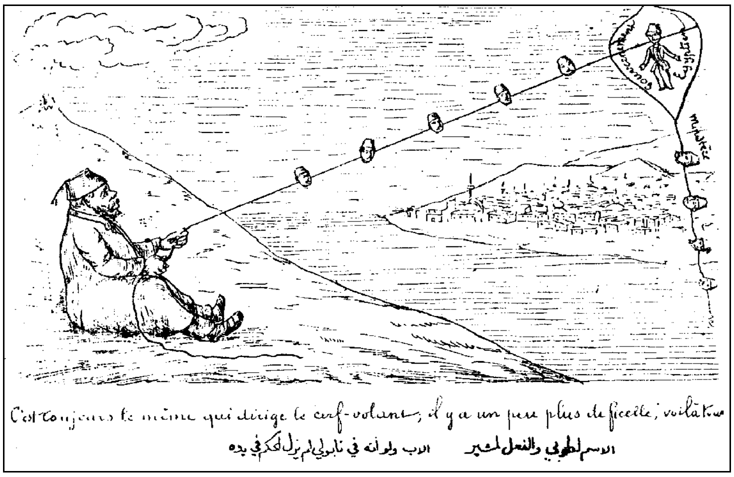
Le Valet chéri sert son auguste maître qui contemple la démonstration bacchanale montée en sa faveur. L'honorable militaire en pleure.

طابيك دو شريف يبكي ويقول الجهادية عيب عليكم تسكروا وتدوروا الدواق القاهرة [illegible] يعيش الوادانظروا [illegible] اللي بيره وكان الشمرجي العزيز

وحينما لا يرضع الطفل توفيق هذا، ماذا يصنع؟ يلهو ويلعب مع خادمه فردريك الذي يباشر استعراض موسيقات الجيش التي يشارك فيها الجنود وهم يرفعون المصابيح. لكن هذا اللهو الصبياني الذي يمهد للهو دموي، يحزن ضباط الجيش (١).

---

(١) – الخادم شريف يقوم على خدمة سيده العظيم، الذي يتفرج على المظاهرة التي ينظمها الضباط تكريماً له. من أعلى اليمين الضابط الشريف يبكي حزناً على وضع البلاد (المترجم).

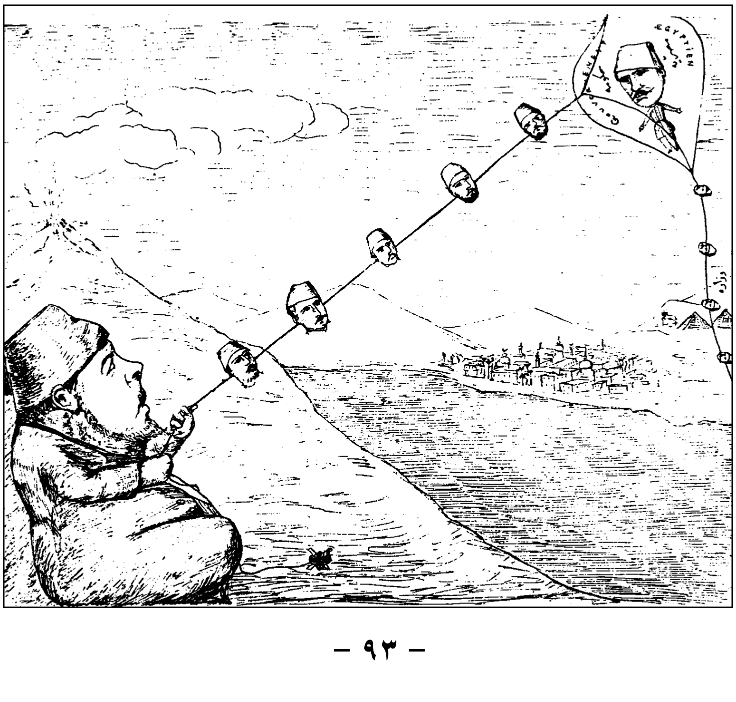


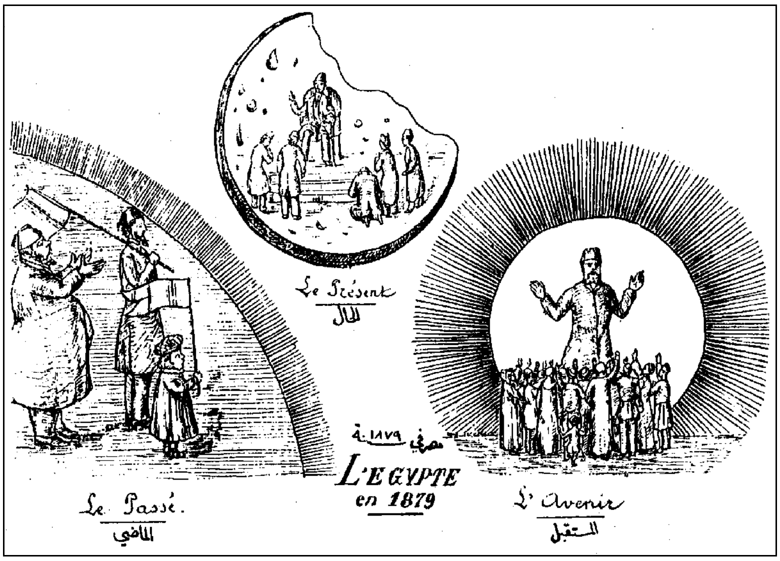
لكنها لم تحزن إسماعيل الذي يجلس في هدوء في سفح بركان الفيزوفيو، وهو ما يزال يتخيل أنه، بفضل عجز ابنه، يمسك بخيوط الحكومة المصرية ويحركها، كمن يمسك بخيط الطيارة الورقية (١)(*).

---

(١) – هو نفسه الأب الذي ما يزال يدير دفة الحكومة التي تمثلها الطيارة الورقية (الحكومة المصرية) ويتدلى منها الوزارة بوزرائها (المترجم).

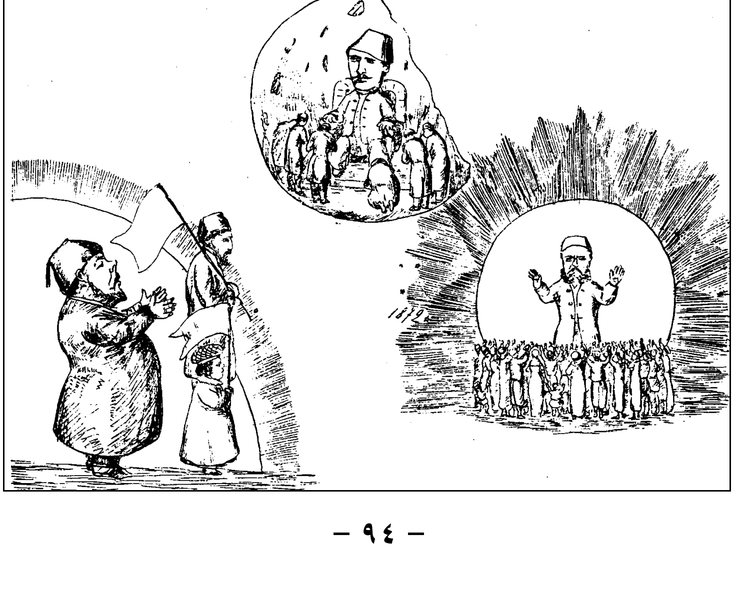
(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





أما أبو نظارة، الذي يستأنف انتقامه من إسماعيل وأعوانه، فهو يصور لنا الخديوي السابق وهو محبوس مع أفراد أسرته في ظل شمس آفلة. وأما توفيق، فهو يحكم مع رجال بلاطه في جزء من قمر مشطور، حيث تتساقط دموع الوطنيين على شكل حجارة. وعلى النقيض من ذلك يبزغ في الشرق، في شمس ساطعة، الأمير حليم متألقاً، ومن حوله يلتف الشعب والجنود. ذلك هو ماضي مصر، وحاضرها ومستقبلها(*).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Vision d'Abou-Naddarah. Le Sauveur de l'Egypte fait son entrée dans sa capitale.

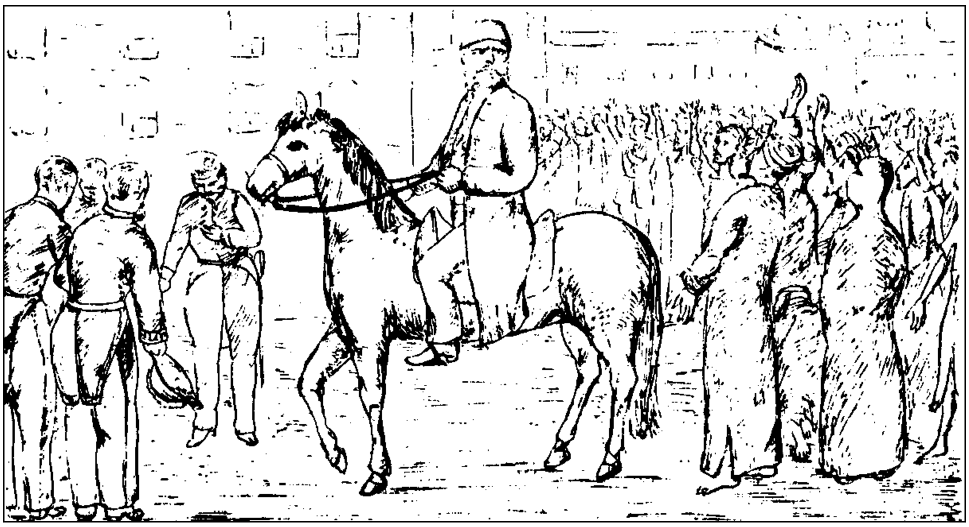
رؤية ابي نضاره زرقاء   اهلا وسهلا بابي الحلم عزيز مصر

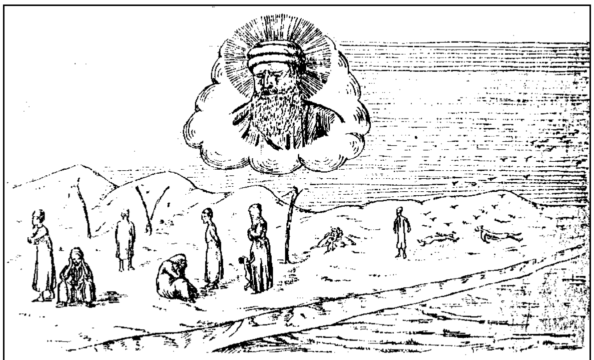
هذه الرؤية تلاحق أبو نظارة، فهو في هذه الصورة يصور لنا الأمير حليم وهو يدخل دخول المنتصر (١)(❁).

---

(١) – نبوءة أبو نظارة. منقذ مصر (الأمير حليم) يدخل عاصمة البلاد (المترجم).

(❁) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.

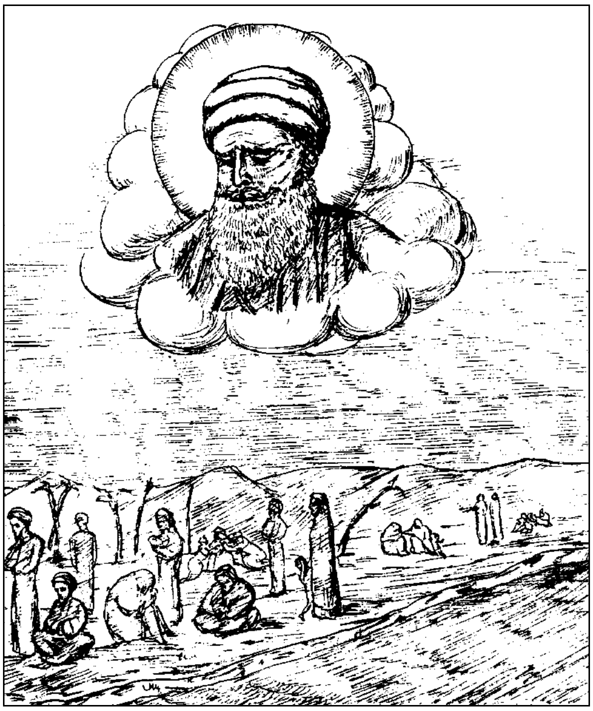




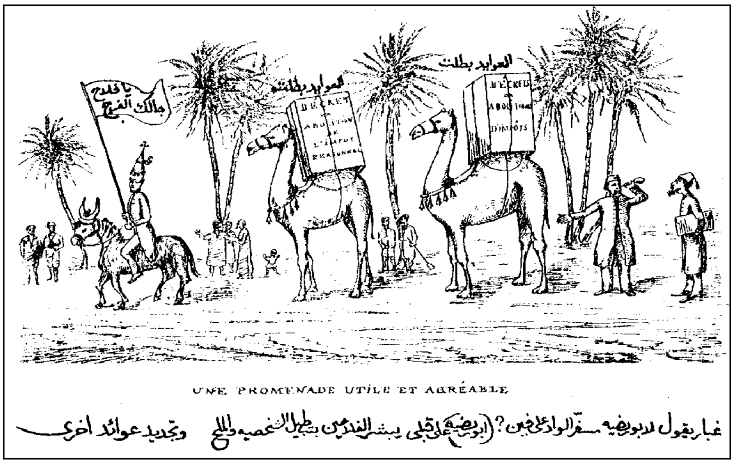
Du haut du Ciel Mohamed Aly verse des larmes sur les misères de son peuple.

غير أن الشعور بالألم لم يلبث أن يعود مرة أخرى. فها هو ذا أبو نظارة ينصرف عن المستقبل ويعود إلى الحاضر فيصور لنا محمد على باشا العظيم بشخصه يبكي بؤس شعبه وشقاءه (١)(❋).

(١) – من فوق السماء. محمد علي الكبير يذرف الدموع حزناً على شقاء شعب مصر وبؤسه (المترجم).
(❋) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.



عام ١٨٨٠م

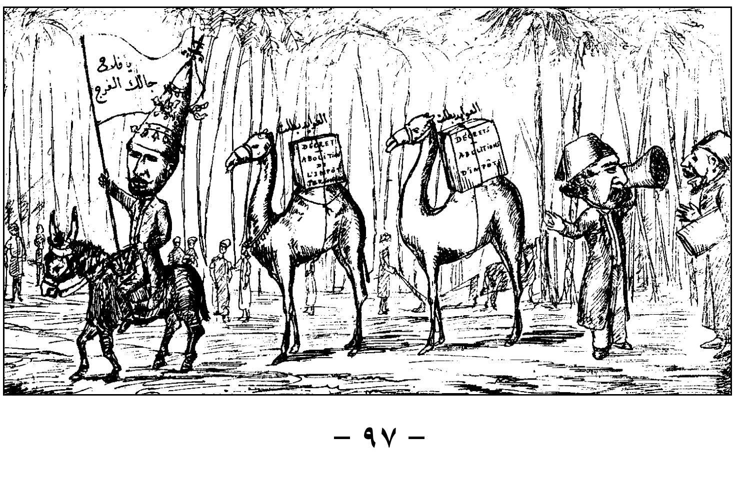


هذه إشارة إلى نزهة أوعز بها نوبار إلى توفيق، ليقوم بها في بعض أقاليم مصر. توفيق يمتطي حماراً وعلى رأسه طاقية مدببة يعلوها جرس صغير عوضاً عن التاج، وفي قمتها صليب بدلا من الهلال. يتقدم ومن ورائه تسير الهوينى مجموعة الجمال الرسمية تحمل على ظهورها خزائن لا تثقل كاهلها مادامت عليها عبارات تقول إن الضرائب الفلانية والفلانية قد ألغيت. وهذا أحد الجباة يسأل نوبار إن كان عليه حقاً أن يتوقف عن جباية الضرائب، فيجيبه نوبار قائلاً وهو يصوب ناحيته سماعة أذنه: " أنا لا أسمع بأذني هذه " (١)(*).

---

(١) – رحلة أو نزهة مفيدة وممتعة (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





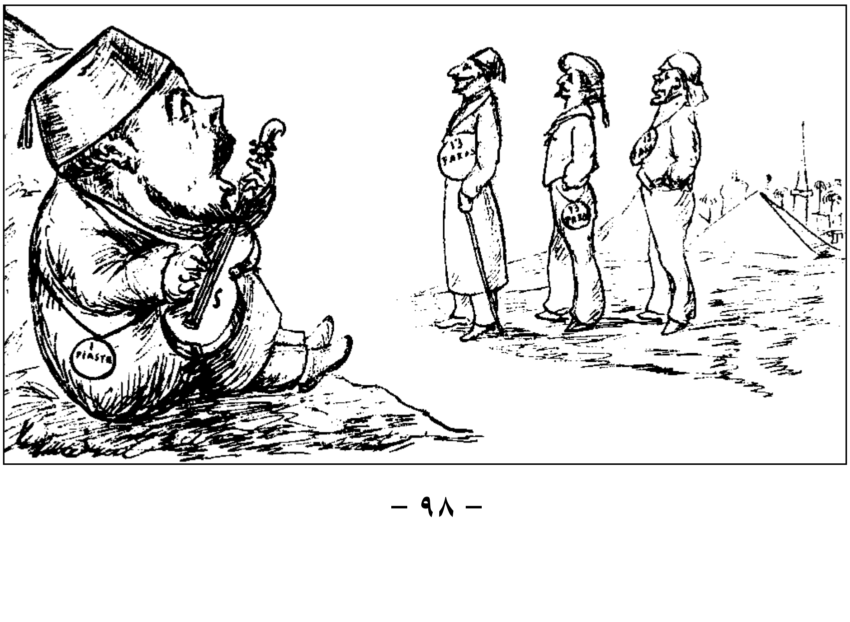
L'EUROPE A REMPLACE EN EGYPTE UNE PIASTRE PAR TRENTE-NEUF PARAS.

اسمعيل يقول على العود انا كنت اساوي قرش باربعين فضه واذ تر الثلاثه ما تساووا الا ١٣ فضه الواحد

أما هذه الصورة فتصور إسماعيل وهو ما يزال جالساً في سفح بركان الفيزوفيو وهو يعزف على جيتار المنفى؛ بينما نوبار والمراقبان الإنجليزي والفرنسي يحملان قطعاً من النقود كأنما للتصدق بها على العازف (١)(❋).

(١) – قامت أوروبا بتغيير القرش المصري في مصر إلى تسع وثلاثين بارة (المترجم).

(❋) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Tandis que Nubar chasse Riaz, Tewfick chasse les deux et l'Anglais chasse les trois.

يميل أبو نظارة كثيراً إلى الركلات التي يشتهر بها مسرح القراقوز (*) ومسرحيات الفارص الإيطالية. لذلك فحينما تواتيه الفرصة فإنه لا يفوّتها. والمناسبة هي معركة معقدة جرت في ذلك العصر بين نوبار ورياض من ناحية، ومن ناحية أخرى بين السير بارينج وتوفيق الذي يضيق بوصاية نوبار. والصورة لنوبار وهو يركل رياض، وتوفيق وهو يركل الاثنين، ثم والإنجليزي وهو يركل الثلاثة (١).

(*) – يا تُرى ذكر عبارة (مسرح القراقوز) وما فيه من ركلات، وميل صنوع إلى هذا النوع في التعبير، له علاقة – بما ذكرناه في دراستنا المنشورة في بداية هذا الكتاب – من أن عروض مسرح صنوع، ربما كانت عروضاً لفن القراقوز؟!

(١) – بينما يقوم نوبار بطرد رياض وتوفيق يطرد الاثنين والإنجليزي يطرد الثلاثة (المترجم).



يتصور أبو نظارة العرش خالياً، ومن ثم فإنه يصور لنا الشعب المصري وهو يهدي العرش للأمير حليم (١).

(١) – الشعب المصري يهدي العرش للأمير حليم (المترجم).

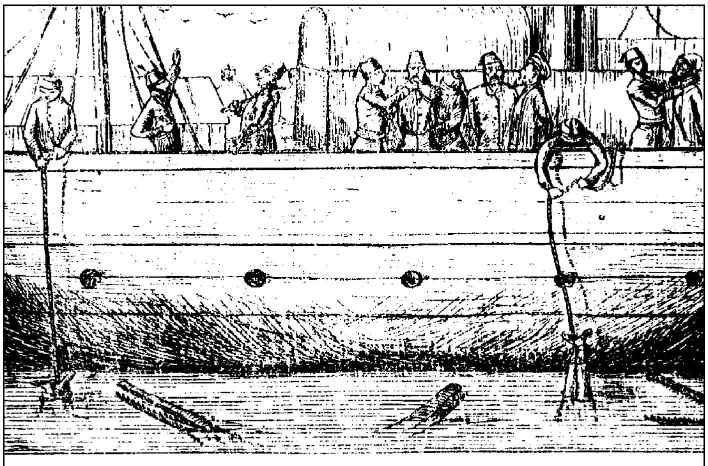


Démonstration des fellahs contre Wilson a cause de la suppression de la Moukabala

قيامة الفلاحين على ولسن ماحي المقابله وخوفه منهم

أما هذه الصورة فتصور الشعب ينهال بالعصي على ظهر الإنجليزي ويلسون (١).

(١) – مظاهرة الفلاحين ضد ويلسون بسبب إلغاء المقابلة (المترجم).



Pharaon et son vizir contemplant avec joie l'exécution des indigènes libéraux.

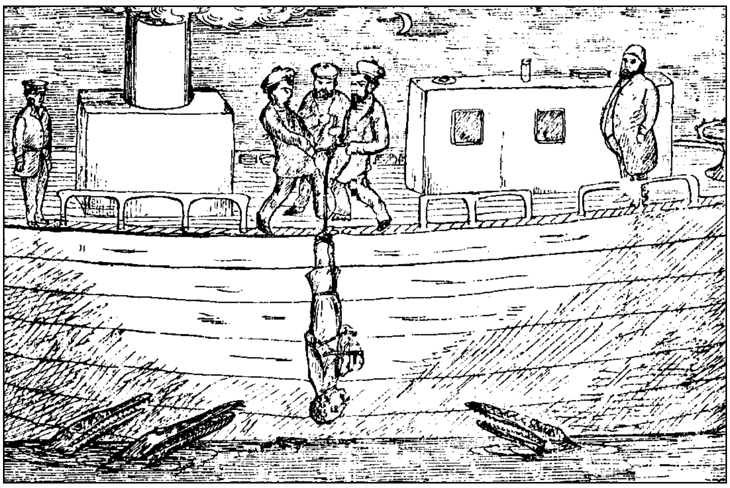
الواد الاهبل وزيرو مغتظين لمشاهدة رمي الضباط والفلاحين لتماسيح النيل معاقبتهم في الترعة

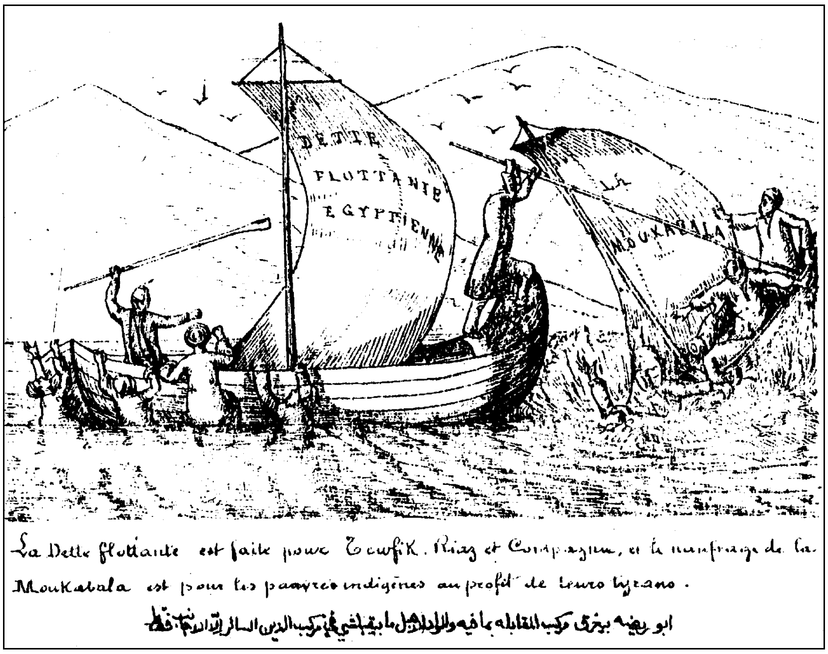
صورة قاتمة وساذجة يفهما حصرياً قراء صحيفة أبو نظارة. ما أبلـــغ صـــورة هذا الحاكم الذي يغرق الضباط الوطنيين الليبراليين على أنغـــام الكمـــان الـــرديء، وصورة هؤلاء الوطنيين الذين يتم تغطيسهم ورءوسهم لأسفل مع الإمساك بهم بحبل؛ ثم صورة هذه التماسيح التي تقبل من جميع الجهات لكي تلتهم الضباط الذين يغطسهم توفيق بالقوة. تصوير بدائي وساذج، ولكن ترتعد له أوصال الكثير من الفلاحين(١)(*).

---

(١) – فرعون ووزيره يتأملان ويتفرجان على تنفيذ الأحكام في الوطنيين الأحرار بإلقائهم إلى تماسيح النيل لتلتهمهم (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.



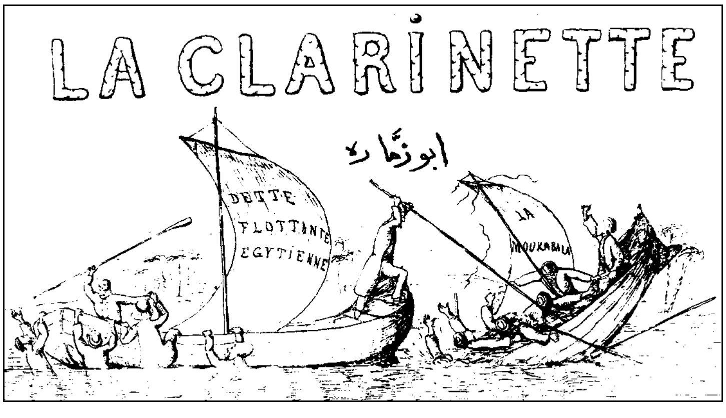


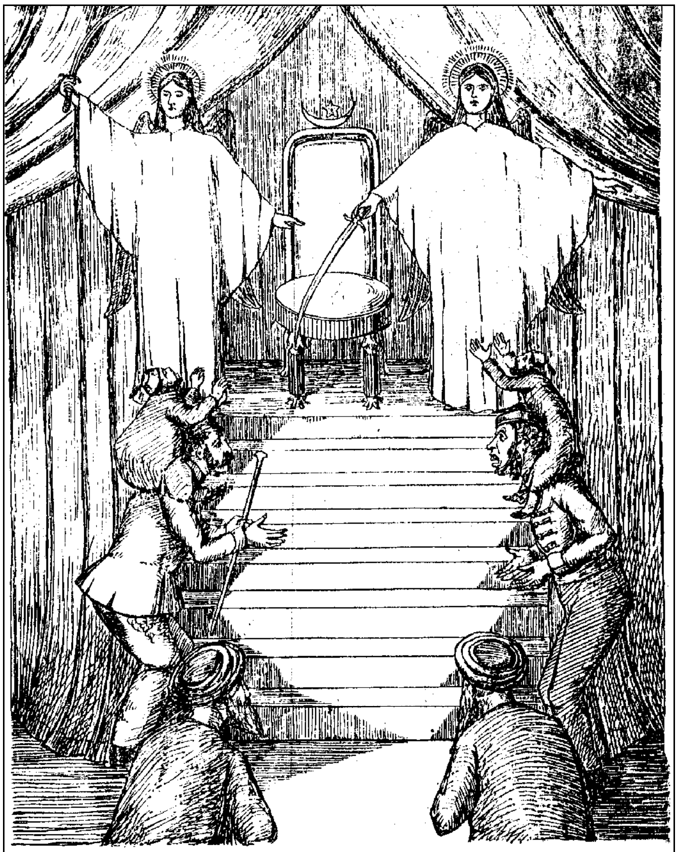
أما هذه الصورة فهي أكثر تعقيداً وأكثر ذكاء. لذلك فلعلها لم تصادف النجاح اللائق بها عند قراء أبو نظارة. الصورة تمثل هجوماً ونقداً اقتصادياً لاذعاً، غير أن شرحها يتطلب مساحة كبيرة. فمن ذا الذي لا يزال يفكر في " المقابلة "، تلك الوسيلة الأخيرة التي لجأ إليها إسماعيل للنصب والاحتيال (١)(*)؟

---

(١) – الدَّين العام العائم عُمل من أجل توفيق ورياض. وغرق المقابلة لمصلحة الطغاة المستبدين بالفلاحين (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





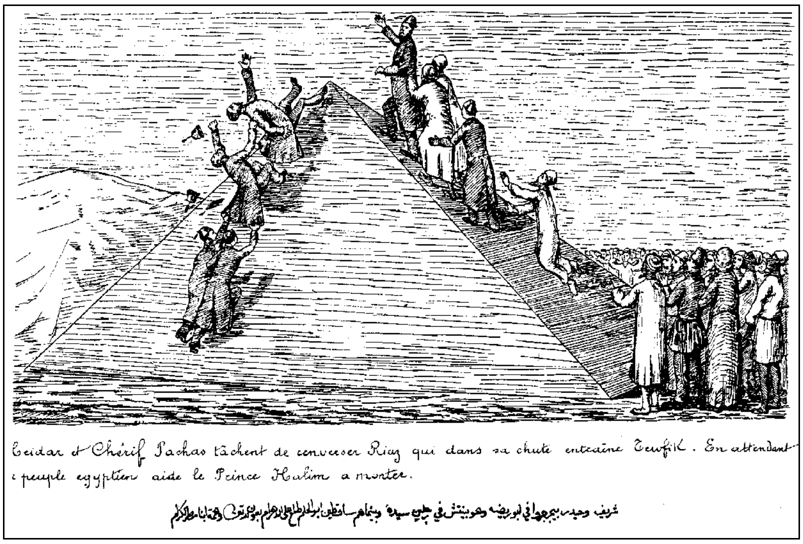
L'Autrichien veut sultaniser le Père et l'Anglais le Fils. Ni l'un ni l'autre ne réussira ; les Anges d'Allah protègent le trône du successeur de Mahomet.

ملائكة الله بسيوفها تمنع اسمعيل وتوفيق من الوصول الى عرش الخلافة وتنتصر على اعداء مولانا السلطان ورب العالمين يقبل دعا المسلمين

يلمح هذا الرسم إلى بعض المؤامرات المعروفة التي حاكها إسماعيل لكي يخلع عبد الحميد، وشارك فيها توفيق من أجل قطع آخر روابط التبعية بين مصر والباب العالي. في ذلك العصر، كان إسماعيل مدعوماً في السر من قبل النمسا، بينما كان توفيق مدعوماً من قبل إنجلترا. فالصورة تمثل الملائكة تحرس العرش، وتمنع إسماعيل وتوفيق من الوصول إليه (١).

(١) – النمسوي يريد تنصيب الأب (إسماعيل) سلطاناً. والإنجليزي يريد تنصيب توفيق (الابن) ولكن لا يفلح كلاهما في ذلك. لأن ملائكة الرحمن يحمون عرش خليفة محمد (المترجم).

عام ١٨٨١م

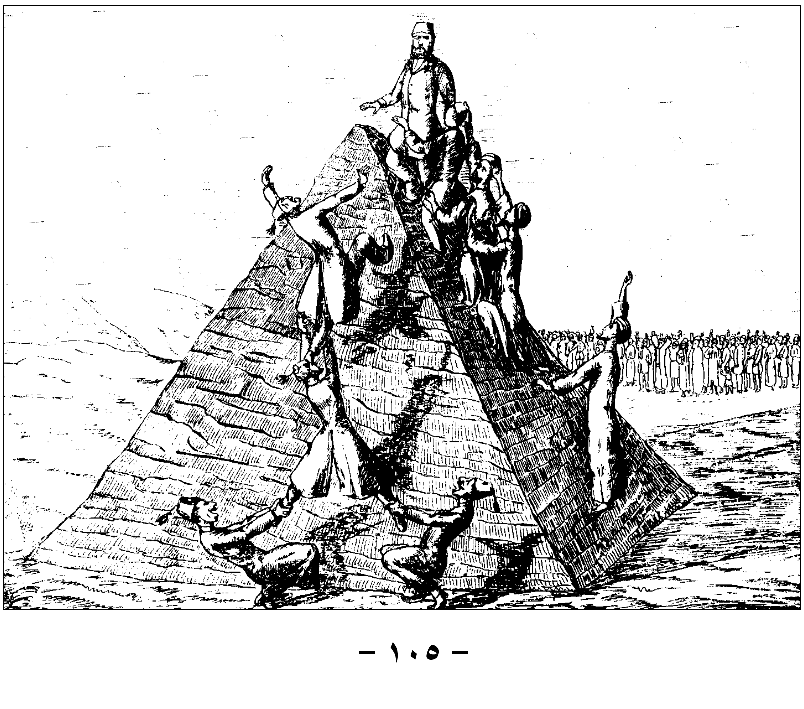


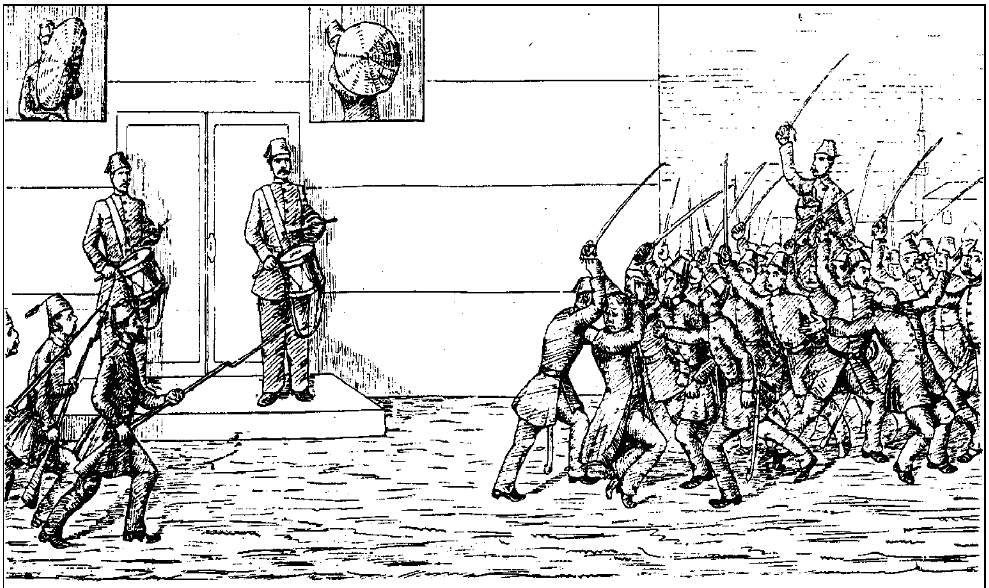
تكرار في صورة أرقى للفكرة الواردة في صورة سابقة (١)(*).

---

(١) – حيدر باشا وشريف باشا يحاولان الإطاحة برياض، فيسقط. وفي سقوطه يسقط معه توفيق. وفي انتظار ذلك، يقوم الشعب المصري بمساعدة الأمير حليم في الصعود (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Émeute des Officiers – Ullatoun et Stone Pachas battus – Tewfik et Riaz ordonnent le roulement de tambours en mettant à l'abri de leurs boucliers.

ثورة الظابطات

زفلطون باشا قلعوا عينه وضربوه واستون باشا نزعوا ثيابه وكركبوه فخاف توفيق ورياض من قطع الروس فتحاموا بالتروس وفتحوا الطبول ... ... الظابطات

كثْر من رسوم أبو نظارة تمثل الانتفاضات العسكرية التي كانت فيما بعد ذريعة للغزو الإنجليزي، وضرب الإسكندرية، ومعركة التل الكبير، إلخ ... إلخ. كان عرابي باشا وطنياً صادقاً، وخطيباً إسلامياً لا يبارى، وقائداً بعيد التأثير، وكل ما يمكن أن يقال، باستثناء أن يكون رئيس دولة، أو قائد جيش، كذلك كان رأي أبو نظارة. إن أمور الحرب من الواضح أنها ليست من اختصاصه. ورجاله الطيبون من الجنود ليسوا سوى رجال طيبين اعتياديين، جمعهم من كل مكان. تمكن توفيق ورئيس وزرائه من الاختباء خوفاً وراء الدروع، وذلك قبل أن يصدرا الأوامر بدق الطبول. وإذا كانت الصورة تخلو من الواقعية، فهي أيضاً تخلو من البهجة (١).

(١) — تمرد الضباط. بعد ضرب الأتون ورياض، يخاف توفيق ورياض ويأمران بقرع الطبول ويحتميان بالمتاريس (المترجم).



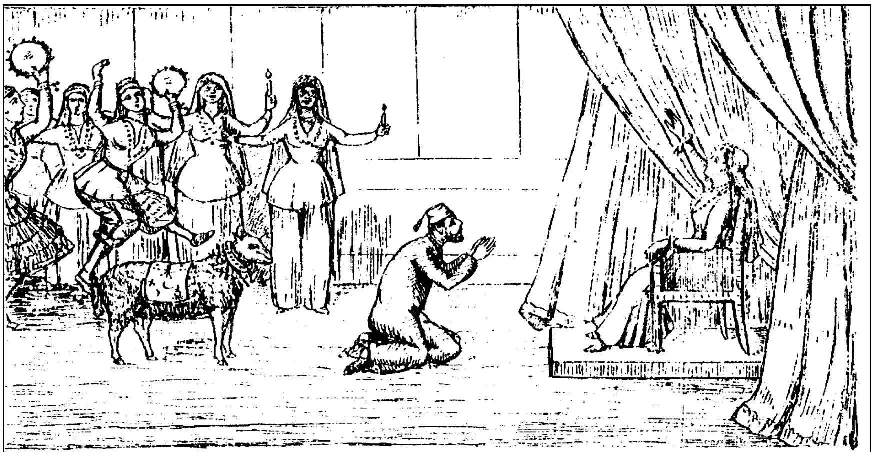
نعود هنا إلى البهجة، بل إلى البهجة الفجة مع السيد دى بلينيير الذي يعتبره أبو نظارة، سواء كان محقاً في ذلك أم لا، أكثر الشخصيات شؤماً ووبالاً على مصر، من زاوية أن هذا المراقب الفرنسي، يفعل كل ما في وسعه لستر سوآت الخديوي الصغير، ومن أجل توطيد العلاقة الحميمة بين الإنجليزي وحكومة مصر. مهمة غريبة لموظف فرنسي كبير سابق (١)(*).

---

(١) – قبل رحيله، أراد أبونا (بلا نور) أن يبارك زواج (المستر جون بول) والآنسة رياض التي مهرها عبارة عن وادي النيل. إلا أن الجيش غضب لذلك ومنع هذا الزواج، وقام بتأديب الولد الخديوي (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





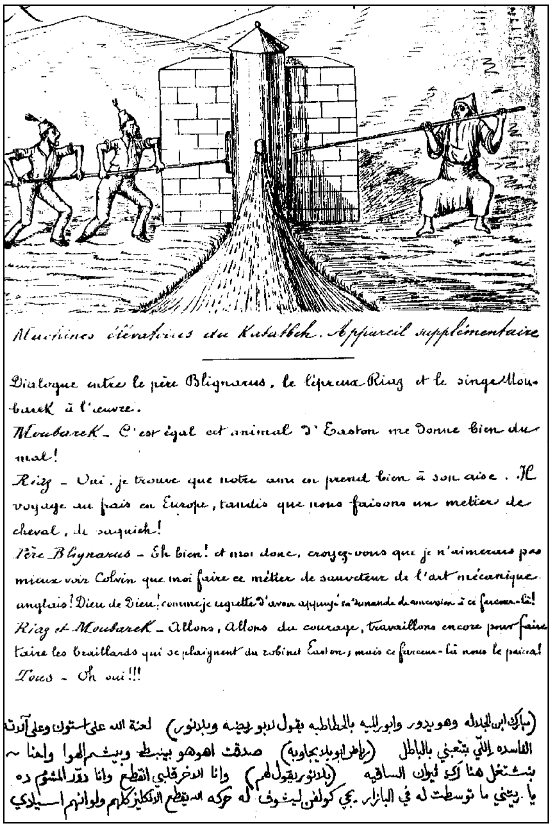
Azzar le mouton vrade – Magie nubienne.
Toufik implorant Sitty Aïcha-al-Koudya la fameuse sorcière pour savoir si l'armée et les indigènes aiment le Prince Halim.
عقد مجلس الزار وزفة الخروف بالطبول والازمار والواد الاهبل راكع امام ستي عيشه خانم الكوديه وهو يتضرع اليها ويسألها ان كان صحيح الاهالي بتحب ابو الحلم وكيف العمل في ذلك .:.

مشهد سحر نوبي واضح المعنى بلا أدنى شك، بالنسبة للفلاحين الذين يعرفون حقيقة الزار ودور الخروف الوسيط، وهو ما قد يخفى علينا نحن الأوروبيين بعض الشيء. لكن ما يدهشنا ويلفت انتباهنا هو أن اسم الأمير حليم يعود دوماً في هذا المشهد الذي يعتمد على الخرافات المحلية (١)(*).

(١) – الزار والخروف الوسيط. ودقة الحضرة. توفيق يركع متضرعاً إلى سيتي عيشة الكوديّة الساحرة، ويسألها ليعرف إذا كان، الجيش والمواطنون يحبون فعلاً الأمير حليم (المترجم).

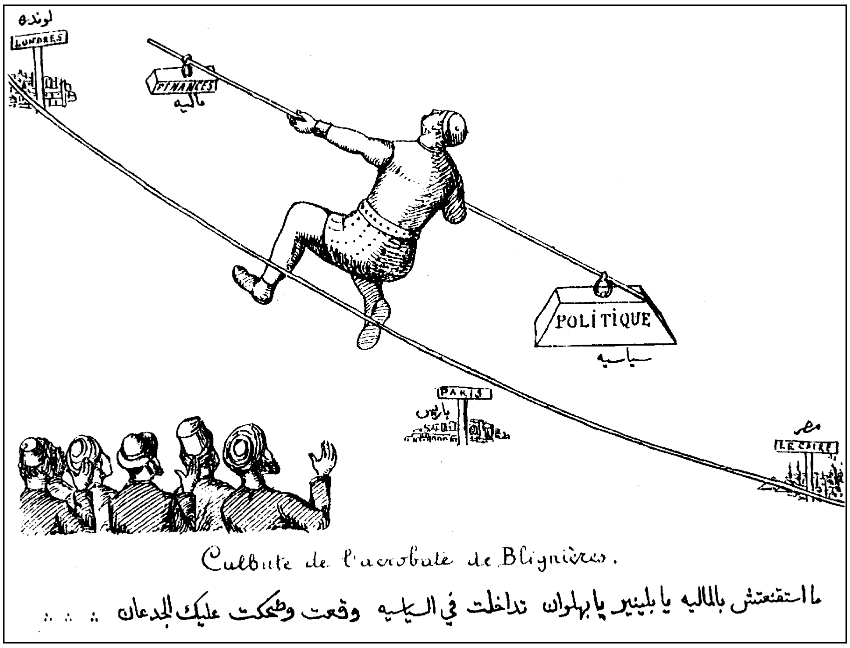
(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





آه! هذه الآلات الرافعة في الخطاطبة. كثر الحديث عنها في الصحف. أسالت من الحبر أكثر مما أسالت من الماء. لقد مُنح امتيازها، كما نعلم لإحدى الشركات الإنجليزية التي يرأسها السيد إيستون وتضم المهندس بوغوص، ابن نوبار. شارك في العملية كل من رياض باشا، وعلى باشا مبارك وبالذات السيد بلينبير، وكانت نتيجتها كارثية على الدولة بصفة خاصة. يصور لنا أبو نظارة رياض وعلى مبارك والسيد بلينبير وهم منهمكون في عمل شاق نيابة عن آلات الرفع التي لا تعمل (١).

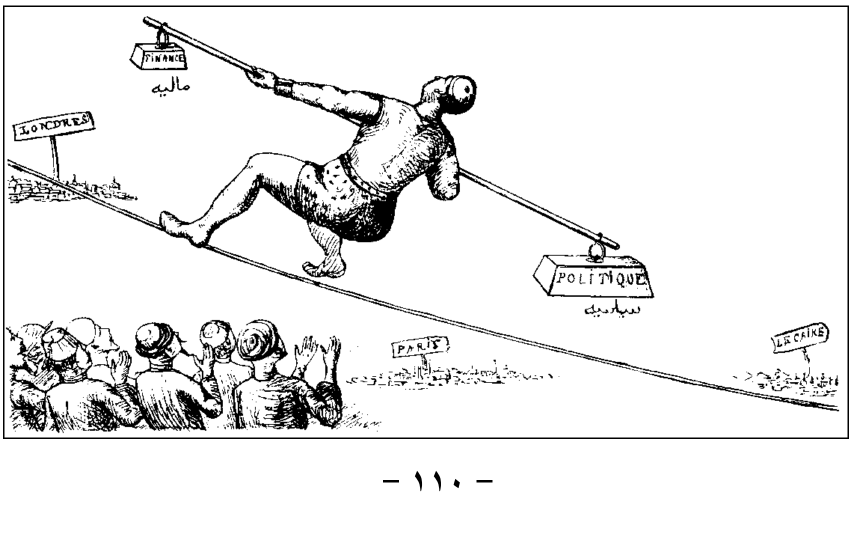
(١) – الماكينات الرافعة في الخطاطبة. آلات إضافية. حوار بين الأب بلينيور ورياض ومبارك أثناء العمل. مبارك: أستون هذا الحيوان الذي يتعبني! رياض: صحيح. أنا أرى أن صاحبنا يعمل ما يروق له. يشم الهواء في أوربا، بينما نقوم نحن بالعمل الشاق كالثيران في الساقية. الأب بلينيور: وهل تظنان أنني راض، وأنني لا أفضل أن أرى كولفن يقوم بهذا العمل بدلاً مني ويتوسط بفن الميكانيكا الإنجليزي. يا إلهي! لكم أنا نادم لأنني أيدت طلبه للتوسط عند هذا الماكر. رياض ومبارك: هيا، هيا، علينا بالهمّة، ولنواصل العمل لكي نسكت هذه الأصوات التي تشتكي من صنبور أستون. ولكن هذا الماكر سيدفع ثمن عمله. الجميع: طبعاً، طبعاً! (المترجم).

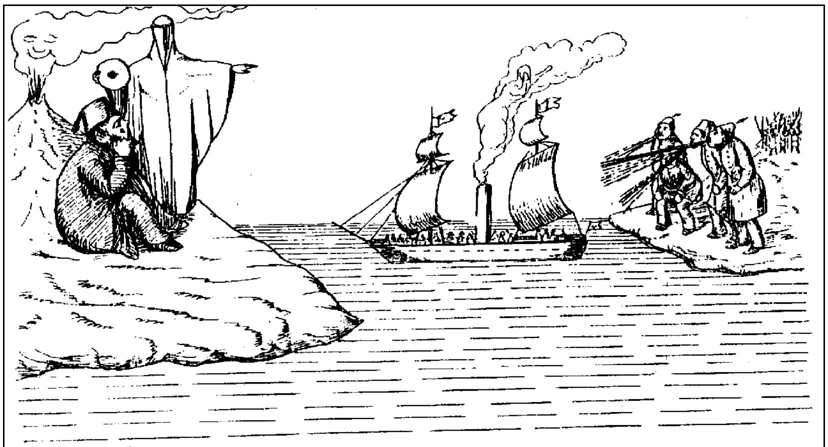


من أقل الرسوم تعقيداً وأكثرها نجاحاً في الألبوم كله. السيد بلينيير وهو ما يزال ناسياً أن دوره دور اقتصادي أكثر من سياسي، فيفقد توازنه وينقلب (١)(*).

(١) – سقوط البهلوان بلينيير! (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





Le châtiment d'Ismaïl continue. C'est maintenant Tewfik qui repousse le navire chargé de la famille de son père. C'est le coup de grâce!

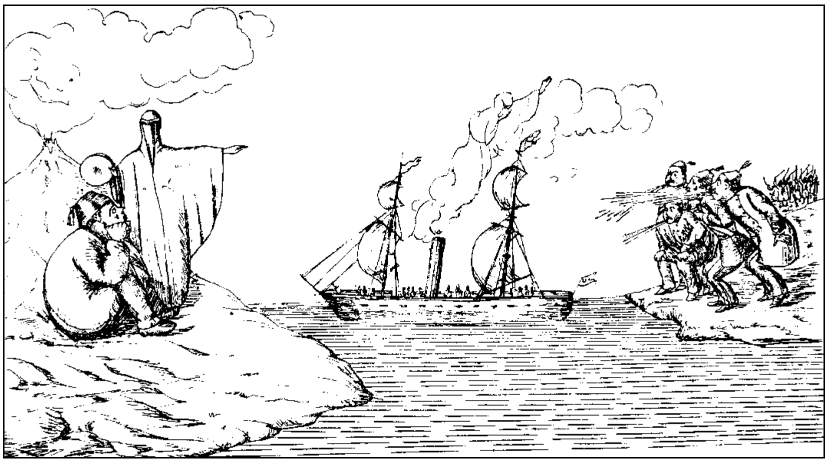
العفار عفّر والغبار غبّر والرسال المصري حضر وفبّر . يا اسمعيل ماجاش الهوا سوى . وطبيبك الحقاني غلط في الدوا . ومن امر عزل التوفيق وتولية ابنه عباس . ما نابك إلا صرف المدايين ووجع الراس . بلد بكا قم واستقبل ام ابراهيم . صعبت علي والله العظيم . امتثل وقل يا كريم حليم

هذه الصورة تعيدنا إلى إسماعيل وهو ما يزال قابعاً عند سفح بركان الفيزوفيو. يرى الخديوي السابق أن حريمه ممنوعات من دخول الأراضي السلطانية، ففكر في إرسالهن إلى مصر. لكن توفيق ووزراءه يرفضون ذلك (١)(*).

---

(١) – عقاب إسماعيل يتواصل. توفيق الآن هو الذي يرفض استقبال الباخرة التي تحمل أسرة أبيه. ذلك عقاب السماء (المترجم).

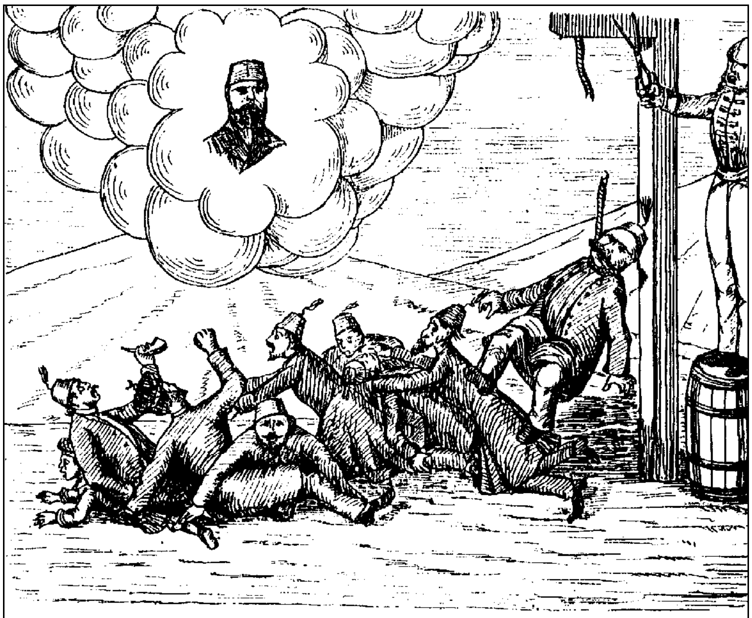
(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





أي مؤتمر هذا؟ لا ندري بالضبط. لكن المؤتمرات كانت كثيـرة جـداً بحيـث يصعب التمييز بينها. ومن ناحية أخرى، فإن أبو نظارة قادر على أن يتصور مؤتمراً لمجرد تسجيل آرائه وإيجاد سياق لتعليقاته (١).

(١) – الوزير التركي الذي يرأس المؤتمر يقول للورد دوفرين السفير الإنجليزي: المصريون يطالبون بالإجماع بتولية الأمير حليم. والسلطان موافق على ذلك. أما ألمانيا فتقول ليس هناك اختيار أفضل من ذلك. وكذلك إيطاليا وروسيا وفرنسا ترى الرأي نفسه. فحليم هو صديق للجميع. السفير الإنجليزي: هذا ممكن. فنحن أيضاً نحب الأمير حليم كثيراً. غير أن إنجلترا لا تحب من يكون صديقاً للجميع. هي تحب صديقها هي وحدها. وتوفيق الصغير كان حبيبها وحدها. طيف أبو نظارة يقول: يمكن الآن أن نقول إن إنجلترا ليست مخلصة. ولكن النصر سيكون للسلطان ولعرابي (المترجم).



Lord Dufferin décroche Arabi, qui, en tombant, accroche Riaz, qui, en tombant, accroche Lotfi, qui, en tombant, accroche Moubarek, qui en tombant, accroche Eyoub, qui en tombant, accroche Chérif, qui en tombant, accroche Tewfik, qui, en tombant, accroche Nobar, qui, en tombant, accroche Abbas, sous le poids de son impopulaire régence.

Notre Halim, seul; reste debout!

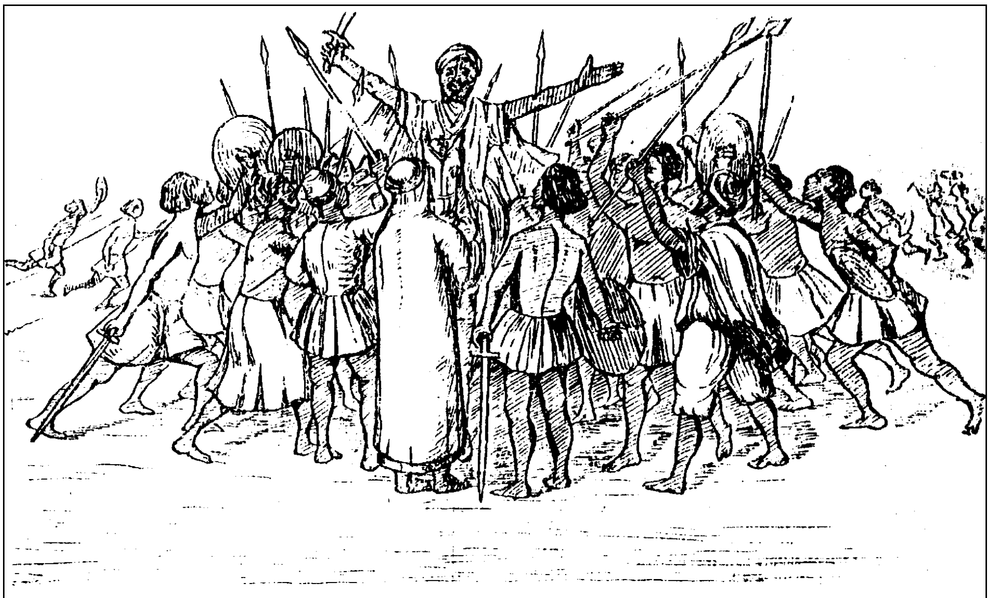
لورد دوفرين يقطع حبل مشنقة عرابي فيقع على رياض . ورياض على لطفي . ولطفي يقع على مبارك . ومبارك على أيوب . وأيوب على شريف . وشريف على توفيق . وتوفيق على نوبار . ونوبار على عباس .

حليم فقط يفضل واقف .

في فترة من الفترات، أثير موضوع خلع توفيق وتولية ابنة عباس؛ تحت وصاية نوبار. وقد سخر أبو نظارة من هذه الطبخة مستخدماً ركلاته الشهيرة (١).

---

(١) – اللورد دوفرين يقطع حبل مشنقة عُرابي فيسقط فوق رياض. فيسقط رياض على لطفي، فيسقط لطفي ويقع على مبارك، فيقع مبارك على أيوب، فيسقط أيوب ويقع على شريف، فيسقط ويقع على توفيق. فيسقط ويقع على نوبار، فيسقط ويقع على عبّاس. أما حليم حبيبنا فهو وحده الذي يظل واقفاً (المترجم).



Le Madhy du Soudan haranguant ses guerriers avant de livrer bataille.

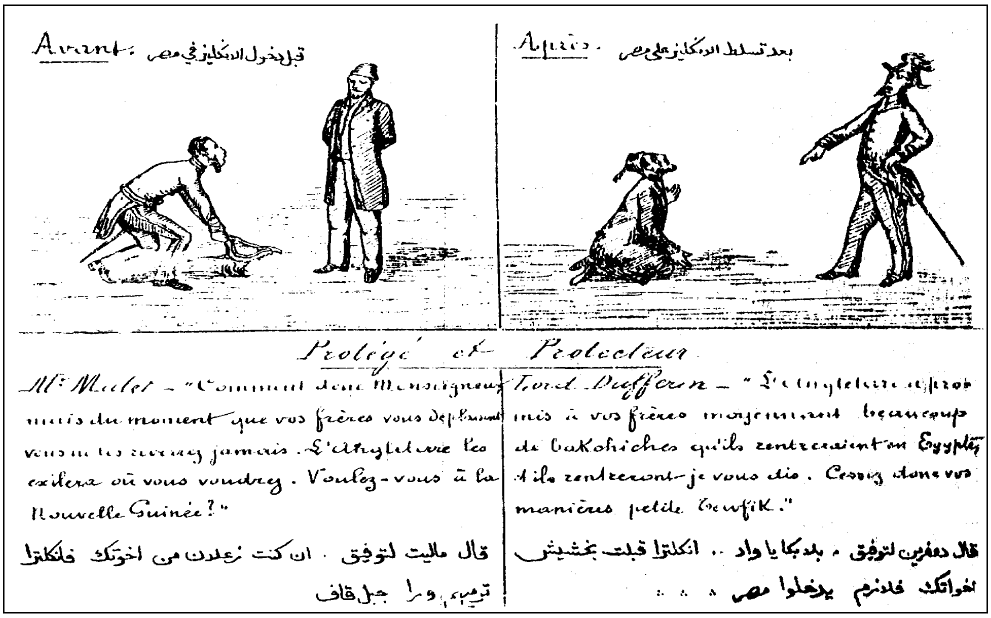
خطاب المهدي السوداني لاتباعه

أول مرة يظهر فيها المهدي. لقد تنبأ أبو نظارة أن تمرد السودان لن يلبث أن يتحول بسبب أخطاء الإنجليز، إلى حرب دينية (١)(*).

(١) – مهدي السودان يعبّئ محاربيه قبل بدء المعركة (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





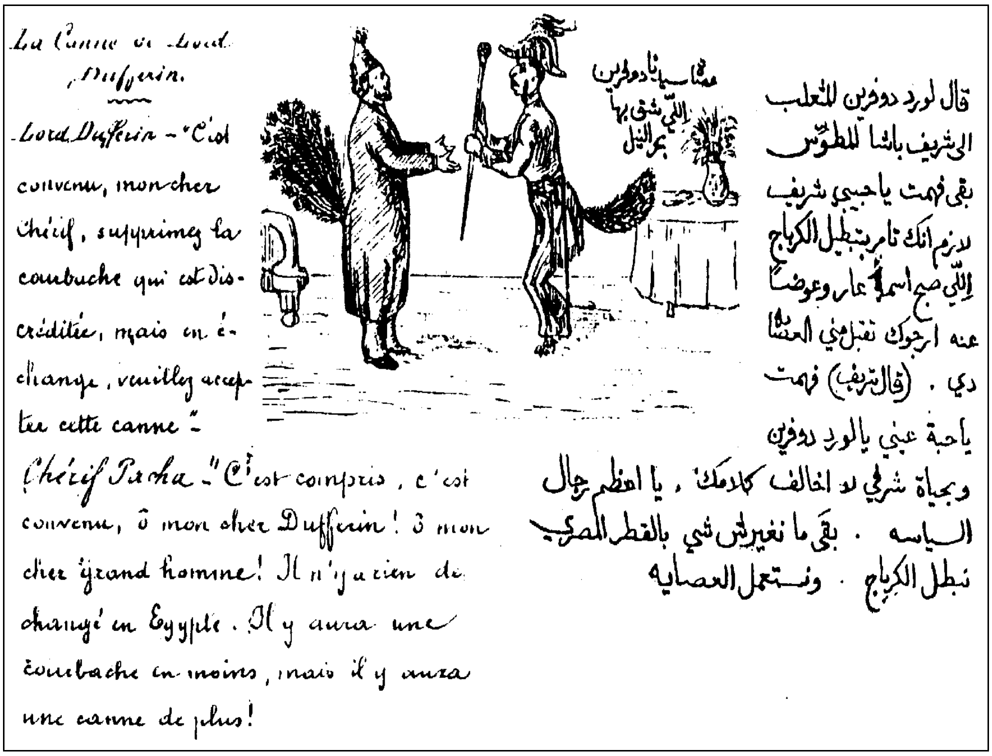
لوحتان تفيضان بالسخرية والفكاهة. في الأولى السيد ماليت يركع تذللاً إلى توفيق لكي يستبعد شقيقيه حسين وحسن اللذين يبغضهما الخديوي الجديد من كل قلبه. وفي الثانية ينقلب فيها الوضع فيصبح الخديوي هو الذي يركع أمام ماليت (١)(*).

---

(١) – الصورة اليسرى: ميليت يقول لتوفيق: لا عليك يا سيدي. إذا كان أخوتك لا يعجبونك فنحن مستعدون لنفيهم إلى أي مكان تريده. هل تحب أن ننفيهم إلى غينيا الجديدة؟ الصورة اليمنى: لورد دوفرين لتوفيق: إنجلترا وعدت إخوتك، في مقابل بقشيش كثير، أن يدخلوا مصر. وسيدخلون كما قلت لك. كف إذن عن حركاتك هذه يا صغيري توفيق (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.

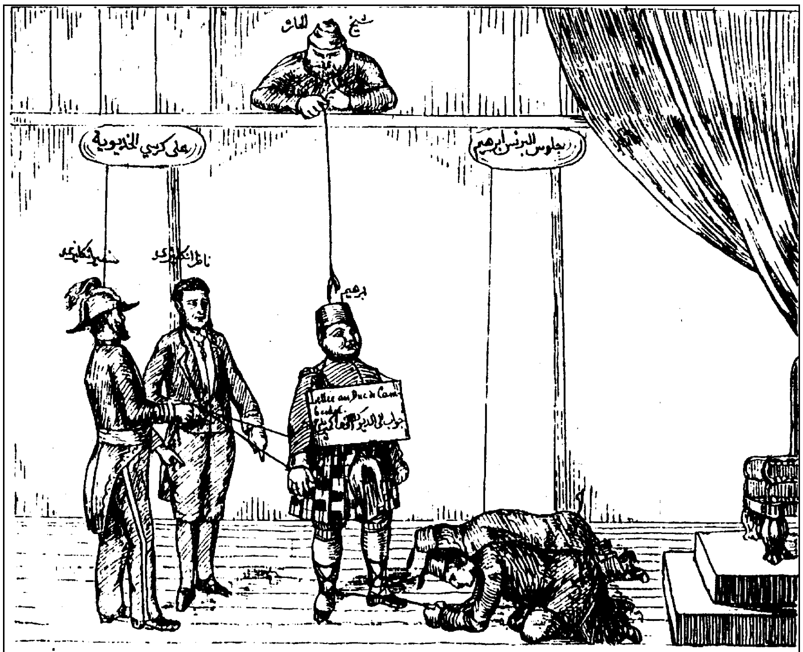




هذه العصا التي يهديها اللورد دوفرين إلى شريف تمثل تاريخاً كاملاً. فالمشرع البريطاني في مصر تصرف بوصفه حاكماً حقيقياً، وتفتق ذهنه عن أن يقوم، بدلاً من توزيع حُقّات سعوط (نشوق)، فالسعوط لم يعد مادة تفاخر، وإنما قام بتوزيع عــصي. فكانت أجمل العصي من نصيب شريف باشا رئيس مجلس الــوزراء وأكبــر مؤيــد حينذاك للاحتلال البريطاني، ومن ثم كانت سخرية أبو نظارة الذي صــور دوفــرين بذيل ثعلب وشريف بذيل ديك رومي (١).

---

(١) – (عصا اللورد دورفين) اللورد دورفين: مفهوم يا عزيزي شريف. عليك أن تلغي السوط (الكرباج) الذي أصبح غير مقبول. وبدلاً منه سأعطيك هذه العصا. شريف باشا: مفهوم. اتفقنا يا عزيزي دورفين. يا أيها الرجل العظيم. فلم يتغير شيء في مصر. بناقص كرباج وبزيادة عصا (المترجم).



La Charte et le règne d'Ibrahim, fils d'Ismail, successeur désigné de Tewfik.

الفرمان الانكليزي ومُلك ابرهيم ابن اسمعيل الذي تعيّن خليفة توفيق . قال ابو نظاره وسامعين فلاحين . واذا نجحوا احلق شنبي واكسر نظارتي الزرقا واحط على عيوني نظاره سوداء

هذا الرسم يحتاج إلى بعض الشرح. في ذلك العصر حيكت في لندن مؤامرة جديدة من أجل خلع توفيق الذي كان عجزه عن إدارة البلاد لا يخفى على أحد، وتنصيب، ليس الأمير حليم الوارث الشرعي للعرش، ولا عباس الوارث غير الشرعي، وإنما الأمير إبراهيم الصغير، وهو رابع أبناء إسماعيل وأحبهم إليه. هذه المؤامرة أثارت سخرية أبو نظارة فصورها بريشته ليبين لنا الوضع الذي سيكون عليه إبراهيم مع أبيه الخديوي المخلوع الذي يلعب برأسه، ثم مع ممثليه الإنجليزيين، العسكري والمدني، اللذين يلعبان بذراعيه، ثم مع أخويه حسين وحسن اللذين يلعبان بقدميه مع أنهما ساجدان له؛ نلاحظ أيضاً أن إبراهيم الذي يرتدي الزي الاسكتلندي يضع فوق صدره كعلامة ثابتة، خطابه الشهير إلى دوق كامبريدج. في هذا الخطاب يرجو إبراهيم، بإيعاز غبي من أبيه، من القائد العام للجيش البريطاني التفضل بالسماح له بأن يخدم في صفوف الجيش الإنجليزي ضد إرادة شعبه هو. وقد استحى دوق كامبردج أن يرفض مثل هذا الطلب الذي هو في حقيقة الأمر إهانة لإبراهيم (١).

(١) – الفرمان وحكم إبراهيم بن إسماعيل خليفة توفيق (المترجم).

عام ١٨٨٣م



حينما يمسك أبو نظارة بفريسة ما فإنه لا يتركها أبداً بسهولة. دليل ذلك هذا المشهد الفكه الذي يصور امتحان قبول يجريه الإنجليز لإبراهيم (١).

(١) – القنصل الإنجليزي: هل يجب أن نطلب من التلميذ اليوم أن يردد بعض صفحات من دستور اللورد دورفين؟ الجنرال الإنجليزي: لا، بل نكتفي بأن نطلب منه أن يقرأ الرسالة التي بعث بها إلى دوق كمبردج. هيا يا صغيري إبراهيم انهض واقرأ. إبراهيم يقرأ بطلاقة: يشرفني دائماً أنني أتعاون مع الإنجليز في حربهم ضد المصريين، وأن يكون لي مرتبات ضخمة مثل الإنجليز وأن أسكر مثل الإنجليز. الجنرال (مقاطعاً): كفى! كفى! هذا جيد جداً يا ولدي (المترجم).



أما هذا الرسم فهو أكثر كآبة. يصور المفتش شقيق إسماعيل من الرضاع الذي اغتاله إسماعيل، وهو يظهر لأبناء الخديوي السابق، الذين شاركوا في جريمة قتلـــه، وعلى طريقة شكسبير في مسرحياته، فيبدو أن مثل هذه المشاهد الشكـــسبيرية تـــؤثر كثيراً في جمهور الفلاحين المصريين (١).

(١) – حسين يقول لأخيه حسن: أليس هذا هو المكان الذي غطسنا فيه المفتش مع أسراره؟ حسن: سبحان الله! ها هو ذا يخرج من النهر! طيف المفتش: من الذي جاء هنا ليزعجني حتى في قبري؟ آه! هذا أنت يا حسن الذي أمرت بالقبض عليَّ غدراً. وأنت يا حسين الذي تم تعيينك مكاني ناظراً للمالية لكي تزوّر دفاتري كما يحلو لك. أين توفيق إذن؟ إن خدّي ما يزال يؤلمني من الصفعة التي كالها لي هذا الطفل. آه يا أبناء إسماعيل، هل عرف العالم الحقيقة؟ (المترجم).



مأساة الكوليرا يصورها هذا الرسم. حيث أبو نظارة الناقد الساخر يضاعف من غضبه وسخطه على المعتدين الذين قاموا بغزو بلاده، والذين يتهمهم علناً ورسمياً بإدخال هذا الوباء إلى أراضي مصر. الرسم يصور مصر ومن حولها القوى الأوروبية متنكرة في شكل جنيات بلحى، مع آخر هدية مقدمة من الإنجليزي الذي يحمل الكوليرا بين طيات مظلته. سخرية لاذعة (١).

(١) – (الكوليرا، الوباء الثاني في مصر – معجزة إنجليزية) ألمانيا: هيا، يا بنيّتي، يا مصر المسكينة! لا تخشي شيئاً. امتثلي للشفاء وأنا أعلّمك حرب بلادنا. إيطاليا: أما أنا، فسأعلّمك كيف تستطيع الأمم النائمة أن تنهض من نومها. بلجيكا: وأنا أعلّمك كيف تتعامل الأمم الصغيرة مع الأمم الكبيرة. فرنسا: أما أنا، فقد أعطيتك كل شيء، حضارتي وأفكاري وضباطي، ومعلّميّ، وعلمائي في المصريات، وعلمائي وأساتذتي ومهندسيّ، وقناتك الكبيرة، وسأعطيك قناة أخرى. إنجلترا: أما أنا، فقد سبق أن جلبت إليك الحرب. وسأجلب إليك الكوليرا أيضاً (المترجم).



هذا الرسم لا يحتاج إلى تعليق، وبخاصة لمن لم ينس أن اللورد جرانفيل الإنجليزي لم يكن ليهتم بموضوع الكوليرا طالما أنها لا تصيب إلا شعوب البحر المتوسط والمواطنين المصريين. لكنه هنا يبالغ في اهتمامه إلى درجة السخرية حينما يرى أن هذا الوباء يمكن أن يصيب القوات الإنجليزية، مع أنها تقيم في معسكرات عبارة عن خيام متنقلة ومؤقتة، وبعيدة عن أي بؤر للعدوى (١).

---

(١) – جون بول (ممثل الحكومة الإنجليزية): أغربوا عن وجهي أيها الفلاحون الأشقياء. لا تقتربوا من معسكري في حلوان حيث يوجد جيشي! الفلاح: ألم تقل إن الحجْرَ الصحيّ غير مهم! جون بول: هذا بالنسبة للآخرين، ليس بالنسبة لي أنا. أما أنتم يا أهل سورية وتركيا وطرابلس وبالذات تونس والجزائر، فلا تقتربوا قبل أن تأخذوا جميع احتياطاتكم من مدينتي لندن التي فيها شعبي أنا! سورية: ألم تقل إن الحجر الصحي غير مهم؟ جون بول: بالنسبة للآخرين، ليس بالنسبة لي أنا. الدول الأوروبية: علينا أن نسمع، ونعي، ونسجل أقوالك هذه يا إنجلترا (المترجم).



تكملة للحملة نفسها. إن الآراء التي أدلى بها كل من الطبيب هانتير ودوتريو وأباتو ظلت شهيرة. وقد هاجمها أبو نظارة وهو محق في ذلك (١).

(١) – الكوليرا (على حدة): كأرقام صحيحة، مائة ألف من أوروبا ومن الهند ومن الوجه البحري والوجه القبلي في مصر. يكفيني هذا. فلأعد أدراجي إلى الهند. الدكتور عنتر: يا زملائي المحترمين، أنا أؤكد أن الكوليرا الحالية هي مصرية، لكنني لا أنكر أن في عروقها بعض قطرات من الدماء الأسيوية. الدكتور دوبريو: أيوه! قليل جداً! الدكتور أبات: وأنا أؤكد أن الكوليرا لا هي مصرية ولا أسيوية، لسبب بسيط، وهو أنه لا يوجد كوليرا بالمرة! الدكتور عنتر: إذا لم يكن هناك كوليرا بالمرة؟ الدكتور أبات: الإنجليز لم يستطيعوا جلبها على مصر. الثلاثة معاً: وهذا ما يجب توضيحه! الكوليرا: آه يا بكّاشين يا أونطجية! (المترجم).



صورة كاريكاتورية جميلة وصادقة وبليغة. والرسم بدائي إلى حد كبير، لكن هذا لا يمنع من دقته وقوته مما يقربه من الأسطورة. المهم، لقد كان أبو نظارة هو أول من قرّب بين النظام الأيرلندي والنظام المفروض على مصر، ذلك التقريب الذي يقول به الجميع اليوم (١)(*).

---

(١) – جون بول: سترون يا أصدقائي كيف أننا سنكون سعداء معاً!... أوه! هذه كوستليتة جميلة بالبطاطس! عظيم! فلنتقاسمها يا إخواني! أنت يا عزيزي يا ابن البلد، لك العظمة. وأنت يا إيرلندي لك البطاطس. ابن البلد: يسمي هذا قسمة! الإيرلندي: أوه! حينما يكون هناك بطاطس، فإنني لا أقول شيئاً (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





نحن من جانبنا لا نحب مثل هذا التصوير الجديد بأدولف دينّرى. فهو ميلودرامي أكثر من اللازم. ولكن إذا كان الفلاحون يحبون الأساليب الشكسبيرية فهم يؤكدون أنهم يحبون أكثر أساليب دينّرى. ونحن لا نعجب كثيراً من ذلك (١).

(١) – (قَتْلُ أمّةٍ بأكملها) مصر: لم أعد أريد دواءك يا سير بارنج. إنه سم بالنسبة لي. سير بارنج (وهو ينظر إلى منصة الدول الكبرى): أرأيتم، أيتها الدول الكبرى. أريد أن أشفي مصر، بينما هي، الغادرة، تريد طعني. نوبار: (مخاطباً توفيق): هيا يا توفيق، لا تلق بالاً لصراخ وعويل هؤلاء النسوة اللاتي يزعمن أنك السبب في موت أزواجهن وأبنائهن. اضرب ضربة أخيرة بالفأس لتحفر قبراً لمصر كلها فلا تدفن أحداً بعد ذلك. مصر (تنظر إلى منصة السلطان): أوه! من ينجيني من هذين الطبيبين القاتلين؟!! (المترجم).



برافو! هذا شغل أبو نظارة، ذلك الولد الشقي القاهري الذي لا يرحم، والذي سرعان ما تضاعف بولد آخر باريسي. ونحن لا نستخدم عبارة الولد الشقي إلا بالمعنى الراقي الذي قصده الناقد " سانت – بوف " لوصف بعض جوانب من إنتاج الرسام "جافارني ". ونحن لم ننس الطريقة التي زايد بها الأدميرال هوات والجنرال جراهام على رأس الجنرال المهدي عثمان ديجما. هذه المزايدة أثارت فضيحة حتى في لندن. وبعد فترة من الوقت أرغم الأدميرال هوات والجنرال جراهام على مغادرة السودان. هذه اللحظة النفسية هي التي اختارها أبو نظارة لكي يطلق سهمه الفتاك (١).

(١) – الأدميرال هوات (صائحاً): تعال يا جراهام، اهرب! عثمان دجمة (مخاطباً جراهام): أوه! لا تجرِ بهذه السرعة أنا أحضرت لك رأسي كما طلبت، فأين ال ٢٥٠٠٠ فرنك الجائزة؟ جراهام (ملتفتاً نحو عثمان): لا، شكراً! مرة أخرى. فاليوم ليس معي نقود (المترجم).



رسم أقل من متواضع. فلا جلادستون، ولا سالسبورى، ولا توفيق، ولا أبو نظارة نفسه تتفق أوضاعهم وملامحهم النفسية مع الموضوع. لكن إذا كان قلم الرسم قد خان هذه المرة أبو نظارة، فالوضع يختلف بالنسبة لريشة الكتابة. إيجاز شديد وعمق شديد في الملاحظة فيما يقوله عن توفيق الذي أسئ حقنه أو مصله من كل من المحافظين والليبراليين الإنجليز سواء بسواء (١).

(١) – جلادستون (مخاطباً سالسبوري): إسمع، أنت الذي قمت بتطعيمه وحصّنته من احتقار هؤلاء، وبغض أولئك، ومن غضب جيشه وانتفاضة شعبه، وغير ذلك من الأمراض الجدرية التي تصيب الأمراء الذين يُفرضون على شعوبهم ضد رغبتها. اللورد سالسبوري: أنا لم أقم بتطعيمه بالمرة. بل أنت الذي فعلت ذلك! أبو نظارة: أنت أو هو. فلن يمنع ذلك هذا الشقي من الموت بالمصل الإنجليزي (المترجم).



حتى بعد خلع إسماعيل ونفيه إلى مدينة نابولي لم تتوقف عـداوة أبـو نظـارة للخديوي الذي حمل معه مئات الملايين. كذلك لم يفلت الخديوي المعزول من هجـوم أبو نظارة بالرغم مما تعرض له إسماعيل من الأحداث المزعجة أينما حـط رحالـه المؤقت. أحد هذه الأحداث المزعجة وقع له في باريس في قلب الباليه رويال، حيـث صُفع أمام الملأ وبطريقة عنيفة. واقعة ابتهج لها أبو نظارة وله أن يبتهج، واسـتغلها بطريقته الفاضحة (١).

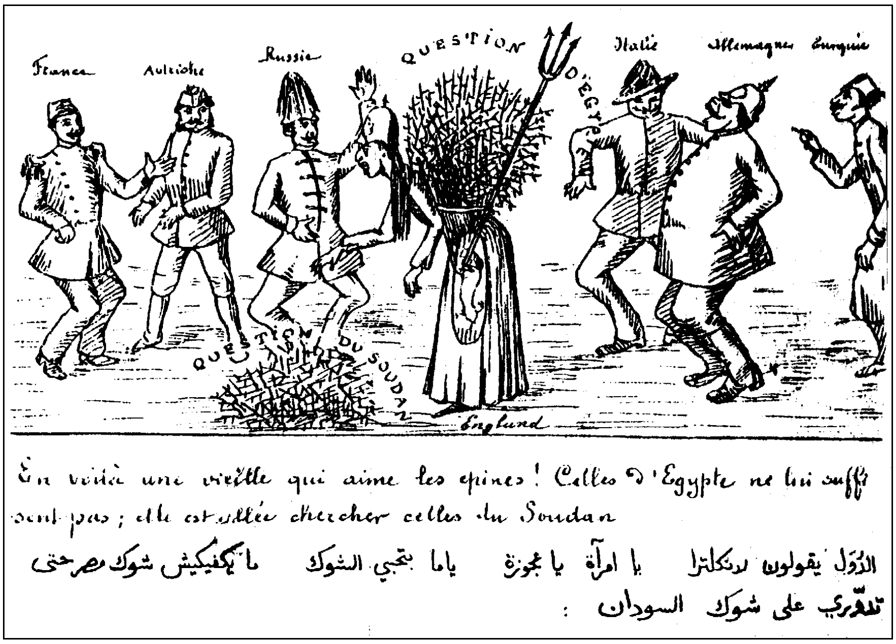
(١) – (نهاية مؤسفة لحاكم طاغية) إسماعيل: أوه! والله في حياتي لم أتلقَّ صفعةً بهذه القوة. السكرتير السابق (مخاطباً راتب باشا): إذا لم تترك ذراعي فسأصفعك كما صفعته! إسماعيل (مخاطباً راتب): بالله عليك. دعنا من الفضائح، وادفع له مرتباته المتأخرة ودعه يذهب لحاله! راتب (على حدة): مسكين يا إسماعيل! هذه الصفعات أفقدته الأمل في إمكانية رجوعه للحكم! أبو نظارة: نهاية عادلة تليق بحاكم مستبد! (المترجم).



مؤتمر لندن الأخير لخّصه أبو نظارة في مشهد واحد ولحظة واحدة. إن تصوير اللورد جرانفيل في زي البحار وهو يصيح في أمثاله وزراء الدول الأخرى قائلاً " اغربوا عن وجهي "! تصرف لا يليق برجل دبلوماسي. هذا يجب أن نعترف به. ولكن في المقابل، فإن فكرة الفنان تستخلص بوضوح قاس. لقد عبر وبلا مراوغة عن هذا المؤتمر جاعلاً منه طريقاً مسدوداً لم تخرج منه إنجلترا إلا وقد أصيبت بالصغار، وأوروبا بالمهانة (١).

(١) – اللورد جرانفيل: سكوت يا سادة! إن إنجلترا هنا في بلدها وهي تريد ألا يتكلم أحد في شئون مصر إلا بالطريقة التي تعجبها وتروق لها، ولا شيء سوى ما يعجبها ويروق لها. سفير ألمانيا: هذا كثير! سفير النمسا: لكن! سفير روسيا: ومع ذلك! سفير فرنسا: سنرى ذلك! اللورد جرانفيل: آه! تتكلمون رغماً عني؟! إذاً أغربوا عن وجهي، وبأقصى سرعة! سفير ألمانيا والآخرون: سنغرب عن وجهك، ولكننا في انتظارك في برلين، لتسمع منا ما يسوؤك. ولن تكون لك الكلمة الأخيرة. جون بول: ألا فأعلم جيداً، لعلمك لن تكون لك الكلمة الأخيرة، لا في مصر ولا في غيرها (المترجم).

عام ١٨٨٥م



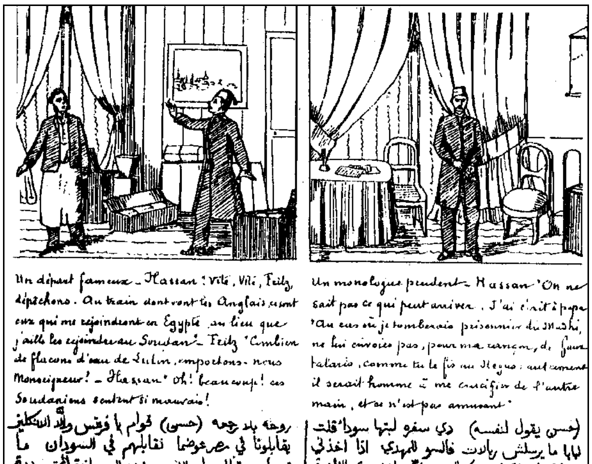
كان أبو نظارة يحب إنجلترا كثيراً. وكان هو أول من أشار إلى أن والديه أسمياه باسم إنجليزي هو جيمس، كذلك فقد كانت اللغة الإنجليزية اللغة الأوروبية الأولى التي تعلمها. لكن بمجرد أن قام الإنجليز بغزو بلاده وارتكبوا فيها من الأعمال ما يعرفه الجميع، فقد تغيرت مشاعره تماماً بطبيعة الحال، ومن ثم فلم يفوّت أي فرصة للتنديد بهذه " الدولة الغادرة " كما يصفها. هذه الدولة الغادرة التي يتقمصها هنا السيد جلاديستون قررت، تحت ضغط الرأي العام، القيام بحملة أرسلتها إلى السودان لمجرد الرغبة في تخليص جوردون بعد أن تهوّر في تصرفاته هناك. هنا تعامل أبو نظارة من منطلق موهبة النبوءة التي يتمتع بها، معلناً أن إنجلترا لن تحصد من وراء هذه المغامرة الثانية سوى سلة من الأشواك – للأسف من الأشواك! الأشواك الدامية! وأن أوروبا بأسرها ستنفجر ضاحكة مقهقهة وهي تراها تجني هذا المزيد من المشكلات والتعقيدات (١).

(١) – الجميع: يا لها من عجوز تحب الأشواك! لم تكفها أشواك مصر، فراحت تطلب أشواك السودان! (المترجم).



أما الرسم الثاني فهو إلى حد ما تكملة للأول. فإذا كان فلسلى وصل في الوقت المناسب لينقل لجوردون رأي الناقد المصري اللاذع، فإن جوردون لم يكن يطلب أكثر من أن يرحل. إن الصفحات الأخيرة من صحيفة أبو نظـــارة حافلة بما يؤكد ذلك (١).

(١) – فالسلي: اسرع يا جردون! تعال بسرعة بينما يدير لنا المهدي ظهره! جوردون: أنا لا أريد أن أرحل من هنا! فالسلي: أنا ما جئت إلا لكي آخذك معي! جوردون: كيف تقتل ثلاثة أو أربعة آلاف نفس، وتنفق ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه من أجل شخصي المتواضع؟ يظنون أنني أبله! لكنك أكثر مني بلاهة! (المترجم).



الرسمان في هذه الصفحة لهما علاقة بالجانب المـضحك مـن هـذه الحملـة المشئومة على السودان. بإيعاز من والده الخديوي إسماعيل المخلوع، يرجو الأميـر حسن ثالث أبناء الخديوي إسماعيل من الإنجليز الانضمام إلى الجنرال فلـسلى فـي حربه ضد المصريين. فهؤلاء الأمراء الإسماعيليون كلهم سواء: فحينمـا لا تـصل الفرصة إليهم مبكراً، فإنهم يتعجلون الذهاب إليها! فمع أن الأمير حسن حصل علـى لقب " جندي الأسرة" بدافع من غرور الأب، فلا أحد يجهل أن هذا الابن حسن ليس له علاقة بالحرب. فمن المعروف عنه أنه الجنرال ذو القفاز الرمادي اللامع، والـشعر المصفف، والمناديل المعطرة. الجنرال الدلوعة كما أطلق عليه ضباطه. وعلى الرغم من كونه في هذه الرتبة العسكرية العالية فقد سبق سجنه في الحبشة. كذلك فلن يلبـث أن وقع أسيراً للمهدي السوداني. إن تفكيره في هذه الأحداث المؤسـفة تجعـل يديـه ترتعدان وهو يرتدي القفاز وهو يتطلع بحزن شديد إلى يده اليسرى التي أمر نيجوس بوشمها بالصليب بالحديد المحمي، انتقاماً مما حاول أن يفعله معه إسماعيل من دفـع فديه ابنه نقوداً مزورة. وهو بمنتهى السذاجة يكتب إلى أبيه يقول: " بابـا، لا تـزور النقود مرة أخرى لأنني سأكون أنا الضحية! " (١).

---

(١) – [الصورة اليسرى] (رحيلٍ مشهود) حسن: بسرعة! بسرعة! يا فرغلي! الإنجليز بطريقتهم هذه سيلحقون بنا في مصر، بدلاً من أن نلحق بهم نحن في السودان! فرغلي: كم قنينة عطر سنحملها معنا يا سيدي؟ حسن: أوه! كثير، كثير جداً، فهؤلاء السودانيون رائحتهم كريهة! [الصورة اليمنى] حسن (على حدة): لا نعرف ماذا سيحدث. لقد كتبت لأبي أقول له: " إذا أنا وقعت في أسر المهدي، فلا ترسل إليه نقوداً مزيفة ديةً لي، كما سبق لك أن فعلت مع ملك الحبشة، وإلا صلبني حياً. وهذا ليس بالأمر اللطيف" (المترجم).



نشاهد رسماً لا حاجة للتعليق عليه. فأسطورته أوضح من أن نشرحها (١)(❁).

---

(١) – إنجلترا (مخاطبة بيسمارك الألماني، ومانشيني الإيطالي): عزيزي بيسمارك، عزيزي مانشيني تقبلا مني صحن الكرنب هذا وصحن الماكيرونة هذا. لقد أعددتهما بيدي. أرجو أن تجعلكما هذه الأطباق مستعدين لسماع رجاء وزرائي. استحلفكم بالله! انقذوا أبنائي من مخالب السودانيين والروس، هذان الوحشان يلعبان بالجنود الإنجليز كأنهم جنود من ورق (المترجم).

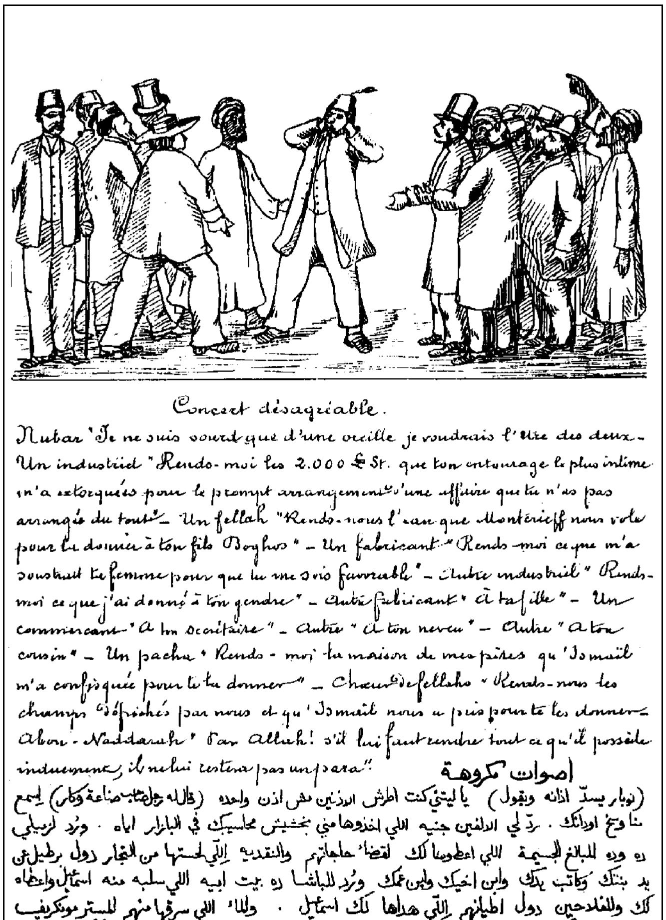
(❁) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





هنا أيضاً، لا تعليق على الرسم الوحيد في هذه الصفحة. وهو من أكثر الرسوم التي أنتجها الناقد المصري، جمالا ودرامية: " أنا لي أذن واحدة صماء، ويا ليتني كنت أصم الأذنين " هكذا يصيح نوبار أمام هذه الجموع التي يطالب كل شخص فيها بالأموال التي أرغم على دفعها له ظلماً وعدواناً لقضاء حاجة له. ويعلق أبو نظارة قائلاً: لو دفع نوبار كل ما يطلب منه لما تبقى له شيء (١).

(١) – (رجم توفيق) الفلاح: أنا أرجمك بهذا الحجر، لأنك تحالفت مع الإنجليز لتحرمني من الماء مما سبب خرابي. الضابط المصري: وأنا أرجمك بهذا الحجر، لأنك أدخلت الإنجليز إلى البلاد وخنتنا. عالم الدين: وأنا أرجمك بهذا الحجر، لأنك تعاونت مع الإنجليزي الكافر، وعملت كل شيء لتحقيق انتصار الإنجليز علينا. المهدي: وأنا أرجمك بهذا الحجر، لأنك أسلمت ثروات بلادك للإنجليز الطماعين، كما أسلمت عقيدة بلادك للدعاية الإنجليزية، وأخيراً لأن مجرد اعتلائك للعرش هو انتهاك للشريعة الإسلامية! مجموعة الأوروبيين: ونحن نرجمك بهذا الحجر، لأنك، بضعفك وعجزك كخليفة للراحل محمد علي الكبير، ضحيت بمصالح جميع الدول الأوروبية، من أجل تحقيق أطماع دولة واحدة. الضابط الإنجليزي: وأنا أرجمك بهذا الحجر، لأن بغض الشعب المصري لك زاد من بغضه لنا! رجل الأعمال الإنجليزي: وأنا أرجمك، لأنك لم تعد تجعلني أربح الملايين. إسماعيل: وأنا أرجمك لأنني أتطلع إلى عرشك الذي كان عرشي. توفيق: حتى أنت يا أبي! (المترجم).



أوه! نعم! كنشيرتو سخيف. ولكن نوبار أصبح معتاداً عليه. ليست جبهته وحدها هي التي فقدت الحياء، ولكن أذنه أيضاً (١).

(١) – (لحن مزعج) نوبار: لست بأصم إلا بأذن واحدة. ويا ليتني كنت أصم الأذنين! أحد رجال الصناعة: ردّ إليّ الألفي جنيه الإسترلينية التي سلبها مني محاسيبك المقربون لتسوية مشروع لم يتم تسويته! فلاح: ردّ إليّ الأرض التي استولى عليها أتباعك لإعطائها لابنك. تاجر: ردّ إليّ ما أخذته مني زوجتك ثمناً لرضائك عني. رجل صناعة آخر: ردّ إليّ ما أعطيته لصهرك. تاجر آخر: لابنتك..! تاجر ثالث: لسكرتيرك! آخر: لحفيدك! آخر: لابن عمك! باشا: ردّ إليّ بيت أبي الذي استولى عليه إسماعيل ليعطيك إياه. فلاح: ردّ إلينا الحقول التي فلحناها وأخذها منا إسماعيل ليعطيك إياها. أبو نظارة: والله لو ردّ كل ما امتلكه بغير حق، لما تبقى له شيء يذكر (المترجم).



الرسوم الأربعة في هذه الصفحة هي ترجمة دقيقة وذكية ولاذعة لتصريحات السيد بلونت، الرجل الشريف النزيه زوج حفيدة اللورد بايرون، تصريحاته حول السياسة المصرية في وزارة جلادستون (١).

---

(١) – [الصورة العلوية يسار] (زيارات بلونت الأربعة). أول زيارة (بلونت مخاطباً كولفين): انظر الأضرار التي ألحقتها بالمصريين بسبب وعودك التي لم تلتزم بها نحوهم. كولفين: لا تصدّع رأسي بهؤلاء المصريين. هل هم أهم من الهنود. ثم أنا أعتبر الشعوب كلها غنيمة لإنجلترا! [الصورة العلوية يمين] الزيارة الثانية. (بلونت مخاطباً ديلك): هل سمعت ما قاله كولفين؟ أعتقد أن نظرياته لا تستند إلى أي منطق. ديلك: كولفين لم يخطئ فيما قال. ولكنك أنت إنسان ساذج. ألا فاعلم أن المسألة المصرية مسألة أموال. وأن المصريين مثل مومياتهم تماماً. [الصورة السفلية يسار] الزيارة الثالث (بلونت مخاطباً جرانفيل): عجيب أمر كولفين وديلت! يقولان أن المسألة المصرية مسألة أموال. جرانفيل: هذا رأيي أنا أيضاً. المسألة المصرية ليست سوى مسألة أموال. كان عرابي يعمل عند إسماعيل وكان يتقاضى راتباً! بلونت: لا تظلم عرابي. عرابي بطل وطني يندر وجوده في بلادنا! [الصورة السفلية يمين] الزيارة الرابعة (جلادستون مخاطباً بلونت): لا يضيق صدرك بما يقولان. فأنا أرى عكس ذلك تماماً. فالمسألة ليست مسألة أموال. المصريون أناس شرفاء وأنا أحبهم. بلونت: وأنا أيضاً، وأحب عرابي وأحب الحزب الوطني (المترجم).



ثلاث لوحات من النوع المحلي. أساطيرها طويلة وواضحة، تعبر عن كل ما تريد أن تقوله وتعفي المعلق من أي تعقيب (١).

---

(١) – توفيق (لقارئة الودع): ماذا يقول ودعك؟ أنا عندي سيد روحي (السلطان) وسيد دنيوي (ملكة إنجلترا) يتنازعانني الشرف والسلطة. غير أن ذلك يكلفني الكثير الكثير. وأريد أن أعرف هل ذلك يساوي ما يكلفني من أموال؟ إسماعيل: أخبريني يا قارئة الأوراق اللعينة، ماذا تقول أوراقك؟ هيا، بسرعة أنا أدفع بالذهب. هل ستتصالح معي أوروبا وتقطع علاقتها بتلك الأسرة المجنونة التي تحكم في أسطنبول؟ هل سأموت وأنا خديوي أم وأنا سلطان؟ أبو نظارة: أوه! أوه! أيها الأب، أيها الابن. تودّان معرفة مستقبلكما من العرافين. حسناً! سأخبركما أنا بذلك دون أن أكلفكما شيئاً. أنت يا إسماعيل، بعد أن أنفقت على مؤامراتك ومكائدك الملايين التي سلبتها من الشعب، وقتلت بها المواطنين، فلن تموت خديوي ولا سلطاناً. ولكنك ستموت بائع ماكيرونة. أما أنت يا توفيق، فبعد أن خنت أباك وإخوتك، وبعد أن خنت الوطنيين المصريين، والإنجليز والسلطان، فسوف يخونك الجميع بدورك وسوف تموت وأنت ترتدي خرقة درويش مخبول، تتضرع إلى محمد الذي لا يقبلك في فردوسه (المترجم).

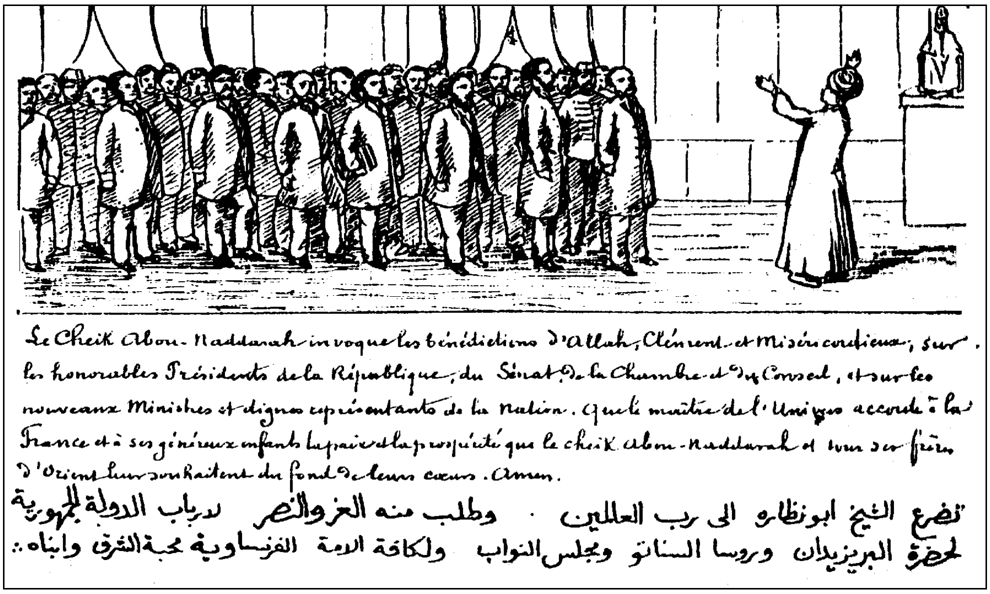
عام ١٨٨٦م



راق للسلطان أن يرسل إلى توفيق وسام الامتياز الكبير. أرسله مـــع مـــساعده الأول. وهذه الهدايا خراب على من يتلقونها لأنها تلزمهم بالرد عليها وذلـــك بـــإيواء وتضييف رسل أمير المؤمنين بطريقة فاخرة، وإهدائهم مبالغ طائلة تصل إلى نـــصف مليون. توفيق يرحب ويبتسم لمساعد السلطان محمد باشا. ولكن بمجـــرد انـــصرافه، يشرع في مطالعة فاتورة الحساب التي تركها في فندق شبرد حيث نزل مع أتباعـــه. ذلك موضوع هذه الصورة الفكهة (١).

---

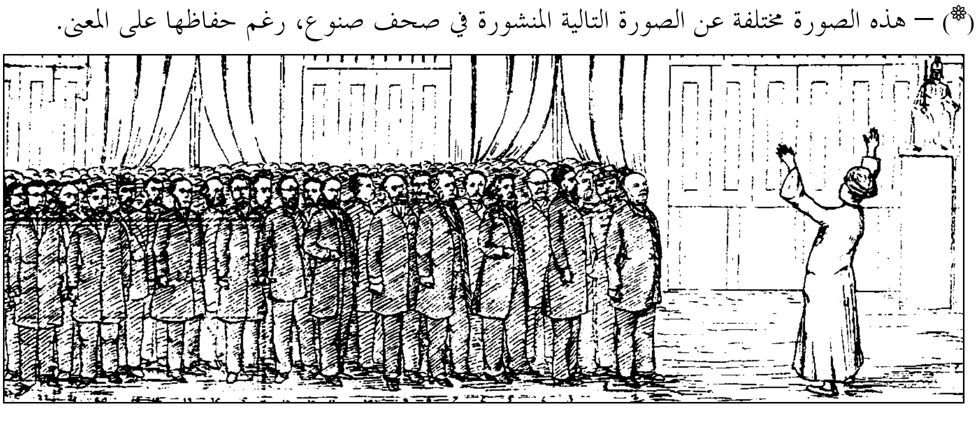
(١) – توفيق: هذه مبالغ طائلة جداً جداً! يا مندوب الفندق. مندوب الفندق: ليس ذنبي. لماذا ضيوفك العثمانيون أرادوا الأكل من المطبخ الفرنسي؟ والمطبخ الفرنسي عندنا في فندق شبرد يكلف الضعف. توفيق: لماذا؟ مندوب الفندق: لأنه يعتبر إهانة لإنجلترا! توفيق: دعنا من هذا الآن. وأخبرني! هل من الممكن، بالله عليك، أن يأكل محمد باشا وحاشيته كل هذه اللحوم وكل هذا الدجاج، ويشربوا كل هذه الزجاجات من الشمبانيا؟ لقد خربت بيتي! لقد خربت بيتي! خربت بيتي! أبو نظارة (على حدة): يا للفضيحة! يا للعار! حفيد محمد علي الكبير يشكو من فاتورة الحساب! فماذا تقول أنت أيها الفلاح، يا من ستدفع الحساب؟! (المترجم).



أما هذا الرسم فيمثل أحد التصورات الغريبة التي يتفتق عنها خيال أبو نظـــارة الذي ينتهز فرصة رأس السنة وعودة المجالس ليبتهل إلى الله تعالى أن يبارك رئيس الجمهورية والوزراء وأعضاء البرلمان الأساسيين إلخ، إلخ (١)(*).

(١) – الشيخ أبو نظارة يتضرع إلى الله تعالى الرحمن الرحيم، أن يبارك أصحاب الفخامة رؤساء الجمهورية، وأعضاء مجلس النواب والشيوخ، والوزراء الذين يمثلون الأمة، وأن يسبغ على فرنسا وأبنائها الكرام السلام والرخاء. وهو ما يرجوه لهم الشيخ أبو نظارة وأخوانه في الشرق من أعماق قلوبهم. آمين! (المترجم).

(*) – هذه الصورة مختلفة عن الصورة التالية المنشورة في صحف صنوع، رغم حفاظها على المعنى.





هذا الكرنفال المصري على طريقة أبو نظارة الهجومية، يجب أن نعترف أن مثل هذه المآدب والمراقص وألوان المتعة واللهو، حيث الشخصيات الرسمية وأعضاء الجالية الإنجليزية كانوا يجاهرون بالمنكرات والمتع المحرمة وسط البؤس العام والشقاء قد أثارت فضيحة حقيقية. لدرجة أن سائحاً من الشخصيات المرموقة، كان موجوداً في مصر في تلك الفترة، صاح قائلاً: " قديماً في فرنسا شاهدنا من يرقص فوق بركان، وهنا نرى من يرقص فوق مزبلة" (١).

---

(١) – (الكرنفال المصري) الليدي وولف: آه! يا صاحبة السمو! الكرنفال المصري " فيري جود"، جميلاً جداً، والله! إذا أنت مش تريد ترقص، تحب تأكل على الأقل. أوه! هيا! نأكل! توفيق: هيا نأكل يا حورية جنة محمد، لأن الشامبانيا لعبت برأسي. سير وولف: أوه! " آي سي"! يا ستيفنسون! الرقص هنا أحسن من الرقص في السودان. ستيفنسون: آه يا عزيزي وولف، من يدري؟ لكن الأرض هنا تزحلق! سكوت مونكريف: أوه يا نوبار يا عزيزي، لطيف منك الاهتمام بهذه الأشياء، ولكن لا ينبغي أن يصرفنا ذلك عن الاهتمام بأمورنا وتقسيماتنا. نوبار: أوه يا عزيزي، أنا لا شيء ينسيني ذلك. لقد تم تقسيم الأراضي ولكن أنت معي أن المكان هنا غير مناسب للحديث في هذه الأمور. الدبلوماسيون الأجانب: يا للفضيحة! لكن ما باليد حيلة. إن وظيفتنا تحتم علينا حضور مثل هذه السهرات الفاضحة. أعضاء المجلس التشريعي المصري والجيش المصري: بالله أين نحن؟ كيف نكون تحت وطأة الغزو البريطاني، ويفرضون علينا حضور مثل هذا الحفل المخجل، هذه المسخرة الأوروبية!! (المترجم).



مشاهد سحر مصري تتحدى كل تفسير فرنسي. كل ما يمكن استخلاصه من فكر أبو نظارة هو الآتي؛ يقول للإنجليز: " أنتم جئتم إلى بلادنا بحجة إخماد اضطرابات لا شأن لكم بها، ولا تهم أحداً سوانا. ونحن بدورنا نرجو من الشيطان أن ينفث في اضطراباتكم الداخلية ويؤججها. وقد نأتي نحن لمساعدتكم في إخمادها، ولكن لن نطالبكم بمثل ما أخذتم منا ". سخرية لاذعة، لكنها لا تتجاوز الانتقام المشروع (١).

---

(١) – [الصورة اليسرى] (الفلاحان) الفلاح الأول: هل جاءك الخبر العظيم؟ جلاديستون أطاح بسالسبوري! الفلاح الثاني: عرفت ذلك. الفلاح الأول: ولماذا لا تفرح بهذا الخبر؟ ألم تعلم أن جلاديستون وعد بأن يجلو عن مصر ويتركها للمصريين؟ الفلاح الثاني: أعرف ذلك. ولكنني في الوقت نفسه أتذكر المثل الشعبي العربي الذي يقول: " ما تفرحش للي راح إلاّ لما تشوف اللي جاي". الفلاح الأول: لكن جلاديستون مش "جاي" جديد علينا. الفلاح الثاني: بالضبط، فهو الذي أمر بقصف الإسكندرية. فهو " مش جاي جديد"، لكنه طيف راجع لا أثق فيه. [الصورة اليمنى] الساحر: يا إبليس، هل نفذت أوامري؟ إبليس: العبد الذليل أطاع أمر سيده. لقد أطلقت جميع الشياطين على أعدائك في السودان، وغي الهند، وفي بيرمونا. وهم يقومون بالأعاجيب هناك. الساحر: طيب وفي لندن؟ إبليس: فليتفضل سيدي، ويلقي نظرة على عاصمة الإنجليز، وسيرى أن إبليس قد نجح في إثارة الاضطرابات التي تزلزل الملكة ووزراءها. الساحر: وهكذا نذهب إليهم نحن إيضاً، لكي نهدّئ من الاضطرابات في بلادهم ونعيد عندهم النظام، فنعاملهم كما عاملونا حينما دخلوا بلادنا بحجة تحقيق الاستقرار (المترجم).



كخاتمة لألبوم أبو نظارة، نعرض رسمه الذي نفذه في ٢١ إبريل الذي يعطي القارئ فكرة صحيحة عما وصلت إليه المسألة المصرية (١).

ذلك هو إنتاج أبو نظارة في مجمله. وهو يتضمن العديد من جوانب الضعف وعدم التوفيق لكنه أيضاً يتضمن جوانب جميلة وصفحات رائعة. باختصار، هو إنتاج ذو قيمة لا مجال لإنكارها وتستحق الاهتمام.

(١) – (مسألة الصناديق والأكياس) [الصورة الأولى] نوبار: أنا الأول، صندوقي مليئ لآخره بحيث لا يمكن وضع شيء آخر فيه. لذلك فليس أمامي إلا أن أذهب. إسماعيل: أما أنا فصندوقي أفرغوه من محتوياته، لذلك فليس أمامي إلا أن أعود لكي أملأه من جديد. توفيق: أنا أنا، فصندوقي لا هو مليئ ولا هو فارغ. لذلك فلا أدري إذا كان ينبغي أن أذهب أو أن أبقى. [الصورة الثانية] بالنسبة لجلاديستون، مصر هذه لا قيمة لها عندنا. جوقة الجنود الأتراك: هل سنعود أم لا إلى مصر هذه. إن هذا البلد مناسب لنا جداً. جوقة الفلاحين: اذهبوا جميعاً، أيها الوزير الفاسد، أيها الخديوي الذي أشقى شعبه، أيها الإنجليز الغزاة، أيها الأتراك الطماعون. اذهبوا جميعاً واتركوا المكان لأميرنا الحليم الشرعي الوحيد الذي يجسد عبارة مصر للمصريين (المترجم).

L'ÉGYPTE SATIRIQUE

ALBUM D'ABOU NADDARA

Eh bien oui ! ce n'est que l'Album, rien que l'Album d'Abou Naddara que nous nous permettons de présenter au public.

Et, quand nous disons Album, c'est encore là un terme bien prétentieux. Mettons *Imagerie*, ce sera plus modeste et plus vrai.

En tout cas, ce dernier terme sera loin de déplaire à Abou Naddara, grand admirateur de nos images populaires d'Épinal.

Que de fois nous l'avons entendu exprimer le regret de ne pouvoir revêtir ses naïfs et malicieux dessins à la plume d'une belle enluminure vosgienne, avec beaucoup de bleu, beaucoup de rouge. beaucoup de vert, et surtout beaucoup d'or. — « Que de succès j'aurais auprès de mes fellahs, s'écriait-il, et comme je les ferais rire, eux, qui ont tant de motifs de pleurer ! »

Ce n'est pas sans ennui, qu'on veuille bien nous en croire, que nous avons dû renoncer à reproduire les articles, les chants, les dialogues, etc., auxquels les images qu'on va parcourir servent, en quelque sorte, tantôt de commentaire et tantôt d'épilogue. Mais, dans leur texte arabe, trop peu de personnes, à Paris, auraient pu les lire ; et, quant à les traduire en français, il n'y fallait pas songer. On ne traduit pas de l'Abou Naddara.

Le mot n'est pas de nous, il est d'un éminent écrivain et voyageur anglais qui, ayant connu personnellement Abou Naddara, au Caire — il y a de cela quelques années — a tracé de lui, dans la *Saturday Review* du 26 juillet 1879, le portrait suivant :

« Abou Naddara n'est qu'un *nom de plume*, et signifie en arabe : L'Homme aux lunettes. » De son vrai nom, Abou Naddara s'appelle James Sanua; et, comme état social, il s'intitule cheikh quand il veut suivre la mode arabe, et professeur quand il veut suivre uniquement la mode italienne.

« Professeur, il l'est, en effet, et des pieds à la tête, et de la tête aux pieds.

صورة الصفحة الأولى من كتاب (ألبوم أبو النظارة)

نظرات الشيخ أبو نظارة

أبشع طغاة وادي النيل : توفيق وأبوه إسماعيل

سبق أن ذكرنا أننا لا نترجم أبـو نظـارة. إن مقالاتـه ورسـائله وأناشـيده، ومواعظه، ولعناته، وسخرياته، بل وقهقهاته، كل ذلك محـض حقيقـة. والفلاحـون المصريون وحدهم هم القادرون على فهم وذوق مثل هذا الهجوم ذي المسالك النبوئية، وهي مسالك تكون أحياناً لينة هينة وأحياناً عنيفة قاسية.

على الرغم من ذلك، ولكي نعطي فكرة عن المؤلفات العربية لأبى نظارة، فقـد حصلنا منه على ترجمة لأطول تأملاته ونظراته التي وجهها إلى شعبه من القراء.

ونحن لا نعرف بالضبط حجم الصدق في الأسطورة المصرية التي تقول بأن إبراهيم وابنه وحفيده إسماعيل وتوفيق ليسوا في الواقع من صلب محمد علي. ولكـن هذه الأسطورة شديدة الانتشار بين الشعوب الوطنية. وبالتالي، فنحن لا نـستطيع أن نقول إن " أبو نظارة " ما أن أمسك بها حتى تجاوز الحد في ممارسة حقه المـزدوج بوصفه شاعراً ونبياً غير مرسل (*).

(*) – القول بأن صنوعاً هو نبي غير مرسل، قول غير لائق من مؤلف الكتاب، ولكنه مع الأسف جاء نتيجة لاعتقاده في صدق وصحة ما جاء في صحف صنوع من: مبالغات، وشطحات نشرها صنوع عن نفسه، وروّجها – مع الأسف الشديد – بعض أصدقائه، أمثال مؤلف الكتاب بول دي بينيير.

وحيث إنه تجاوز الحد، فهو لا ينفك، كما هي عادته، يزج بنفسه في المشهد وبخاصة في المقدمة، وذلك أكثر من اللازم. فنحن حينما نقرأ مؤلفاته نظن في بعض الأحيان أن "أبو نظارة " هو مصر، وأن مصر هي " أبو نظارة " (*). ومع ذلك. فهو يمكن أن يرد عليك فيقول، إننا بوصفنا حكاماً ظالمين على مبالغة شعراء الغرب، فنحن أيضاً حكام ظالمون على مبالغة أنبياء الشرق. وأن هذه المبالغة نسبية وتوقيفية تماماً، وأننا جزء من الدور، وأن كل ما فعله فيما يتعلق بمهمته التوجيهية الشرقية، هو أنه سار على نهج كل من إيزيشييل وجيريمى (١).

الحقيقة أن " جيريمى " في ذلك العصر كان يحب أن يكثر الحديث إلى شعبه عن ألوان الاضطهاد التي تعرض – وقد يتعرض – لها من قبل ملوك اليهود، لأنه جعل من نفسه ناقل المشيئة الإلهية إلى الشعب. فمن الذي لم يقرأ في كتابه النصوص العديدة التي خصصها لمعاركه وصداماته ومصالحاته مع الملك " سيد يسياس ". من ذلك أنه ذات يوم أمر الملك سيد يسياس بإنزاله في سجن تحت الأرض، مع التوصية بأن يُحمل إليه في كل صباح الخبز الطازج المصنوع من الخبازين. مما يعتبر لفتة رقيقة، في مدينة محاصرة ومضطرة للأكل من القمامة والفضلات. وفي اليوم التالي أمر بإخراجه من السجن مع أخذ جميع الاحتياطات اللازمة حتى لا تؤذي القيود ما تحت إبطيه، ثم جعلا يتبادلان المحادثات الودية فترة طويلة.

لم يخصص جيريمى أقل من ثلاثة فصول من التوراة لقصة سجنه تحت الأرض والخبز الذي كان يأتيه من الخباز. وذلك بينما لم يخصص أبو نظارة سوى فصل واحد لعزله من وظيفة مدرس بمدرسة الهندسة بأمر من إسماعيل (**). فيجب أن نشكر له هذا التحفظ.

(*) – والعكس صحيح أيضاً؛ بمعنى إذا أراد القارئ أن يتعرف على صنوع بعيداً عن أقواله في صحفه، لن يجد له ذكراً، طوال فترة وجوده في مصر، ولن يجد له أية إشارة في الوثائق ولا في الكتب ولا في مذكرات من كانوا معاصرين له، أثناء وجوده في مصر!!

(١) – اثنان من أنبياء بني إسرائيل الأربعة الكبار. (المترجم).

(**) – مرّ علينا من قبل أن صنوعاً كان مدرساً في مدرسة المهندسخانة، وقد ذكر صنوع ذلك في مذكراته بأنه " أمضى بضع سنين مدرساً أول في المهندسخانة ". وهنا نقرأ أن الخديوي إسماعيل عزله من هذه الوظيفة، وفي مسرحية (موليير مصر وما يقاسيه) نقرأ أن علي باشا مبارك – وزير المعارف – هو من قام بعزله لا الخديوي إسماعيل!! والحقيقة الجلية أن هذه المسألة ادعاء من

ولكن بعد هذا النقد القصير، فمن المستحيل أن ننكر أننا لا نلمس في الصفحات القليلة التي سنقرؤها إيعازاً أو وحياً دينياً (*)، وبالذات شعوراً وطنياً كبيراً.

بول دي بينيير

ادعاءات صنوع الكثيرة!! فصنوع لم يكن في يوم من الأيام مدرساً في مدرسة المهندسخانة، والدليل على ذلك جاء به صنوع نفسه، عندما قال في صحيفته (أبو نظارة) عام ١٨٩٩م، تحت عنوان (زهرة من تاريخ وطني الغالي ونبذة من ترجمة حالي): "دخلت في مبادئ أمري مدرسة المهندسخانة المشهورة. وأقتبست من معلميها الفنون والآداب على أجمل صورة. ومنها انتقلت إلى مدرسة إنكليزية فتحوها بمصر البروتسطان. أتقنت فيها لغة المستر بول الخمران. وتعلق بعد ذلك طالعي بالأسفار. فسرت إلى إيطاليا وتعلمت لغتها من نثر وأشعار. وعدت وعمري خمسة عشر إلى مصر المحروسة. فوجدتها بولاية سعيد باشا مأنوسة". وهذا يعني أن صنوعاً كان تلميذاً بالمهندسخانة، ولم يكن أستاذاً بها! وفي موضع آخر من مذكرات صنوع – حول هذا الأمر – نجده يقول: بأنه عاد من إيطاليا وعمره خمس عشرة سنة فعمل مدرساً بالمدارس المصرية، خصوصاً المهندسخانة فى عهد سعيد باشا. وهذا يعني أنه عاد عام ١٨٥٤م لأنه مولود عام ١٨٣٩م. وهذا القول، يُعتبر أكبر دليل على ادعاء صنوع في هذا الشأن، لأنه اختار أسوأ فترة تاريخية مرت على مصر فى نظامها التعليمي، لأن سعيد باشا ألغى مدرسة المهندسخانة عام ١٨٥٤م!! ولم يتم افتتاحها مجدداً إلا في عام ١٨٥٨م، أي بعد إغلاقها بأربع سنوات. وصنوع يقول أنه كان مدرساً بها لثلاث سنوات، أي من سنة ١٨٥٤ إلى ١٨٥٧م!! أي في سنوات إغلاقها.. فهل يُعقل هذا؟!! وأمام هذه الحقائق التاريخية، يتضح لنا أن صنوعاً مدعٍ في قوله بأنه كان أستاذاً في مدرسة المهندسخانة، ومن المؤكد أيضاً أنه مدعٍ في كونه تلميذاً بها. وللمزيد حول هذا الأمر، ينظر: د.إبراهيم عبده – السابق – ص(٢٠-٢٤)، جريدة (أبو نظارة) – السنة ٢٣ – عدد ٥ – ١٨٩٩/٥/٢٦، د.عبد المنعم إبراهيم الجميعي – وثائق التعليم العالي في مصر خلال القرن التاسع عشر – المجلد الأول – دار الكتب والوثائق القومية – وحدة البحوث الوثائقية – مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة – ٢٠٠٤ – ص(٢٣٠).

(*) – القول بأن صنوعاً يُوحى إليه دينياً، تكرار للقول السابق بأنه نبي غير مرسل!! وهذه الصفات غير المقبولة دينياً ومنطقياً، نتيجة طبيعية لأصدقاء صنوع من الأجانب – خصوصاً الفرنسيين – ممن صدقوا أقواله ومبالغاته وشطحاته عن نفسه!! وفي الجزء التالي سنقرأ كلاماً غريباً من صنوع، عن حلم – أو خيال – توهمه فكتب عنه! وهو خيال لا جديد فيه، لأنه منقول بالمعنى من كتابات صنوع في صحفه، المُكتظة بالتفاهات المشوهة للخديويين إسماعيل وتوفيق، إرضاءً للأمير حليم.

الفصل الأول

الابتهال

(١١ آية (*))

١ – بسم الله الرحمن الرحيم.

٢ – الحمد لله رب العالمين.

٣ – أنت الذي ألهمتني أدعية أمجد بها عظمة أعمالك السامية، وعرفان مخلوقاتك، بجميل صنعك ومجد أبطال العقيدة والوطن.

٤ – لولا البلاغة التي أضفيتها يارب على كلامي، فهل كان بوسعي أن أفتح قلوب مواطنيّ لحب الحرية وبغض الاستبداد؟

٥ – أنت وحدك يا إلهي الذي أعنتني في صراعي مع إسماعيل.

٦ – ولك وحدك أدين بانتصاري على هذا الطاغية الذي كان وراء جميع المصائب التي حلت بوادي النيل التعيس.

٧ – كنت يا إلهي الدرع الذي يحميني من سفاحي هذا، الأفاق، المدعو إسماعيل.

٨ – أنت، يا إلهي القادر، الذي حققت نبوءة عبدك الذليل.

٩ – بعد أن طردني إسماعيل من وطني ومسقط رأسي، قلت لإخواني:

١٠ – " كما أخرج أنا الآن، فبعد عام واحد، سيرحل إسماعيل، الذي أبعدني عنكم لمطالبتي بالحرية لوطني (**).

(*) – ربما كلمة (Versets) بالفرنسية تعني (آيات)، وهي الكلمة المناسبة لصورة صنوع الأسطورية – باعتباره نبياً غير مرسل، أو نبياً يُوحى إليه كما سبق وقرأنا – وهي الصورة التي رسمها صنوع بنفسه عن نفسه، وضخمتها كتابات المقربين له من أصدقائه. ورغم ذلك فأنا أعتقد أن الكلمة – ربما – لها معانٍ أخرى مثل: الشعر، أو القصائد، وكأن المؤلف أراد القول بأن الأسطر التالية عبارة عن سطور من الشعر، أو سطور من النثر في صورة شعرية. وهذا المعنى أوفق بعض الشيء من كلمة (آيات) التي تُوحي بأن كلمات صنوع ترقى إلى درجة التقديس!!

(**) – نلاحظ هنا أن صنوعاً يحكي عن نبوءة تنبأ بها قبل نشر هذا الكتاب عام ١٨٨٦م، وهي إنه في عام ١٨٧٨م – أثناء رحيله من مصر إلى فرنسا – تنبأ بنفي الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٩م، أي

١١ – حدث ذلك يا إلهي! ورتّل لك أبناء مصر آيات الشكر والعرفان.

بعد عام واحد من نفيه هو شخصياً، في حال تصديقنا لادعاء نفي صنوع! والحقيقة أننا لا نملك دليلاً واحداً على صدق هذه النبوءة الواهية، لأن صنوعاً لم يذكرها – قبل نشر هذا الكتاب – إلا مرة واحدة في عدد جريدته (أبو النظارة) المنشورة في باريس بتاريخ ١٨٧٩/٧/١م، قائلاً: "التزمت أسافر من وطني العزيز [أي إنه لم يُنفَ] وأقيم بين الأجانب بباريز. إنما في سبعة وعشرين يونيو سنة ثمانية وسبعين، يعني منذ سنة تمام قلت للحاضرين ببورصة إسكندرية من الشبان الظراف الأفاضل الشرفاء اللطاف، بأن لا تمضي من اليوم سنة تمام إلا ويكون أشرف على السقوط الظالم ابن الحرام [يقصد الخديوي إسماعيل]. ومنذ أربعة أيام قبلها بالتنازل. أمروه الفرنساوي والإنكليزي". هذا الكلام نشره صنوع بعد عزل إسماعيل بعدة أيام! والسؤال الآن: إذا كانت هذه نبوءة قالها بالفعل صنوع، فلماذا لم ينشرها في صحفه طوال عشرة أشهر قبل عزل إسماعيل، حتى نصدقها بوصفها نبوءة، قرأنا عنها قبل حدوثها، لا بعد حدوثها؟! ولم يكتفِ صنوع بادعاء هذه النبوءة، بل استغلها فيما بعد ليضفي على نفسه صفة الأولياء. ففي عدد جريدته بتاريخ ١٨٨٧/١/٢٢م، كتب جزءاً من حياته، تحت عنوان (ترجمة حال أبي نظارة خادم الحرية)، قال فيه: " قلت للأخوان يوم رحيلي من الأوطان: قلبي يحدثني بأن زي اليوم بعد سنة. يُطرد مثلي إسماعيل من هنا. فلبى ربي دعوتي وانطرد إسماعيل. شوفوا يا أخوتي. وأتتني الجوابات من كل خلاّني وهي تلقبني بالولي". ورسّخ صنوع هذا المعنى بنشره مرة أخرى في جريدته بتاريخ ١٨٩٦/٥/١٤م، حيث جاء في هذا العدد عن الشيخ أبو نظارة:"... وله فكر ثاقب ورأي صائب أخترق طباق النوائب. فلقد قال يوم خروجه من مصر. لأحبائه وخلانه وكانوا يأسفون على ما لحقه من الضرّ. كما سلكت الآن طريق الإبعاد والغربة يسلكه إسماعيل باشا بعد سنة وتلحقه الكربة. لأنه أبعدني عن هذه الديار. لوقوفي بالذب عن الحرية في مصاف الأحرار فصادف قوله الصواب. وحفظ له حق الصدق بالقطر المصري لدى أولي الألباب". وأخيراً صَدّق صنوع ادعاءه ونسى تماماً أنه ادعاء من اختراعه، فشرد بخياله وتوهم أنه أحد الأولياء من أصحاب النبوءات، فسرد ادعاءه هذا في مذكراته المخطوطة – التي نشرها الدكتور إبراهيم عبده – في كتابه (أبو نظارة أمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر، ص٦١) – قائلاً: "وفي اليوم التالي حوالي الظهر ركبت السفينة (فريسينيه FREYCINET) التي أقلعت بي إلى مارسيليا. لقد كان المشهد جليلاً. وقد أراد الخديوي أن يراني بنفسه وأنا أغادر البلاد فمرّ راكباً عربته وقد أحاط به حراسه، في الوقت الذي نزلت فيه إلى الزورق الذي سينقلني إلى السفينة. ولم تجرؤ الجماهير على الهتاف بـــ(يسقط إسماعيل) لكثرة عدد رجال الشرطة، فأخذت تصيح (ليحيى أبو نظارة) وتعالت النداءات بعد ذلك (نريد نبوءة منك أيها الشيخ). وأعترف أنني احترت فيما يجب عليّ أن أقوله. ولكني شعرت كأن وحياً ألهمني ووضع في فمي تلك العبارة: سوف يُنفى إسماعيل بعد سنة كما أُنفى أنا اليوم. وقد شاءت المصادفات أن تتحقق نبوءتي حرفياً مما جعل الناس في الشرق كله يلقبونني بالولي". هذه هي أقوال صنوع ومبالغاته، ومع الأسف فإن معظم من كتبوا عنه؛ صدقوا هذه التفاهات، وثبّتوها في كتاباتهم، فأصبحت من المسلمات!!

الفصل الثاني

المعجزة

(١٢ آية)

١ – دموع الدم التي سكبتها على مآسي وطني ومصائبه، خلال عشرين عاماً، عرّفت الآخرين بمدى ما أصاب قلبي من غم وهم.

٢ – على ضفاف النيل أولاً، ثم على ضفاف السين، بكيت على دمار بلادي وخرابها.

٣ – الحزن ظل يعتصر قلبي عشرين عاماً. والألم أرهق، قلبي والعبــرات أغرقــت عيوني.

٤ – رحمتك يا رب هبها لمواطن صادق! رحمتك يا إلهي!

٥ – يا أرحم الراحمين، استجب لدعائي الأخير!

٦ – معجزة! معجزة واحدة! أخرّ لك راكعاً، وأتوسل إليك أن تحققها من أجل خلاص مصر وأبنائها.

٧ – أنت قلت في كتابك الكريم:

٨ – ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (*)

٩ – فابعث لساعات قليلة محمد علي!

١٠ – فعيوننا تتشوق من جديد لرؤية أول ولاتنا، بوجهه الكريم، وملامحه المهيبة.

١١ – إن شفاهنا لتتمنى أن تطبع قبلات الاحترام والتوقير على يديه اللتين كانتا تنشر العدالة والخير.

١٢ – أعد يا إلهي جندي قَوّلة إلى الحياة، ولو لساعة واحدة. لكي يحــاكم ويعاقــب إسماعيل وتوفيق اللذين لوّثا عرشه بما ارتكبا من آثام ومظالم وخيانات يُندى لها الجبين.

(*) – ذكر لي المُترجم الدكتور حمادة إبراهيم : إن صنوعاً كان يكتب الآيات القرآنية بالمعنى وليس بالنص، وكانت المعاني – في أغلبها – خاطئة والآيات مشوهة؛ لذلك وضعها – المُترجم – بالصورة الصحيحة كما جاءت في القرآن الكريم.

الفصل الثالث

البعث

(٨ آيات)

١ – أسمع نفخ الصور الصاعق الذي ستنخلع له قلوب الكفرة الفجرة يوم البعث.

٢ – تبارك اسمك يا إله العدالة!

٣ – أجبت دعاء عبدك المخلص أبو نظارة!

٤ – أرى محمد علي الكبير في مسجده الكريم في قلعة القاهرة.

٥ – ملائكة جنة عدن يحفون به.

٦ – المبعوث الكبير يبارك شعب مصر، الذي يحييه بأعظم آيات الاحترام والتبجيل.

٧ – مسجد محمد علي تضيئه الأنوار الباهرة التي يشعها وجه مؤسسه الجليل، والمؤمنون ينتظرون سماع صوته خاشعين.

٨ – يتكلم، فتنتفض له القلوب.

الفصل الرابع

المتهمون

(٧ آيات)

١ – إيتوني بإسماعيل وتوفيق، هكذا أمر محمد علي.

٢ – باسم الله وبشرعه الإلهي، أحاكم وأعاقب هذين الجانيين.

٣ – لم يجرؤ أحد أن يذهب ويأتي بإسماعيل وتوفيق، ليمثلا أمام قاضي القضاة الأكبر.

٤ – لكنني رفعت عيني إلى السماء، واستعنت بقدرة الله على قضاء هذه المهمة.

٥ – فأراد الله، بحوله وقوته، أن يقابلني بهما أمام باب المسجد.

٦ – بأي لسان أستطيع أن أعبر عن فرحتي؛ حينما تمكنت من الإمساك بهمـــا، مـــن قفاهما، وأسحبهما على وجههما إلى حيث محمد علي، بـــالرغم مـــن صـــياحهما وصراخهما.

٧ – وقلت لهما: قبّلا الأرض التي حطت عليها القدمان الشريفتان، قدما الرجل الذي لطختما اسمه، ودنّستما ذكره، وخربتما بلاده.

الفصل الخامس

الابن بالتبني

(١٣ آية)

١ – نادى محمد علي قائلاً: إسماعيل! يا إسماعيل!

٢ – إسماعيل قائلاً: حفيدك، يا جدي المبجل، طوع أمرك!

٣ – لا تقل جدي!

٤ – إن من أنجبك وأخرجك إلى حياتك الذميمة لم يكن ابني على الإطلاق.

٥ – حينما عرفت أنا أمه في قوّلة، كان إبراهيم قد بلغ سن الرشد.

٦ – أم أبيك إبراهيم كانت جميلة.

٧ – فتنتني بجمالها وسحرها.

٨ – وكانت طالع خير بالنسبة لي.

٩ – فمن مجرد جندي بسيط، أصبحت والياً.

١٠ – وقبل وفاتها، طلبت مني المرأة المسكينة، والدموع في عينيهـــا، أن أتزوجهـــا وأتبنى ابنها إبراهيم.

١١ – فليس بمسلم من لا يلبي رجاء إنسان يفارق الحياة.

١٢ – لذلك فقد حققت رجاءها الأخير.

١٣ – وبذلك، فإن أباك إبراهيم ليس سوى ابني بالتبني.

الفصل السادس

إبراهيم مغتصباً

(١٠ آيات)

١ – هذا التصريح أصابني بالاضطراب. فهمست لمحمد علي قائلاً: إذن، كيف كان إبراهيم خلفاً لك؟

٢ – أجابني محمد علي قائلاً: اعلم يا شيخ أبو نظارة أن الله لما أراد أن أنتقل إليه، طاهراً خالصاً من أي أثر لخطيئة، ليدخلني في جنته، فقد جعل آخر أيامي في الدنيا مليئة بالآلام والأحزان.

٣ – وبذلك فقد كفّرت عن الذنوب القليلة التي ارتكبتها، من أجل صالح رعاياي وحكومتي.

٤ – بل لقد حرمني الله تعالى من نور العقل.

٥ – إبراهيم كان جندياً فظاً لا يرحم. أخطأت أنا في تعيينه نائباً لي في سوريا، فأصبح أداة عقابي في مصر. أصبح نائباً لي بل يكاد أن يكون خليفتي وأنا ما زلت حياً.

٦ – غير أن عقاب الله قد أصابه هو أيضاً.

٧ – فلم يذق ثمرة اغتصابه سوى شهرين.

٨ – ومات قبلي بعشرة أشهر.

٩ – إذاً، إبراهيم والد إسماعيل، لم يكن سوى مغتصب حقير، وقد أعلن ذلك أحد أساتذة جامعة الأزهر. كما أن ابناه إسماعيل وتوفيق ليس لهما أي حق في عرش مصر.

١٠ – وصاح محمد علي قائلاً: " إسماعيل وتوفيق لا ينتميان إلى أسرتي ".

الفصل السابع

الخليفة الشرعي

(١٢ آية)

١ – صاح إسماعيل بكل وقاحة قائلاً: " إن فرمانات الباب العالي تؤكد حقوقي".

٢ – وقال توفيق بكل بلاهة: " وتمنحني الخلافة الشرعية ".

٣ – فصاح محمد علي قائلاً: " أيها الخائنان، لقد أسأتما استغلال طيبة أمير المؤمنين وكرم نفسه.

٤ – ولكن سيأتي سلطان يصحح خطأ سلفه.

٥ – وصاح إسماعيل وتوفيق قائلين: في رأيك، من هو الوارث الشرعي للعرش؟

٦ – حليم، آخر أبنائي.

٧ – فعاد إسماعيل وتوفيق يصيحان قائلين: " الموت دون ذلك. الموت ولا نرى ابنك حليم خديوي".

٨ – فتدخلت أنا قائلاً: " سوف ترونه "!

٩ – لقد بدأ الشعب المصري فعلاً ينادي به والياً.

١٠ – والسلطان والقوى الأوروبية لن يعارضوا رغبة الشعب المصري.

١١ – وقال محمد علي بطريقته المهيبة: " إن الله تعالى هو الذي فتح قلوب رعاياي السابقين جميعاً، وكذلك سائر قوى الأرض لحب ابني حليم.

١٢ – وقال علماء الدين الحاضرون: " الأمير حليم هو الحاكم الوحيد الذي يستطيع أن يعيد لمصر رخاءها وهناءها، بعد أن سلبهما إسماعيل وتوفيق (*).

(*) – هذا هو هدف هذه الصورة الخيالية التي كتبها صنوع! فإنه يريد من ورائها إثبات حق الأمير حليم في حُكم مصر، وربما نُشر هذا الكتاب من أجل هذا الهدف الذي لم يتحقق تاريخياً.

الفصل الثامن

تاريخ

(١٥ آية)

١ – قال لي محمد علي: " والآن قصّ عليّ يا شيخ أبو نظارة تاريخ هذين الغاصبين الخائنين ".

٢ – أستحلفك يا أبو نظارة بقبر أبيك، رافائيل أفندي، الذي كان من أخلص عمّـــالي، أستحلفك يا أبو نظارة ألا تخفي عني شيئاً.

٣ – أخبرني بكل ما تعرف عن أخطاء إسماعيل وتوفيق.

٤ – وستجدني صابراً، ولن أمل حديثك.

٥ – تكلم! رعاك الله لذويك ولا حرم أبناء النيل من فصاحتك.

٦ – فأمن الملائكة المحيطون به " آمين! آمين!"

٧ – حينئذ استطردت أقول:

٨ – أقسم بالله الذي يقول في كتابه الكريم:

٩ – ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾

١٠ – أقسم ألا تنطق شفتاي إلا بالحقيقة الخالصة المنزّهة.

١١ – لقد عرفت الأب والابن أولاً كأميرين، ثم عرفتهما خديويين.

١٢ – فقال محمد علي ساخراً: خديويين! خديويين!

١٣ – هذا لقب مزري. ما كان يرضاه ابني حليم بأي ثمن!

١٤ – ابدأ إذن يا أبو نظارة بإسماعيل.

١٥ – أمرك يا مولاي.

الفصل التاسع

إسماعيل

(١٩ آية)

١ – صحت قائلاً: إسماعيل! إسماعيل!

٢ – ماذا صنعت خلال ستة عشرة عاماً من الحكم؟

٣ – سأخبرك بذلك، أنا الذي كنت أراقبك منذ توليت العرش حتى سقوطك المهين.

٤ – الله! الله! إن مجرد تفكيري في ذلك يجعلني أرتعد من الرعب.

٥ – أنت دمّرت مصر وأفقرت أهلها.

٦ – أيها الكذاب الأشر. أيها المنافق الأثيم.

٧ – لم أنس عباراتك وأنت ترتقي درجات عرش محمد علي الكبير.

٨ – قلت بالحرف الواحد: سوف أبدد ظلمات الجهل التي يغرق فيها الشعب.

٩ – سأفتح عيون شعبي على نور الحضارة.

١٠ – وسوف أشجع التجارة.

١١ – وأطور الزراعة.

١٢ – سيكون شعاري: حماية الضعفاء. والعدالة للجميع.

١٣ – في ظل حكمي، ستصبح مصر أسعد مما كانت على عهد الفراعنة، وأعظم مما كانت على عهد البطالسة.

١٤ – سيعود وادي النيل، كما كان، مركز العلوم والتقدم للعالم أجمع.

١٥ – قلت لنا ذلك يا إسماعيل، عندما توليت الحكم.

١٦ – وصدّقك الوطنيون الشرفاء وتغنّى أبو نظارة بالثناء عليك.

١٧ – ولكن، وا أسفاه! كنت تخدعنا!

١٨ – ثم خنتنا بعد ذلك.

١٩ – وأخيراً، قتلتنا.

الفصل العاشر

إسماعيل يدافع عن نفسه

(٤٣ آية)

١ – قال إسماعيل: أنا أوفيت بوعودي!

٢ – فصحت فيه قائلاً: كذّاب! هل أخذت بشعبك في طريق الحضارة؟

٣ – فأجاب قائلاً: نعم! وأنت لا تستطيع إنكار ذلك.

٤ – ألم تكن أنت مدرساً بمدرسة الهندسة ست سنوات كاملة (*)؟

٥ – والغالبية العظمى من ضباط أركان الحرب المصريين كانوا من تلاميذك (**).

٦ – فقلت له: هذا صحيح. ولكن بعد امتحانٍ عام، تميز فيه طلابي في معلوماتهم التاريخية والجغرافية وبأفكارهم الليبرالية، سلطت عليَّ علي باشا مبارك وزير المعارف العمومية، وتم فصلي من المدارس الحكومية (***).

٧ – ثم إن هذه المدارس أنشأها محمد علي الكبير.

(*) – ناقشنا فيما سبق ادعاء صنوع إنه كان مدرساً بالمهندسخانة، وفي هذا الموضع يقول صنوع إنه عمل مدرساً بالمهندسخانة ست سنوات، وفي مسرحيته (موليير مصر وما يقاسيه) قال إنه عمل مدرساً بالمهندسخانة ثلاث سنوات.

(**) – هذه الادعاءات دائماً ما كان يرددها صنوع عن نفسه؛ ليوهم بها القراء بأنه كان أستاذاً لأحمد عُرابي وزملائه. والغريب أن مذكرات عُرابي باشا – وكل الكتابات التي كُتبت عن عُرابي – خالية تماماً من ذكر صنوع!! والأغرب أن بعض الدارسين صدقوا هذه الأكذوبة، فضخموها وقالوا إن صنوعاً هو مُفجر الثورة العُرابية ومفكرها الأساسي، كما أوضحنا في تعليق سابق!!

(***) – أثبتنا فيما سبق عدم صدق ادعاء صنوع بأنه كان مُدرساً في المدارس الحكومية، خصوصاً مدرسة المهندسخانة. ونضيف على ذلك أننا لم نجد ملفاً باسم صنوع – بوصفه موظفاً حكومياً – أو باسم والده رفائيل صنوع – بوصفه موظفاً لدى أحمد يكن باشا، أو مستشاراً لعلي باشا الكبير كما ادعى صنوع – حيث إن دار المحفوظات العمومية بالقلعة تحتفظ – حتى الآن – بجميع ملفات موظفي الدولة منذ عهد علي باشا الكبير، وحتى عام ١٩٦٠م.

٨ – هو الذي أسس مدرسة الهندسة في القاهرة، ومدرسة الطب تحت إدارة كلوت بك، والمدارس الحربية في طره والجيزة، والهيئات التربوية في باريس بإدارة السيد جامار.

٩ – حتى جامعة الأزهر، هو الذي أنفق عليها وزودها بالأساتذة والكتب.

١٠ – وبدأ الأزهر حياة ثقافية جديدة.

١١ – فرد إسماعيل قائلاً: أنا شجعت التجارة.

١٢ – فقلت له: تجارة الأثاث (الموبيليا) لتعمير قصورك، وأيضاً تجارة المجوهرات والحراير لزينة محظياتك الكثيرات.

١٣ – كما أنك أبرمت قروضاً باسم مصر للانفاق على هذا البذخ.

١٤ – فقال إسماعيل: أنا طورت الزراعة.

١٥ – وشققت القنوات.

١٦ – واستوردت الآلات.

١٧ – فأجبته قائلاً: أنت فعلت ذلك على حسابنا. من أجل مصلحتك، من أجل تحسين الأراضي التي انتزعتها من الفلاحين الفقراء، بعد أن نفيت الأمير حليم الذي كان يدافع عنهم.

١٨ – أنا طبقت الشعار الفرنسي الذي يقول: الحرية والمساواة والأخوة.

١٩ – فصحت فيه قائلاً: إنسان عديم الحياء!

٢٠ – ألا تخجل من قولك هذا؟

٢١ – طبقته على طريقتك.

٢٢ – الحرية لك وحدك، في إرسال شبابنا إلى النيل الأبيض، لأنك تخشى من أفكارهم التقدمية والمطالبة بالعدالة.

٢٣ – الحرية لك وحدك في أن تدس السم للباشاوات والبهوات، ثم تصادر ممتلكاتهم.

٢٤ – الحرية لك وحدك، في قتل خيرة جنودنا في الحبشة التي لا شأن لنا بها، ولكن أطماعك الفارغة هي التي زجت بنا في هذه البلاد.

٢٥ – والمساواة، كما تفهمها أنت. أيها الطاغية من بقايا العصور القديمة.

٢٦ – فالجميع كانوا متساوين، ولكن أمام القوانين الاستبدادية وحسب.

٢٧ – ألم تكن أنت الحكم الوحيد لرعاياك البؤساء.

٢٨ – وتنفيذ أحكامك كان يتم بوسائل ثلاثة: الكرباج والسم والنيل.

٢٩ – يا سكان القرى، يا من فرض عليكم إسماعيل أعمال السخرة على مدى ستة عشر عاماً، أخبروا من لا يصدقون ذلك، عما خلفه الكرباج في جنوبكم وباطن أقدامكم من أضرار.

٣٠ – ويمكنكم أيضاً أن تتكلموا، أيها الفلاحون، الذين كنتم تروون بدموعهم الأرض التي تزرعونها، وأنتم، معشر العمال، الذين كنتم تدفعون الضرائب الجائرة والرسوم المجحفة قبل حلول مواعيدها بسنوات عديدة.

٣١ – وأنتم يا تجار السودان وتجار مصر، كيف كان إسماعيل يسدد لكم أثمان الأقمشة والعبيد الذين كانت تشتريها منكم حريمه؟

٣٢ – بالكرباج. تلك هي عملته.

٣٣ – والسم، كان وزير عدلك الأساسي يا إسماعيل.

٣٤ – هل كان هناك مصري يجرؤ على أن يصفك بالمستبد؟

٣٥ – فنجان قهوة، يعده زبانيتك، كان يكفي لكي يخلصك منه.

٣٦ – ولو جرؤ أي باشا أن يرفض أن يسلمك ثروته على سبيل قرض بلا إيصال؟

٣٧ – يكون السم، في إحدى صوره المختلفة، كفيلاً بأن يجعلك ترث ما يملك.

٣٨ – السم أيضاً كان يكتم الأسرار الفاضحة بين أعضاء حكومتك.

٣٩ – والنيل حمام مطهر من الخطايا، مخصص لعقاب نسائك وعشاقهن.

٤٠ – وأمام عينيك كان المذنبون يوضعون داخل أجولة مع ربط حجر ضخم في رقابهم، ثم يلقى بهم في النيل للتكفير عن أخطائهم، بين أسنان التماسيح الحادة.

٤١ – هذا هو فهمك للحرية والمساواة.

٤٢ – أما الأخوة، فلم تكن تمارسها إلا مع إبليس، الذي كان يذيقك متع الجنة الأرضية، ويمتعك بتقبيل العذارى الفارسيات والشركسيات، اللاتي كنت تشتريهن بالذهب الذي كنت تسلبه منا.

٤٣ – تلك هي الطرق التي كنت تستعملها لكي تفي بوعودك، يا إسماعيل!

الفصل الحادي عشر

صحيفة أبو نظارة

(١٧ آية)

١ – هنالك نصحني رؤساء الحزب الحربي وهم أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد الله حلمي، بتأسيس صحيفة ليبرالية وثورية من أجل إيقاظ الشعب من سباته.

٢ – وقالوا لي: لو مسّ الطاغية شعرة من رأسك، فالويل له.

٣ – حينئذ أسست صحيفتي " أبو نظارة " (❁).

(❁) – هنا يعترف صنوع بأن نصيحة أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد الله حلمي، كانت وراء إصداره لصحيفته (أبو نظارة). وفي الجزء المنشور عن صنوع في كتاب فيليب طرازي (تاريخ الصحافة العربية)، نقرأ بأن الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، كانا وراء إصدار هذه الصحيفة! وربما لا يجد القارئ غضاضة فيما جاء في كتاب طرازي باعتباره كتاباً لا دخل لصنوع في تحريره أو كتابته! ولكن إذا عرف القارئ بأن الصفحات الخمس المكتوبة عن صنوع المنشورة في كتاب طرازي، راجعها صنوع وبدّل بعض كلماتها قبل نشرها – وربما اشترك في كتابتها – سيشعر بالغضاضة فعلاً! لأن شمويل موريه نشر عام ١٩٨٧م مجموعة خطابات لصنوع، كان من بينها خطابان متبادلان بين صنوع وطرازي. الخطاب الأول من طرازي إلى صنوع في ١٩١١/١/٢٥م – وهو الخطاب السادس عشر ضمن الخطابات المنشورة – وفي مقدمته يقول: "قياماً بالوعد مرسل لك صورة الترجمة التي نظمتها وهي تتضمن مختصر تاريخ حياتك الطافحة بكل لذيذ ومفيد

٤ – العدد الأول كان لطيفاً.

٥ – والثاني كان ساخراً.

٦ – أما الثالث، فقد كشف عن فضائح حكام الأقاليم.

٧ – وفي العدد الرابع أطلقت قذائفي.

٨ – لم يصدر من صحيفتي سوى خمسة عشر عدداً فقط.

٩ – بمجموع ٢٥٠,٠٠٠ نسخة، صدرت وتخاطفها أبناء مصر، واحتفظوا بها كوثائق ضد الطغيان، هذا ما حدث يا إسماعيل.

١٠ – لم تعش صحيفتي على ضفاف النيل سوى شهرين بالكاد، كالأزهار. كنت فيها المعبّر عن مآسي وطني ومظالم إخواني في مصر.

١١ – استعملت طريقتنا الشرقية، الحوارات، والأمثال، والحكايات ذات المغزى.

١٢ – ولم أخش يا إسماعيل، أن أهاجم، بطريقة فكهة ولكن مع التلميحات الشفافة، كبار موظفيك، وأهاجمك أنت أيضا يا إسماعيل.

١٣ – أثبت للشعب العربي أنه ينبغي أن ينظر إلى الأوروبيين المقيمين في مصر باعتبارهم أصدقاء، وكذلك الذين يأتون من الغرب لمحاسبة الطاغية على أفعاله الخسيسة نحو شعبه.

وهي عشر صفحات". ويختتم طرازي خطابه بقوله: "أظن يا حضرة الشيخ المهذب أن الترجمة توافق ذوقك .... إذا رأيتم أني قصّرت في أشياء أو اخطأت في سواها فالرجا أن تنبهوني كي أجري اللازم قبل طبع كتابي. واعلموا أني حتى الآن ما كتبت لأحد الصحافيين ترجمة نظير ترجمتك حتى لأحمد فارس [الشدياق] نفسه، ورفاعة بك الطهطاوي، ورزق الله حسون، وعبد الله النديم، وغيرهم مثل جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وبشارة باشا تقلا، والكونت دحداح، وبعض المشاهير. ومن ذلك تتأكد عظيم اعتباري لشخصك". أما رد صنوع علي خطاب طرازي – في ١٨/٢/١٩١١م – فكان شكراً ومدحاً لطرازي، وتصويباً لبعض الأمور، سنذكرها في تعليقات لاحقة. للمزيد حول هذا الأمر، ينظر:

Moreh, Shmuel, (١٩٨٧), "Ya'qub Sanu': His Religious Identity and Work in the Theater and Journalism, According to the Family Archive", **The Jews in Egypt** A Mediterranean Society in Modern Times. edited by. Shimon Shamir, London, ٢٥٩ - ٢٦١.

١٤ - لأنك يا إسماعيل تجتهد حتى اليوم في إقناع المصريين بأن الأوروبيين أعــداء لهم، ولكي تتمكن من إبعادهم، يجب عليك أن تعطيهم مبالغ ضخمة تحصل عليها بالقوة من شعبك البائس.

١٥ - وقد كان من شأن صحيفتي المتواضعة يا إســماعيل، أن أصــابتك بــالفزع، فأمرت بإلغائها (*) وطردتني من وطني.

١٦ - ولكن صحيفة أبو نظارة بعثت في باريس. وهيأ لها الله الحماية اللازمة.

١٧ - وهنا قلت لمحمد علي: لقد انتهيت يا مولاي.

الفصل الثاني عشر

علماء الدين

(٢٣ آية)

١ - أُفحم إسماعيل الخائن!

(*) - قبل إصدار هذا الكتاب عام ١٨٨٦م، تحدث صنوع في صحفه - في ١٨٧٨/٨/٧، و١٨٧٩/٧/١ - عن مصادرة الخديوي إسماعيل لجريدته (أبو نظارة). والمعروف أن أية مصادرة لأية صحيفة في مصر - في تلك الفترة - كانت جميع الصحف المصرية تنشر خبر هذه المصادرة، مع تعليقات عن أسلوب الصحيفة المصادرة وأسباب مصادرتها، خصوصاً وإن كانت المصادرة من قبل الخديوي. فهل يتصور القارئ أن خبر مصادرة صحيفة صنوع لا وجود له في أية صحيفة مصرية طوال عام ١٨٧٨م، وما قبله وما بعده؟! وأكبر دليل على ذلك، ما ذكره د.إبراهيم عبده - ناشر مذكرات صنوع - عن هذه المصادرة قائلاً: " وما كان يمكن أن يحتمل إسماعيل وبطانته صحافة من هذا اللون فأغلق جريدة يعقوب صنوع .... وقد بقى صنوع وحده فى فرنسا إلى أن زامله أديب إسحق في عهد الخديوي توفيق، فقد أغلقت صحيفتاه (مصر والتجارة)". وعندما ذكر الدكتور خبر إغلاق صحيفتي أديب إسحاق - مصر والتجارة - وثق هذا الخبر من خلال جريدة الوطن في ١٨٧٩/١١/٢٢، التي نشرت خبر المصادرة. وهنا نتساءل: لماذا لم يوثق د.إبراهيم عبده أيضاً خبر مصادرة صحيفة صنوع أسوة بصحيفتي أديب إسحاق؟! والإجابة تتمثل في أن هذه المصادرة لم تتحدث عنها أية صحيفة لأنها كانت من مزاعم صنوع نفسه، وليس لها أي أساس أو تاريخ في مصر. حول هذا الأمر ينظر: د.إبراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية - مطبعة التوكل - الطبعة الأولى - ١٩٤٤ - ص(٢٧٤، ٣٧٨).

٢ – لعنة الله عليك!

٣ – هذا ما قاله علماء الدين.

٤ – حينئذ قال الشيخ أبو نظارة سليل الرسول (*):

٥ – ارتعد يا إسماعيل! ارتعد!

٦ – نمر متعطش للدماء، ذئب جائع، ثعلب ماكر!

٧ – أنت تجاوزت، في قسوة قلبك وخسة نفسك، فرعون موسى، والـوزير هامـان، أعدا شعب إسرائيل!

٨ – هذان الأفاقان عاقبهما الناس في الدنيا. وعاقبهما الله تعالى في جهنم.

٩ – هذا ما سيحدث لك ولابنك يا إسماعيل!

١٠ – ارتعد يا إسماعيل، ارتعد! أنت أسأت استغلال رحمة الله والسلطة التي أعطاها لك.

١١ – حكماؤنا حددوا لك طريق التصحيح، لكنك ابتعدت عنها.

١٢ – ولكن حينما حدد لك أعداء الإنسانية طريق الظلم، سلكتها بكل همة وحماسة.

(*) – لا يترعج القارئ من هذا الوصف (سليل الرسول)، لأن صنوعاً كان يتاجر بالدين وفق مصالحة الشخصية. فعلى الرغم من ديانته اليهودية، إلا أنه كان يُلقب نفسه بـــ(الشيخ)، وكان يرتدي الجبّة والقفطان – على غرار شيوخ الأزهر – وكان يبدأ كتاباته بالبسملة، ورغم ذلك عاش يهودياً ومات يهودياً ودُفن في مقابر اليهود في باريس. وما مظاهر الإسلام التي كان يتحلى بها إلا مظاهر كاذبة يجذب بها الناس من حوله، ويلف شخصيته بالسماحة الدينية. وعندما ظن فيليب طرازي – خطأً أثناء إعداده لكتابه (تاريخ الصحافة العربية)، وفيه كتب سيرة صنوع، كما أوضحنا سابقاً في الخطابات المتبادلة بينه وبين صنوع – عام ١٩١١م أن صنوعاً مسلم، صوّب له صنوع ذلك معترفاً بأنه من بني إسرائيل، قائلاً لطرازي في خطابه السابق الذكر: "قلت في ابتداء الصفحة الثانية (فتبع الفتى حينئذ دين الإسلام) المرجو حذف هذا لأني لم أغيّر اعتقاد والديّ .... إني من بني إسرائيل". ينظر ذلك في (Shmuel Moreh)، السابق، ص(٢٦١). ومن الجدير بالذكر أن المرحوم الدكتور محسن مصيلحي بحث أمر ديانة صنوع في كتابه (جيل بعد جيل: تحولات الخطاب المسرحي المصري – المركز القومي للمسرح والموسيقى – يوليو ٢٠٠٥ – ص(٢٨-٣٠).

١٣ – لم تحترم الشيوخ، ولم ترحم الشبيبة.

١٤ – رواية الأعمال الصالحات تؤذي أذنيك. ورواية السيئات تحلو لعينيك.

١٥ – أيها الجبان. سوف يحاسبك الله!

١٦ – إن الله سريع الحساب.

١٧ – حينما تأخذ كتابك بشمالك، ستصرخ قائلاً:

١٨ – ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ﴾

١٩ – نعم يا إسماعيل. هذا ما سترفع به صوتك، لأنك ستجد في هذا الكتاب أسماء الباشاوات الثلاثة والعشرين، ضحايا قهوتك المسمومة، والبهوات الخمسة والثمانين، الذين ألقيتهم فريسة لسمك النيل، والضباط المائة والأربعة والثلاثين، الذين ألقيت بهم من فوق القلعة.

٢٠ – أسماء آلاف الفلاحين الذين قتلتهم زبانيتك ضرباً بالعصي، تنفيذاً لأوامرك.

٢١ – ذنوبك مسجلة في هذا الكتاب.

٢٢ – وحينئذ سوف تقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ﴾

٢٣ – لا حول لي ولا قوة!

الفصل الثالث عشر

عقاب إسماعيل

(٨ آيات)

١ – بعد صمت محزن كئيب، استطرد الشيخ البكري قائلاً :

٢ – حينئذ يقول الله تعالى لخزنة جهنم:

٣ – ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾.

٤ – ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾.

٥ – ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾. هذا الوحش الضاري.

٦ – والآن ألقوه في قاع الجحيم لكي يهلك فيها.

٧ – القرآن الكريم هو الذي يصف هذا العقاب ويقرره.

٨ – أما تجديد الولاية على مصر، فوهم خادع، محض وسراب، وحلم من الأحلام.

الفصل الرابع عشر

البعث

(١٢ آية)

١ – وختم الشيخ البكري لعناته قائلاً:

٢ – أنت دسست السم لوالدي يا إسماعيل.

٣ – وسوف ينتقم الحكم العدل منك لموته.

٤ – وهنا قال رئيس الحزب الوطني المصري لإسماعيل:

٥ – الأربعون مليون قطعة ذهبية التي سلبتنا إياها على وشك النفاذ.

٦ – بددتها في ست سنوات في المؤامرات، والمكائد ضد ابنك توفيق، لكي تستعيد العرش.

٧ – لكنك لن تفلح في ذلك. فلا يمكن أن يعاد للحكم طاغيةٌ طُرد من بلده كالكلب، لأنه أنزل بها الخراب وأثقلها بالديون التي بلغت مائة مليون جنيه إسترليني.

٨ – فقال إسماعيل: سأعود للحكم. لقد وعدني بذلك زعماء أوروبا ذووا النفوذ.

٩ – فقال رئيس الحزب الوطني: عار على أوروبا لو كانت ستفرض علينا ذلك كما تقول.

١٠ – دون ذلك ستسيل دماء غزيرة.

١١ – ثم قال موجهاً حديثه إلى محمد علي الكبير:

١٢ – إن لم تخلصنا من الجامعة الإسلامية التي تلحق بنا الضرر البـــالغ، فـــسنفتح أبوابنا للغزو السوداني.

الفصل الخامس عشر

الحزب الوطني

(٥ آيات)

١ – واحتضن محمد علي الخطيب فرحاً فخوراً وقال:

٢ – إذاً الحزب الوطني حي. ومصر لم تمت. وسأراها من علياء السماء سعيدة كمـــا كانت على عهدي. الله أكبر!

٣ – لقد كفّر الشعب المصري عن ذنوبه خلال الفترة التي كان يرزح فيها تحت نير حكم إسماعيل وتوفيق، والتي دامت ثلاثة وعشرين عاماً.

٤ – اللهم رب كل شيء ومليكه، بارك الحزب الوطني، روح مصر ومستقبلها.

٥ – فأمن علماء الدين قائلين: اللهم استجب دعاءه. آمين! آمين!

الفصل السادس عشر

توفيق

(١٢ آية)

١ – وقال محمد علي: والآن يا أبو نظارة، أفحم توفيق، كما أفحمت أباه.

٢ – فقلت: إن توفيق هو أيضاً فاسق كأبيه.

٣ – توفيق! توفيق! هل تذكر تلك الليلة التي كنت تحرضنا فيها على قتل أبيك؟

٤ – فقال رئيس الحزب الوطني: إذا كان قد نسيها، فأنا أذكرها، لقد غـــضب ليلتهـــا وطردنا لأننا رفضنا أن نطيعه. كان يريد أن يصبح الخديوي.

٥ – قال أحد العلماء: يا له من ابن عاق! من شابه أباه فما ظلم!

٦ – فعقبت أنا قائلاً: حينما طرد أبوه من مصر وأصبح هو الحاكم. دعاني للعودة إلى مصر. مازلت أحتفظ برسالته (*).

٧ – قال لي، لقد خلصنا الله من إسماعيل الذي كنت أنت محقاً في هجومك عليه. عد إلينا وستنال مكافأتك من أيدينا.

٨ – كان ردّي موجزاً.

٩ – الابن العاق، لا أمان له.

١٠ – يقول الشيخ العباسي: الابن المسلم يحب أباه ويكرمه، حتى ولو كان هذا الأب خائناً.

١١ – ولكن توفيق عاق فاجر، ألحق بمصر من الأضرار، في ست سنين، ما ألحقها بها أبوه في ست عشرة سنة.

١٢ – فحقدنا عليه لا يقل عن ازدرائنا له.

الفصل السابع عشر

سيئات توفيق

(٢٢ آية)

١ – توفيق! يا توفيق! ماذا صنعت في ست سنوات؟

٢ – عدد ضحاياك كعدد ضحايا أبيك، وسيئاتك لا تقل عن سيئاته.

٣ – وهنا تقدم عرابي باشا وقال لتوفيق:

٤ – الأفعى لا تلد إلا أفعى!

(*) – هذا الأمر ذكره صنوع في محاورة خيالية، نشرها في جريدته (النظارات المصرية)، عدد٧، في ١٨٨٠/٣/١٨، ص (١١٠، ١١١). وهذا الخيال أصبح هنا حقيقة يعتمد عليها مؤلف الكتاب، وكأنها حقيقة تاريخية حدثت بالفعل.

٥ – الرأي العام الذي ساعدك على خلع أبيك وتوليتك مكانه، كان يثق في صدقك.

٦ – ولكن بكل أسف خاب ظنه فيك.

٧ – فبمجرد تنصيبك خديوي، سرّحت نصف جيشك، خشية التمرد. كما أن وزير حربيتك، عثمان باشا رفقي الشركسي، استبدل بجميع الضباط المصريين، ضباطاً من جنسه، مرتزقة يخدمون الطاغية الذي يخشى شعبه.

٨ – حينئذ انضم الحزب الحربي إلى الحزب الوطني، وعُينت أنا رئيساً له.

٩ – وقد أفزعك هذا الخبر يا توفيق!

١٠ – وحينئذ، زعمت أنك واحد منا.

١١ – وشجعت الحزب الوطني على أن يطالب، أولاً، بالمساواة بين الضباط الوطنيين والشراكسة.

١٢ – ولكنك خنتنا، وأمرت بالقبض على علي فهمي، وعبد الله حلمي، وعليَّ أنا أيضاً.

١٣ – فقامت قواتنا العسكرية بتحطيم أبواب سجوننا، واضطررت أنت إلى فصل عثمان باشا رفقي.

١٤ – ومنذ ذلك اليوم، وبينما كنت تقسم أنك ستساعدنا في عملية الإصلاح، كنت في الواقع تتآمر علينا، ولا تفكر إلا في القضاء علينا.

١٥ – وأنت الذي دبّرت مذبحة الإسكندرية، لكي تحْرجنا أمام أوروبا.

١٦ – يا لك من خائن! وكلفتني بالرد على قصف البريطانيين، بعد يومين من اتفاقك مع الإنجليز، وبعد أن سلّمت لهم نفسك قلباً وقالباً.

١٧ – تخون وطنك! وأنت الذي أرسلت سلطان باشا إلى معسكرنا في التل الكبير، ويداه مثقلتان بالذهب.

١٨ – وبناء على أوامرك، قام برشوة زعماء القبائل، وهم حلفاؤنا، وذلك عشية المعركة المؤسفة التي أسلمت مصر للأجنبي.

١٩ – أما ضباطنا في السودان، الذين انضموا إلى جيش المهدي، فقد فعلوا ذلك بدافع بغضهم للإنجليز بلا أدنى شك. ولكنهم فعلوا ذلك أيضاً، وبصفة خاصة، بسبب خيانتك لقضية الوطن.

٢٠ – ونحن ندين بحياتنا، التي كنت تريد القضاء عليها، لشهامة رجل شريف همام، من أبناء بريطانيا يحب الإسلام والمسلمين.

٢١ – أنت بعت مصر وأهنت أهلها.

٢٢ – بل إنك أردت منهم أن يتنكروا لدين آبائهم.

الفصل الثامن عشر

عقاب توفيق

(٨ آيات)

١ – وقال الشيخ المفتي: دافع عن نفسك يا توفيق.

٢ – أصبحت الآن أخرس. فاستمع إذن للعقاب الذي ستلقاه في الجحيم.

٣ – أعد الله لك في جهنم ناراً موقدة، خصيصاً لك.

٤ – حينما تلقى، فيها ستسمع نفسك وأنت تصرخ من الألم وتصلى نار الله الموقدة.

٥ – وما أن تلقى في نار جهنم حتى تتميز النار من الغيظ.

٦ – ذلك هو حصاد الأوزار التي ارتكبتها.

٧ – ولكن، كما أن فرعون وهامان لقيا عقابهما في الدنيا، فكذلك أنت وأبوك ستلقيان عقابكما في الدنيا قبل الآخرة.

٨ – فأصدر محمد علي أمره قائلاً : فلتنزل بهما ألوان العذاب التي أنزلاها بالمصريين.

الفصل التاسع عشر

نهاية إسماعيل وتوفيق

(١٤ آية)

١ – وتقدم ستة فلاحين أشداء، قابضين على السياط وسحبوا الطاغيتين على وجهيهما في الطين، كما كان يفعل زبانيتهما بشيوخ البلد أمام القرويين؛ ثم قيدوا أرجلهما النجسة في الفلكة، وانهالوا عليهما بمائة جلدة لكل منهما.

٢ – فصاحت الجماهير فرحاً وقالت: مائة جلدة أخرى!

٣ – (لا تأخذكم بهما رأفة). فلقد أذاقونا العذاب الشديد.

٤ – فليذوقا الآلام التي جرعاها لنا ولآبائنا. وليتجرعا فنجانا من قهوتهما.

٥ – وقال محمد علي : افعلوا ذلك. ولكن استعملوا معهما السم البطيء.

٦ – وأجبروهما على تجرع القهوة المسمومة.

٧ – ثم القوا بهما داخل خرجين وغطسوهما في النيل، لكي يذوقا كأس الموت التي ذاقها ضحاياهما. لكنهم سرعان ما أخرجوهما من الماء.

٨ – ثم صعدوا بهما إلى قمة القلعة، التي كانوا يلقيان من فوقها الضباط الذين كانوا يتجرءون بالشكوى من استبدادهما.

٩ – ثم مرجحوهما في الهواء قبل الإلقاء بهما.

١٠ – فمات الجبانان من الخوف لمرأى الهاوية.

١١ – وأعلن عن خبر موتهما وانتقالهما إلى نار جهنم وبئس المصير.

١٢ – فقال محمد علي : ألقوا بجثتيهما الخبيثتين تنهشهما الغربان وأبناء آوي.

١٣ – وكان ما أراد.

١٤ – وهكذا تخلص أبناء مصر من الطاغيتين.

الفصل العشرون

بعث مصر

(١٢ آية)

١ - وبعث الله تعالى ملائكة من الجنة إلى عاصمة دولة الإسلام المجيدة.

٢ - فلقوا الأمير حليم على شواطئ البوسفور يذرف الدمع على الكرب الذي أصاب مصر والبؤس الذي حل بأبنائها.

٣ - وأنزل الله تعالى النعاس أمنة منه على ابن محمد علي الكبير، الأمير حليم العظيم. وحملته ملائكة الجنة إلى أبيه.

٤ - فقال محمد علي لابنه " استيقظ وأبشر ".

٥ - إسماعيل وتوفيق اختفيا من على الأرض ملطخين بدماء ضحاياهما.

٦ - وبمشيئة رب العالمين، ورغبة الخليفة، وقوى أوروبا، أصبحت أنت والياً على مصر.

٧ - فكن جديراً بعرشي وبالثقة التي وضعها فيك المصريون.

٨ - واجعل من العدالة والإنصاف ديْدناً لك. وليكن هدفك الوحيد هو بعث مصر ووادي النيل من جديد.

٩ - بعد أن انتهى من قوله هذا، قام العاهل الكبير بمعانقة ابنه حليم ثم صعد عائداً إلى السماء تتبعه ملائكة الرحمن.

١٠ - أيها الوطنيون الشرفاء، ارتدوا ملابس الأعياد والأفراح. فهذا اليوم يوم مشهود، يوم مبارك لمصر وأهلها.

١١ - وأنتن يا بنات النيل السمراوات، أطلقن الزغاريد، وارفعن أصوات البهجة والفرحة إلى عنان السماء.

١٢ - واسعد يا وطني العزيز وابتهج! فتحت حكم حليم الأمير المحبوب، سوف يعيش أبناؤك في سلام ووئام. وستظل السعادة والرخاء دوماً في بيوتهم. آمين! آمين! آمين!

محاضرات أبو نظارة

من غير المعقول، في مؤلف عنوانه "مصر الساخرة " أن نستبعد الحديث عن محاضرات أبو نظارة التي سخر فيها بصورة عنيفة وفكاهة لا نجدها إلا عنده، من جميع الشخصيات المزرية البغيضة التي لعبت دوراً في تاريخ مصر الحديثة.

لقد صورنا شيخنا في الصفحات السابقة من منظورات مختلفة؛ غير أن الصورة لن تكتمل إذا تجاهلنا دور المحاضر والخطيب. وهي صفات لا أعتقد أنـــه يحــرص عليها كثيراً، بصرف النظر عن جدارته التي لا نستطيع أن ننكرها بالكامل. وإذا نحن حكمنا على الموهبة بمدى نجاحها، مما أندر من نستطيع أن نضاهيهم به. لقد استطاع في بعض الأحيان أن يجمع جمهوراً من المستمعين يربو على ألفي شخص، وكانــت محاضراته في بعض المناسبات تمثل حدثاً حقيقياً. فقبل ستة أشهر، اهتمت الــصحافة كلها بذلك اللقاء الذي نظم من أجله في " إنجلترا الحرة " ولكنه منع من دخول المكان في آخر لحظة (*). فمن ذلك المحاضر الذي يستطيع أن يفاخر بأنه مُنع من دخــول

(*) – يُلاحظ على هذا القول، أن كاتبه جاستون لفبفر – مدير مطبعة جريدة (أبو نظارة) –لم يذكر اسم جريدة واحدة أو تاريخها، توثيقاً لكلامه. والحقيقة أن هذا الخبر اعتمد فيه الكاتب أقوال صنوع نفسه في صحفه. ففي جريدة (أبو نظارة)، عدد١١، بتاريخ ١٨٨٥/١١/٢٩، نقرأ الآتي: " قال الشيخ أبو نظارة: السلام عليك يا حضرة القارئ. اليوم مهمة جداً أخباري. وإن ما صدقتني يا قرة عيني يا عزيز. اقرأ جرانيل أوروبا عموماً وخصوصاً جرائد الإنكليز. فترى فيهم مكتوب بأن في لندن حضّروا محفل كبير ليلقي فيه خطبة رنانة في الحزب الوطني أبو نظارة العبد الفقير ...... فلبست قفطاني وجبّتي. وتحزّمت ولفّيت عِمّتي. وخرجت من باريس قاصد عاصمة المملكة الإنكليزية إلا وورد لي تلَغراف يقول بأن الوزارة السالسبورية. حرّجت عليّ عقد المحفل اللي كنت رايح أخطب فيه في ليلة ٢٣ الشهر الجاري. اسمع السبب يا حضرة القارئ. رايح أنقله لك من الجرائد الإنجليزية ". والغريب أن صنوعاً – في هذا الخبر – لم يذكر اسم جريدة واحدة، أو تاريخها! ومن المُحتمل أن يكون الأمير حليم هو سبب منع صنوع من السفر، وإلقاء خطبته – إن كانت هناك خطبة في الأصل – فهذا الأمر حدث من قبل عام ١٨٨١م، عندما دعى بلونت

دولة كبرى مثل المملكة المتحدة؟ وأبو نظارة لا ينكر الجميل، فهو يشعر بالامتنان الكبير لإنجلترا لأنها منحته هذا الشرف.

عندما يتحدث إلى الجمهور، يرتدي عادة زي الشيخ العربي الفخم: العمامة البيضاء، والعباءة الخضراء، والحزام الأحمر. ويظل واقفاً وعيناه مرفوعتان إلى السماء، كأنما يستمد منها الوحي، مع اقتصاد في الحركة لا ينفي أي حركة خطابية. بلاغة ساحرة. فالمرء يندهش حينما يجد، في داخل الإطار الضيق والدقيق للغة فولتير التي يجيد استعمالها، شعاعاً من الخيال الشرقي الساحر.

ومما هو شرقي أيضاً وبامتياز، عادته في ألا يبدأ أي محاضرة إلا بذكر الله الرحمن الرحيم يستنزل بركته على وطنه البائس. وهو بائس فعلاً. وكم من مرة، وهو يرسم لنا الصورة الحزينة للأماكن التي نشأ فيها، جعلنا نشعر بالانفعال الذي يتدفق من قلبه إلى عينيه.

ومحاضراته من الكثرة بحيث لا نستطيع أن نعرضها جميعاً، كما أنها أهم من أن نتركها دون أن نعرض بعضاً منها، يكون كافياً لإعطاء القارئ فكرة عن تاريخ مصر المعاصرة.

جاستون لوفيبفر (*)
ناشر صحيفة أبو نظارة

صنوعاً ليخطب خطبة في إنجلترا، فكتب صنوع خطاباً للأمير حليم - وهو الخطاب الأول المنشور في دراسة شامويل موريه السابقة ص(٢٤٤) - قال فيه: ".. يرجع مرجوعنا لبلونت الإنكليزي - فاعلم يا حليمي يا عزيزي - بأن مراده أني أذهب للندن في ٨ فبروار - لا في ٨ مارس الشهر الجاري - لأخطب في محفل كبير وأوضح أفكاري - فيما يخصّ الحزب الوطني في وادي النيل - وما فعله في القبايح والفضايح أبو توفيق إسماعيل. أما أنا فما وعدته بالذهاب وسبب تحريري لدولتكم هذا الخطاب. يكون لإخبار مولاي أني من رواح لندن أنا لا أخاف. إنما لا أسافر بدون إذنكم". ومن المحتمل أن الأمير حليم لم يعطه الإذن بالسفر، وربما يكون هذا الخطاب ذا صلة بموضوع المتن، وأن اختلاف التواريخ جاء عفوياً - أو مقصوداً - ومهما كان الأمر، فإن هذا الخطاب يبين إلى أيٍ مدى كان صنوع خاضعاً لأوامر الأمير حليم، كما يبين إلى أي مدى كان الأمير حليم متحكماً في صنوع وفي خطبه وفي ذهابه وفي إيابه!!

(*) - جاستون لفبفر، هو مدير مطبعة جريدة (أبو نظارة)، وكان دائماً يكتب مقدمات لمجموع الجريدة عندما تُطبع في مجموعات سنوية. واشتراكه في تحرير هذا الكتاب يؤكد أن الكتاب مؤلف بغرض المجاملة ومدح صنوع، لأنه مكتوب من قبل الأصدقاء والمقربين، والعاملين في جريدة (أبو نظارة)، ولم يُكتب من خلال شخص محايد. وللمزيد، ينظر: جريدة (أبو نظارة) - السنة ١٥ - مجموع عامين من جريدة أبي نظارة : العام الثالث عشر والرابع عشر ٨٩ و١٨٩٠م.

محاضرة حول مصر في القرن التاسع عشر [(١)][(*)]

كان الاحتلال الفرنسي لمصر في مطلع هذا القرن ظلماً لا ريب فيه مثلما هو الاحتلال الإنجليزي اليوم. غير أن مصر في نهاية الأمر حصّلت من الاحتلال الفرنسي ميزات عظيمة الأهمية، بل وجوهرية. بينما لم تجن من الاحتلال الإنجليزي سوى المصائب تلو المصائب. كان الاحتلال الأول بالنسبة لمصر عامل تقدم، بينما الآخر كان عامل خراب.

فتحت حُكم محمد علي وخلفائه، عملت فرنسا على نهضة مصر، وذلك عن طريق مهندسيها وجنودها ورجال صناعتها وتجارها وعمالها، الذين جاءوا إلى مصر لحفر قناة السويس. وقد فعلت فرنسا ذلك دون أن تحاول أن تستعبد المصريين على الإطلاق. ومصر اليوم تدرك ذلك تماماً ولا تنساه.

إن ما أقوله لكم اليوم، يا إخواني في الغرب، هو بكل بساطة ما أشعر به في قرارة نفسي وضميري أنه حق، وأنا لا أستطيع أن أحيد عنه. وكما تعرفون جيداً، فإن محمد علي الذي خلع عليه الشرق والغرب لقب الكبير، هو مؤسس وعميد الأسرة الحاكمة الحالية في مصر.

إن الرجل الذي كان يُسمى جنديّ قولة، أصبح بفضل قدْره وعبقريته، حاكم وادي النيل. كان محمد علي يتمتع بأنبل الصفات وأكرامها. وكانت شهامته تدفعه إلى تحقيق النبيل من الأعمال. وجد مصر ممزقة إلى أقاليم عده تحت حكم المماليك الجائر البغيض. فتمكن بانتصاراته في الحرب وبحكمته في الإدارة، أن يجعل منها مملكة واحدة موحّدة. غرس فيها بذور الحضارة الغربية.

مسكين هذا الرجل! كم كانت حياته عاصفة مليئة بالعواصف والمحن! فحلم حياته كلها في تأسيس إمبراطورية كبرى تضم جميع المؤمنين الموحدين، لم يتحقق.

---

(١) – نحن هنا لا نعرض سوى أهم الفقرات من محاضرات أبو نظارة.

(*) – هذه المحاضرة نشرها صنوع – بالمعنى نفسه – في جريدته (أبو نظارة)، عدد١٢، بتاريخ ١٨٨٧/١٢/٣٠.

وكانت أيامه الأخيرة حافلة بالآلام والدموع. حينما أبلغوه أن عليه أن يكتفي بأن تكون له الولاية على مصر وأسرته من بعده، وأن يخضع للسلطان العثماني الذي كان قد تحداه وانتصر عليه، جذب محمد علي لحيته البيضاء من الغيظ وانسحب محزوناً واعتزل في قصره برأس التين، حيث مات فاقد العقل والذاكرة، وذلك عام ١٨١٩م. وإذا كان محمد علي لم يترك وراءه أهرامات ولا مسلات كما فعل الفراعنة، فقد تمكن من أن يحفر اسمه فوق أعمال سوف تظل تتحدى عوامل الفناء عبر القرون.

كان عصر ابنه إبراهيم المحارب قصير الأمد؛ كان نائباً لأبيه خلال أيامه الأخيرة ومات قبل أبيه بأحد عشر شهراً. كان إبراهيم جندياً مغواراً باعتراف الجميع، لكنه كان قاسياً غليظ الطباع. فذات يوم، وخلال اجتماع لمجلس الأعيان، لم يتردد في أن يطلق الرصاص على شخص جرؤ وخالفه في الرأي.

بعد وفاة محمد علي، خلفه حفيده عباس، باعتباره أكبر أفراد أسرته وذلك طبقاً لقواعد الخلافة الإسلامية، والفرمان العالي لعام ١٨١١م. كان عباس شرساً ظلوماً. فقد صادر أملاك المواطنين واستغلهم في أعمال السخرة. كما قلص نشاط العنصر الأوروبي الذي كان جده محمد علي قد جلبه إلى البلاد. كان عباس عدواً لدوداً للتقدم التجاري، ووضع عليه قيوداً كثيرة. لكن الله تعالى عادل لا يرضى الظلم، فقد استجاب لأنين المكروبين البؤساء من أبناء مصر، وعاقب هذا الطاغية.

لم يذق هذا المستبد طعم الراحة ليل نهار. كان يرتعش خوفاً من أن يدس له أحد السم أو يطعنه آخر. فهلك بصورة فاجعة عام ١٨٥٤م، وذلك داخل قصره في مدينة بنها، حيث قام بخنقه عبدان شركسيان، كان الباب العالي قد أرسلهما هدية له.

جاء سعيد خلفاً لعباس. وسعيد هو ابن محمد علي الكبير. وكان عهد سعيد كاسمه أيضاً. ولم تشهد مصر منذ وفاة والده حتى يومنا هذا ازدهاراً كالذي شهدته في عصره. كان سعيد قد تلقى تعليمه في باريس، مثل أخيه الأمير حليم. وكان يجيد الفرنسية ويحب كل ما هو فرنسي. كان والياً طيباً مستنيراً، محباً للحضارة.

في مأدبة أقامها تكريماً لعلماء الدين وكبار ضباط الجيش والأعيان، أعلن قائلاً: "أنا لا أريد أن أفعل مثل أسلافي الذين كان شعارهم هو "الجهل والاستبداد" لكنني أريد أن يتعلم أبناء شعبي وتزدهر بلادي تحت شعار: "مصر للمصريين". منذ ذلك

الوقت، بدأت أفكار الوطنية تشغل عقول الشباب. ولقد كان الفضل يرجع إلى سعيد في منح العالم الفرنسي دي ليسبس حق شق قناة السويس. وقد انتقل سعيد إلى الرفيق الأعلى، مأسوفاً عليه يبكيه جميع المواطنين، عام ١٨٦٢م وذلك في يوم مشئوم لوطن مكروب، لم يعرف بعده طعم السعادة.

كان أحمد، شقيق إسماعيل، هو الذي عليه الدور في خلافة سعيد. غير أن إسماعيل، بمؤامراته الدنيئة تمكن من التخلص منه، وذلك بإغراقه في النيل، وبذلك أصبح هو والياً على مصر (١).

تلك هي حال مصر في القرن التاسع عشر. وذلكم حكامها ورجال دولتها، وذلكم هو الحزب الوطني الذي ما يزال حياً بالرغم مما يتعرض له من اضطهاد من قبل خصومه. والآن، وأنا أشكركم على حُسن استماعكم، اسمحوا لي أن أعقد مقارنة بيننا وبين البلغاريين الذين تعد قضيتهم أهم ما على الساحة عام ١٨٨٥م.

تقسيم جديد لتركيا. وأوروبا كلها تقر ما فعله الأمير إسكندر أمير باتينبرج. وتؤيد ثورة فيليبوبول، وتبارك ما قام به جيش الأرمن بعد طرد حاكمها العثماني، من الانضمام إلى الجيش البلغاري، بالرغم من الشروط التي تنص عليها معاهدة برلين.

وأعلنت أوروبا حينئذ، على لسان قادتها وصحفها الرسمية، أن من واجبها الاستجابة لرغبة الأرمن الذين يريدون الانضمام إلى بلغاريا لتكوين دولة واحدة. ونحن من جانبنا لا نستعمل مكيالين ولا وحدتين للقياس. وكما قمنا بتأييد ومساعدة الصرب واليونانيين في تحررهم، كذلك، ولكي نكون منطقيين مع أنفسنا، فنحن ملزمون بتأييد البلغاريين في تحررهم ومساعدتهم في ذلك بقدر ما نستطيع، دون أن نتخلى عن الإمبراطورية العثمانية".

ويشهد الله أنني لا أؤيد قهر شعب من الشعوب، ولكنني حينما سمعت قادة الدول والصحف الأوروبية تقول بذلك، لم يسعني إلا أن أخرج ببعض الملاحظات الأليمة.

ماذا صنع هؤلاء البلغاريون سعداء الحظ حتى تقف أوروبا إلى جانبهم على هذا النحو؟ ماذا كان ماضيهم ومن هم الآن؟ إنهم قبائل سلافية – ليس من أفضل هذه

---

(١) – لم نورد هنا فقرات المحاضرة الخاصة بعهدي إسماعيل وتوفيق والحزب الوطني، لأن هذه الفترة من تاريخ مصر جاءت في الصفحات السابقة.

القبائل – تم طردهم في الماضي من على شواطئ نهر الفولجا، ثم ردّهم وإرجاعهم بالقوارب حتى بحر أزوف والبحر الأسود. ولم يذكرهم التاريخ لأول مرة إلا بسبب أعمال السلب والنهب التي كانوا يقومون بها في الإمبراطورية الإغريقية. ولقد حاولوا ثلاث مرات أن يؤسسوا ممالك هشة، وثلاث مرات انهارت هذه الممالك تاركة البلغاريين تحت سيادة الأفاريين ثم الإغريق ثم الأتراك.

ومن ناحية أخرى، كيف كان من الممكن أن تستمر هذه الممالك بشعوب لم يكن لها قوانين تنظم حياتها، شعوب همجية، تركت النشاط الزراعي للنساء. ولم تهتم إلا بالصيد وتربية الحيوانات. ذلك هو تاريخ البلغار. وماذا عن حاضرهم؟ من الظلم أن ننكر أنهم في ظل القهر الروسي حققوا تقدماً كبيراً في طريق الحرية والاستقلال. ولكن الروس أيضـــاً ساعدوهم كثيراً في تحقيق هذه الأهداف، كإنشاء البرلمان والمدارس والجيش، الخ ...، ولم تقل أوروبا " هذا كثير جداً. إننا نبالغ في مساعدة البلغار وهم شعوب على قدر غير كافٍ عن الحضارة، لكي يكون لهم برلمان ويتولّوا بأنفسهم قيادة جيشهم وإدارة ميزانيتهم، باختصار، للاستغناء، ليس عن النصائح الأوروبية، وإنما عن الوصاية الأجنبية ".

لم تقل أوروبا ذلك مطلقاً. فكيف يتسنى لها أن تقول ذلك فيما يختص بمصر والمصريين؟

لن أقوم هنا بسرد تاريخ مصر المجيد، وتاريخ شعب مصر، التي كانت حضارتها في قمتها ملء الأعين والأسماع، حتى قبل أن تبدأ حضارة الإغريق والرومان. لكنني سأتحدث عن حاضرها.

ها قد مضت سبعون عاماً، وليس سبعة أعوام، على نهوض مصر من جديد، بفضل محمد علي، وخروجها من دياجير الظلمات التي كانت غارقة فيها تحت حكم المماليك. ها قد مرت سبعون عاماً منذ قامت مصر بافتتاح المدارس من أجل أبنائها الفقراء، وبعثت بأبنائها الأغنياء إلى مدارس باريس ولندن وبرلين وفيينا. سبعون عاماً ومصر تمتلك العلوم والصناعة والتجارة والأدب، نعم الأدب الخاص بها والذي لا يقل عن غيره من الآداب.

وإنكار ذلك أشبه بإنكار ضوء الشمس. أضيف إلى ذلك، أن مصر تمتلك إدارة على الطريقة الأوروبية، وهي على الرغم من المعوقات التي سببها المُجرم إسماعيل،

كانت تسير على الأسلوب الإنجليزي بما فيه الكفاية وكانت ستظل تعمل لو لم يصبها الخلل. زيادة على ذلك، فمصر تمتلك، أو بالأحرى كانت تمتلك جيشاً وطنياً لم يكن من الممكن ولن يكون من الممكن، تجاهله لو توافرت النية الصادقة.

لا أريد اليوم أن أتحدث عن دور هذا الجيش في موقعه التل الكبير، فأنا لا أمتلك الشجاعة ولا الفصاحة الحرّتين بما فيه الكفاية لكي أذكر كما سأفعل فيما بعد، الأسباب السرية والأليمة لهذه المعركة الرهيبة. كل ما أريد أن أقوله الآن هو أن الجيش الوطني المصري لم يكن بهذه الدرجة من السوء، لأنه استطاع وحده غزو السودان الذي عجزت جيوش الإنجليز عن غزوه مرة أخرى، وهو ما يزال موجوداً في السودان حتى الآن. وكان سيظل كذلك لو لم يتقرر في لندن تغيير عبد القادر باشا، وتعيين الجنرال هيكس مكانه، وبذلك أضفوا على الحرب طابعاً دينياً لم يكن موجوداً قبل ذلك.

وهكذا، حتى لا أطيل، فقد كانت مصر، كماضٍ تاريخي، أفضل من بلغاريا بمراحل عديدة. أما في الحاضر، فهي، أي مصر، تفوق بلغاريا سواء في المدارس أو في الإدارة والجيش.

وبالنسبة للمستقبل، فإن الشعب المصري، بوصفه حارساً لحرية النيل وحرية قناة السويس، ولكونه شعباً مسالماً ولا يميل كثيراً للغزو بطبيعته، ولكونه محايداً، فهو مدعوّ لأداء دور أهم بكثير من دور الشعب البلغاري مهما كانت أهداف هذا الشعب العالية. ومع ذلك فإن القوى الأوروبية العظمى تركز اهتمامها على الشعب البلغاري، وتصرفه عن الشعب المصري.

كما أن اللورد ساليسبرى ينكر علينا الحق في برلمان، أو هو لا يدعوه إلا لكي يفرض عليه القرارات المهينة. فهو يتعامل مع بلادنا باعتبارها تحت الغزو، ويعرض شعبنا لمظالم وابتزازات الموظفين البريطانيين وهم أسوء مائة مرة من أعوان إسماعيل. وأوروبا لا تهتم بذلك. فهل معنى ذلك أن عدالة أوروبا المزعومة ليست سوى ظلم فادح؟

محاضرة حول الغزو الإنجليزي (١)(*)

سيداتي وسادتي،

إذا كنت عدواً لحكومتكم، فأنا لست عدواً لكم. وإليكم دليلي على ذلك:

أذكر أنه في العصر الذي كان فيه إسماعيل يستبد فيه بنا، كنت أقول لزعماء الحزب الوطني المصري في المستقبل، وكان بعضهم من طلبتي والجميع أصدقائي: "لا تلقوا بالاً لما تكتبه صحيفة التايمز لتأييد إسماعيل في ظلمه. ولا تلقوا بالاً لما يُقال في برلمان إنجلترا للتستر على إسماعيل ولتزيين اختلاساته. ففوق التايمز بقوتها، وفوق البرلمان ذلك المجلس المهيب، هناك الشعب الإنجليزي الذي سيقف إلى جانبنا بما يتميز به من روح العدالة والإنسانية. فمن المستحيل أن هذا الشعب الذي، بالرغم من صحافته ولورداته، طالب بتوقيع العقوبة المثالية على " وارين هاستينج " طاغية الهند البغيض. من المستحيل على هذا الشعب ألا يساعدنا في مطالبتنا بعزل طاغية مصر الذي لا يقل بغضاً".

هكذا كنت أتحدث إلى زملائي وأصدقائي في الحزب الوطني. وحول هذه النقطة بالذات لم يخب ظنهم. فقد كان للشعب الإنجليزي دور في إسقاط وعقاب إسماعيل الذي هو بمثابة " وارين هاستينج " المصري.

لماذا ينبغي أن يتوقف ثنائي ومديحي عند هذا الحد؛ وأنه حتى هذه اللحظة، سواء بسبب الظروف، أم بسبب خطأ رجال الدولة، لم يكن نصيب الحزب الوطني

---

(١) – هذه بعض الفقر المهمة من المحاضرة التي كان من المفروض أن يلقيها الشيخ أبو نظارة في لندن في ٢٣ نوفمبر ١٨٨٥م. في لقاء كبير نظم لهذا الغرض. ولكن الحكومة البريطانية منعته في آخر لحظة.

(*) – لا أظن أن هذه المحاضرة كانت ستُلقى في إنجلترا، وإذا كانت ستُلقى فأنا أشك بأن نصها المنشور هنا، هو النص الأصلي المكتوب لها. فقد سبق الإشارة إلى هذه المحاضرة من قبل – في هذا الكتاب – ولم يذكر الكاتب – ولا صنوع – أي توثيق لها من الجرائد الأوروبية – خصوصاً الإنجليزية – التي قالت إن صنوعاً سيلقي محاضرة في إنجلترا. وكما هو معروف عن صنوع بأنه كثير المبالغات، ويحيط نفسه بهالة من الأهمية وعلو الشأن، فهذه المحاضرة – من وجهة نظري – تخريفة من تخريفاته الكثيرة، ليصف نفسه الوطني المخلص لبلاده، ويبعد عن نفسه صفة المرتزقة، أو العميل للأمير حليم.

المصري من الشعب الإنجليزي سوى العذاب؟ شعور بالتواضع والتحفظ، تفهمونه أنتم، يمنعني أن أقول ما أفكر فيه، وما سوف يقوله التاريخ يوماً ما عن الحزب الوطني المصري وعن زعيمه عرابي باشا صديقي العزيز المسكين. ثم إن الود الصادق الذي يكنه السيد بلونت للشعب المصري وللحزب الوطني أعظم في عيوننا من البغض الذي نشعر به مضطرين نحو بلده الذي أصبح غازياً لبلدنا. أجل، إن اسم "ولفريد سيفن بلونت" محفور في قلوبنا وسيظل محفوراً فيها على مر الأجيال، راسخاً كأهراماتنا التي لا تستطيع رمال الصحراء أن تطمسها وتخفيها من الوجود.

وأخيراً، فإنني أود، أيها السادة، أن أعرف لماذا ولأي سبب كانت الخلافات والكراهية والحروب بيننا؟ إن حكوماتكم على اختلاف أنواعها تأخذ علينا رفضنا الخضوع لإرادة توفيق، ذلك الطفل الغادر الذي خان أباه، الذي خان السلطان، الذي خان شعبه، والذي سوف يخونكم أنتم أيضاً أيها السادة الإنجليز، لو تُرك له الوقت، تأكدوا من ذلك.

والآن، اسمحوا لي أن أعقد مقارنة أخرى بيننا وبينكم. قبل قرنين من الزمان، لجأ أحد ملوككم وهو جاك الثاني (أنتم ترون أني أعرف تاريخكم) واستعان بملك فرنسا لويس الرابع عشر لكي يفرض عليكم أفكاراً وتحالفات لا تتفق ومصالحكم الوطنية. فكان أن ثارت ثورتكم وقمتم بطرد هذا الملك الذي لجأ إلى الاستعانة بالتدخل الأجنبي لمقاومة رعاياه، وأقسمتم على قطع كل علاقة بينكم وبين ذريته. وقد حافظتم على هذا القسم، وأنا أحييكم على ذلك.

حسناً، نحن أيضاً معشر الوطنيين المصريين، أدينا هذا القسم نفسه ضد توفيق الذي لا حاجة لكي أذكركم بخياناته ومؤامراته، بعد الذي حدثكم عنه اللورد راندولف تشرشيل، وهذا القسم، نحن سنتمسك به مهما يحدث، وسوف تحيوننا على ذلك في المستقبل. حكوماتكم أيضاً تأخذ علينا أننا نفضل على توفيق الأمير حليم، آخر الأبناء الأحياء لمحمد علي الكبير. ألا فاعلموا أن الأمير حليم بالنسبة لنا هو " غليوم ديرانج" بالنسبة لكم. إذا كان لديكم رجلكم المفضل، فلماذا لا يكون لدينا رجلنا المفضل؟

وسجلوا عني هذا، الأمير حليم الذي نطالب به هو الوحيد الذي ستنصلح به الأمور عندنا. وسجلوا عني هذا أيضاً، الأمير حليم لا يعني أبداً، كما يتصور الكثيرون عندكم، نوعاً من رد الفعل الفرنسي أو الألماني ضد النفوذ الإنجليزي. فأنا

أعرف الأمير حليم منذ سنوات طويلة، وأعرف أكثر من أي شخص آخر، أنه ليس لديكم ما يبرر خوفكم منه. إن الأمير حليم، وأنا أقولها من باب الإنصاف، ليس فرنسياً ولا إنجليزياً، ولا ألمانياً ولا تركياً؛ بل هو مصري ومصري فقط. وأضيف أن الأمير حليم هو الوحيد في مصر الذي يتمتع بالتأثير والهيبة الكافيتين لمتابعة تطبيق المؤسسات السياسية والحكومية الأوروبية في حدود تقاليد البلاد واحتياجاتها.

محاضرة حول المهدي (*)

المهدي، قاهر صفوة الجنرالات الإنجليز، وزهرة ضباط أركان الحرب البريطانيين، هو مجرد وطني ولد في دونجولا، من أسرة فقيرة. في المدينة مسقط رأسه، توجد جامعة تلقى فيها دراسته.

خصومه يتهمونه بأنه كان تاجر عبيد. وهذا الكلام محض افتراء. بل هو شيخ طريقة دينية. وقد رأيته قبل عدة سنوات عند أحد زملائي وهو أستاذ في مدرسة الهندسة. وكان يمر بالقاهرة في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. في ذلك العصر، كان المهدي يعد نموذجاً للرجل التقي الورع. وكان يجذب إليه انتباه الجميع.

أما عن رأيي الشخصي، فأنا أعتبره أديباً عربياً غزير العلم، كما أنه فقيه في الدين. وهو ليس عدواً للتعليم كما أشيع عنه، لأنني سمعته يذكر هذه الحكم الآتية لبعض فلاسفتنا العرب:

" العلماء على الأرض كالنجوم في السماء
العلم هو حياة القلوب وشعلة العيـــــــون
والذي يحيي الحكمة لا يموت أبـــــــداً ".

كيف إذن يقال عن هذا الرجل إنه جاهل همجي متعصب؟ عن طريق بعض تلامذتي الذين كان بعضهم يحيطون به، تسلمت نسخة من إعلانه الأول. وقد نشرت هذا الإعلان في مارس ١٨٨٣م. وإليكم بعض فقر منه:

" وعد الله تعالى محمداً بأنه سيحفظ قرآنه الكريم ودينه الحنيف بواسطة رجال لا تمنعهم ملذات الحياة الدنيا عن القتال دفاعاً عن العقيدة. الرسول نفسه قال لصحابته: سيكون هناك مهديون ينفقون أموالهم ويضحون بحياتهم دفاعاً عن الإسلام، حتى يلقوا الله مخضبين بالدماء التي بذلوها في سبيل الله ".

(*) – هذه المحاضرة هي ملخص لعدة مقالات ومحاورات، نشرها صنوع في جريدته (أبو نظارة زرقا). وللمزيد ينظر: جريدة (أبو نظارة زرقا) عدد٣٠ بتاريخ ١٨٨٣/٣/٣، وعدد١٣ بتاريخ ١٨٨٣/١٠/٢٧، وعدد٣ بتاريخ ١٨٨٤/٣/٨.

ويختم المهدي بقوله : " ارفعوا رءوسكم عالياً؛ وانقضوا كالصاعقة على أعداء وطنكم. وسوف ينصركم الله! والشهداء لهم عند ربهم جنات عرضها كعرض السماوات والأرض".

هذا الإعلان الذي نشرته أنا في صحيفتي، قامت بنشره أيضاً جميع الصحف الشرقية، وكان له في الهند صدى كبير حتى أنني تلقيت من بومباي مقالاً لصحيفتي يصف آلام البؤساء الهنود وطغيان حكامهم من الإنجليز.

كان نشر هذا المقال سبباً لمنع صدور صحيفتي التي بدأت منذ ذلك التاريخ تتسرب إلى الهند بطرق ملتوية، مما جعل لها عند الهنود طعم الفاكهة المحرمة، وبحيث إن كل ما كانت الصحيفة تنقله من أخبار المهدي إلى الهنود يلقى اهتماماً بالغاً. ألم يكن يحارب عدواً مشتركاً؟

منذ صدور هذا الإعلان، بدأ المهدي يشق طريقه. ولقد اهتم العالم أجمع بهذا الرجل الذي كان ظهوره مفاجئاً، والذي عرف كيف يجمع من حوله أقوى القبائل في النوبة والسودان، وزعماء البدو الأشداء البواسل وصفوة الضباط المصريين الأذكياء، بل والأوربيين من دعاة استقلال الشعوب.

في مارس ١٨٨٤م تلقيت من صديق لي مشهور من الخرطوم، كان قد قابل المهدي في مدينة الأبيض، تقريراً مفصلاً لمحادثة دارت بينهما. إليكم أهم ما جاء بها:

يقول المهدي، مصائرنا بيد الله. لقد أجبر توفيق شيوخ الأزهر على طردي من رحمة الله، من أجل أن يصرف عني المصريين الذين كنت أسعى إلى إنقاذهم من أيدي الإنجليز. لكنه لم ينجح؛ فقد كانوا يأتونني من كل مكان.

" أعرف أن الإنجليز أرسلوا جوردون بأموال طائلة من أجل شراء حلفائي. وأنا أقسم بالله لو وقع في يدي لأنفقن هذه الأموال على الفقراء والمساكين المسلمين الذين يجاهدون في سبيل الله والوطن.

" أما فيما يختص بالقوات الإنجليزية، فإن حرارة الجو سوف تذيبهم. وريح السموم ستبددهم. أما أنا. فإنني أسعى للموت في ساحة القتال إذا لم أستطع تحقيق النصر".

" يريدون أن يجندوا الهنود ضدي. ولن يفلحوا في ذلك، فمسلمو الهند أخوان لنا ولن يدخلوا في حرب ضدنا. كما أن الهنود الوثنيين يبغضون الإنجليز بغضاً شديداً، لدرجة أنهم لا يمكن أن يحاربوا في صفهم ".

بعد صدور هذا الإعلان في صحيفتي، أعيد نشره أولاً في صحيفة انترانسيجنت، ثم في جميع الصحف الأوروبية والشرقية، لأن هذا الإعلان يقدم زعيم التمرد في السودان في صورة جديدة.

أصبح تأثير المهدي خرافياً. بل أن ثقة الناس فيه وإيمانهم به بلغتا درجة التعصب. ذلك لأن دور المهدي كان دائماً مهماً. فبعض المهديين نجحوا في تكوين قوى كبيرة، وفي القضاء على ممالك كاملة. فالفاطميون والعباسيون والموحدون والمرابطون يدينون بقوتهم وسطوتهم للفظ المهدي هذا.

استولى المهدي على الخرطوم، الخرطوم التي اختارها الجزار فلسلى بوابة لدخوله الظافر.

هذا الخبر السار فتح قلوب الشعوب في مصر وجزيرة العرب والهند في وقت واحد وفتحها على الفرحة والأمل. وهكذا رأى المصريون الإنجليزي الذي كانوا يسمونه "العفريت الأحمر" مطروداً من وادي النيل. وأصبح العرب لا يخشون رؤية العلم البريطاني يرفرف فوق جبل عرفات والعملاء الإنجليز يدنسون الكعبة المشرفة بمواعظم.

وأفاق الهنود من سباتهم العميق، وتوجهوا بأفكارهم نحو المهدي يتأملون راياته، رايات النصر. ووجدوا أعداءه الذين هم أعداؤهم وقد أصابهم الرعب، بينما هو بارز لأنظار المسلمين متدثراً من كل جنب بدروع النصر السميكة. لقد بدءوا يتخلصون من نير الاستعمار الإنجليزي الذي يجثم على رقابهم.

انتصار آخر للمهدي، ويتحطم نير الاستعباد (*).

(*) – إلى هنا ينتهي كتاب " البوم أبو نظارة ".

ملحق الكتاب

مصر في القرن التاسع عشر

قصة رجل محكوم عليه بالنفي (*)

بقلم السيد إيميه فانترينييه الموظف بوزارة المعارف العمومية (**)

الطفولة

الحمد لله! القادر! الخالد! الذي خلق النور والأكوان، والنجوم الساطعة، وخلق الحياة، والفضيلة والشجاعة، وكل ما هو حق وجميل وعظيم، وكل ما يثير إعجاب البشرية ويتجاوز إدراكها وذكاءها؛ بصرها وبصيرتها.

وسط هذه الخلائق العجيبة جعل الأرض، وفوق هذه الأرض المباركة، وفي أشرف مكان، جعل فرنسا، ووهبها أجمل طقس، وحباها بذكاء الصفوة التي قدر لها أن تقود الأمم في هذا العالم.

(*) — تحت هذا العنوان نشر صنوع في صحيفته (أبو نظارة) عشر مقالات باللغة الفرنسية، على شكل سلسلة. وأول مقالة – في هذه السلسلة – نُشرت في العدد السابع من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ٢٥ من صفر سنة ١٣١٥ هجرية، الموافق ١٨٩٧/٧/٢٤م. وآخر مقالة – وهي العاشرة – نُشرت بتاريخ التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٩/٢٤م.

(**) — السيد إيميه فانترينييه، لا نعلم عنه شيئاً، ولم نقرأ اسمه في أي مكان آخر غير هذا! ومن وجهة نظرنا، نشك في وجود رجل بهذا الاسم يعمل بوزارة المعارف العمومية في مصر، ويسب من ثم حُكام مصر في مقالاته هذه بالشكل الذي جاء! كما أن من غير المعقول أن يهاجم موظف حكومي مصر بمقالات منشورة في صحيفة – من المفترض أنها ممنوعة – وينشر اسمه صراحة! وبناء على ذلك نقول: إن كاتب هذه المقالات هو صنوع نفسه – أو أحد عملائه من محرري جريدته – بدليل أن بها أموراً شخصية وحياتية لا يعلم تفاصيلها إلا صنوع نفسه.

L'ÉGYPTE AU XIXᴱ SIÈCLE
HISTOIRE D'UN PROSCRIT
Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

I

ENFANCE

Louange à Dieu! le Puissant! l'Éternel! qui a créé la lumière, l'immensité des mondes, les astres flamboyants, la vie, la vertu, le courage; tout ce qui est vrai, beau et grand, tout ce que l'humanité admire; tout ce qui échappe à son intelligence ou à son regard!

Au milieu de ces merveilles, il a jeté la terre, qui s'enfuit rapide à travers l'infini et dont il suit la course avec sollicitude et amour. Sur cette planète bénie, à la place d'honneur, il a fait asseoir la France, lui a donné le plus doux climat et l'a dotée d'une intelligence d'élite destinée à guider les nations de notre univers.

Mais, avant la France, il avait tiré, des limons du Nil, l'Egypte, mère de la Sagesse et du Savoir. Il l'avait posée, comme un flambeau divin, au centre du monde, aux confins des trois plus vieilles contrées du globe, avec mission de faire naître et d'éclairer toutes les civilisations.

Nul ne résiste à Dieu.

Quels princes furent, en effet, plus grands que Chéops, Touthmops, Amenophis, les Ramsès, dont l'un fut appelé Sésostris, par les Grecs, et dont les armées pénétrèrent, au levant, jusqu'au fond des Indes; au nord, jusqu'aux lieux inhabités qui dorment sous l'hiver?

Quels hommes furent plus sages, quels savants plus profonds que les prêtres de Thèbes, d'Héliopolis ou de Memphis? Qu'était la Grèce de Platon avant l'enseignement des Egyptiens?

L'école d'Alexandrie règne encore sur nos idées modernes et, cependant, elle ne fut qu'un pâle reflet du savoir qu'on donnait aux initiés.

Quels travaux peuvent se comparer aux Pyramides, au lac Mœris, au Sphinx, aux monuments d'Ipsambou, de Kornak et de Philne.

Dieu, cependant, châtia cette institutrice des nations, pour avoir cru à l'infaillibilité de sa sagesse, comme, plus tard, la France, pour avoir compté sur l'infaillibilité de sa valeur. Il a relevé celle-ci et lui a rendu ses anciennes destinées; il relèvera celle-là, en vue des secrets de l'avenir; car il est le Miséricordieux.

En ce moment, il l'a livrée à la rapacité de l'Angleterre, comme jadis à l'avidité de l'Arabe et des Hycsos. Mais après les jours d'épreuves, il a chassé les Pasteurs comme il renverra les sauterelles rouges dans leur île. Par quels moyens? Peut-être par les plus infimes et les plus inattendus. Un petit pâtre, armé d'une fronde, lui a suffi pour délivrer Israël des Philistins; peut-être emploiera-t-il la plume d'un poète pour balayer les flottes d'Albion.

Ne dites pas que c'est impossible! Dieu donne au vent la puissance de la foudre; le petit grelot du muletier peut détacher une avalanche qui engloutira des villages; un ver fait sombrer les navires, et c'est un insecte qui détruit les grands chênes de la forêt.

Ah! les petits moyens! quel rôle immense ils jouent!

Si c'est écrit, qui donc empêchera le Ciel de donner pareille fortune à une plume, à un roseau?

صورة جزء من المقالة الأولى

لكنه، قبل فرنسا، ومن طمي النيل، أخرج مصر، أم الحكمة وأم العلم. وجعلها شعلة ألوهية في وسط العالم، على مشارف قارات الدنيا القديمة، مع تكليفها بمهمة إبداع الحضارة وإرشاد جميع الحضارات.

مَن مِن الأمراء والملوك كان أعظم من خوفو وتحتمس وأمينوفيس والرمامسة الذين أطلق الإغريق على إحداهم اسم سيزوستريس، والذين وصلت جيوشهم شرقاً حتى أعماق الهند، وشمالاً حتى المناطق غير المأهولة بالسكان والتي ينام أهلها في فصل الشتاء؟

مَنْ من الناس كان أكثر حكمة وعلماً من كهنة طيبة وهليوبــوليس وممفــيس؟ وماذا كانت بلاد الإغريق وأفلاطون قبل ما تعلموه من المصريين القدماء؟

إن مدرسة الإسكندرية ما تزال تهيمن على أفكارنا الحديثة، ومع ذلك فهي لــم تكن أكثر من شعاع شاحب من العلم الذي كان يقدم إلى المبتدئين.

أي أعمال يمكن مقارنتها ببناء الأهرام، وبحيرة موريس، وبأبي الهول وآثــار أبي سنبل والكرنك وفيلة؟

ومع ذلك فقد عاقب الله تعالى معلمة الأمم هذه، حينما اعتقــدت فــي عــصمة حكمتها من الزلل، كما عاقب بعد ذلك فرنسا لما اعتقدت في عصمة عظمتها.

الآن، أسلم الله تعالى مصر فريسة بين مخالب الإنجليز، كما أسلمها في الماضي للهكسوس ثم للعرب (*). لكنه بعد أيام المحن والابتلاءات طرد الرعاة؛ كما سـيطرد الجراد الأحمر ويعيدهم إلى جزيرتهم. ولكن بأية وسائل؟ ربما بأبسط الوسائل وأبعدها عن التصديق. راع صغير يحمل مقلاعا كفاه لكي يخلص بنــي إســرائيل (**) مــن الطغاة. ربما يستعمل ريشة شاعر لكي يجلي أساطيل الإنجليز عن مصر.

لا تقولوا هذا شيء مستحيل! لقد وهب الله تعالى الرياح قوة الصاعقة؛ وأرضةً أو سوسة حقيرة يمكن أن تتسبب في إغراق البواخر الهائلة. وحشرة صغيرة يمكن أن تدمر أشجار البلوط الضخمة في الغابة.

آه! الوسائل البسيطة! ما أعظم الدور الذي تقوم به! وإذا كان هذا مكتوباً فمن ذا الذي يمنع السماء من أن تضع مثل هذه القدرة في ريشة كاتب، أو في قلم شاعر؟ إن هذا القلم موجود، ويعمل، وهو حي، وفاعل، يثير الاضطراب ويزعج؛ يستفز رؤساء الدول، وإمبراطورة الهند ترى فيه كارثة.

والذي يمسك بهذا القلم هو وحي يوحي (***). يتمتع بصداقة فرنــسا وحــب أفريقيا وآسيا وثقة الفلاحين وعون السماء.

(*) – يُلاحظ هنا أن الكاتب يعتبر الفتح الإسلامي لمصر استعماراً، ويشبه العرب الفاتحين بالإنجليز والهكسوس!

(**) – يُلاحظ هنا أن الكاتب يتحدث عن الشعب المصري بوصفه شعباً يهودياً من بني إسرائيل!

(***) – هذا الوصف يطلقه الكاتب على صنوع، وهو وصف طالما كان صنوع يبثه بين أصدقائه!

وقبل أن يتم مهمته، اسمحوا لي أن أقدم إليكم بطلي، الشيخ أبو نظارة، المصري المحكوم عليه بالنفي. الذي صودرت أملاكه وهُدر دمه (*). لكنه يتمتع بموهبة الأنبياء : الوحي. يتمتع بميزة الغزاة، يتمتع بما يثير الأفكار والأمم : يتمتع بالإيمان وهو سلاح لا يمكن لأحد أن يسلبه إياه أو ينتزعه منه. وأعداؤه يعملون له ألف حساب.

لقد فتحت له فرنسا أبوابها ومنحته ضيافتها، وهو اليوم، ومن باريس، يغطي مصر بمقالاته النارية.

مصر وفرنسا، الأم والبنت، العصور القديمة والعصور الحديثة. من يستطيع أن يسبر أغوار تاريخكم دون أن يرتعد من الحماسة والإعجاب؟ لكن الكتاب لم يغلق. صفحة فيه تعد ولا أحد يستطيع أن يتكهن بانفجارها.

(*) – أثبتنا فيما سبق أن صنوعاً سافر إلى فرنسا بمحض إرادته، وأن مسألة نفيه قصة اختلقها؛ كي يكسب بها عطف الآخرين في فرنسا. أما مسألة مصادرة أملاكه فهي تخريفة جديدة، حيث إننا لم نسمع أن صنوعاً كان صاحب أملاك! وكيف هذا وهو الذي طالما كان يشتكي من قلة زاد اليد، وكان يدور على البيوت لإعطاء الدروس الخصوصية لأولاد الفقراء. هذا لو صدقنا هذا الأمر من أساسه. أما إهدار دمه .. فهي مسألة تدعو إلى الضحك بسخرية، لأنها قصة جديدة أراد صنوع بثها بين الناس، ليعظم من شأنه، وإثبات أنه كان ذا حيثية في المجتمع. فصنوع لن تجد عنه سطراً واحداً منشوراً طوال وجوده في مصر، يبين حقيقته أو مكانته. وعندما سافر إلى فرنسا وساعده الأمير حليم بالمال؛ كي يصدر صحيفة يسب فيها حُكام مصر لصالح الأمير، استغل صنوع هذه النافذة الإعلامية واستكتب فيها بعض ضعاف النفوس، ككاتب هذا المقال، لينشر المزاعم ويرسم صورة وهمية لشخص بسيط، فيصبح بفضل هذا التلفيق شخصية أسطورية اسمها صنوع. تلك الشخصية التي وصلت – بفضل ما كُتب عنها من مزاعم وتخريفات– إلى درجة الأنبياء !! وخير دليل على قولنا هذا، ما جاء في الخطاب الثاني – ضمن الخطابات المنشورة في دراسة شامويل موريه السابقة (ص٢٤٥) – بتاريخ ١٨٨١/١/١٤، وهو خطاب من نقولا رعد إلى صنوع، قال فيه عن محمد بك: ".. بأنه عاوز يطلب منك موعد ويكلمك بهيئة أنه موّكل من طرف رياض [أي رياض باشا] لينهي معك المسألة. أي يلغي جرنالك بشرط يدفعوا لك عشرون ألف فرنك. وهكذا على علمي قال لمحمد بك بأنك قبلت معه على إلغاء الجورنال بشرط أنك تقبض عشرون ألف فرنك". وفي خطاب آخر من محمود زكي – في مصر – إلى صنوع – وهو الخطاب الخامس عشر المنشور في دراسة شامويل موريه، بتاريخ ١٩٠٦/٢/٢٢، ص(٢٥٩) – نجد محمود زكي يشكو الزمن من كثرة بؤسه واحتياجه، ويطلب مساعدة صنوع قائلاً: " .. ويا ليت تجد لي مأمورية عندك وأنا أحضر وأخدم جريدتك. ويمكنك أن تطلب لي ماهية من السفارة العثمانية"! وهذه الوثائق تثبت بجلاء من هو يعقوب صنوع، وماذا كان دوره في فرنسا!!

وأنا سأخط سطورها الأولى. والقرن العشرون سيخبركم بنهايتها.
وأنا إذ أعرّفكم بالرجل، سأجعلكم تفهمون عمله بطريقة أفضل.

أبو نظارة مصري الأصل، من دم مصري خالص (*). ولد في القاهرة في الرابع عشر من شهر رمضان من عام ١٢٣٦ من الهجرة (أبريل ١٨٢٩ من الميلاد)(**) أي ذكريات يثيرها هذا التاريخ! وأي أسماء كان يتردد صداها على شاطئ النيل؟

(*) – إصرار كاتب المقال على أن صنوعاً مصري الأصل ومن دم مصري!! يثير الشك عند القارئ؛ وكأن الكاتب – أو بالأحرى صنوعاً – يشك في مصريته. وكأن صنوعاً من جنسية أخرى ويريد أن يسلب الجنسية المصرية بهذا التأكيد في القول! والدليل على ذلك أن هناك بعض الأقوال المنشورة عام ١٨٧٢م في جريدة الجوائب، تتحدث عن نشاط مسرحي عربي لرجل إنجليزي اسمه (جيمس)! وهذه الأقوال اعتبرها أحد الدارسين – وهو الدكتور فيليب سادجروف – أقوالاً تتعلق بمسرح صنوع. وإشكالية جنسية صنوع: هل هو مصري أو إنجليزي، ناقشتها في تقديمي لترجمة كتاب سادجروف، وللمزيد ينظر: فيليب سادجروف – المسرح المصري في القرن التاسع عشر – ترجمة د.أمين العيوطي – تقديم وتعليق د.سيد علي إسماعيل – سلسلة دراسات في المسرح المصري – المركز القومي للمسرح والموسيقى – وزارة الثقافة – ٢٠٠٧ – ص(٢٤، ٢٥).

(**) – لا يخفى على القارئ دلالة ميلاد صنوع في شهر رمضان المبارك! والحقيقة أن هذا التاريخ زعم أيضاً من مزاعم صنوع وأصدقائه!! فالرابع عشر من رمضان سنة ١٢٣٦ هجرية، لا يوافق شهر إبريل ١٨٢٩م كما هو مدون في هذه المقالة، بل يوافق ١٨٢١/٦/١٤م. وإذا أخذنا بالتاريخ الميلادي سنجد سنة ١٨٢٩م توافق سنة ١٢٤٤ هجرية!! وهكذا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاد صنوع الحقيقي من هذه المقالة، ولا نعلم مغزى هذا الخلط في تاريخ ميلاده من قبل كاتب المقال! والأغرب أن صنوعاً في جريدته (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٨٧/٢/٢٨م قال تحت عنوان (ترجمة حال أبي نظارة خادم الحرية) إنه ولد سنة ١٢٥٧ هـ! أي سنة ١٨٤١ أو ١٨٤٢م، وهو تاريخ مخالف لما جاء في هذا الموضع. وفي ١٨٩٩/٤/٢٦م، كتب صنوع في جريدته جزءاً من تاريخ حياته، تحت عنوان (زهرة من تاريخ وطني الغالي ونبذة من ترجمة حالي)، قال فيها: "كان مولدي في زمن هذا الوالي الشهير [يقصد محمد علي باشا الكبير] سنة ألف وثمانماية وتسعة وثلاثين [١٨٣٩م]". أي أنه جاء بتاريخ لمولده مخالف للتواريخ السابقة! وعندما اشترك صنوع في كتابة سيرته المنشورة في كتاب (تاريخ الصحافة العربية) لفيليب طرازي، جاء أنه: "ولد في القاهرة بتاريخ ٩ شباط ١٨٣٩م من أبوين إسرائيليين". وهذا التاريخ يوافق ٢٥ ذي القعدة ١٢٥٤ هجرية! وعندما اعتمد الدكتور أنور لوقا على مذكرات صنوع في مقالته (مسرح يعقوب صنوع، مجلة المجلة، عدد ٥١، مارس ١٩٦١م)، قال أن صنوعاً ولد في ١٨٣٩/٤/١٥م. وهذا التاريخ يوافق ٢ صفر ١٢٥٥ هجرية! والعجيب أن جميع هذه التواريخ – على اختلافها – منقولة من كتابات صنوع نفسه! والسؤال: أين الحقيقة في تاريخ ميلاد صنوع؟! ولماذا تعمد صنوع إخفاء تاريخ ميلاده الحقيقي، وأعطى كتابه وأصدقاءه أكثر من تاريخ ميلاد له؟! يا تُرى هل كان يقصد ذلك لعدم معرفة ميلاده وأصل نشأته؟!

تمكن محمد على بمساعدة الفرنسيين من إحياء أرض الفراعين ومن الانتصار على الطبيعة وعلى الإنسان. فاحتفى الألبان والمماليك بالصبر وبالعبقرية. وتمكن شامبليون من حل رموز الكتابة المصرية القديمة. وقام " **كوست** " و" **ماسى** " بشق ترعة المحمودية التي تمكنت من نقل السفن الحربية من الإسكندرية إلى النيل، وأنشأ **سيريزى** أسطولاً حربياً نافست سفنه مثيلاتها الفرنسية والإنجليزية. وتولى **بيسّون** تدريب عشرين ألفاً هم بحارة هذا الأسطول الضخم، كما تمكن **انفنتان** و**بارّو** و**فيليسيان داود** من تغطية الدلتا بالجسور والسدود والطرق والآثار المهمة وإعداد الخطط اللازمة لتلك القناة التي خلّدت **ديليسبس**. وأنشأ **كلوت بك** المستشفيات ونظام الخدمة الصحية على أحدث طراز. وفكر **لينان بك** في إقامة سد النيل الذي كان من شأنه أن يثير فزع الرومان. وتمكن **جونييل** من إدخال زراعة القطن في مصر الذي نافس القطن الأمريكي. وأهم من ذلك كله، استطاع الكولونيل **سيف** (سليمان باشا) القائد الأعلى للجيوش المصرية، من إنشاء الفرق والكتائب الحربية من الفلاحين والنوبيين والزنوج، تلك الفرق التي تمكنت من الاستيلاء على **مودون** و**كورون** و**نافارينا** وهزيمة اليونانيين والسودانيين، كما تمكن بعدد ضئيل من الجنود من تحقيق الانتصارات في حمص وحماة وبيلام وقونيه وكان على وشك الانتصار في معركة نيزيب التي كادت أن تغير خريطة الشرق.

ما أعظم البطولات التي حققها هؤلاء الأفارقة بقيادة الفرنسيين! وكم من المعارك والأيام والأمجاد التي ظلت مجهولة أو سرعان ما دخلت في طي النسيان.

مائة وستون ألف رجل مدججين بالسلاح الحديث، مدربين كأحسن ما يكون التدريب، وبقيادة رشيدة، فرضوا احترام المصري في العالم القديم بأسره.

نقطة سوداء وحيدة كانت من آن لآخر تأتي لتفسد الصورة. فعلى غير توقع، وبالرغم من يقظة الحاكم وحيطة كلوت بك وإخلاص الأطباء وتفاني المستشفيات، كان وباء الكوليرا يظهر فيعصف بالقاصي والداني، وينقض على الأراضي الزراعية وعلى الصحراء سواء بسواء وينشر الرعب بين المواطنين.

وهكذا عرف أبو نظارة البلاء قبل أن يدخل خضم الحياة (*). والــده رافائيــل صنوع أفندي الموظف الكبير بوزارة المالية (**)، كان قد تزوج من فتاة جميلة تدعى كارلوت، تتمتع بالذكاء والطيبة والإخلاص، أنجبت له أربعة أطفال آية في الجمــال. كانت السعادة ترفرف على هذا البيت، حينما انقض الوباء على المدينة وحطم المهــاد والأطفال (***) تاركاً الزوجين الشابين فريسة للخوف واليأس.

كان حداداً تاماً لا يمكن لشيء أن يخفف من وطأته. لكن السماء لا تتخلى عنا، فهي تترك لنا دائماً فرصة للأمل.

(*) — إلى هنا تنتهي المقالة الأولى، وتبدأ المقالة الثانية المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الثامن من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ٢٠ ربيع أول سنة ١٣١٥ هجرية، الموافق ١٨٩٧/٨/١٨م.

(**) — كاتب هذا المقال يقرّ إن روفائيل - والد صنوع — كان موظفاً كبيراً بوزارة المالية! وهذه الوظيفة ادعاء جديد من ادعاءات صنوع وأصدقائه! لأن اسم روفائيل صنوع، لا وجود له في سجلات قلم الوزارات بدار المحفوظات العمومية بالقلعة في مصر، وهي سجلات لجميع الموظفين في مصر منذ حُكم محمد علي باشا حتى عام ١٩٦٠م. أما قول صنوع في هذا الشأن، فقد ذكره في مذكراته المنشورة بتاريخ ١٨٩٩/٤/١٦م، في صحيفته (المنصف) تحت عنوان (زهرة من تاريخ وطني الغالي ونبذة من ترجمة حالي)، قائلاً: " وأما محمد علي .... حدثني عنه والدي رفايل أفندي وكان من محاسيبه النجيبة. أحاديث عجيبة غريبة. وكان يستشيره في بعض الأمور لصداقته. كذا مع نجله إبراهيم وحليم وحفيده أحمد استمرت علاقته". وفي مذكرات صنوع المنشورة في كتاب الدكتور إبراهيم عبده — السابق ص(١٨) — يقول صنوع: " إن والده كان يتمتع بالحظوة لدى البلاط ويستشيره الأمراء في مسائلهم الخاصة". وفي موضع آخر — من المذكرات نفسها — يقول صنوع: " إن والده كان مستخدماً عند الأمير أحمد يكن حفيد محمد علي". وبالبحث في ملفات قلم الوزارات بدار المحفوظات العمومية - لا سيما ملفات الموظفين بدوائر وقصور الأمراء - لم نجد ملفاً باسم روفائيل صنوع! علماً بأن أصحاب الوظائف المتدنية في قصور ودوائر الأمراء، مثل: غلام، خادم، حمّار ... إلخ، كانت لهم ملفات مازالت محفوظة حتى الآن!! فما بالنا بوالد صنوع، الذي كان مستشاراً عند الأمير أحمد يكن، وعند أمراء البلاط الخديوي! بل وكان من أصدقاء محمد علي باشا الكبير شخصياً!!

(***) — يُفهم من هذا الكلام أن وباء الكوليرا قضى على الأطفال الأربعة، وهي قصة تستدر عطف القارئ على صنوع. ولكن صنوعاً قال في جريدته (التودد) بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣١٦ هجرية: "إن والدتي ما كان يعيش لها لا بنات ولا صبيان. ولذلك كانت دائماً مسربلة بالأحزان. فقدت قبلي صبيين وصبيتين. قبل تعميرهم سن السنتين". وهذا يعني أن والدته أنجبت الأربعة في أربع سنوات - مثلاً - وكل طفل عاش سنتين، أي أن مجموع سنوات إنجاب الأطفال وحياتهم يصل من ست إلى ثماني سنوات! وهنا يأتي السؤال: هل وباء الكوليرا ظل منتشراً في مصر - أو في أي بلد - لمدة ست، أو ثماني سنوات؟! بهذه الخرافات استطاع صنوع خداع الآخرين واستدرار عطفهم عليه.

وفعلاً، فذات يوم من الأيام، بدا وكأن شعاعاً من الشمس أنـــار فـــوق البيـــت الحزين، وإذا بالزوجة " سيتي سارة " وهي تنتفض من شدة السعادة، تقبل على سيدها وزوجها وتخبره أنها عما قريب ستنجب له مولوداً ...

L'ÉGYPTE ˆJ XIX[E] SIÈCLE

HISTOIR UN PROSCRIT (*)

Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

I
ENFANCE

(suite)

Abou Naddara connut ainsi l'adversité avant d'être entré dans la vie.

Son père, Raphaël Sanua Effendi, chef de cabinét au ministère des Finances, avait épousé une jeune et charmante Caïrotte, intelligente, bonne et dévouée, qui lui avait donné quatre beaux enfants. Le bonheur s'était assis à ce riant foyer, quand le fléau s'abattit sur la grande cité, brisa les berceaux, emporta les enfants et laissa les jeunes époux dans la terreur et le désespoir.

Ce fut un deuil complet, que rien ne devait apaiser ; mais, quand le Ciel nous abandonne-t-il assez pour que l'espoir ne soit plus permis ?

Un jour, en effet, un rayon de soleil sembla briller sur la triste demeure et Setti Sarah, heureuse et tremblante, vint annoncer à son seigneur et maître qu'elle aurait bientôt un nouveau fils à lui donner.

Sanua en tressaillit, mais sa joie ne fut pas sans mélange. Que serait cet enfant de la douleur et des larmes ? Vivrait-il ? Serait-il moissonné comme les autres ? Le foyer chéri serait-il à jamais désert ?

Comment apaiser le Tout-Puissant et se le rendre favorable ?

Les époux y pensèrent longtemps.

La tendre mère fut la première à relever la tête et à prendre une résolution.

Soutenue par l'expérience et les conseils de quelques dames de ses amies, Setti Sarah se rendit à la mosquée d'Echâraoui où résidait un Imam centenaire que toute la ville vénérait pour son savoir et ses vertus.

Pâle, émue, oppressée, elle lui confia ses peines, pleura, implora ses prières et osa lui demander ses conseils.

L'Imam l'écouta, se prosterna sur le sol, se recueillit, et lui répondit :

— « Dieu est miséricordieux. Espère; ton enfant vivra.

« Mais voue-le à l'Islam, pour que Dieu le protège et te le garde.

« Que ses premiers habits lui proviennent de l'aumône.

« Dès que tu pourras sortir, couvre-le d'un lambeau de toile, prends-le dans tes bras et va, de maison en maison, demander, à la pitié des croyants, de quoi habiller ton fils.

« Dieu aime les pauvres ; il veille sur les indigents ; il verra ton humilité, la bénira et te gardera du mal. »

Setti Sarah, ravie, baisa la main du saint homme, y glissa une pièce d'or et lui dit, pleine d'espérance et de foi :

— « Je le ferai. Maintenant, accepte cette humble offrande, ô mon père ! et prie le Juste, le Puissant, qu'après m'avoir donné les joies de la maternité, il me conserve le fruit de ma vie. »

Heureuse, elle rentra chez elle, bien résolue à obéir au vieillard.

Les promesses de l'Imam ne furent point vaines ; peu de temps après, elle eut un fils.

Mais, ô fragilité humaine ! Ce bonheur immense fut aussitôt suivi de cris funèbres et de clameurs dont la maison retentit.

En recevant des mains de la sage-femme le frêle enfant qui venait de naître, la Nubienne, attachée à la personne de Setti Sarah, le laissa tomber à terre, et, au désespoir de la mère, ne releva qu'un petit corps inërte, palpitant, évanoui, la tête fendue, le crâne ensanglanté et dont l'âme paraissait déjà s'être envolée vers le Ciel.

Trois jours durant, l'ange de la mort plana au-dessus de la lugubre demeure, prêt à emporter cette offrande choisie; mais le Seigneur ne le permit pas.

Sur un ordre, l'ange s'éloigna; les cris et les larmes cessèrent; le petit moribond revint à la vie; la plaie se ferma ; le sang reprit sa course dans les veines ; le cœur battit et la mère put couvrir de baisers ce petit corps qui, à nouveau, frissonnait sous ses doigts.

Mais, fut-ce cette chute ? Etait-ce hérédité ou constitution ? La vue de l'enfant resta faible et, quand il eut grandi, quand il voulut étudier, il fut obligé de porter de précoces lunettes, verres de myopie, qui lui valurent le nom si célèbre aujourd'hui d'Abou Naddara (l'*Homme aux lunettes*), que son intelligence enfantine, et déjà brillante, fit bientôt traduire par : le *Voyant*, le *Clairvoyant*, l'*Inspiré*, surnom qui lui est resté.

On lui avait donné à sa naissance le prénom de Yacoub, Jacques ; il le transforma, plus tard, et prit celui de James, qui est devenu son nom officiel.

Elevé auprès des femmes, sa gentillesse, son babil, ses réparties charmaient les visiteuses de sa mère. C'est en se jouant dans ce doux intérieur qu'il apprit l'arabe, sa langue naturelle, un peu d'italien et de français. Au dehors, il étudiait les intonations anglaises ou allemandes, les répétait, y joignait quelques mots de ces deux langues, les classant dans sa petite mémoire et s'en servait avec une merveilleuse facilité. *(à suivre)*.

صورة جزء من المقالة الثانية

انتفض صنوع تحت وقع الخبر، غير أن سعادته لم تكن خالصة، بل كان هناك ما يشوبها. كيف سيكون هذا الطفل الذي سيأتي وسط الآلام والدموع. هل سيعيش؟ هل سيحصده الموت كما فعل مع الآخرين؟ هل سيظل البيت العزيز خالياً إلى الأبد من الأطفال؟ ما السبيل إلى تهدئة غضب الرب، واكتساب رضائه عز وجل؟ لقد ظل الزوجان يفكران في ذلك زمناً طويلاً.

كانت الزوجة الرقيقة هي أول من رفع الرأس واتخذ القرار؛ الذي أيدته الخبرة ونصائح بعض السيدات من أصدقائها. لقد انطلقت " سيتي سارة " إلى مسجد الشعراوي حيث يقيم إمام يبلغ من العمر مائة عام تقريباً يحظى بتقدير واحترام جميع أهل المدينة لعلمه وفضيلته.

بدأت المرأة وقد تملكها الانفعال واستولى عليها الهم والغم، تبوح للرجل بشكواها وآلامها، وانفجرت في البكاء وتوسلت إليه أن يدعو لها، وسألته النصيحة. وبعد أن استمع لها الإمام، سجد سجدة على الأرض، ثم نهض وأخذ يفكر ملياً ثم قال لها: " الله رحيم بعباده. ابشري، ابنك سيعيش إن شاء الله. لكن عليك أن تهبيه للإسلام حتى يحفظه الله ويحميه. بمجرد خروجك من هنا غطيه بخرقة بالية واحمليه بين ذراعيك واذهبي من بيت لآخر واسألي أهل الخير ما تسترين به ابنك. فالله تعالى يحب المساكين، ويعطف على المحتاجين، سيرى ضعفك وذلتك، وسيحفظك من كل سوء ".

غمرت الفرحة قلب سيتي سارة، فانقضت على يد الشيخ تقبلها. ودست فيها قطعة من الذهب. وقالت وقد ملأها الأمل واليقين: " سأفعل ما تقول يا والدي. تقبل مني الآن هذه القطعة المتواضعة. وادع الله القدير، أنه بعد أن وهبني سعادة الأمومة، يحفظ لي ثمرة حياتي". وعادت المرأة سعيدة إلى بيتها، وقد عقدت عزمها على أن تأخذ بنصيحة الشيخ.

وسرعان ما تحققت نبوءات إمام المسجد، ورزقت المرأة بطفل. ولكن لسوء الحظ تبددت هذه الفرحة الغامرة، وحل محلها صراخ وعويل دوى في أرجاء البيت. فقد حدث أن المولّدة النوبية، وهي تضع المولود بين يدي الأم، غفلت عنه واقتصر تركيزها على ملامح الأم، فسقط الوليد على الأرض. وحينما التقطته، كان جسداً هامداً يختلج، وقد صدع رأسه، وسالت منه الدماء. وبدا أن روحه قد فارقت الجسد، وصعدت إلى السماء!

ظل مَلَك الموت يحوم فوق البيت المنكوب ثلاثة أيام كاملة، على وشك أن ينتزع هذا المولود الطاهر، إلا أن الرب لم يرض بذلك. وتنفيذاً لمشيئة العلي القدير، ابتعد الملك وانقطعت أصوات البكاء والعويل، وعاد الوليد الضعيف إلى الحياة؛ والتأم الجرح وعاد الدم يتدفق في الشرايين. وعاد القلب ينبض. واستطاعت الأم أن تنهال بالقبلات على الجسد النحيل الذي جعل يرتعش من جديد على مس أصابعها.

ولكن، هل كان ذلك بفعل السقطة، أم بسبب الوراثة، فقد ظل نظر الطفل ضعيفاً، وحينما شب عن الطوق، كان لابد أن يستعمل نظارة بعدسات لقصر النظر. وقد كان هذا هو السبب الذي من أجله أطلق على الطفل اللقب الذي يشتهر به اليوم، وهو أبو نظارة (*)، الذي حوله ذكاؤه الفطري اللامع إلى صفات من مثل ثاقب النظر وبصير، ومتنبئ.

عند ولادته، أسموه " جاك "، لكنه غيره فيما بعد إلى " جيمس " الذي ظل اسمه الرسمي (**). نشأ الطفل وسط النساء، وفي كنفهن. وكان بظرفه وثأثأته يفتن صاحبات أمه وزائراتها. في هذا الوسط اللطيف، وفي أثناء لعبه ولهوه، تعلم الطفل اللغة العربية وقليلاً من الإيطالية والفرنسية. وخارج البيت تعود على لكنة اللغتين الإنجليزية والألمانية وبعض الكلمات في هاتين اللغتين. وكان يرددها. وحفظ بها بعض ألفاظ الإيطالية والفرنسية واختزنها في الذاكرة. وكان يستعمل ذلك كله في بساطة فائقة (***).

(*) – هذا الكلام غير صحيح، فصنوع لم يُشتهر بأبي نظارة إلا بعد إصداره لصحيفته. وفي الجزء المنشور عن صنوع في كتاب (تاريخ الصحافة العربية) لفيليب طرازي، وهو الجزء الذي شارك صنوع في كتابته – كما أثبتنا سابقاً – نقرأ الآتي: "أوعز السيد جمال الدين إلى يعقوب في إيجاد عنوان للجريدة يليق بمسلكها. فخرج هذا إلى بيته باحثاً عن حمار يركبه. فإذا بالفلاحين أصحاب الحمير قد تجمعوا حوله وأراد كل منهم أن يركبهُ حماره. فلما زاحموه أحبّ التخلص منهم وإذا بصوتٍ من ورائه يناديه (يا أبا النظارة الزرقاء) وكان وقتئذ يستعمل النظارات الزرقاء وقاية لعيونه من حرارة الشمس. فرنَّ هذا الصوت في أذنيه واستحسن عبارة (أبي النظارة الزرقاء) وصمم على اتخاذها عنواناً للجريدة الهزلية".

(**) – علمنا مما سبق أن صنوعاً خدع أصدقاءه وقراءه بذكره أكثر من تاريخ لميلاده، وهنا نجد اسمه (جاك) الذي وُلد به، ثم نجد (جيمس) الذي غيره، ولا نعرف متى؟ والمتعارف عليه أن اسمه (يعقوب صنوع)!! أليست هذه الألاعيب مقصودة لعدم معرفة أصل هذه الشخصية وكينونة حقيقتها؟!

(***) – إلى هنا تنتهي المقالة الثانية، وتبدأ المقالة الثالثة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الثاني من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٣١٥ هجرية، الموافق ١٨٩٧/٢/١٦م.

سرعان ما تمكن صاحبنا من موهبة الخطابة؛ وجعل يجذب المستمعين إليه وهو يروي عليهم من خياله قصصاً عن مصر (*)، وعن تاريخها القديم، ومجدها التليد، وعن شقائها الحاضر. صور لهم نهرها الذي يستمد ماءه من مصادر مجهولة، وصور أرضها العجيبة، وتحدث عن الصناعة فيها والتجارة، وآثارها الشهيرة، ونواويسها وأطلالها، وتقاليدها وأدبها. وضاهى الشعراء العرب العظام المجهولين في معظمهم بشعراء فلورنسا الذين تملأ شهرتهم الآفاق، وضاهى بين حكايات الجمّالين في الصحراء بمغامرات أريوست وبوكاتش؛ ثم عرج على ما يعانيه مواطنوه من العذاب، واحتمال نهوضهم، وتحررهم الوشيك، ومجدهم القادم الذي يشبه مجدهم القديم. وحينما هز مشاعر الحاضرين بصوته المتهدج وأثار تعاطفهم، وألهب حماستهم، وجعل القاعة تضج بالتصفيق وصيحات الاستحسان، آمن الرجل، وهو يفكر في وطنه، أن يومه لم يذهب هباء (**).

انتهى عصر عباس بعمل صاعق، ارتعدت له أوروبا نفسها. لقد اغتيل الباشا ليلة ١٣/ ١٤ يوليو ١٨٥٤م، في مدينة بنها على يد اثنين من المماليك انتقاماً لإهانة

(*) – ربما يستغرب القارئ من عدم ترابط سياق الكلام هنا مع ما قبله. فهذه المقالة – الثالثة – لها عنوان هو (أبو نظارة في إيطاليا)، والكاتب لم يوضح لنا كيف سافر صنوع إلى إيطاليا، رغم أن الكلام السابق توقف عندما كان صنوع طفلاً!! وقصة سفر صنوع إلى إيطاليا، نشرها صنوع في جريدته (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٩٩/٥/٢٥، تحت عنوان (زهرة من تاريخ وطني الغالي ونبذة من ترجمة حالي)، قائلاً: "دخلت في مبادئ أمري مدرسة المهندسخانة المشهورة. وأقتبست من معلميها الفنون والآداب على أجمل صورة. ومنا انتقلت إلى مدرسة إنكليزية فتحوها بمصر البروتسطان. أتقنت فيها لغة المستر بول الخمران. وتعلق بعد ذلك طالعي بالأسفار. فسرت إلى إيطاليا وتعلمت لغتها من نثر وأشعار. وعدت وعمري خمسة عشر إلى مصر المحروسة. فوجدتها بولاية سعيد باشا مأنوسة". أما فيليب طرازي – أو بالأحرى صنوع – فيقول: "وكان أبوه مستشاراً لدى الأمير أحمد باشا يكن حفيد محمد علي باشا الكبير رأس العائلة الخديوية. وإذ شاهد هذا الأمير نباهة يعقوب أرسله على نفقته إلى أوروبا لإتقان العلوم العصرية. فذهب الفتى إلى مدينة ليفورنو (LIVOURNE) في إيطاليا حيث تلقى العلوم وبرع فيها ثم عاد منها بعد ثلاث سنين بالغاً الحول السادس عشر من عمره".

(**) – نتعجب من وصف الكاتب لصنوع وخطبه في إيطاليا، وكأنه يتحدث عن مصطفى كامل أو سعد زغلول!! علماً بأن صنوعاً في هذا الوقت كان عمره خمسة عشر عاماً!! هذا بالإضافة إلى التناقض في المعلومات .. ألم يذهب صنوع إلى إيطاليا للتعليم؟! أم ذهب لإلقاء الخطب الرنانة وكأنه بطل قومي؟! الأغرب من ذلك، هو عدم وجود أي إثبات يؤيد هذه الأقوال سوى كلام صنوع عن نفسه!!

خاصة. لقد تم خنقه دون أن يطلق صرخة واحدة، بل ودون أن يدري أحد بالجريمة. إلا حينما دخل بعضهم مسكنه في الصباح فوجده فوق مقعده وقد فارق الحياة. تمت بعض إجراءات البحث عملاً بالشكليات. وعرف الدافع تقريباً الذي كان وراء الجريمة التي ارتكبها الجناة، لكن لم يعثر لهم على أثر لمعاقبتهم. على أية حال، لم يتغيّر من الأمر شيئاً، فانصرف الاهتمام إلى تعيين الخليفة أو الوريث. وإذا بسعيد باشا رابع أبناء محمد علي، وشقيق إبراهيم، وعم عباس نفسه، يرتقي العرش.



L'ÉGYPTE AU XIX^E SIÈCLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT (*)

Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

I

VIRILITÉ

(suite)

ABOU NADDARA EN ITALIE

Déjà maître de la parole il charmait ses auditeurs en leur faisant des récits imagés de l'Egypte, de son antiquité, de sa gloire et de ses mal- heurs; il décrivait son fleuve aux sources inconnues, son sol merveilleux, son commerce, son industrie, ses monuments célèbres, ses hypogées, ses temples, ses ruines, ses mœurs, sa littérature. Il comparait les poètes arabes, si beaux et si peu connus, avec les poètes florentins dont les œuvres sont dans toutes les mémoires: les contes et les récits des cha- meliers dans le désert avec les aventures de l'Arioste ou de Boccace; puis, il passait aux souffrances de ses compatriotes et à leur relèvement possible, à leur délivrance prochaine, à leur gloire future égale à celle des temps passés, et quand, de sa voix vibrante, il avait troublé les cœurs, ému la pitié, enflammé les enthousiasmes et fait crouler la salle sous les applaudissements et les bravos, il croyait, en songeant à sa patrie, n'avoir pas perdu sa journée.

La règne d'Abbas finit par un coup de foudre et l'Europe même en eut un immense frémissement.

Dans la nuit du 13 au 14 juillet 1854 le Pacha fut assassiné, à Benha, par deux mamelucks qui avaient à venger une injure particulière; il fut étranglé sans pousser un cri, sans qu'on s'aperçut du crime. En entrant, le matin, dans son appartement, on le trouva mort sur son divan. On fit quelques recherches pour la forme; on sut, à peu près, à quel mobile avaient obéi les meurtriers; mais on ne put les retrouver.

Les châtier, du reste, n'eut en rien changé l'événement.

On s'occupa du successeur.

Saïd-Pacha, quatrième fils de Méhémet-Ali, frère d'Ibrahim et oncle d'Abbas, monta sur le trône.

Enorme de corps, autoritaire et personnel, mais actif, intelligent, bon marin, populaire, porté vers les idées progressives de son père, il rou- vrit les écoles, rétablit les manufactures et rappela les Français. La postérité n'oubliera pas que ce fut sous son règne que le Canal de Suez fut décrété et que les travaux commencèrent sous sa protection, malgré la fureur et les protestations de l'Angleterre.

A l'aspect de ce beau commencement, ainsi que tous les Egyptiens, Abou Naddara tressaillit de joie et d'espérance. Son rêve de justice et d'amour allait-il se réaliser? L'Egypte délivrée du pied anglais qui l'écrasait, allait-elle se relever? Le peuple opprimé allait-il être plus heureux?

Le jeune Sanua, rappelé brusquement d'Italie, allait bientôt pouvoir s'en assurer par lui-même et reconnaître que tous les abus n'avaient pas cessé.

Etait-ce un effet de la maladie? Voulait-il embrasser son fils avant de mourir? Sa position avait-elle été modifiée, et avait-il besoin de cet appui si cher? Son père, un jour, lui intima l'ordre de revenir et, en fils respectueux et soumis, Abou-Naddara se hâta d'obéir. Ce ne fut pas sans regrets qu'il quitta l'Italie; mais il accourut avec empressement et joie vers cette Egypte adorée, vers sa patrie, le Caire, dont le nom résonne musicalement comme ceux de Grenade, Cordoue, Bagdad et Damas; vers son berceau, vers son foyer où son père et sa mère l'atten- daient; vers ses amis d'enfance qui auraient peine à reconnaître leur camarade d'école dans ce beau jeune homme au front illuminé, au cœur brûlant, dans cet apôtre qui, dans son sein, portait la délivrance de sa patrie.

En octobre 1854, il quitta l'Italie, franchit la mer Tyrrénienne, aborda l'Afrique, traversa rapidement Alexandrie, la basse Egypte et remonta le Nil sur un vapeur, le chemin de fer en construction n'étant pas encore achevé.

Avec quel tressaillement il salua les Pyramides et le Mocattam! Boulak, où il mit pied à terre; les minarets qui s'élèvent au-dessus de la capitale égyptienne comme les mats d'une flotte immense à l'ancre dans un vaste port, et enfin, le Caire, avec ses grands palmiers, le Caire, la perle de l'Orient, la cité des poètes et des conteurs, si souvent décrite dans les *Mille et une Nuits*, admirée des touristes et des voyageurs, aux bruyants bazars, aux mille mosquées, aux innombrables et somptueux palais, la ville dont on a dit: « Son sol est d'or, son ciel est un pro- dige, ses femmes sont comme les vierges aux yeux noirs qui habitent le paradis! »

Et il la voyait! Il la touchait! Il y était!

Il courut dans les bras de sa mère, embrassa respectueusement son père, le contempla et le trouva changé.

La maladie avait courbé le corps, amaigri le visage, cerné les yeux. L'apparition de ce fils tant aimé, l'élégance de sa personne, le rayonne- ment de son regard, le récit de ses succès, la joie des amis, le bonheur de se retrouver après deux ans d'absence, n'illuminèrent la demeure que pendant trop peu de jours. L'ange de la mort, éloigné un instant, revint, brisa ce bonheur, frappa l'heureux foyer et emporta l'âme du juste, sans voir les larmes des deux infortunés qui restaient.

Qui n'a été brisé de coups pareils? Qui n'a été frappé dans la moelle de ses os, dans la profondeur de ses entrailles? Dans le cerveau qui ne pense plus, dans les fibres du cœur qui cesse de battre, dans la vie entière qui semble vous abandonner à jamais?

L'Effendi suivit l'ange aux noires ailes et alla demander au Miséri- cordieux justice pour lui, appui et protection pour ceux qu'il laissait dans le vide, le deuil et le désespoir.

Sa prière fut exaucée et Dieu, le recevant dans son sein, lui promit force et courage pour ceux que son départ désolait. (à suivre).

صورة جزء من المقالة الثالثة

كان سعيد ضخم الجثة، صلب الرأي، ولكنه كان ذكياً ونشيطاً وشعبياً، يؤمن بالأفكار التقدمية مثل أبيه. ففتح المدارس، وأقام المصانع واستقدم الفرنسيين. وسوف تظل الأجيال التالية تذكر أن في عهده تم توقيع الاتفاق على شق قناة السويس، وبدأت الأعمال تحت حكمه على الرغم من غضب الإنجليز ومعارضتهم.

أمام هذه البداية الطيبة، وكما هي حال جميع المصريين، اهتز أبو نظارة من شدة الفرح وقرب تحقيق الأمل. فهل سيتحقق حلمه في العدالة والحب؟ هل ستنهض مصر بعد أن أذلها الإنجليز الذين مرغوا وجهها في التراب؟ هل سيستعيد الشعب المقهور أمنه وسعادته؟

وتم استدعاء صنوع على وجه السرعة لكي يتأكد بنفسه ويعترف أن المفاسد والتجاوزات لم يتم القضاء عليها قضاءاً مبرماً. هل كان المرض هو السبب؟ هل أراد أن يقبل ابنه قبل أن يموت؟ لقد طالبه أبوه يوماً بالعودة فأذعن أبو نظارة، وبادر بالعودة من منطق الابن البار المطيع. لم يغادر إيطاليا بلا ندم. لكنه أسرع بكل لهفة وسعادة إلى مصر الحبيبة، إلى وطنه، إلى القاهرة التي يدوي اسمها كأنغام الموسيقى كما هي الحال بالنسبة لأسماء مدن أخرى مثل غرناطة وقرطبة وبغداد ودمشق، أسرع صنوع إلى مهد طفولته، إلى بيته حيث أبوه وأمه ينتظرانه؛ إلى أصدقاء الصبى الذين قد يجدون صعوبة في تعرّف صديقهم، زميل الدراسة (*)، في صورة هذا الشاب وضئ الجبين ملتهب القلب، في هذا الحواري الذي يحمل في صدره خلاص الوطن.

في أكتوبر عام ١٨٥٤م، غادر صنوع إيطاليا، عبر البحر ونزل في أفريقيا. وعلى عجل، مر بالإسكندرية ومصر السفلى. وركب البحر على ظهر سفينة بخارية، فقد كانت السكك الحديدية ما تزال تحت الإنشاء. كم كان انفعاله غامراً وهو يحيي

(*) – من العجيب أن من يقرأ حياة صنوع – أثناء وجوده في مصر – كما كتبها هو، يظن أن صنوعاً كان أشهر شخصية في مصر كلها، وبالتالي الجميع يعرفه، والمشاهير تجالسه وتصادقه! ولكن صنوعاً بوصفه مخادعاً ذكياً، لم يذكر اسماً واحداً لصديق من أصدقائه — الأدباء، أو الشعراء، أو الكُتّاب – في مصر، ولم يذكر مناسبة ما جمعته بأي شخص من الشخصيات المشهورة في مصر في تلك الفترة! فلو فعل صنوع ذلك لكنا سارعنا إلى كتابات هؤلاء الأصدقاء، أو المشاهير؛ ربما نجد صنوعاً فيها .. ولكن هيهات أن نجد اسم صنوع في المذكرات أو الكتابات أو المقالات التي نشرت – من قبل الكُتّاب أو المشاهير – في مصر في القرن التاسع عشر!!

الأهرام والمقطم وبولاق التي نزل بها، والمآذن التي ترتفـع فـي سـماء العاصـمة المصرية أشبه بصواري أسطول ضخم يرسو في ميناء عظيم. وأخيـراً، هـا هـي القاهرة بنخيلها، القاهرة لؤلؤة الشرق، مدينة الشعراء والأدباء التي طال وصفها فـي كتاب " ألف ليلة وليلة "، التي تفتن السياح والرحالة، القاهرة ذات الأسواق الصاخبة، ذات الألف مئذنة، ذات القصور العديدة الفخمة، المدينة التي قيل عنها " ترابهـا مـن ذهب، وسماؤها عجب، ونساؤها كحور الجنة العين! " ورآها! ولمسها! وها هو فيها!

أسرع إلى حضن أمه، وعانق أباه بكل حب واحترام وتبجيل، وتأمل وجهه، ووجد أنه تغير. كان المرض قد أحنى ظهر الرجل، وشحب وجهه، وأحاطت عينيه هالتان. إن عودة هذا الابن الحبيب، وأناقته الظاهرة، وبريق عينيه، وقصص نجاحه، وسعادة أصدقائه، وفرحة اللقاء، بعد عامين كاملين من الغياب (*)، كل ذلك لم يضئ جنبات البيت إلا أياماً معدودات. فهذا هو مَلَك الموت، الذي تنحى للحظة، يعود ويحطم هذه السعادة، وينتشل روح الرجل الطيب، دون أن يلتفت إلى دموع البائسين الآخرين الباقين.

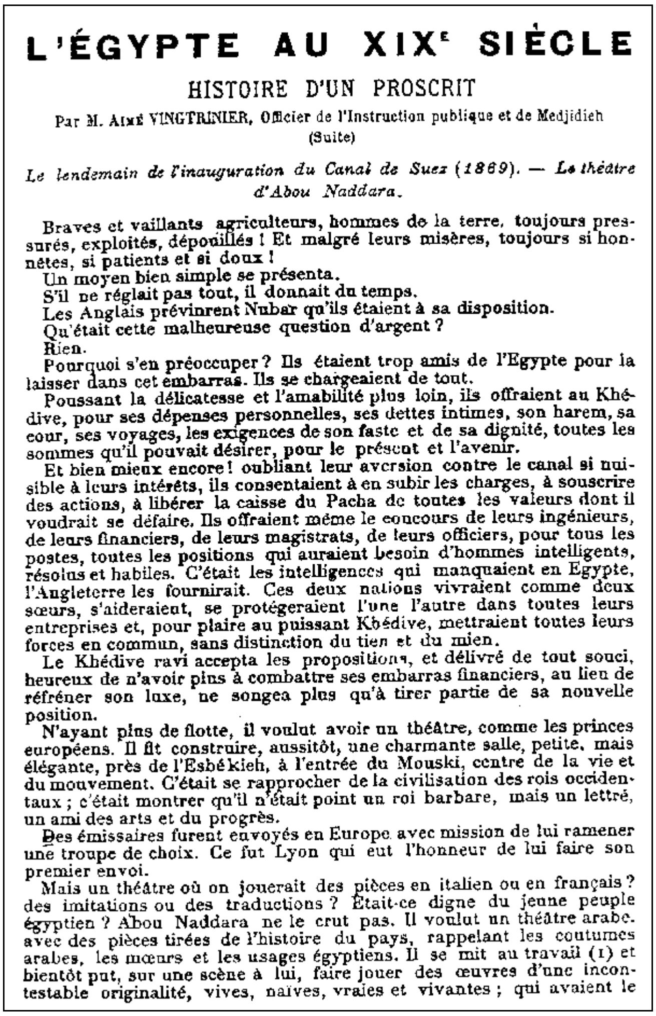
من ذا الذي لم تحطمه مثل هذه الضربات؟ من الذي لم تتكسر عظامه حتى النخاع، وتتمزق أحشاؤه في أعمق أعماقها؟ في العقل الذي لم يعد يفكر، في خلايا القلب التي توقف نبضه، في الحياة بأكملها التي تتخلى عنك إلى الأبد؟

ذهب الأفندي وراء الملك أسود الجناحين، ليسأل الرحمن الرحيم الغفران لنفسه، والعون والحماية لمن تركهما فريسة الأحزان واليأس. ويبدو أن الله عز وجل استجاب دعاءه، فقد وعده تعالى أن يشد من عزم من تركهما يبكيان لرحيله (**).

أناس طيبون وشجعان، زراع، يفلحون الأرض، دائماً، تحت القهر والاستغلال! وبالرغم من فقرهم، فهم شرفاء دائماً صابرون، فيهم رقة ولين!

(*) — في تعليق سابق قال صنوع بأنه مكث في إيطاليا ثلاث سنوات!

(**) — إلى هنا تنتهي المقالة الثالثة، وتبدأ المقالة الرابعة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الأول من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٣١٦ هجرية، الموافق ١٨٩٩/١/٢٧م. وهي مقالة بعنوان (صبيحة افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م: مسرح أبو نظارة).



L'ÉGYPTE AU XIX^{e} SIÈCLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. AIMÉ VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh
(Suite)

Le lendemain de l'inauguration du Canal de Suez (1869). — Le théâtre d'Abou Naddara.

Braves et vaillants agriculteurs, hommes de la terre, toujours pressurés, exploités, dépouillés ! Et malgré leurs misères, toujours si honnêtes, si patients et si doux !

Un moyen bien simple se présenta.

S'il ne réglait pas tout, il donnait du temps.

Les Anglais prévinrent Nubar qu'ils étaient à sa disposition.

Qu'était cette malheureuse question d'argent ?

Rien.

Pourquoi s'en préoccuper ? Ils étaient trop amis de l'Egypte pour la laisser dans cet embarras. Ils se chargeaient de tout.

Poussant la délicatesse et l'amabilité plus loin, ils offraient au Khédive, pour ses dépenses personnelles, ses dettes intimes, son harem, sa cour, ses voyages, les exigences de son faste et de sa dignité, toutes les sommes qu'il pouvait désirer, pour le présent et l'avenir.

Et bien mieux encore ! oubliant leur aversion contre le canal si nuisible à leurs intérêts, ils consentaient à en subir les charges, à souscrire des actions, à libérer la caisse du Pacha de toutes les valeurs dont il voudrait se défaire. Ils offraient même le concours de leurs ingénieurs, de leurs financiers, de leurs magistrats, de leurs officiers, pour tous les postes, toutes les positions qui auraient besoin d'hommes intelligents, résolus et habiles. C'était les intelligences qui manquaient en Egypte, l'Angleterre les fournirait. Ces deux nations vivraient comme deux sœurs, s'aideraient, se protégeraient l'une l'autre dans toutes leurs entreprises et, pour plaire au puissant Khédive, mettraient toutes leurs forces en commun, sans distinction du tien et du mien.

Le Khédive ravi accepta les propositions, et délivré de tout souci, heureux de n'avoir plus à combattre ses embarras financiers, au lieu de réfréner son luxe, ne songea plus qu'à tirer partie de sa nouvelle position.

N'ayant plus de flotte, il voulut avoir un théâtre, comme les princes européens. Il fit construire, aussitôt, une charmante salle, petite, mais élégante, près de l'Esbékieh, à l'entrée du Mouski, centre de la vie et du mouvement. C'était se rapprocher de la civilisation des rois occidentaux ; c'était montrer qu'il n'était point un roi barbare, mais un lettré, un ami des arts et du progrès.

Des émissaires furent envoyés en Europe avec mission de lui ramener une troupe de choix. Ce fut Lyon qui eut l'honneur de lui faire son premier envoi.

Mais un théâtre où on jouerait des pièces en italien ou en français ? des imitations ou des traductions ? Était-ce digne du jeune peuple égyptien ? Abou Naddara ne le crut pas. Il voulut un théâtre arabe, avec des pièces tirées de l'histoire du pays, rappelant les coutumes arabes, les mœurs et les usages égyptiens. Il se mit au travail (1) et bientôt put, sur une scène à lui, faire jouer des œuvres d'une incontestable originalité, vives, naïves, vraies et vivantes ; qui avaient le

صورة جزء من المقالة الرابعة

سنحت وسيلة سهلة ويسيرة إن لم تسوَّ كل شيء، فهي تعطي الوقت. أخبر الإنجليز نوبار بأنهم طوع أمره. ماذا تمثل مشكلة المال هذه المزعجة؟ لا شيء. لماذا الاهتمام بها؟ إنهم أصدقاء مقربون لمصر بحيث لا يمكن أن يتركوها في مثل هذه الأزمة. إنهم يتكفلون بكل شيء. ويذهبون في رقتهم وعطفهم إلى أبعد من ذلك. فيقدمون للخديوي ما يفي بنفقاته الخاصة، وديونه الشخصية، وحريمه، وبلاطه، ورحلاته ومتطلبات أبهته وفخفخته وعظمته، جميع النفقات التي يتمناها في الحاضر والمستقبل.

بل وأكثر من ذلك أيضاً. يتجاوزون حفيظتهم بخصوص قناة السويس التي تضر بمصالحهم، لدرجة يمكن معها أن يتحملوا تكاليفها، أن يكتتبوا في أسهمها، ويخلصوا خزانة الباشا من كل الأوراق ذات القيمة والتي يريد أن يتخلص منها. بل إنهم يعاونون بما لديهم من مهندسين ورجال مال، ومستشارين، وضباط يشغلون كل المناصب، وكل المواقع التي تحتاج إلى رجال أذكياء أكفاء أولي عزم.

إن الخبرات هي ما تنقص مصر وسيقدمها الإنجليز. وستعيش هاتان الأمتان كشقيقتين، تتعاونان فيما بينهما، وتدافع كل منهما عن الأخرى في سائر المجالات. ومن أجل إرضاء الخديوي العظيم، تجعلان قواتهما شراكةً بينهما، بلا تمييز بين ما يخصني منها وما يخصك.

وانبهر الخديوي، ووافق على الاقتراحات التي ستخلصه من همومه، وشعر بالسعادة إذ لم يعد عليه أن يواجه مشكلاته المالية. وبدلاً من أن يضع حداً لبذخه وإسرافه، لم يعد يفكر إلا في الاستفادة من وضعه الجديد.

وإذا كان لم يعد لديه أسطول بحري، فقد أراد أن يكون له مسرح، على شاكلة الأمراء الأوروبيين. فبادر بإنشاء قاعة فخمة صغيرة، لكنها أنيقة، بالقرب من الأزبكية، في مدخل الموسكي (*)، مركز المدينة والحركة. وبذلك يقترب من حضارة ملوك الغرب؛ وبذلك يثبت أنه ليس ملكاً بربرياً همجياً، وإنما ملك مثقف، محب للفنون وللتقدم.

(*) – هذا المسرح هو (مسرح الكوميدي الفرنسي)، وتمّ افتتاحه بأوبرا (هيلين الجميلة) يوم ١٨٦٩/١/٤، كما قال فيليب سادجروف. وهناك رأي آخر قال به إلياس الأيوبي، عندما قال إن افتتاحه كان يوم ١٨٦٨/١/٤م، وربما هو الرأي الأصح. وهذا المسرح بُني على بقايا سراي (منزل) أحمد طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير، وعندما تم افتتاحه لم يكن معروفاً باسم المسرح الكوميدي أو المسرح الفرنسي، بل كان يُطلق عليه اسم التياترو المصري أو تياترو مصر، وذلك بناء على أقوال جريدتي الوقائع المصرية والجوائب. أما مجلة وادي النيل فهي التي أطلقت عليه اسم الملعب الأوروباوي ثم اسم التياترو الفرنساوي. أما الوثائق الرسمية فكانت تطلق عليه في عام ١٨٧٥م اسم الكوميدي فرانسيز. وللمزيد انظر: جريدة الوقائع المصرية ١٨٦٩/٢/٨، جريدة الجوائب ٣و١٨٦٩/٣/٢٤، مجلة وادي النيل ١٨٦٩/٤/٣٠ و١٨٦٩/١٠/٨، دار الوثائق القومية – درج ٤١٦ – تركيبة ٩، ميخائيل شاروبيم بك – الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث – المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية – ط١ – الجزء الرابع – ١٩٠٠م – ص(١٤٦)، إلياس الأيوبي – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل – المجلد الأول – مطبعة دار الكتب – ١٩٢٣م – ص(٢٩١)، فيليب سادجروف – السابق – ص(١٠٢).

وأرسلت البعوث إلى أوروبا، مهمتها استقدام فرقة ممتازة. وكان ذلك من نصيب مدينة ليون التي أرسلت له طلبه.

ولكن، مسرح يقدم المسرحيات باللغتين الإيطالية والفرنسية، مسرحيات مترجمة أو مقتبسة، هل يليق ذلك بالشعب المصري الفتي؟ لم يكن ذلك ما يراه أبو نظارة. لقد أراد مسرحاً عربياً، يعرض مسرحيات مأخوذة من تاريخ البلاد، يذكر بعادات العرب وتقاليد المصريين. وشرع في العمل (١)(*). وسرعان ما تمكن من أن يقدم على مسرح خاص به، أعمالاً مبتكرة، واقعية، حية بسيطة جديرة بمخاطبة الشعب، وإثارة اهتمامه، وحبه، وضحكه وبكائه؛ بكائه حينما تذكره ببؤسه وشقائه، وإضحاكه وتصفيقه على حساب حكامه وطغاته الذين يقهرون إرادته (**).

---

(١) – سنة ١٨٦٩م.

(*) – الهامش السابق كتبه الكاتب باعتباره تاريخ بداية مسرح صنوع عام ١٨٦٩م. ورغم ذلك نجد صنوعاً يقول إنه بدأ مسرحه عام ١٨٧٠م، حيث أقرّ بذلك في مسرحيته العربية الوحيدة المطبوعة في بيروت عام ١٩١٢م. وهذه المسرحية كانت ردّ الجميل لفيليب طرازي، الذي كتب سيرة صنوع في كتابه الشهير (تاريخ الصحافة العربية)؛ لأن صنوعاً وضع فيها صورة طرازي، وأهدى إليه المسرحية، قائلاً : "أهدي كُتيّبي ده لأعزّ الأحباب. ولألطف وأجل الكُتّاب. من بأقواله البديعة. وأفكاره الرفيعة. وعباراته الجميلة. وتصوراته الجليلة. يسليني في الغربة على الهموم والأكدار. ويحببني في الرياض والأزهار. ويصبرني على تقلبات الزمان. يحفظهُ ويحرسهُ الرحمن. وهو جناب الكونت فيليب طرازي الشهير. النجيب الأديب اللبيب النحرير. أبو قلب ملوكاني وروح ملائكية. ما يخرج من عنده الفقير إلا وحامل عطية. يسر عين الناظر برؤية وجهه اللي يتلألأ بالكرم والإحسان. ويطرب أذن السامع بحلاوة وفصاحة اللسان. أهديه روايتي يا سادة. وأتمنى له طول العمر والإقبال والسعادة. ده يا ناس أشهرني في سورية. وكتب ترجمة حالي الحقيرة وجعلها بثنائه غالية غنية. وضعت رسمه الحلو هنا في ابتداء كتابي. شوفوه وتأملوا في جماله يا أصحابي. وقولوا تبارك الخالق محب الجمال. طرازك يا سي الشيخ يقييناً بديع الحُسن والكمال" وللمزيد ينظر: الشيخ يعقوب صنوع المشهور بأبي نظارة المصري شاعر الملك ومؤسس التياترات العربية في وادي النيل – موليير مصر وما يقاسيه: رواية تمثيلية هزلية – بيروت – المطبعة الأدبية سنة ١٩١٢م – ص(٤).

(**) – حتى الآن لم يجد باحث واحد – ممن كتبوا عن مسرح صنوع – إعلاناً واحداً .. أو مقالة واحدة .. أو إشارة صريحة في أية صحيفة عربية معاصرة لفترة نشاط صنوع المسرحية، أو لفترة وجوده في مصر، تُفيد بأنه مارس نشاطاً مسرحياً في مصر!! بل ولا يوجد أي دليل على مسرحه، أو فرقته، أو مسرحياته التي قال إنه مثلها!! وكل ما كُتب ونُشر حول هذا الأمر، كان منقولاً من كتابات صنوع وأصدقائه!! وحول هذه الحقيقة، ينظر: د.سيد علي إسماعيل – محاكمة مسرح

هل وجد الإنجليز في محاضراته خطورة بالغة؟ وبدأ الشك يساور السلطات؟ حسناً، سيحاول مسرحه بطريقة أخرى أن يقدم أفكاره عن الوطنية وكرامة الإنسان، والعدالة والتحرر.

وفعلاً، فقد أتاحت له المنصة أن يواصل مهمته وهو أكثر إقداماً وتصميماً، ويعرض لرذائل الحكومة ومفاسد الموظفين. ففي ثنايا حكاية ذكية، جعل يشهّر بالمؤامرات، ويرفع القناع عن المتآمرين، ويستهدف لصوص المال العام، ويسخر من الظالمين، وطنيين كانوا أم أجانب، واستطاع أن ينبه إلى بؤس الشعب وشقائه، وإلى الأغنياء وسرفهم، وأن يدعو إلى حقوق الإنسان، موضوعه الأثير، إنصافاً للضعفاء والمساكين والمعدمين (*).

الإنسانية! ذلك هو موضوعه الأكبر والأهم! أمام تشجيع أصدقائه والدعم العام، وعلى شاكلة " موليير " مؤلفاً ومديراً وملقناً (**) ومصمماً للملابس لا يبارى، في أدوار الفلاح والمزارع البسيط الساخر، تمكن الرجل من تكوين فرقة (***) بث فيها

يعقوب صنوع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١، مقدمة كتاب فيليب سادجروف – المسرح المصري في القرن التاسع عشر – ترجمة د.أمين العيوطي – تقديم د.سيد علي إسماعيل – المركز القومي للمسرح والموسيقى – ٢٠٠٧.

(*) – لا أظن أن لصنوع – رغم مزاعمه – مسرحية بهذا المعنى! فصنوع نفسه لم يقل بهذا! وفي ظني أن كاتب المقال خلط بين مسرحيات صنوع المزعومة، ولعباته التياترية المنشورة في صحفه، أو خلط بين هذا وذاك وبين محاوراته الخيالية المنشورة في صحف (أبو نظارة)!!

(**) – لم يثبت حتى الآن أن صنوعاً كان مؤلفاً، ومديراً، وملقناً مسرحياً، فهذه الأمور لم يقل بها أحد غير صنوع فقط في كتاباته، ومذكراته، وما بثه من مزاعم بين أصدقائه، أمثال كاتب هذا المقال!

(***) – بخلاف مزاعم صنوع – وأصدقائه – عن مسرحه، وفرقته المسرحية .. لم يفلح باحث واحد أو كاتب – مصري أو عربي أو أجنبي – في الحصول على دليل واحد يشير إلى قيام صنوع بتمثيل مسرحيات عربية في مصر – في الفترة التي حددها صنوع وأصدقائه – بين عامي (١٨٧٠ – ١٨٧٢م). وإذا نحينا هذا الطرح جانباً، وسلمنا بوجود فرقة مسرحية لصنوع، وطرحنا هذه الأسئلة: أين أفراد هذه الفرقة؟ ألم يشاهدها الجمهور؟! ألم يحضرها صحفي واحد؟! ألم تؤثر عروضها في أي إنسان؟! أيعقل أن جميع أفراد الفرقة لا نعرف عنهم شيئاً؟! ألم يذكر صنوع اسماً واحداً لعضو واحد في فرقته؟! ألم يعش فرد واحد من أفراد هذه الفرقة المزعومة، ليحكي لنا قصة أول فرقة مسرحية عربية مصرية، أو ليذكر كلمة واحدة عن الرائد المسرحي صنوع؟! للأسف لا إجابة على أي سؤال من هذه الأسئلة!! لأن من الواضح أن فرقة صنوع المسرحية، فرقة تألفت وعرضت أعمالها المسرحية في كوكب آخر، غير كوكب الأرض!!

من إرادته وهمته وذكائه وحيويته وسخريته التي لم تبهر مواطنيه وحدهم، بل أثارت إعجاب الأجانب (*). نجاح شعبي، عالمي تجاوز كل ما كان يتوقعه (**).

كانت الجماهير تترقب كل عرض بفارغ الصبر، وتهرع لمشاهدته وهي تلهث وتنبض بنبض الرجل، جمهور من كل الطبقات ومن جميع الجنسيات: مصريون، وعرب، ومسلمون ونصارى وأقباط، يونانيون وإيطاليون، فرنسيون وإنجليز، بعضهم بدافع الفضول، وبعضهم بدافع الغيرة، وبعضهم سعياً وراء المتعة، وبعضهم للرقابة والتجسس والتشهير (***).

(*) – لم نجد دليلاً واحداً على أن هناك أجنبياً واحداً كتب كلمة عن صنوع، أثناء وجود صنوع في مصر، وقبل سفره إلى فرنسا. وهناك ثلاثة احتمالات لقول الكاتب بأن عروض صنوع المسرحية (أثارت إعجاب الأجانب): الأول، أنه يقصد إشارتين واهيتين – نُشرتا في جريدة الجوائب عام ١٨٧٢م – عن مسرحيات عربية عرضها المستر (جيمس الإنجليزي). وهذا الاحتمال قمت بتفنيده في تقديمي لكتاب سادجروف السابق، وأثبت أن جيمس الإنجليزي ليس صنوعاً. والاحتمال الثاني، ما نشرته صحيفة (الساتردي ريفيو) عام ١٨٧٩م، وقد أوضحنا في تقديم هذا الكتاب أن حديث الصحيفة كان عن كتابات صنوع ورسوماته في صحيفته، ولم يكن عن مسرحياته المزعومة الممثلة في مصر. والاحتمال الأخير، أن الكاتب يقصد بالأجانب (بول دي بينيير) وكتابه (ألبوم أبو نظارة) المنشور في هذا الكتاب. وقد أثبتنا في تقديم الكتاب، وفي معظم تعليقاتنا – أن هذا الكتاب مصدره الأساسي هو صحف صنوع وأقواله.

(**) – هذا النجاح الشعبي والعالمي المُتخيل، ليس عليه دليل واحد، إلا أقوال صنوع فقط!!

(***) – تحدثنا كثيراً عن عدم وجود دليل واحد عن مسرح صنوع في مصر! ولكن هذا القول من قبل الكاتب – أو ربما من قبل صنوع – يجعلنا نُعيد التفكير في مسرح صنوع! فالكاتب يقول: (كانت الجماهير تترقب كل عرض بفارغ الصبر، وتهرع لمشاهدته وهي تلهث)! وهنا نسأل: لماذا كانت الجماهير تترقب؟ ألم يتبع صنوع أسلوب الإعلانات؟! وهو أسلوب كان معروفاً في ذلك الوقت، وكانت الصحف تنشر إعلانات عروض الأوبرا والكوميدي الفرنسي والسيرك وألعاب الخيل ... إلخ. ولماذا جمهور مسرح صنوع يهرع لمشاهدته وهو يلهث؟! أليس هذا الوصف ينطبق على عروض (القراقوز، أو صندوق الدنيا، أو أولاد رابية، أو الحواة)؟! أليست هذه العروض يترقبها الناس عندما تأتي فجأة إلى الحيّ، أو الحارة، أو الشارع؟! ألم يقم الكبار والصغار بإخبار الآخرين أن عرضاً من هذه العروض يُقام حالياً في حارة كذا، أو شارع كذا، أو ميدان كذا، فيهرع إليه الناس لاهثين؟! أليست هذه العروض يشاهدها كل المارة من جميع الجنسيات، وجميع الديانات الموجودة في مصر – في تلك الفترة – من باب الفضول أو المتعة أو التسلية؟! أليس هذا كله ينطبق على قول الكاتب، وينطبق على عروض صنوع، في حالة كون عروضه عروضاً للقراقوز، أو الحواة، أو صندوق الدنيا .. إلخ هذه الفنون الشعبية التي تُقام في الشوارع؟! ألم تصف جريدة (الساتردي ريفيو) صنوعاً ببنش العربي، تشبهاً بلاعب القراقوز الإنجليزي (بنش)؟!

كانت النتيجة الأولى أن خلعوا على الشاعر لقب " موليير مصر " (*) مما أكـد شعبيته الطاغية (**).

ذات يوم، وقد أثار اهتمامه ما يتناقله المواطنون، أراد الخديوي أن يحكم بنفسه، فدعا مدير المسرح وفرقته لمقابلته في قصر " قصر النيل " وحينما وصلوا، عبر لهم عن سروره البالغ.



S. E. MUNIR BEY

Notre sympathique Ambassadeur, S. E. Munir Bey, est rentré dimanche dernier à Paris ; il a été reçu à la gare de l'Est par tout le personnel de l'Ambassade et du Consulat général et par les notabilités de la colonie Ottomane.

Pendant son séjour à Constantinople, S. E. Munir Bey a été l'objet des marques réitérées de la faveur et de la bienveillance spéciale de S. M. I. le Sultan. Son fils, Djemil Bey, a été élevé au grade de lieutenant dans la cavalerie de la Garde Impériale.

Nous apprenons avec plaisir que notre excellent ami, E. Chesnel Bey, a été élevé par S. M. I. le Sultan, au grade civil de *Mutémais* qui correspond au grade militaire de colonel.

M. Abdon Boisson, rédacteur-archiviste au Commissariat général Ottoman, a reçu la décoration d'officier de l'Osmanieh.

L'ÉGYPTE AU XIXᴱ SIÈCLE
HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

(Suite)

(Suite de l'Histoire du Théâtre national égyptien d'Abou Naddara.

Un jour, le Khédive, entraîné par le bruit public, voulut le juger lui même. Il invita l'impresario et sa troupe à venir au palais de Kasr-en-Nil, et, à leur arrivée, laissa voir tout son plaisir.

A cette occasion, il avait préparé une fête comme il les aimait. Tout ce que la Cour, tout ce que la Ville avait de marquant était présent.

Le chef de l'opposition, le représentant des aspirations populaires et l'autocrate, le maître absolu et omnipotent allaient se trouver en présence pendant une soirée entière. On avait bien commencé, comment cela finirait-il?

Les courtisans n'étaient pas sans crainte à cet égard.

Quand l'éminent personnage fut admis à présenter ses plus respectueux hommages à l'auguste et puissant souverain, le Khédive daigna sourire, lui offrit la main, pour qu'il la baisât, et, le présentant à l'assemblée, dit à haute voix :

« Voilà notre Molière égyptien ».

Un murmure d'approbation, respectueux mais sincère, prouva que la foule partageait l'opinion du chef de l'Etat.

Bientôt la fête battit son plein et la représentation commença.

Ce fut un enchantement.

Le programme, d'ailleurs, avait été choisi.

Prudent comme un homme d'esprit, Abou Naddara donna deux pièces badines, pleines seulement de verve et de gaieté. La troupe se surpassa. Ismaïl s'amusa, le laissa voir, et ceux mêmes qui ne comprenaient pas l'arabe, les étrangers qui ne pouvaient saisir les allusions, crurent devoir applaudir comme le Souverain. C'était dans l'ordre. Les bravos de cette heureuse soirée retentirent au loin, et aux félicitations que le jeune écrivain reçut, on aurait pu croire qu'en Egypte, il ne comptait que des amis.

Cet événement eut une immense portée pour le poète. Son talent était reconnu, consacré par le chef de l'Etat; on ne pouvait le discuter. Désormais, c'était la gloire sereine, dans tout ce qu'elle a de doux, de solide et de grand.

La petite salle d'Abou Naddara s'en ressentit.

Ce fut, dès lors, une rude concurrence que le théâtre Khédivial trouva dans cette humble scène, sans luxe et sans prétention, où ne jouaient que des amateurs, des jeunes gens instruits et façonnés par un professeur tout à fait étranger aux traditions théâtrales. Au Mouski, s'étalait un grand luxe de décors, de costumes et d'éclairage. Chez Abou Naddara, pas l'ombre d'ornements. Au Mouski, des acteurs connus, des étoiles venues de France et d'Italie, un orchestre d'élite. Comme spectateurs : le Khédive, sa cour, les ministres, les chambellans, les administrations, les consulats, le monde officiel, l'armée, la colonie étrangère, les voyageurs. Sur la petite scène : des bourgeois, le petit commerce, les employés, le peuple; mais, là, passait un souffle de patriotisme qui faisait tout vibrer.

Au lieu des grands écrivains de Paris, on n'avait que la prose ou les vers du patriote égyptien, mais on les comprenait. Aucun mot n'échappait à la finesse arabe; aucune allusion n'était perdue. On riait bruyamment sans qu'un étranger eût su de quoi. L'auteur, d'ailleurs, n'était

صورة جزء من المقالة الخامسة

(*) – زعم صنوع إن الخديوي إسماعيل هو الذي منحه هذا اللقب، وليس الشعب. وقد نشر صنوع ذلك في أكثر من مقالة في صحفه بتواريخ: ١٨٧٨/٥/٢، ١٨٨٧/١/٢٢، ١٨٩٦/٥/١٤. ورغم ذلك لا يوجد أي دليل على منح الخديوي لهذا اللقب إلا أقوال صنوع فقط، دليلاً على زعمه!! فمن غير المعقول أن يقوم الخديوي بمنح هذا اللقب لأي إنسان من غير أن تنشر هذا الخبر الصحف وتستفيض في أمره! والغريب أننا لم نجد إشارة واحدة عن هذا الأمر في جميع الصحف العربية – التي بين أيدينا – المعاصرة لهذه الفترة.

(**) – إلى هنا تنتهي المقالة الرابعة، وتبدأ المقالة الخامسة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الثاني من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٣١٦ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٣/٧م. وهي مقالة بعنوان (تابع المسرح الوطني المصري الذي أسسه أبو نظارة).

كان قد أعد العدة بهذه المناسبة لحفل من الحفلات التي يحبها. تجلّى فيه كل ما يمكن أن يعبّر عن الأبهة والعظمة.

جمعت السهرة رئيس المعارضة، الممثل لتطلعات الشعب، والحاكم المطلق المتفرد بالسلطة. كانت البداية طيبة، فكيف ستكون النهاية؟

لم يكن رجال البلاط يشعرون بارتياح. وحينما سُمح للرجل بأن يقدم آيات احترامه وامتنانه لولي الأمر وصاحب السلطان المطلق، تلطف الخديوي وابتسم وقدم له يده ليقبلها. وقال وهو يقدمه للحضور: " هذا موليير مصر "

وسرت همهمات استحسان، لكنه صادق، يثبت أن الجمهور يشاطر رئيس الدولة رأيه. وسرعان ما بدأت فعاليات السهرة وبدأ العرض. كان شيئاً بالغ الروعة. لا شك أن البرنامج كان معداً سلفاً.

وبالحذر الذي يوافق الرجل الذكي، قدم أبو نضارة مسرحيتين لطيفتين تفيضان حيوية وبهجة. تفوقت الفرقة على نفسها. وسعد الخديوي وأبدى هذه السعادة. حتى أولئك الذين لا يجيدون العربية من الأجانب والذين لا يدركون التلميحات، رأوا أن من واجبهم التصفيق أسوة بالخديوي، وهذا شيء معروف. دوّت عبارات الاستحسان في هذه السهرة الرائعة وذهبت بعيداً ... ومع التهاني التي تلقاها الكاتب الشاب، ساد الاعتقاد بأن كل من في مصر أصدقاء (*).

حقق هذا الحدث نجاحاً عظيماً للكاتب. فقد تم الاعتراف بموهبته التي أقرّ بها رئيس الدولة، ولا مجال لمعارضة ذلك. لا مجال إلاّ للنجاح والمجد بكل ما يحمله من قوة وعظمة. ودوّت قاعة أبو نظارة بالنجاح.

(*) – قصة تمثيل صنوع مسرحيتين أمام الخديوي إسماعيل في قصر النيل، قصة مختلقة من خيال صنوع وأصدقائه، ولا أساس لها تاريخياً!! والدليل على ذلك عدم وجود أي إشارة منشورة عن هذه العروض في الصحف العربية أو الأجنبية – التي بين أيدينا – المعاصرة لفترة نشاط مسرح صنوع المزعوم! وحتى الآن لم ينجح أي باحث ممن كتب عن مسرح صنوع في توثيق هذه القصة الخيالية! ومن غير المعقول أن يُقيم الخديوي إسماعيل حفلة في قصره، يدعو فيها كبار القوم، ويتم عرض مسرحيتين فيها، ويمنح صنوعاً لقباً فنياً أمام الجميع، دون أن تنشر الصحف أخبارها وحوادثها، باعتبارها مادة صحفية فنية جديرة بالتسجيل والتوثيق!! والدليل على ذلك أن في هذه الفترة نفسها، وجدنا – في مجلة وادي النيل بتاريخ ١٨٧٠/١/٢٠م – وصفاً تفصيلياً لحفل رقص (بالو)، أُقيم في قصر الخديوي، دون حضور الخديوي نفسه! فهل حفل الرقص هذا كان – بالنسبة للصحافة – أهم من عرضين مسرحيين، حضرهما كبار القوم وفي مقدمتهم الخديوي شخصياً؟!

كان ذلك، ومنذ تلك اللحظة، يمثل منافسة شديدة للمسرح الخديوي مـن جانـب هذا المسرح المتواضع، الخالي من كل عناصر الفخامة والأبهة، الممثلون فيه هـواة، شبان قام على تعليمهم وتدريبهم مدرس بعيد كل البعد عن التقاليد المسرحية. أما فـي المسرح الخديوي بالموسكي، تتجلى آيات العظمة والفخامة في الديكورات والملابـس والإضاءة. مسرح أبو نظارة يخلو من كل أثر للزواق. أما فـي الموسـكي، فيعمـل ممثلون معروفون، نجوم جاءوا مـن فرنـسا وإيطاليـا، وأوركـسترا مـن صـفوة المتخصصين. وفيما يختص بالمتفرجين، فيتألفون من الخديوي نفسه ورجال الـبلاط، والوزراء والدبلوماسيين، العالم الرسمي والجيش والأجانب والرحالة. في حين مسرح أبو نضارة يرتاده طبقة البرجوازيين وصغار التجار والموظفين، وجمهور الشعب(*)؛ ولكن في هذا المسرح تتردد أنفاس الديمقراطية التي يرتج لها كل شيء.

وبدلاً من كبار الشعراء الفرنسيين في المسرح الخديوي، لا نجد هنا سوى النثر وأشعار الرجل الوطني المصري. ولكن ما يقدمه مفهوم، يستوعبه الجميع. ولا يغيب أي لفظ عن إدراك الإنسان العربي، ولا أي تلميح يخفى على ذكاء المصري. تـضج القاعة بالضحك دون أن يتساءل أجنبي عن السبب. ومن ناحية أخرى، فـإن الكاتـب يغير من موضوعاته ويستعمل جميع الأنواع المـسرحية بـدءاً بالفـارص وحتـى التراجيديا. التي تشحب لها وجوه المتفرجين. كما يقدم الكوميديا المضحكة التي يـسر لها الجمهور. وهو من خلال أعماله جميعاً، يعاقـب الجريمـة ويثـأر للمقهـورين، ويضرب على يد المستغلين والمفسدين. ويزجر المبتذل المتسبب، والأجنبي الجـشع الذي جاء من أقاصي الأرض لكي يستغل أهل البلاد ويثرى على حسابهم. كل هـذه الموضوعات يفهمها الجميع؛ بل ويمكن معرفة المقصودين من هذا الهجـوم أو ذاك، وتحديد أسمائهم ووظائفهم في المجتمع، فهو يعرّيهم ويرفـع عـنهم النقـاب. ومـع

(*) – هذه المقارنة بين جمهور مسرح الخديوي (الكوميدي الفرنسي)، ومسرح صنوع – في حالة وجوده - مهمة جداً، لأن الكاتب – من الواضح أنه – سمع هذا الكلام من صنوع نفسه. فالمقال هنا يحدد جمهور مسرح صنوع الصغير، بأنه يتكون من صغار التجار والموظفين وجمهور الشعب! أليس هذا الجمور هو الجمهور الذي يشاهد عادة عروض القراقوز، والحواة، والمحبظين، وأولاد رابية؛ لأنه بالقطع يختلف عن جمهور مسرح الخديوي، المكوّن من الخديوي، والحاشية، والوزراء.. إلخ. أليس هذا دليلاً على أن عروض صنوع المسرحية – في حال التصديق بوجودها ربما - كانت عروضاً للحواة، والقراقوز، والمحبظاتية، وأولاد رابية!

التصفيق الشديد، يتغامز المتفرجون ويتبـــادلون التعليقـــات، ســـاخرين مـــن الجنـــاة والمستغلين، بعد أن تصدى لهم المسرح ورفع عنهم النقاب (*)(**).



L'ÉGYPTE AU XIXᴱ SIÈCLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

(Suite)

(Suite de l'Histoire du Théâtre national égyptien d'Abou Naddara.

Cette audace de l'écrivain, cette connivence du peuple, ce soulèvement des esprits finirent par inquiéter l'autorité. Les Anglais, eux aussi, se plaignirent, et ils dénoncèrent l'ennemi commun au ministre tout puissant leur allié. Celui-ci approuva les ressentiments, les partagea et les soumit à la colère du Khédive. La foudre gronda cette fois, terrible, sur la tête du coupable, et, pour calmer Albion, la nation protectrice et amie, Abou Naddara, l'habile professeur, fut destitué d'abord, puis, peu après, le théâtre populaire fut fermé.

Albion, alors, respira.

Mais l'Egypte se révolta.

Quoi? destitué, le Molière égyptien? Dégradé, enlevé à l'enseignement, l'auteur d'une Renaissance littéraire qui s'annonçait brillante et féconde? Marche toujours, guerre éternelle des despotes contre l'honnêteté et la vérité! des jouisseurs contre la vertu! Vendu aux Anglais, l'autocrate du Nil fermant le théâtre du peuple! L'Arménien, brocanteur de consciences, livrant aux marchands de la Tamise, les biens, la fortune, la plume, l'honneur, la gloire du poète égyptien!

Et le peuple criait: « Que ton nom soit flétri, Nubar! Toi, qui t'es réjoui de voir la France, notre amie, tombée sous le talon de la Prusse! Toi, qui as étranglé le défenseur des fellahs, des travailleurs, des pauvres, des petits! Toi, qui as favorisé l'asservissement de la Nation, que tu devais protéger; l'esclavage du peuple qui t'avait comblé de richesse, de dignités et d'honneurs!

« Que ton nom soit livré au mépris de la postérité, toi, Ismaïl, qui as ruiné l'Egypte! Toi, qui t'engraissais dans ton harem, quand tes laboureurs mouraient de faim! Qui faisais venir les plus belles esclaves de l'Afrique et de l'Asie, quand ta santé perdue, tes forces épuisées, ton corps impuissant te clouaient, inerte, sur un divan et t'enchaînaient, sans désirs, sans âme et sans volonté, sur les coussins effondrés sous ta paresse et ta pesanteur! »

Et j'ajouterai, moi, historien de ton règne:

« Tu pensais, alors, que la France était anéantie et que tu n'avais plus rien à craindre d'elle; qu'Abou Naddara n'était qu'un de ces vermisseaux qu'on peut écraser sans remords!

« Et la France s'est relevée plus forte et plus puissante que jamais!

« Abou Naddara, vénéré jusqu'au fond de l'Asie, accueilli par les souverains de l'Europe, hôte et ami naguère de l'illustre Abd-ul-Hamid Khan, le Commandeur vénéré des Croyants, te châtie aujourd'hui, du sein de ce Paris qu'il habite et te poursuit de sa plume de fer, tandis que l'Histoire, la puissance implacable et immortelle, prépare son triomphe en même temps que ton avilissement. »

Quand le théâtre national fut fermé, le Molière de l'Egypte avait donné, au Caire, trente-deux pièces, à qui le peuple avait fait d'ardentes ovations.

Trois pièces, écrites en italien, avaient été reprises sur les principales scènes de la Turquie et de l'Italie, où elles avaient été acclamées.

Trois volumes de poésies, en italien, avaient eu plusieurs éditions et avaient confirmé son immense popularité.

On comprend si sa chute eut de l'écho dans les cœurs et dans les esprits.

Aussitôt connue, l'effet en fut désastreux; les lettrés, les indépendants, les patriotes s'indignèrent de ce retour à la barbarie. Les grands corps furent mécontents, les politiques virent avec effroi qu'on avait touché à la propriété privée, base de toute civilisation, de tout gouvernement. Dans les mosquées, on fit d'ardentes prières pour appeler la

صورة جزء من المقالة السادسة

(*) – نلاحظ هنا أن الكاتب يسرد موضوعات مسرحيات صنوع السياسية – المزعومة – وهي نصوص مسرحيات، أو موضوعات لا وجود لها إلا في خيال الكاتب، استوحاها من خيال صنوع ومزاعمه! فحتى الآن لم يحصل أي باحث على نص مسرحي سياسي لصنوع! إلا إذا اعتبرنا أن النصوص الشفاهية لعروض القراقوز، وصندوق الدنيا، وأولاد رابية، هي النصوص المقصودة. أما النصوص المخطوطة – التي نسبها الدكتور محمد يوسف نجم إلى صنوع، ونشرها في كتاب بيروت عام ١٩٦٣م – لم يستطع الدكتور نجم نفسه إثبات أن كاتبها هو صنوع، وهي مسرحيات اجتماعية، ولا يوجد بينها نص واحد سياسي!! لدرجة أن الدكتور نجم تعجب من هذا الأمر قائلاً: "إذن هذه المسرحيات اجتماعية الموضوع. فأين المسرحيات السياسية التي كتبها صنوع". حول هذا الأمر، ينظر: د.محمد يوسف نجم – المسرح العربي : دراسات ونصوص: يعقوب صنوع (أبو نضارة) – دار الثقافة – بيروت – ١٩٦٣م – المقدمة.

(**) – إلى هنا تنتهي المقالة الخامسة، وتبدأ المقالة السادسة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الثالث من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ١٤ ذي القعدة سنة ١٣١٦ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٣/٢٦م. وهي مقالة بعنوان (بقية تاريخ المسرح الوطني المصري الذي أسسه أبو نظارة).

هذه الجرأة من جانب الكاتب، وهذا التجاوب من جانب الجمهور، وهذا الاستفزاز لذوي العقول، أفضى إلى إزعاج السلطة. الإنجليز أنفسهم عبروا عن شكواهم ووشوا بالعدو المشترك إلى حليفهم الوزير القوي. الذي من جانبه أقر هذه المخاوف وشاركهم فيها ووضعها بين يدي الخديوي لتثير غضبه. فانقضت العاصفة رهيبة هذه المرة فوق رأس الرجل. وإرضاءً لإنجلترا الحليفة الصديقة الحامية، أقيل أبو نظارة الأستاذ المرموق أولا (*)، وبعد ذلك، وشيئاً فشيئاً، أغلق المسرح الشعبي(**). وهدأت إنجلترا. لكن مصر ثارت.

(*) – المقصود بعبارة (أقيل أبو نظارة الأستاذ المرموق)، أنه أقيل من مهنة التدريس الحكومية، عندما كان مدرساً بالمهندسخانة كما قال من قبل! وفي تعليق سابق فندنا هذا الأمر وأثبتنا زعم صنوع فيه! وتأكيداً على هذه التخريفة، أن صنوعاً قال إنه عمل بالمهندسخانة من عام ١٨٥٤ إلى ١٨٥٧م، فإذا أقيل فلابد أن الإقالة كانت في عام ١٨٥٧م، وهذا الأمر لا يتفق مع زعمه بأن مسرحه بدأ عام ١٨٧٠م!! فكيف يُقال من عمله في التدريس عام ١٨٥٧م بسبب مسرحه، ذلك المسرح الذي بدأ عام ١٨٧٠م؟!!

(**) – المعروف – تبعاً لأقوال صنوع وأصدقائه – أن مسرح صنوع بدأ عام ١٨٧٠م وانتهى بأمر إغلاقه من قبل الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٢م، وهذا المسرح طوال هذه الفترة، لا وجود لدليل أو وثيقة لنشاطه، أو عروضه، أو إعلاناته. ولم يحصل أي باحث حتى الآن على سطر واحد منشور – في الصحف – طوال هذه الفترة، يثبت نشاط هذا المسرح. والغريب أن صنوعاً قال بإغلاق مسرحه من قبل الخديوي إسماعيل في أكثر من مقالة منشورة في صحفه – بتاريخ ١٨٧٩/٧/١، و١٨٨٧/١/٢٢ – وكذلك في مذكراته المنشورة في كتاب الدكتور إبراهيم عبده – السابق ص٢٨ – وتبعاً لأقوال صنوع عن مسرحه أن جمهوره كان بالآلاف، وكانت له فرقة مسرحية ... إلخ هذه المزاعم. والأسئلة التي تطرح نفسها تقول: أمن المعقول أن مسرح صنوع الذي يشاهده الآلاف، يُغلق دون أية إشارة عن هذا الإغلاق في الصحف العربية والأجنبية؟! أيعقل أن الخديوي إسماعيل يصدر أمراً بإغلاق مسرح صنوع، من غير نشر هذا الأمر في الصحف؟! ألم يتأثر أي صحفي أو صاحب جريدة أو مُشاهد – واحد من آلاف مشاهدي مسرح صنوع أمام هذا الغلق – فيكتب كلمة في أية صحيفة عن هذا الإغلاق؟! هل مات جميع أفراد فرقة صنوع المسرحية موتاً فجائياً بعد غلق المسرح، ولم يعش فرد واحد يحكي لنا عن هذا المسرح وتاريخه وسبب غلقه؟! الإجابة من وجهة نظري، أن هذا المسرح لا وجود له إلا في خيال صنوع وأصدقائه. أو أنه – في حال ظهور أدلة على وجوده – مسرح لا قيمة له، فلم تهتم به الصحافة من حيث تسجيل بدايته، أو نهايته، أو نشاطه؛ لأنه مسرح للحواة، أو للقراقوز، أو للمحبظين، أو لأولاد رابية!! ألم يصفه كاتب المقال بأنه مسرح شعبي؟!

كيف؟ موليير مصر يُقال؟ ويجرد من منصبه ويُبعد عن التدريس؟ باعث نهضة أدبية أثبتت تألقها وخصوبتها؟ تلك هي الحرب الأبدية التي يشنها المستبدون ضد الشرفاء، حرب الفساد ضد الفضيلة. لقد باعوا للإنجليز قلم الشاعر المصري النزيه، ومجده وشرفه.

وصاح الشعب قائلاً: " بُعداً لك يا نوبار. يا من سرك أن ترى فرنسا صديقتنا تسقط عند قدمي بروسيا. أنت يا من خنقت المُدافع عن الفلاحين والعمال والفقراء والضعفاء، أنت الذي ساعدت على استعباد الوطن الذي كان عليك حمايته. ومهدت لإذلال الشعب الذي منحك الثروة والعزة والكرامة.

" فلتلعن الأجيال القادمة اسمك يا إسماعيل، الذي جلبت الخراب على مصر! تأكل وتسمن وسط حريمك، بينما الفلاحون الفقراء يموتون جوعاً! جلبت أجمل الإماء من أفريقيا وآسيا، وأنت منهك القوة فاقد الصحة، مما ألزمك الكرسي تتسمر فيه بلا رغبة، بلا روح، بلا إرادة، بين الوسائد التي تغوص فيها من فرط بدانتك! "

وأنا، مؤرخ عصرك، أضيف قائلاً: " تتصور أن فرنسا قد زالت، وأنك أصبحت لا تخشى شيئاً منها؛ وأن أبو نضارة ليس أكثر من حشرة يمكن أن تسحقها بقدمك. " لكن فرنسا نهضت من جديد أقوى وأشد مما كانت. أبو نظارة يلقى التكريم حتى في أعماق آسيا، يستقبله ملوك أوروبا (*).

حينما تم إغلاق المسرح الوطني، كان موليير مصر قد قدم في القاهرة اثنتين وثلاثين مسرحية (**) حظيت بإعجاب الجماهير التي استقبلتها استقبالاً حاراً.

(*) – الفقرات السابقة منقولة بالمعنى من صحف صنوع، كما أنها فقرات جاءت بالمعنى أيضاً في كتاب (ألبوم أبو نظارة)، المنشور أولاً في هذا الكتاب.

(**) – هذا العدد تقريباً، ذكره صنوع في صحفه بتاريخ ١٨٧٨/٤/١٧، و١٨٨٧/١/٢٢، وفي الصفحة الأخيرة من نهاية صحفه عام ١٨٩٠م. ورغم هذا العدد الكبير – الذي لا يُصدق تقديمه إلا في عروض القراقوز، والمحبظين، وأولاد رابية – إلا أننا لم نجد إعلاناً واحداً، أو مقالة واحدة – مادحة أو قادحة – أو سطراً واحداً، يُشير إلى عرض واحد من عروض هذا الكم الكبير من المسرحيات طوال فترة (١٨٧٠ – ١٨٧٢م)، وهي فترة نشاط مسرح صنوع المزعومة. وعلى الرغم من ذلك، نشر الدكتور محمد يوسف نجم مجموعة من المسرحيات نسبها إلى صنوع – دون إثبات أنها تخصّ صنوع – عام ١٩٦٣م، هي: بورصة مصر، والعليل، والسوّاح والحمّار، وأبو

ثلاث مسرحيات باللغة الإيطالية، أعيد عرضها على أكبر مسارح تركيا وإيطاليا، حيث قوبلت بكل حفاوة وترحيب (*). وثلاثة مجلدات من الشعر باللغة الإيطالية، طبعت أكثر من مرة، أكدت شعبيته (**).

بمجرد أن شاع خبر الإغلاق، كان تأثيره صاعقاً. فقد عبر المثقفون والمستقلون والوطنيون عن سخطهم لهذه العودة إلى الهمجية والبربرية. وغضبت الهيئات السياسية. ورأى الدبلوماسيون في ذلك مساساً بالملكية الخاصة التي هي أساس كل حضارة. وفي المساجد توجه المصلون بالدعاء لكي تنتقم السماء للاعتداء على العدل وعلى شريعة الله في الأرض. وتلا أحد علماء الدين آية من القرآن الكريم تقول: ﴿وَمَنْ

ريدة وكعب الخير، والصداقة، والأميرة الإسكندرانية، والضرتين. ومخطوطة هذه المسرحيات يُحيطها الشك من كل ناحية، لأنها مخطوطة مكتوبة بخط جميل النسخ – كما وصفها مكتشفها الأول الدكتور أنور لوقا – والمعروف أن خط صنوع من الخطوط الرديئة للغاية، كما أن الكراسة فاقدة لكل بيانات التوثيق، فلا يوجد عليها اسم، أو تاريخ، أو ملاحظة، أو أو... إلخ، ورغم ذلك اعتقد الجميع أن هذه المسرحيات تخص صنوع؛ لأن ابنته (لولي) كانت محتفظة بها! وحول هذا الأمر، ينظر: د.أنور لوقا – حريم الخديو! نماذج لسخرية المسرح الشعبي من الطغاة : حوار ورسوم يعقوب صنوع – سلسلة (كتابي) – عدد ٧٦ – يوليو ١٩٥٨م. د.أنور لوقا – مسرح يعقوب صنوع – مجلة (المجلة) – عدد ٥١ – مارس ١٩٦١م. د.محمد يوسف نجم – المسرح العربي: دراسات ونصوص : يعقوب صنوع (أبو نضارة) – دار الثقافة – بيروت – ١٩٦٣م، د.سيد علي إسماعيل – محاكمة مسرح يعقوب صنوع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١م.

(*) – هذا الكلام نشره صنوع من قبل في آخر صفحة من مجلد صحفه لعام ١٨٩٠م. وحتى الآن لم يجد أي باحث دليلاً واحداً على تمثيل مسرحية واحدة – في مصر في الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢م – من مسرحيات صنوع المزعومة، فما بالنا بتمثيلها في تركيا وإيطاليا؟! والثابت أن لصنوع مسرحيتين إيطاليتين منشورتين في مصر، بعد إغلاق مسرحه المزعوم عام ١٨٧٢م، هما: الأميرة الإسكندرانية المنشورة عام ١٨٧٥م، ومسرحية الزوج الخائن المنشورة عام ١٨٧٦م. وهاتان المسرحيتان لا يمكن اعتبارهما دليلاً على ريادة صنوع للمسرح في مصر، لأن المسرحيتين منشورتان باللغة الإيطالية، وناشرهما هو جول باربييه صديق صنوع! وحتى الآن لم نجد دليلاً واحداً – غير أقوال صنوع وأصدقائه – على تمثيل هاتين المسرحيتين.

(**) – لم نسمع، ولم نر، ولم نقرأ .. أن صنوعاً كتب ونشر ثلاثة مجلدات من الشعر الإيطالي أثناء وجوده في مصر!! وكل ما قيل حول هذا الأمر، أنه كتب جزءاً من حياته شعراً بالفرنسية، قيل إنه نُشر عام وفاته في ١٩١٢م، وقيل إنه مازال مخطوطاً، ولم يُنشر حتى الآن. والرأي الأول قال به فيليب سادجروف، والرأي الآخر قال به الدكتور إبراهيم عبده.

يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ كانت هذه الآية أكثر من تهديد للخديوي، كانت إدانة صريحة (*).

أما النساء فقد انخرطن في احتجاجات عارمة. يكدن يكن غير معروفات في أوروبا، بل هن مجهولات بالمرة، لكنهن أكثر ذكاءً وأكثر جرأة مما صورهن الرحالة السطحيون. كما هي الحال في فرنسا، شاركن في أحداث الوطن وتتبعن سائر الاحتمالات التي يمكن أن تهدد مصير أب أو زوج أو ابن.

وأدرك كثير من الناس بعد هذا الحادث، أن الخديوي، نصف الإله، قد لا يكون في الواقع، أكثر من عصفور فوق غصن شجرة، كائن هزيل فاقد الإدراك، بلا استقرار أشبه بورقة شجرة تحركها الريح، أشبه بموجة تدفعها العاصفة أمامها. كان ذلك رأي أبو نظارة. أي بحار لم ير العاصفة في حياته؟ أي رجل لم يعرف العداوة والبغضاء؟ هناك حكام منصفون، ووزراء طيبون. إذن بوسع الرجل أن ينتظر؛ لم تكن المسألة بالنسبة له إلا مسألة صبر ومسألة وقت. لقد حقق له العمل في التدريس الرخاء وسعة العيش، ويمكنه أن ينتظر (**).

حينما يصادف البحار ريحاً عاصف وسط الصخور أو تحت الجليد، فإنه يغير مساره ويلجأ إلى منطقة هادئة ويضع يده في جيبه في انتظار طقس أفضل.

لقد تساءل أبو نظارة عما يمكن أن يفعله وسط هذه الأزمة التي هي من الشدة بحيث لا يمكن أن تستمر ولابد لها من انفراج.

جاءته فكرة. أحياناً السماء هي التي توحي إليه بالأفكار. لقد اعتدوا على ملكيته الخاصة؛ فهل من الممكن المساس بالمال العام؟ باجتماع يضم علية القوم؟ بجمعية عامة؟ سنرى ذلك.

(*) – هذا الوصف محض خيال!! فأي قارئ للصحف العربية أو الأجنبية – وكذلك الوثائق الرسمية – طوال فترة وجود صنوع ونشاطه في مصر، تبعاً لمزاعمه (١٨٧٠ – ١٨٧٨م)، لن يجد سطراً واحداً منشوراً يُشير – من قريب أو بعيد – إلى صنوع، أو إلى أي نشاط له، أو إلى أي تأثير له بأي شكل من الأشكال!! بل ومن يقرأ في تاريخ مصر – في هذه الفترة – في الكتب، أو المذكرات، أو المقالات، لن يجد ذكراً لصنوع، أو لعمله، أو لحقيقته أو أو أو ... إلخ

(**) – إلى هنا تنتهي المقالة السادسة، وتبدأ المقالة السابعة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الرابع من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٣١٦ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٤/٢٥م.

L'ÉGYPTE AU XIX[e] SIÈCLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. AIMÉ VINGTRINIER. Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

Quand un navigateur est surpris par un grain au milieu des récifs et des banquises, il s'oriente au plus près, se met à la cape et, bravement, les mains dans ses poches, il laisse venir un temps meilleur.
Abou Naddara se demanda de ce que, dans cette tourmente, trop vive pour durer. il pourrait bien faire pour s'occuper?
Une idée lui vint.
Quelquefois c'est le ciel qui en inspire.
On avait violé sa propriété; oserait-on toucher au bien public? A une réunion d'hommes éminents? A une société?
On allait s'en assurer.
Il réunit ses amis, leur soumit ses projets, rédigea un règlement et créa le Cercle des Progressistes (*Mahfal-al-Takadom*), destiné à l'armée et aux étudiants (1)
On ne l'y voyait pas; il n'y paraissait en rien, ni comme fondateur ou président, ni comme actionnaire ou abonné. Son nom n'était écrit nulle part.
Les abonnés payaient une cotisation; les listes furent immédiatement couvertes; le cercle s'ouvrit, et à chaque séance la foule accourut.
Mais Abou Naddara y prit la parole; on applaudit. Des officiers étaient présents, ils firent comme tout le monde, et on vit dans leurs applaudissements une atteinte à la discipline, une résistance à l'autorité, un crime de lèse-majesté.
On s'empressa de sévir.
Le cercle fut fermé par ordre du Khédive, et nombre d'officiers furent envoyés, en punition, dans le Haut-Nil ou le désert.
Décidément, la guerre était ouverte entre le Parti National et l'Autorite.
Abou Naddara créa aussitôt un journal: *Le Bavard Egyptien*. Le tirage monta rapidement à cinquante mille, chiffre énorme pour l'Europe, inouï pour l'Egypte. Officiers, mollahs, professeurs, employés, y envoyèrent des articles, des renseignements, des observations. Toute l'Egypte s'y abonna.
Il ne vécut pas longtemps, un mois à peine. Après trois ou quatre semaines, il fut saisi. Les employés-collaborateurs furent destitués, les officiers rigoureusement punis, et l'organisateur mis en surveillance, comme un dangereux révolté.
Effrayés de la tournure des affaires, quelques amis prudents prévinrent le Cheikh qu'il eût à se méfier de tout café noir offert par des inconnus et de ne sortir, le soir, que bien armé.
Les peines légales ne suffisant pas, il n'était question de rien moins, en haut lieu, que de faire disparaître l'audacieux écrivain et d'opposer à sa plume le poignard, suprême raison des tyrans qui ne comptent pas sur leurs tribunaux.
Les patriotes répondirent: « On oserait? »
On osa:
Téméraire et connaissant le danger, le défenseur du peuple ne s'intimida point; il continua.
Le *Bavard* était mort; il le remplaça par l'*Abou Naddara* (le porteur de lunettes). C'était son nom à lui qu'il donnait à la nouvelle feuille, comme un défi.

صورة جزء من المقالة الأولى

جمع أصدقاءه وعرض عليهم مشروعاته، ووضع لائحة وأنشأ " محفل التقدم"(*) وهو مقصور على الجيش والطلبة سنة ١٨٧٣م. أما هو فلا يراه أحد في المحفل. ولا يظهر فيه بأية صورة، لا كمؤسس ولا كرئيس، بل ولا كمساهم أو مشترك. واسمه

(*) – من الملاحظ أن الكاتب لم يذكر اسم صديق واحد من هؤلاء الأصدقاء، ولم نجد في هذه الفترة سطراً واحداً يُشير إلى هذا المحفل! ورغم ذلك لن نعلق – بصورة مستفيضة – على هذا المحفل في هذا الموضع، لأن تعليقنا الإجمالي؛ سيكون مرتبطاً بمحفل آخر سيأتي ذكره فيما بعد.

ليس مسجلاً في أي مكان. المشتركون يدفعون حصة معينة. وسرعان ما امتلأت القوائم بالأسماء. وافتتح المحفل. وفي كل جلسة يتزايد عدد الأعضاء. وتكلم أبو نظارة في المحفل. وصفق الحاضرون (*). كان بعض الضباط موجودين. وفعلوا كالجميع. واعتبر تصفيقهم مساساً بالنظام، مقاومة للسلطة، جريمة مساس بالذات العلية. وسرعان ما بدأ التدخل، وأغلق محفل التقدم بأمر من الخديوي. وأبعد عدد من الضباط إلى أقاصي مصر أو الصحراء عقاباً لهم.

لقد بدأت الحرب بين الحزب الوطني والسلطة. وبسرعة أسس أبو نظارة صحيفة باسم " الثرثار المصري ". وسرعان ما ارتفع عدد النسخ إلى خمسين ألفاً، وهو رقم ضخم بالنسبة لأوروبا ولا نظير له بالنسبة لمصر. وانهالت على الصحيفة المقالات التي يبعث بها الضباط وعلماء الدين والأساتذة والموظفون، والذين كانوا يبعثون أيضاً بالملاحظات والمعلومات. لقد اشتركت مصر عن بكرة أبيها في الصحيفة.

لكنها لم تستمر طويلاً، شهراً بالكاد. فقد أغلقت بعد ثلاثة أسابيع أو أربعة: وأقيل المشتركون من الموظفين وتعرض الضباط لعقوبات صارمة. أما المشرف فقد وضع تحت المراقبة باعتباره متمرداً خطيراً (**).

(*) – هذا الكلام يتناقض مع ما سبق أن أدلى به كاتب المقال قائلاً عن صنوع: " أما هو فلا يراه أحد في المحفل. ولا يظهر فيه بأية صورة، لا كمؤسس ولا كرئيس، بل ولا كمساهم أو مشترك. واسمه ليس مسجلاً في أي مكان "!!

(**) – هذا الحديث محض خيال! قصة مختلقة لا أساس لها، ولا دليل عليها! فهذه الصحيفة المزعومة – الثرثار المصري – لا وجود لها إلا في خيال صنوع وأصدقائه!! فجميع من أرخوا للصحافة المصرية والعربية لم يجدوا لها أثراً، ولم يذكروها إلا من خلال أقوال صنوع، وما جاء عنها في هذا الموضع!! وحتى الآن لم يظهر دليل واحد على أن صنوعاً كان يعمل بالصحافة قبل عام ١٨٧٨م. كما أنه لم يصدر أية صحيفة قبل صحيفته أبو نظارة عام ١٨٧٨م. والحديث عن صحيفة (الثرثار المصري)، هو إدعاء غريب سبق ونشره صنوع في صحيفته – أبو نظارة بتاريخ ١٨٩٦/٥/١٤م – على أنه منقول من صحف أخرى تحدثت عنه – مجاملة – مثل جريدة الحاضرة التونسية التي كتبت مقالة عن صنوع عام ١٨٩٦م، جاء فيها عن صنوع: أنه "في سنة ١٨٧٦م أصدر صحيفة فكاهية هزلية سماها الثرثارة المصرية في لغات ثمانية ". وهذا الأمر لم يذكره صنوع في كتاباته، أو مذكراته، رغم مزاعمه الكثيرة! وعندما تمّ جمع صحف صنوع، وأُعيد نشرها في سبعينات القرن العشرين في بيروت، خلت تماماً من صحيفة اسمها (الثرثارة المصرية)!!

وانزعج بعض الأصدقاء من تطور الأحداث، ونصحوا الشيخ بألا يتناول أي قهوة تقدم إليه من شخص غريب (*)، وألا يخرج في المساء إلا وهو مسلح (**). ولما لم تكف العقوبات القانونية، لم يتبق أمام السلطات العليا إلا تصفية هذا الكاتب الجريء وجعل الخنجر في مواجهة قلمه، ذلك هو المنطق الأسمى لدى الطغاة الذين لا يكتفون بمحاكمهم.

ورد الوطنيون مستفسرين: " هل تصل بهم الجرأة إلى هذا الحد؟ " ووصلت بهم الجرأة. ومع علمه بالخطر، لم يتراجع المُدافع عن الشعب، وواصل. اختفت " الثرثار المصري " فأسس مكانها " أبو نظارة ". خلع اسمه على الصحيفة الجديدة كنوع من التحدي.

وأغلقت صحيفة " محفل التقدم "، فأسس " محفل العلم " وطبقاً للوائح لا يسمح بالتحدث إلا في التاريخ والأدب. وصفقت المدينة عن بكرة أبيها. وسرعان ما أصبح

(*) – كثيراً ما كان صنوع يشير في صحفه إلى محاولات الخديوي إسماعيل التخلص من أعدائه عن طريق القهوة المسمومة. فأراد صنوع تعظيم شأنه، بإيهام القراء بأنه كان نداً للخديوي إسماعيل، وهذه الندية صنعت من صنوع عدواً للخديوي، الذي أراد أن يتخلص منه عن طريق القهوة المسمومة. وحول إشارات صنوع إلى هذا الأمر، ينظر: جريدة أبو نظارة: ١٨٧٨/٤/٢٥، ١٨٧٨/٨/١٤، ١٨٧٩/١/٨، ١٨٧٩/٢/٢١، ١٨٨٠/٤/٦، ١٨٨٢/٣/٣، ١٨٨٣/٤/١٤.

(**) – نصيحة الأصدقاء لصنوع بعدم خروجه ليلاً إلا وهو مسلح، إشارة من كاتب المقال – أو بالأحرى صنوع – إلى قصة اختلقها صنوع في مذكراته، تخيل فيها أن الخديوي إسماعيل دبر محاولتين لاغتياله! يقول صنوع – عن هذا الأمر – في مذكراته المنشورة في كتاب د.إبراهيم عبده: " بينما كنت أتنزه في شبرا مساء أحد أيام مايو سنة ١٨٧٨م خارج مدينة القاهرة بصحبة عجوز فرنسي اسمه الكابتن جيرار، انقض عليّ أحد زبانية الخديوي وطعنني بسكين. فسقطت على الأرض بينما جرى الكابتن جيرار خلف الطاعن وهو ينادي رجال الشرطة ليقبضوا عليه، بيد أن رجال الشرطة تركوه يهرب حسب التعليمات .... ولما فشلت تلك المحاولة تلتها أخرى، فبينما كنت أقرع باب منزلي حوالي منتصف الليل دوّى صوت طلق ناري ومرت الرصاصة على بعد سنتمتر واحد من رأسي". وقد علق عبد الحميد غنيم على ذلك بقوله: "أعتقد أن ما ذكره صنوع بشأن محاولة الخديوي اغتياله، لم يكن سوى مجرد توهمات وتخيلات كان يحاول بها تضخيم مركزه، وتفخيم ما قام به من عمل، لتتجه إليه الأنظار وتشير إليه الأيدي، وبذلك يكتسب الرأي العام معه، عندما يُعلن على الملأ أن خصمه ليس فرداً عادياً، بل الخديوي بكل ما لديه من قوة". للمزيد ينظر: د.إبراهيم عبده – السابق – ص(٥٧)، عبد الحميد غنيم – صنوع رائد المسرح المصري – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر : الدار القومية للطباعة والنشر – ١٩٦٦ – ص(٣١).

المحفل والصحيفة مثار شغف عام. وأقبل المواطنون على الاشتراك في كل منهمـا. وتسابق الجميع في تقديم إسهاماتهم. كان ذلك أشبه بعاصفة هبت فوق الرءوس والعقول. كان التاريخ والأدب مجرد تكأة أو حجة، أما الواقع فريح السموم التي تهدد باقتلاع كل شيء: المفاسد، والقوانين، والهيئات والمؤسسات ...

وانبرت الصحيفة اللاذعة تستأنف الحرب الضروس التي بدأها الوطنيون على السلطة، وبخاصة الإنجليز، الذين تسللوا إلى كل مكان واستولوا على كل شيء. ومن جانبه، نادى المحفل بالإصلاحات التي تحتاج إليها مصر. وهي معروفة للجميع ويستطيع كل شخص أن ينقل للمجتمعين آراءه ونصائحه. لم يكن هناك قيود على الكلام. فلا يوجد سوى الأعضاء. والأبواب مغلقة وعليها رقابة مشددة لكي لا يتمكن من اقتحامها أحد من الإنجليز أو الشرطة (*).

وهكذا، تدفق الوطنيون وبأعداد ضخمة، وبدلاً من جلسة واحدة في الأسبوع كما تقضي اللوائح، اضطر القائمون على المحفل إلى عقد أربع جلسات لم تكن أيضاً كافية أمام تدفق المستمعين.

بلا أي تمييز في الملة أو الطبقة أو المستوى الاجتماعي، باشوات وبهوات، شيوخ وعلماء دين، أئمة مساجد وقضاة، ضباط وطلبة، شباب متحمس وتجار أغنياء، عمال وجنود وبحّارة، راحوا يتدافعون ويتزاحمون. وعند ظهور الخطيب، يلزم الجميع الصمت ويعيرون انتباههم كأنهم في بيت من بيوت الله.

تفتتح الجلسة وتناقش الآراء في هدوء، وصراحة. الجميع يتكلم لصالح الدولة، وليس من أجل الحصول على لقب أو تقدير أو اسم أو موقع.

المشاركون من الإداريين والمستشارين ينتمون إلى البيوتات الكبرى في المدينة. وكل شيء يتم باسمهم. يختارون الخطباء ويقبلون الاقتراحات ويناقشون الموضوعات ويقرّونها ويشجعون الكلمات أو يقطعونها. الجمهور والشرطة يعرفونهم. وكما سبق، فإن أبو نظارة لا يظهر في أي مكان.

(*) – إلى هنا تنتهي المقالة السابعة، وتبدأ المقالة الثامنة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الخامس من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٣١٧ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٥/٢٥م، وهي بعنوان (تابع الجمعيات الوطنية التي أسسها أبو نظارة).

Vingt-troisième Année

FONDATEUR
Directeur et Rédacteur en Chef
J. SANUA ABOU NADDARA
6, Rue Geoffroy-Marie. PARIS

Le Journal d'Abou Naddara

Toute communication et demande d'abonnement doivent être adressées au Directeur du Journal

N° 5. — 25 Mai 1899

ABONNEMENTS :
Avec la revue Attawaddod
et suppléments.... 1 an. 26f »
Abonnement simple. 1 an. 15 »



بيان هذا الرسم في مقالة النهارده نوسم يا قوم . واحنا نحييا يوم

DANSERA BIEN QUI DANSERA LE DERNIER

SCÈNE I.

Albion, John Bull et des soldats anglais.

Albion chante en jouant du tambourin.

God save the Queen ! Buvez, dansez,
Héros de la Grande Bretagne !
Malgré le Russe et le Français
Nôtre est ce pays de cocagne.

John Bull chante avant de jouer du fifre.

Du whisky, du brandy, versez
Dans vos grands verres de champagne.
Hourrah ! Nous eûmes du succès
Sur France, Russie, Allemagne.

A deux.

God save the Queen, etc. | Du whisky, du brandy, etc.

Albion (*aux soldats anglais qui dansent la gigue*). — All right ! Buvez en dansant et criez. Oh yes. Criez et sautez sans vous inquiéter de nos voisins ; dorénavant, personne ne vous inquiétera plus. Nous sommes enfin les maîtres de la vallée du Nil depuis sa source jusqu'à son embouchure.

John Bull. — Oui ; c'en est fait ; la France et la Russie ne parleront plus d'évacuation. Vous le voyez d'ailleurs, nous sommes devenus leurs amis en signant des arrangements qui règlent nos situations du côté de l'Afrique française et de la Russie chinoise. Quant au turc nous savons comment arrêter ses réclamations ; il nous suffira de provoquer des troubles et des séditions tantôt dans l'une, tantôt dans l'autre de ses provinces. Donc, livrez-vous à la joie, ô braves guerriers de Sa Gracieuse Majesté ! (*Il joue de son fifre*).

Albion (*chante en l'accompagnant de son tambourin et les soldats dansent*).

Réjouissez-vous, chers enfants !
Grâce à ma ruse britannique,
Russe et Français, j'ai mis dedans
En Asie, ainsi qu'en Afrique.

Je leur fis des concessions
Dans le Haut Nil et dans la Chine
Qui rendent mes possessions
Plus sûres. Ah ! suis-je coquine !

Ils ne me diront plus : « Sortez ! »
Car je devins propriétaire.
Soldats, en triomphe portez,
Albion, votre illustre Mère !

Dear John Bull, o handsome dandy,
Fill their glasses with good brandy.
Let them drink and sing and danse
To vex Russia and teaze France.

Les soldats chantent ce couplet qui signifie : Cher John Bull, beau dandi, remplis leurs verres de brandy. Qu'ils boivent, chantent et dansent pour vexer la Russie et enrager la France.

SCÈNE II.

Le Français, le Russe, le Fellah et les précédents.

Le Fellah (*tristement au Français et au Russe*). — Regardez nos infâmes envahisseurs ! Ils chantent et dansent la bouteille à la main. C'est notre sang qu'ils boivent. On dirait qu'ils sont chez eux.

Le Français. — Ils ne le seront pas pour longtemps. Mais restons à l'écart, ne nous mêlons pas à eux.

Le Russe. — Patience, brave Fellah, et laissez-nous faire.

Le Fellah (*soupirant*). — Voilà dix-sept ans que vous me dites cela. Je sais que vous êtes mes amis ; mais il s'agit de les chasser d'ici.

Le Français. — Bientôt nous les délogerons de la vallée du Nil.

Le Fellah. — Nous comptions sur vous deux pour aider moralement notre Souverain national, l'Auguste Sultan, à réclamer l'évacuation de cette province, car à la fin du compte, l'Egypte est une province ottomane, et le Sultan, pour nous, est comme le Tzar et le Pape pour vous ; il est notre chef spirituel et temporel, et c'est une indigne violence de vouloir nous séparer de lui. Et vous, mes chers Français et Russe, qui avez plus de 40 millions de Musulmans dans vos Etats, ne pensez-vous donc pas que vous faites peu pour eux pour mériter leurs sympathies en favorisant l'ennemi, l'oppresseur de tous les Mahométans?

Le Français. — Que dis-tu, Fellah? Tu m'affliges, car la France est la meilleure amie de la Turquie et de son Auguste Souverain.

Le Russe. — Ignores-tu donc que nous détestons les Anglais?

Le Fellah. — Alors pourquoi, vous deux, vous êtes-vous arrangés avec eux ?

Le Français. — Mais, bon Fellah, parce qu'il fallait avant tout consolider ma situation dans le centre de l'Afrique et unir mes possessions d'Algérie avec le Soudan et le Congo, de manière à être en mesure de lutter efficacement contre l'Anglais et de le forcer à quitter l'Egypte ; Tu as bien vu que dans mon arrangement j'ai eu soin de réserver la la question de la Vallée du Nil, et de ne rien dire qui puisse être invoqué en faveur de l'occupation britannique.

Le Russe. — Tu te trompes, brave Fellah, en me jugeant l'allié de l'Angleterre ; mais il fallait que je termine mon immense chemin de fer transsibérien et le transcaspien qui me permettront de menacer des deux côtés les Indes anglaises. Lorsque la France sera maîtresse en Afrique et moi en Asie, alors il faudra bien que l'Angleterre cède et exécute ses promesses.

Le Fellah (*secouant la tête*). — Que le ciel vous entende. Hélas ! je suis comme le moribond qui s'efforce de croire ce que les médecins lui disent. Espérons que votre concours ne se fera pas sentir trop tard, lorsque tout remède sera devenu impossible, et lorsque toutes les vaches grasses auront été dévorées par les vaches maigres.

Le Français (*à part, au Russe*). — Il a raison, le malheureux Fellah ; il faut songer à la délivrance de l'Egypte.

Le Russe (*à part, au Français*). — Fortifions-nous en Asie et en Afrique et multiplions nos vaisseaux de guerre.

Le Fellah. — Regardez-les ; ils recommencent.

(*Les soldats dansant au son du tambourin et buvant*).

Albion chante :

Hourrah ! Buvez, chantez, dansez,
Héros de la Grande-Bretagne,
Malgré le Russe et le Français,
Nôtre est ce pays de cocagne.
Triomphants, nous nous y plantons.
Nous y sommes, nous y restons.

Le Sphynx rugit :

Votre triomphe sera court,
O Fils d'Albion, la Perfide,
La Russie et la France, un jour
Du haut de cette pyramide,
Hardis vous précipiteront,
Et l'Egypte au Sultan rendront.

Le Russe (*applaudissant*). — Bravo !

Le Fellah. — En attendant les Anglais dansent.

Le Français. — Dansera bien qui dansera le dernier.

Abou Naddara.

LA MOSQUÉE PROVISOIRE DE LONDRES

Nous avons lu avec un vif intérêt, deux beaux articles consacrés par deux journaux de la Cité : *The Morning Herald* et *The Evening News*, à cette Mosquée provisoire fondée par l'honorable Hadjy Mohammed Doulié. Elle est devenue aujourd'hui le pieux rendez-vous de tous les fidèles Croyants qui vont offrir leurs actions de grâce au Maître de l'univers et entendre les éloquents sermons de Hadjy Mohammed Doulié. Toutes nos félicitations pour cet homme de bien qui glorifie Allah et célèbre son Livre saint en Angleterre et nos vœux pour cette Mosquée provisoire afin qu'elle devienne un grand sanctuaire musulman. A. N.

L'ÉGYPTE AU XIXe SIÈCLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

(*Suite du récit des associations patriotiques d'Abou Naddara en Egypte.*)

Aussi, les patriotes affluèrent-ils et, en si grand nombre, qu'au lieu d'une séance par semaine, promise par les statuts, on fut bien vite obligé d'en tenir quatre qui ne pouvaient suffire à l'affluence des auditeurs.

Sans distinction de caste ou de rang, comme toujours, ils assiégeaient les entrées avant l'heure et se précipitaient dans la salle avec leur impétuosité méridionale. Pachas, Beys, Cheikhs, Ulémas, Imams, Cadis, Officiers, Etudiants, jeunesse ardente, riches négociants, ouvriers, soldats, marins, se poussaient, se pressaient, s'entassaient tumultueusement, puis, au moment voulu, se taisaient, faisaient un rigoureux silence et, à l'apparition de l'orateur, lui prêtaient toute leur attention, comme s'ils eussent été dans la maison de Dieu.

La séance s'ouvrait ; les idées se développaient avec calme, union, sincérité. On parlait pour le bien de l'Etat, et non pour se faire un titre, un mérite, un nom, un parti, une position.

D'ailleurs, président élu, administrateurs, assesseurs, conseillers, appartenaient aux grandes maisons de la ville ; tout se faisait en leur nom ; ils admettaient les orateurs, acceptaient les propositions, discu-

صورة جزء من المقالة الثامنة

ورفع الإنجليز أصواتهم صائحين: " هذا محض افتراء! وخدعة لا يمكن أن تنطلي علينا ". وكانوا على حق. فالوطني، الزعيم، كان خفياً عن الأنظار، لكن الذكي يراه وراء كل شيء. يراقب كل شيء. يوحي بكل شيء. فلا شيء يمكن أن يتم إلا به. كان يظهر فوق المنصة لطيفاً رقيقاً بشوشاً، وحينما كان يأخذ الكلمة، كان صوته المتهدج يطغى على القاعة، وترتفع له الصدور، وتضطرب له العقول. وتنبض جميع القلوب على إيقاع قلبه من أجل مصر، الوطن، العدالة والإنصاف.

حينما يستهويه التصفيق، كان يستسلم لحماسته الفائقة، وارتجاله اللاهب، وللعاطفة التي تتملكه. ولأنه واثق أنه بين أصدقائه لا غير، وقويّ بأهدافه النبيلة الصادقة، الخالية من كل غرض، كان ينبري يصفي كل ما يثير الاشمئزاز من حماقات وتجاوزات ومخالفات مخجلة، أسواق الذهب أو الضمائر؛ ودون تردد يسم بالحديد الأحمر أبرز الشخصيات في إدارة البلاد، وفي البلاط وفي بطانة الحاكم المطلق.

قلنا إن الأبواب تكون مغلقة. والثقة كاملة في الأصدقاء الحاضرين. ولكن متى وأين لم تتمكن الخيانة من التسلل؟ وفي أي اجتماع لا نجد ألسنة مسمومة؟ وضمائر تستنطقها الطموحات وحب المال؟

سبق أن هاجم الشيخ الضرائب الجديدة، والنفقات المجنونة التي أقرها الحاكم، وفساد البلاط، والقروض، وانهيار المالية. وأعلن الرجل، وهو شيء رهيب وجريمة لا تغتفر، أن الحاكم ينفق الذهب المخصص للدفاع عن البلاد والجيش والأسطول وشق الطرق والقنوات والزراعة والمستشفيات، ينفق ذلك الذهب على أبهته الشخصية، ذلك المال الذي لا ينبغي أن يصل إلا إلى أيدي الذين يخدمون الدولة والفقراء والمساكين.

كانت التقارير مفزعة. فتم مراجعتها والتحقق منها، فتبين أنها صادقة. فاشطاط غضب إسماعيل واعتقد البلاط أن الصاعقة ستدمر المذنبين. غير أن البرق وحده لمع في السماء وترددت العاصفة كأنما لكي تعطي الفرصة للمجرمين لكي يتوبوا.

أحياناً يكون الملوك رحماء مثل الخالق عز وجل. ذات مساء، أو بالأحرى ذات ليلة، لأن الشمس تغيب منذ الرابعة تقريباً وجاء شخص غامض إلى بيت أبو نظارة.

فمن يكون ذلك الزائر في هذا الوقت غير المناسب. عرفه الشيخ بمجرد دخوله، إنه صاحب الفخامة خيري باشا كبير التشريفات الخديوية جاء من طرف الحاكم. وبكل بساطة وبلا تردد كأنه يقوم بشيء طبيعي، شرح الرجل للشيخ سبب الزيارة.

ولما كان واثقاً من أن الشيخ سيحسن استقباله كما هي العادة في مثل هذه المساعي، فقد قدم إليه، وبلا مقدمات، أربعة آلاف جنيه مصري، أي مائة وأربعة آلاف فرنك فرنسي، بالإضافة إلى مكان في الحكومة براتب كبير، ورتبة عقيد في الجيش، إذا صرح له الشيخ بأسماء الأشخاص الذين أخبروه بالوقائع الخاصة جداً التي تضمنها التقرير الذي نشرته الصحيفة.

ثم عقب الباشا بهذه النصيحة الأخوية: " من الأفضل يا شيخ، أن تخبرني بذلك، لأن شرطة مولانا تعرف كل شيء. ستعرف ذلك من مصادر أخرى؛ وسينال الباشوات عقابهم وتحصل أنت على المكافأة "

واسترد أبو نظارة هدوءه بعد الانفعال الأول. ونهض غاضباً يعلن للزائر أنه لا يمكن أن يرتكب مثل هذه الخيانة، ولو في مقابل ذهب الأرض.

ورأى الرسول ألا فائدة من الإلحاح. ونهض هو الآخر ساخطاً. وتوجه نحو الباب. وخرج معتقداً أنه انصرف كما جاء في سرية تامة. كان الوقت منتصف الليل، وكان الطريق يبدو خالياً، لكنه لم يكن كذلك. فقد كان هناك من يقتفي أثر الرجل ويراقبه، فقد سمع الوطنيون بخروجه. وقبل طلوع النهار، كانت المدينة كلها على علم بالفخ الذي نصب للشيخ وبالزيارة ونتائجها (*).

(*) – قصة عرض الرشوة من قبل خيري باشا لصنوع من الصعب التحقق من صحتها، لأنها حدثت – تبعاً لوصفها في هذا المقال – في سرية تامة، وكانت بين صنوع وخيري باشا دون شاهد عليهما. ورغم ذلك فالشك يحيط هذه القصة من جوانب كثيرة!! فصنوع ذكر هذه القصة من قبل في جريدته (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٧٩/٧/١ – الصادرة في فرنسا – قائلاً عن الخديوي إسماعيل: "وقبل طلوع نمرة خمستاشر [المقصود العدد الخامش عشر من صحيفته في مصر] بيومين بعت لي لبيتي (باشته ذو القرنين) وقال لي بكلمتين مختصرين أربعة آلاف جنيه منتظراك في عبدين [أي قصر الخديوي في عابدين] ولا حد يعرف ولا يدري قط. بس قل لنا من في بالك حط فكرة الجورنال ومين أعطاك الأخبار اللي هي عندنا من أعظم الأسرار". والملاحظ أن صنوعاً لم يذكر اسم هذا الباشا واكتفى بوصفه بصورة ساخرة بأنه (ذو القرنين)! ومن المحتمل أن هذا الوصف ينطبق على أي باشا من الباشوات في هذا التاريخ ١٨٧٩م، وليس بالضرورة أن يكون خيري باشا. ولكن في

وفي الصباح، علم الخديوي أيضاً بما جرى، فانفجر غيظه المكتــوم. ودوي رعد الخديوي وأصابت العاصفة هذه المرة وكر العــصاة المتمــردين الــذين تقلــق اجتماعاتهم راحة السلطان. وأغلق المحفل (*)، ولُوحق رئيــسه، انفــضت إدارتــه،

هذا المقال المنشور عام ١٨٩٩م نجد الكاتب – بإيعاز من صنوع قطعاً، إن لم يكن صنوع هو الكاتب الأصلي – يُعيد ذكر القصة بخياله الروائي، ويذكر اسم الزائر بأنه خيري باشا! والسؤال الآن: لماذا لم يذكر صنوع اسم خيري باشا عندما نشر هذه القصة أول مرة عام ١٨٧٩م، وذكر اسمه صراحة عام ١٨٩٩م؟! الإجابة يسيرة للغاية .. في عام ١٨٧٩م كان يستطيع خيري باشا أن يُكذّب صنوع فيما يدعيه، أما في عام ١٨٩٩م فلا يستطيع خيري باشا ذلك، لأنه توفى عام ١٨٨٧م!! وهكذا يتضح للقارئ أن صنوعاً يبني نفسه واسمه وأسطورته الهشة من المزاعم والافتراءات، مستغلاً كل مناسبة – حتى ولو كانت الموت – في صالحه، ليضمن عدم تكذيبه أو الرد عليه من قبل الأموات! فعندما مات خيري باشا أدعى عليه كذباً قصة الرشوة! وعندما عُزل الخديوي إسماعيل نشر صنوع مقالة كبيرة – في صحيفته بتاريخ ١٨٧٩/٧/١م - يحكي فيها ذكرياته المزعومة مع الخديوي إسماعيل! وعندما مات الخديوي توفيق نشر صنوع مقالة ضخمة – في صحيفته بتاريخ ١٨٩٢/١/٢٥م – حكى فيها ادعاءات كثيرة زعم أنها حدثت بينه وبين الخديوي! هذا هو أسلوب صنوع، وهذا هو استغلاله لصحيفته، تلك الصحيفة التي صنع صنوع من أوراقها أسطورته.

(*) – لم نجد باحثاً واحداً – حتى الآن – استطاع أن يثبت بدليل واحد أن صنوعاً كوّن محفل التقدم أو محفل العلم – أو جمعية محبي العلم والأوطان – ولم نجد خبراً واحداً معاصراً للأحداث يشير إلى هذا الموضوع. ويصعب على أي باحث الحديث عن هذا الموضوع بعيداً عن أقوال صنوع، لأنها المصدر الوحيد. وبالرغم من ذلك فإن قصة هذين المحفلين، قصة خيالية من قصص صنوع وأكاذيبه! فصنوع ذكر هذين المحفلين في صحفه مرتين: الأولى بتاريخ ١٨٧٩/٧/١، وقال فيها: "وعملت لي جمعيتين علم للشبان. الأولى دعيتها محفل المتقدمين. والثانية جمعية الخلان. وكانوا يحضروا جمعية الخلان ناس عظام ومشايخ الأزهر الكرام ونور العلم الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني فصيح اللسان وظريف المعاني وكان هو وهم يتلوا علينا مقالات عظام. درجت أغلبهم في صحيفتها الأهرام. فلما وصل الخبر إلى فرعون [يقصد الخديوي إسماعيل] زعق ودبدب كالمجنون وحرّج من تحت لتحت على المشايخ والمستخدمين بأنهم لا يجتمعوا ليلاً في محافل وإلا يصيروا مرفوتين. فطبعاً انقفلت الجمعية الداعية للتمدن والحرية". والأخرى بتاريخ ١٨٨٧/٢/٢٨، وقال فيها: " كونت جمعيتين علمي للشبان. ودعوتهما محفلي التقدم وجمعية محبي العلم والأوطان. وكان يحضر جلساتنا ناس عظام من تلامذة المدارس ومشايخ الأزهر الكرام. وكذلك السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده وأمثالهم من فلاسفة العرب المشهورين وأذكى شبان طايفة الشوام الفخام وطائفة الإسرائيليين. وكانوا يطربوا الحاضرين بمقالات عظام. نشرت أغلبها جريدة الأهرام. فلما وصل الخبر إلى إسماعيل الفرعون. همهم ودمدم كالعون. ومنع المشايخ والمستخدمين من الحضور إلى جمعية محبي العلم وإلا يصير طردهم من المساجد والدواوين. فانقفلت الجمعية. الداعية للتمدن والحرية". وأقوال صنوع هذه عن محفليه، ربما تحمل بعض الأدلة التي ترشدنا إلى حقيقة الأمر! فقد ذكر إن جريدة الأهرام نشرت مقالات هذين المحفلين! ولكننا لم نجد

وعوقب الضابط، وأثبت إسماعيل مرة أخرى أن أنصاف الآلهة (السلاطين) لا يحبون اختراق السحب التي تحيط بهم.

أبو نظارة وحده هو الذي لم ينزعج؛ غير أن الأصدقاء الذين حذروه كانوا على حق. أرجأوه للنهاية، لشيء آخر، فلم يشاءوا أن يتصرفوا في وضح النهار.

سطراً واحداً في جريدة الأهرام يشير إلى هذا الأمر! كما أن الدكتور إبراهيم عبده – ناشر مذكرات صنوع – اطلع على جميع أعداد جريدة الأهرام، وكتب كتاباً ضخماً بعنوان (جريدة الأهرام : تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة)، ولم يجد إشارة واحدة عن محفلي صنوع؛ كي يعضد كلام صنوع في هذا الشأن! وبالمنطق نفسه نقول : إذا كانت جريدة الأهرام ذكرت أية إشارة عن محفلي صنوع، لكان أثبتها د.محمد يوسف نجم، عندما تحدث عن صنوع في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث)! لأن اعتماده الأساسي في مراجع هذا الكتاب كان على جريدة الأهرام منذ صدورها. أما قول صنوع إن الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، كانا ضمن أعضاء هذين المحفلين! فهذا الادعاء كان القشة التي قصمت ظهر البعير! ففي عام ١٨٧٩م خطب الأفغاني – في مصر – خطبة عامة تحدث فيها عن موضوع (تربية الأمم)، موضحاً الأثر الإيجابي للصحف على الأمة العربية. وفي هذه الخطبة، ذم الأفغاني يعقوب صنوع وصحيفته ذماً شديداً، ونفى أية علاقة تربطه به، فقام الشيخ محمد عبده بنشر هذه الخطبة، وشرح ما فيها – في جريدة التجارة المصرية بتاريخ ١٨٧٩/٦/٣ – حتى وصل في شرحه إلى صحيفة صنوع، قائلاً عنها وعن صاحبها: " .... جرنال أبي نظارة. ذاك الجرنال الهزأة الذي لم يدع قبيحة من القبائح إلا احتواها ولا رذيلة من الرذائل إلا أحصاها. أتى من العبارات ما لا يستطيع السوقة وأدنياء الناس أن يأتوا به. وجعل ديدنه السب والثلب وثلم الأعراض وتمزيق حجاب الإنسانية والقدح في السير الشخصية بما لا يليق أن يتفوه به الصبيان، مما يفسد الأخلاق ويذيب ماء الوجوه خجلاً وحياء .... مع إنه لا يحتوى على سياسة ولا أخبار ولا مضحكات ولا فكاهات، بل هو محض الشتم واللطم .... ولم يكن ذلك من محرر هذا الجرنال الهزء البارد إلا لدناءة الطبع والميل إلى كسب الدنانير والدراهم .... ولقد تغالى منشئه في الوقاحة حتى أشار في كتاباته وخزعبلاته أن أبناء المجامع المقدسة ذات المقاصد العالية المبنية على محض الأدب والإنسانية هم مشاركوه في عمله هذا. حاشاهم حاشاهم أن تتدانى همتهم لهذه المقاصد السافلة فقد كذب وافترى واعتسف واعتدى"! ومن الجدير بالذكر، إن أي باحث لا يستطيع أن يكتب عن علاقة الأفغاني بصنوع من غير أن يعتمد على أقوال صنوع في هذا الشأن، لأنه لن يجد مرجعاً أو مصدراً – معاصراً لفترة وجود صنوع في مصر – يتحدث عن هذه العلاقة. فعلى سبيل المثال، كتب الدكتور عبد الباسط محمد حسن كتاباً عن الأفغاني بعنوان " جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث "، به أربع صفحات عن يعقوب صنوع وعلاقته بالأفغاني، اعتمد فيها الدكتور على مراجع معتمدة فقط على مذكرات صنوع وأقواله في صحفه. وهذا الأمر تكرر في أغلب الكتب التي تحدثت عن علاقة الأفغاني بصنوع. وللمزيد، انظر: د.عبد الباسط محمد حسن – جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث – مكتبة وهبة – ط١ – ١٩٨٢ – ص(٢١٢–٢١٥). وللمزيد عن مزاعم صنوع حول علاقته بالأفغاني في مصر، انظر: د.سيد علي إسماعيل – محاكمة مسرح يعقوب صنوع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١ – ص(١٧٠–١٨٧).

وثبت الدليل على ذلك. فذات مساء، وبينما كان الرجل يعبر بمفرده الشارع في أحد الأحياء الخالية، دوّي طلق ناري بالقرب منه. حفت الرصاصة بوجهه وانتهت في جدار قريب.

ارتعشت يد الجاني فلم يصب الهدف. ورأى المجرم أنه فشل في مهمته فلاذ بالفرار. أما الشيخ، فمع أنه كان بمفرده ولا يحمل سلاحاً، إلا أنه لم يتردد في ملاحقة المجرم وهو يصيح طالباً النجدة.

نداءات عقيمة: كان الشارع خالياً وتمكن الجاني من الاختفاء قبل أن يلحق به أبو نظارة. إلا أن الشيخ خمّن من كان وراء هذا الاعتداء الذي لم يكن يستهدف السرقة ولا الانتقام. فقد كان أبو نظارة محبوباً من الجميع. ولم يكن له أعداء إلا في السلطة. إذن فهي جريمة سياسية. وقد أدرك الشعب نفسه ذلك، بل واستطاع أن يحدد المحرض عليه. ولكن لم يكن لديه الدليل. وتبدد سخط الناس أمام الغموض الذي اكتنف الجريمة.

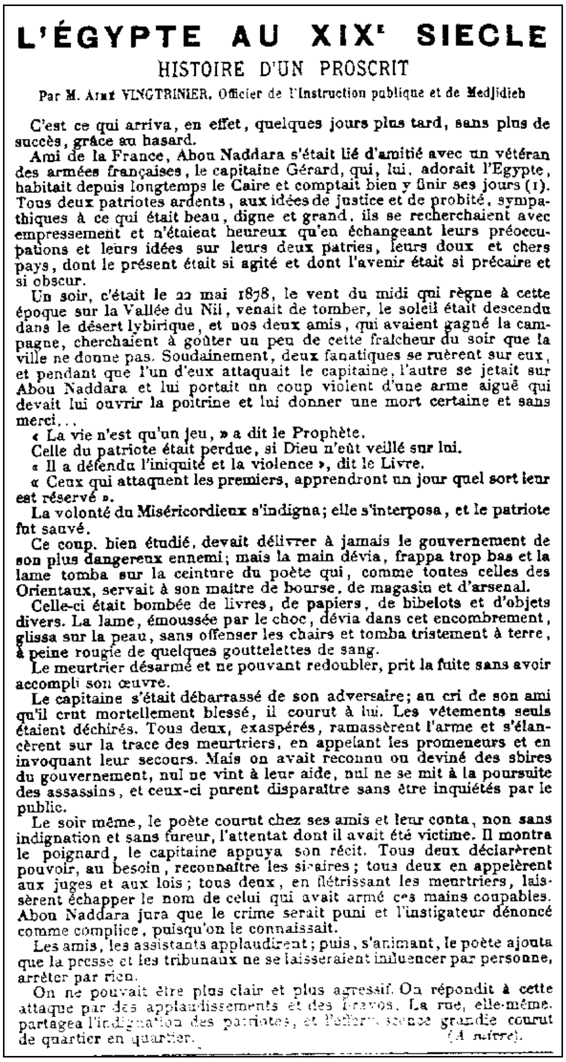
ماذا يفعل الناس، ليس بمقدورهم عمل شيء، ففوضوا أمرهم إلى الله، فهو الذي يتولى القصاص. كل ما هناك أن الوطنيين، وبخاصة أصدقاء الشيخ، توسلوا إليه أن يأخذ حذره وألا يخرج في المساء بغير سلاح. ووعدهم أبو نظارة بذلك، لأنه كان واثقاً من أنها لم تكن سوى محاولة أولى، ولابد أن تتبعها أخرى (*).

وهذا ما حدث فعلاً بعد عدة أيام، ولكن لم يحالفهم الحظ. كان أبو نظارة صديقاً للفرنسيين، وكان قد ارتبط بعلاقة صداقة مع أحد العاملين في الجيوش الفرنسية، هو الكابتن جيرار، الذي كان من جانبه يعشق مصر ويقيم في القاهرة منذ زمن طويل، وينوي أن يختم حياته منها (١).

كلاهما كان وطنياً مخلصاً، يؤمن بأفكار العدالة والشرف والنزاهة. كان كل منهما يسعى لرؤية الآخر والتحاور معه في الأمور التي تهم بلديهما، بلديهما الحبيبين اللذين يمران بظروف صعبة تنبئ عن مستقبل غامض غير مستقر.

(*) – إلى هنا تنتهي المقالة الثامنة، وتبدأ المقالة التاسعة المنشورة باللغة الفرنسية في العدد السادس من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ١٧ صفر سنة ١٣١٧ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٦/٢٥م.

(١) – مات الرجل فعلاً في القاهرة بعد ذلك بعامين.


L'ÉGYPTE AU XIX^E SIECLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. Aimé VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

C'est ce qui arriva, en effet, quelques jours plus tard, sans plus de succès, grâce au hasard.

Ami de la France, Abou Naddara s'était lié d'amitié avec un vétéran des armées françaises, le capitaine Gérard, qui, lui, adorait l'Egypte, habitait depuis longtemps le Caire et comptait bien y finir ses jours (1). Tous deux patriotes ardents, aux idées de justice et de probité, sympathiques à ce qui était beau, digne et grand, ils se recherchaient avec empressement et n'étaient heureux qu'en échangeant leurs préoccupations et leurs idées sur leurs deux patries, leurs doux et chers pays, dont le présent était si agité et dont l'avenir était si précaire et si obscur.

Un soir, c'était le 22 mai 1878, le vent du midi qui règne à cette époque sur la Vallée du Nil, venait de tomber, le soleil était descendu dans le désert lybirique, et nos deux amis, qui avaient gagné la campagne, cherchaient à goûter un peu de cette fraîcheur du soir que la ville ne donne pas. Soudainement, deux fanatiques se ruèrent sur eux, et pendant que l'un d'eux attaquait le capitaine, l'autre se jetait sur Abou Naddara et lui portait un coup violent d'une arme aiguë qui devait lui ouvrir la poitrine et lui donner une mort certaine et sans merci...

« La vie n'est qu'un jeu, » a dit le Prophète.

Celle du patriote était perdue, si Dieu n'eût veillé sur lui.

« Il a défendu l'iniquité et la violence », dit le Livre.

« Ceux qui attaquent les premiers, apprendront un jour quel sort leur est réservé ».

La volonté du Miséricordieux s'indigna; elle s'interposa, et le patriote fut sauvé.

Ce coup, bien étudié, devait délivrer à jamais le gouvernement de son plus dangereux ennemi; mais la main dévia, frappa trop bas et la lame tomba sur la ceinture du poète qui, comme toutes celles des Orientaux, servait à son maître de bourse, de magasin et d'arsenal.

Celle-ci était bombée de livres, de papiers, de bibelots et d'objets divers. La lame, émoussée par le choc, dévia dans cet encombrement, glissa sur la peau, sans offenser les chairs et tomba tristement à terre, à peine rougie de quelques gouttelettes de sang.

Le meurtrier désarmé et ne pouvant redoubler, prit la fuite sans avoir accompli son œuvre.

Le capitaine s'était débarrassé de son adversaire; au cri de son ami qu'il crut mortellement blessé, il courut à lui. Les vêtements seuls étaient déchirés. Tous deux, exaspérés, ramassèrent l'arme et s'élancèrent sur la trace des meurtriers, en appelant les promeneurs et en invoquant leur secours. Mais on avait reconnu ou deviné des sbires du gouvernement, nul ne vint à leur aide, nul ne se mit à la poursuite des assassins, et ceux-ci purent disparaître sans être inquiétés par le public.

Le soir même, le poète courut chez ses amis et leur conta, non sans indignation et sans fureur, l'attentat dont il avait été victime. Il montra le poignard, le capitaine appuya son récit. Tous deux déclarèrent pouvoir, au besoin, reconnaître les sicaires; tous deux en appelèrent aux juges et aux lois; tous deux, en flétrissant les meurtriers, laissèrent échapper le nom de celui qui avait armé ces mains coupables. Abou Naddara jura que le crime serait puni et l'instigateur dénoncé comme complice, puisqu'on le connaissait.

Les amis, les assistants applaudirent; puis, s'animant, le poète ajouta que la presse et les tribunaux ne se laisseraient influencer par personne, arrêter par rien.

On ne pouvait être plus clair et plus agressif. On répondit à cette attaque par des applaudissements et des bravos. La rue, elle-même, partagea l'indignation des patriotes, et l'effervescence grandie courut de quartier en quartier. (A suivre).

صورة جزء من المقالة التاسعة

وذات يوم، وكان ذلك في ٢٢ يناير ١٨٧٨م، كانت ريح الجنوب التي تهب على وادي النيل في تلك الفترة قد وصلت منذ قليل. وكانت الشمس قد هبطت في صحراء ليبيا، وكان صديقانا اللذان انتقلا إلى الريف يسعيان بحثاً عن نسمة مساء طرية لا يجدانها في المدينة. وعلى حين فجأة انقض عليهما إرهابيان. وبينما كان أحدهما يهاجم الكابتن انقض الآخر على أبو نظارة وطعنه طعنة قوية بسلاح حاد من شأنها أن تشق صدره وتقضي عليه قضاءً مبرما لا رحمة فيه.

قال تعالى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وأما حياة صاحبنا فكانت ستنقضي لولا رحمة ربي. الذي يقول أيضاً في كتابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ويقول ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

وتدخلت إرادة الله، ونجا الوطني الشريف. هذا الاعتداء الذي تم التخطيط له جيداً، كان كفيلاً بأن يخلص الحكومة من ألد أعدائها. لكن يد الجاني انحرفت واتجهت أسفل كثيراً وطعنت حزام الكاتب الذي يتخذه الشرقيون عادة حافظة نقود وخازنة ومستودع سلاح. أما حزام صاحبنا فكان مليئاً بالكتب والأوراق وأشياء مختلفة اخترقتها الطعنة الطائشة، وتسللت إلى الجلد دون أن تصيب اللحم، وسقط السلاح على الأرض وقد تلطخ ببعض نقاط من الدم يسيرة. أما الجاني، فلما تبين أنه فقد سلاحه ولا يستطيع أن يعيد الكرة، لاذ بالفرار دون أن ينفذ مهمته.

وأما الكابتن فكان قد تمكن من التخلص من غريمه؛ وأسرع على صوت زميله الذي ظن أن طعنته قاتلة. والتقط الرجلان السلاح ولملما ملابسهما التي تمزقت وانطلقا وراء المجرمين وهما يستغيثان بالمتنزهين لمساعدتهما. لكن الناس تبينوا أو خمنوا وجود شرطة الحكومة، فلم يبادروا بالمساعدة ولم يحاول أحد أن يلحق بالمجرميْن اللذين تمكنا من الاختفاء دون أن يتعرض لهما أحد من الجمهور.

وفي مساء اليوم نفسه، أسرع الكاتب إلى أصدقائه، وقص عليهم قصة الاغتيال الذي تعرض له وهو يتميز من الغيظ. وقدم لهم الخنجر. وصدّق الكابتن على أقواله. وصرح الرجلان أن باستطاعتهما التعرف على الجناة عند الحاجة. ولجأ كلاهما إلى القضاء. وفي غمرة وصفهما للمجرمين ألمحا إلى اسم المحرض الذي جند الجناة. وأقسم أبو نظارة أن الجريمة لن تمر بلا عقاب. وأضاف أن الصحافة والقضاء لا يمكن أن يتأثرا بأحد. وأيد الجميع أبو نظارة وصفقوا له. وتناقل الناس الخبر الذي انتشر من حي إلى حي (*).

لو أن أبو نظارة في هذه اللحظة انطلق يجوب الشوارع والميادين وأماكن التجمعات، وأثار الجماهير ودعا الشعب إلى حمل السلاح، لتبعه الناس ولتوجهوا إلى

(*) – إلى هنا تنتهي المقالة التاسعة، وتبدأ المقالة العاشرة – والأخيرة – المنشورة باللغة الفرنسية في العدد الثامن من جريدة (أبو نظارة) بتاريخ ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هجرية، الموافق ١٨٩٩/٩/٢٤م.

قصر الخديوي، ولربما قاموا بثورة وخلعوا الخديوي، ولجنت مصر من وراء ذلــك الكثير من الإصلاحات.

L'ÉGYPTE AU XIX^e SIECLE

HISTOIRE D'UN PROSCRIT

Par M. AIMÉ VINGTRINIER, Officier de l'Instruction publique et de Medjidieh

(Suite)

Si, en ce moment, Abou Naddara eût parcouru les rues, les places et les lieux de réunion, soulevé les masses, et, avec les patriotes, appelé le peuple aux armes, on l'eût suivi, on eût marché sur le palais khé-divial, fait, peut-être, une révolution, détrôné Ismaïl, mis Tewik à sa place, ou mieux, le prince Halim, bien supérieur et plus aimé; il eût accepté pour lui une position, ministère ou gouvernement de province, que tout le monde lui eût offerte et que nul ne lui eût disputé. Dans tous les cas, du moins; il eût fait une émeute qui eût épouvanté Ismaïl, mis en fuite Nubar, dispersé les courtisans, ébranlé l'Etat et montré à l'Egypte qu'il fallait compter avec le Voyant!

Quelles réformes n'eût-il pas obtenues!

Mais fier et soumis, patriote et non révolutionnaire, bon citoyen, respectueux de l'ordre établi, des lois, des coutumes et des mœurs, il eût horreur de troubler l'Egypte pour sa vengeance, son amour-propre ou son avantage personnel. Il n'avait aucune ambition, il se calma, rentra chez lui et attendit. C'était sa perte.

Ses ennemis ne comprirent ni sa grandeur d'âme ni son abnégation.

Fou de colère, outré qu'on eût livré sa personne auguste et sacrée à la risée du public, Ismaïl, sans avoir connu même le danger qu'il avait couru, se hâta de se venger.

Poussé par Nubar et les Anglais, il fut sans pitié.

Fût-ce à la suite d'un jugement? par ordre des tribunaux? de la police? ou par un caprice du Khédive? je l'ignore.

Un khawas se présenta au domicile d'Abou Naddara porteur d'un ordre qui ne souffrait ni appel ni sursis.

Le patriote était chassé de l'Egypte, expulsé comme un malfaiteur, exilé à tout jamais de sa patrie, comme un criminel.

Il était mis honteusement hors la loi.

Ses biens étaient confisqués; ils devaient être immédiatement vendus au bénéfice du Trésor.

Il devait s'éloigner sur-le-champ

C'était un ordre du plus barbare despotisme; il se soumit.

Le peu qu'on lui laissait fut bientôt prêt; accompagné et surveillé par la police, le cœur brisé, il quitta le Caire sans dire adieu à ses amis.

Sa mère était morte; il était seul; c'était une consolation de penser que lui seul souffrirait.

Les rares personnes qui s'aperçurent de son départ et purent le suivre au chemin de fer, le saluèrent et l'acclamèrent, non comme un prisonnier, mais comme un triomphateur; non comme une victime, mais comme un libérateur béni du Ciel.

Dès qu'on sut le terrible événement, le peuple le suivi de ses vœux, de sa compassion et de sa douleur. On se tut, parce que c'était écrit et que le paradis sera pour ceux qui acceptent le châtiment que Dieu inflige...

Seulement, on n'oublia pas, et le Khédive s'en aperçut, bien peu de mois plus tard.

Le convoi traversa les riches plaines du Delta et bientôt découvrit la mer. C'était la fin.

Abou Naddara pleurait en voyant fuir derrière lui ces villes et ces terres qu'il connaissait si bien et qu'il ne reverrait plus. Alexandrie parut et sa douleur si vive redoubla.

Le bruit de son exil l'avait précédé. En s'approchant du vaste port couvert de navires, le poète aperçut la foule qui s'agitait. On le conduisit directement de la gare au quai d'embarquement; là deux mille personnes l'attendaient et ce n'étaient pas des curieux, c'était des amis. Dès qu'il parut, des cris et des acclamations s'élevèrent. On le jeta dans une barque avec ses minces effets, et on donna l'ordre immédiat de démarrer. La police refoulait le peuple qui cherchait à s'approcher et que les soldats avaient peine à maintenir.

Mais dès que les rames plongèrent dans les vagues et qu'elles se mirent à nager, vivement deux mille voix couvrirent les bruits du port de leurs protestations et de leurs adieux.

Les bras, les mouchoirs, les ceintures s'agitaient en l'air, et malgré les efforts des khawas, plusieurs barques se détachèrent du rivage pour accompagner le proscrit.

« Adieu, Prophète! Adieu, serviteur de Dieu! criait la foule. Dis-nous l'avenir! Fais-nous une prédiction avant ton départ! Dis-nous ce qui doit arriver! Parle, Voyant! Parle ami de Dieu! Parle, serviteur du Puissant et du Vengeur! »

Oubliant tout, Abou Naddara se leva d'un bond et répondit :

« Ecoutez, croyants! Ecoutez, fils du Prophète! et retenez ceci :

« Aussi vrai que je suis chassé aujourd'hui de ma patrie, celui qui me frappe, avant un an, à son tour, sera chassé du trône! car Dieu est juste comme il est puissant! (*Historique*).

On bouscula le Voyant et on le fit tomber précipitamment sur son banc; on lui interdit la parole, et les marins nageant plus vite, on accosta en toute hâte, le paquebot de la Compagnie Frayssinet qui était sous vapeur, prêt à cingler vers Marseille.

Cette prophétie jeta la terreur dans la foule; elle eut un retentissement profond dans l'Egypte entière et quand, un an plus tard, Ismaïl fut détrôné laissant le pays avec deux milliards de dettes, et les Anglais pour l'achever, le peuple répéta en frémissant : « Le Voyant l'avait bien dit! »

Abou Naddara, tremblant d'émotion, mit le pied sur le paquebot Frayssinet le 28 Juin 1878. Ruiné, proscrit, sans espoir et sans avenir, ses amis dispersés, ses ennemis triomphants, il jeta un regard désespéré vers le Ciel.

A sa droite, brillait l'étoile polaire; il en détourna les yeux.

A sa gauche, un astre étincelait au-dessus de Paris, comme un phare de sécurité, comme un appel.

Il était sur un bateau français; les trois couleurs de la France le couvraient comme une protection.

Paris! la France! n'est-ce pas là que les proscrits se réfugient? que les fugitifs accourent? que les malheureux trouvent un abri?

La France! C'était la liberté; c'était l'espoir, peut-être l'avenir!

Quel accueil allait-il y trouver? (*A suivre.*)

صورة جزء من المقالة العاشرة والأخيرة

لكن أبو نظارة المعتز بنفسه والخاضع في الوقت نفسه، الوطني لا الثوري، المواطن الصالح الذي يحترم النظام القائم والقوانين والتقاليد والعادات، يستبشع أن يثير الاضطرابات في مصر من أجل الثأر لنفسه، من أجل صالحه الشخصي. لم يكن لديه أي مطمع، فلزم الهدوء وعاد إلى بيته وانتظر. وكان في ذلك ضياعه.

لم يدرك أعداؤه سمو نفسه ولا إنكار ذاته. وإذا بالخديوي وقد جن جنونه لتعرض شخصه السامي المقدس لسخرية الجماهير، بل وحتى دون أن يدرك الخطر الذي سعى إليه، أسرع بالانتقام. وتجرد من الرحمة، بعد أن شجعه على ذلك نوبار والإنجليز. هل كان ذلك عقب محاكمة؟ بأمر من القضاء؟ من الشرطة؟ أم بفعل نزوة من الخديوي؟ لا أدري.

الذي حدث أن خوّاصا طرق منزل أبو نظارة حاملاً إليه أمراً لا يقبل إيقافاً ولا استئنافاً. لقد طرد المواطن المصري الشريف من وطنه مصر، منبوذاً كأي مجرم. نُفي الرجل من وطنه للأبد. وصودرت أملاكه، وبيعت جميعها وفوراً لصالح خزانة الدولة. كان لابد أن يخرج من فوره.

كان الأمر صادراً عن أكثر النظم الاستبدادية همجية وبربرية. واستسلم الرجل. ولم يُمهَل الرجل، وخرج تقتاده الشرطة، محطم القلب، مغادراً القاهرة دون أن يودع أصدقاءه.

كانت أمه قد فارقت الحياة؛ فكان وحيداً. وكان ذلك سلوى له أن يتعذب هو بمفرده. أما القلة من الأشخاص الذين علموا برحيله وخرجوا وراءه حتى محطة القطار، فقد سلموا عليه وحيّوه وهتفوا وهللوا له، ليس باعتباره سجيناً وإنما باعتباره منتصراً؛ ليس باعتباره ضحية، وإنما باعتباره محرراً تباركه السماء.

وما أن استوعب جماهير الشعب الحادثة، حتى خرجوا يشيعونه بالتمنيات ونظرات العطف والألم. ولزم الجميع الصمت لأن ذلك كان مكتوباً، والجنة هي عاقبة الذين يرضون بالعقاب الذي ينزله الله بهم.

لكن الأمر لم يطوه النسيان. وقد أدرك الخديوي ذلك بعد أشهر قليلة. واجتاز الركب سهول الدلتا. وسرعان ما وصل إلى البحر. وكانت النهاية.

بكى أبو نظارة وهو يشاهد من خلفه المدن والقرى التي يعرفها حق المعرفة ولن يراها مرة أخرى. حينما ظهرت الإسكندرية تضاعف ألمه العميق.

الغريب أن خبر نفيه سبقه. فعندما اقترب من الميناء الواسع المليء بالبواخر، لمح الرجل الجماهير المضطربة. وبسرعة اقتادوه مباشرة من محطة القطار إلى رصيف الميناء. كان في استقباله ألفا شخص. لم يكونوا من المتطفلين، بل كانوا أصدقاء. وما أن ظهر حتى دوي الهتاف والصياح. فدفعوه في قارب صغير مع أمتعته البسيطة. وعلى الفور صدر الأمر بالإقلاع. وقامت الشرطة بمنع الجماهير التي كانت تحاول الاقتراب ووجدت في ذلك صعوبة فائقة.

وما أن شقت المجاديف الأمواج وبدأت تتحرك، حتى ارتفعت أصوات ألفي إنسان لتطغى على ضوضاء الميناء بصيحات الاحتجاج وعبارات الوداع. وجعلت المناديل والأذرع والأحزمة تموج في الهواء. وعلى الرغم من جهود الخواصين انفلتت عدة مراكب من الشاطئ لمصاحبة الرجل المنفي.

وكانت صيحات الجماهير ترتفع قائلة: " وداعاً أيها النبي المرسل! وداعاً عبد الله! وداعاً يا خادم الله. أنبئنا بالمستقبل. قل لنا بنبوءة قبل أن ترحل! أخبرنا بما سيقع! تكلم! أيها العراف! يا خليل الله! تكلم! يا عبد الله القادر المنتقم الجبار! "

ونسى أبو نظارة كل شيء، وانتفض واقفاً وقال: " أيها المؤمنون، اسمعوا! اسمعوا يا أبناء الرسول! عوا ما أقول لكم: " كما أن طردي اليوم من وطني حق وصدق، فإن الذي يرغمني على ذلك، سوف يُخلع عن العرش قبل عام. لأن الله عادل وعلى كل شيء قادر!

ودفعت الشرطة بالعراف ليسقط على مقعده. ومنعوه من الكلام. وانطلق البحارة، وبكل سرعة أصبحوا بحذاء الباخرة التابعة لشركة " فرايسينيه " التي كانت على أهبة الاستعداد للإبحار إلى مرسيليا.

نشرت هذه النبوءة الرعب بين الجماهير؛ وسرى لها دويّ شديد في جميع أنحاء مصر. وحينما تم خلع إسماعيل بعد عام تاركاً البلاد بديون بلغت المليارين، والإنجليز ليجهزوا عليها، راح الشعب يهتف وهو ينتفض من التأثر: " لقد صدق العراف ".

في الثامن والعشرين من يونيو ١٨٧٨م، وضع أبو نظارة قدمـــه علـــى ظهـــر الباخرة فرايسينيه. وهو محكوم عليه بالنفي، مفلس، بلا أمل ولا مستقبل. وقد انفـــرط عقد أصحابه وانتصر أعداؤه. حينئذ ألقى نظرة على السماء من فوقه. على يمينه كان النجم القطبي يلمع في السماء، فحول عينيه عنه. وعلى يساره كان يبرق نجـــم فـــوق باريس، كأنه منار للأمن، كأنه دعوة أو نداء.

كان أبو نظارة على ظهر باخرة فرنسية؛ وكانت ألوان فرنسا الثلاثـــة تغطيـــه كأنها تحميه. باريس، فرنسا. أما إلى هاهنا يلجأ المحكوم علـــيهم بـــالنفي؟ ويهـــرع الفارون؟ ويجد البؤساء ملاذهم؟ فرنسا! هي الحرية! هي الأمل! وربما المستقبل. فأي استقبال سيلقاه هناك؟ (*)

(*) – إلى هنا تنتهي سلسلة هذه المقالات، رغم أن المقالة الأخيرة – العاشرة – تنتهي بكلمة (يتبع)، وهي الكلمة التي انتهت بها كل مقالة سابقة!! وبالرغم من ذلك لم نجد بقية أو تتمة للمقالة العاشرة. وهذا يعني أن هذه المقالات العشر، تحكي قصة صنوع في مصر منذ ميلاده وحتى سفره إلى فرنسا عام ١٨٧٨م. والغريب أن صنوع نشر – أثناء وجوده في فرنسا – عدة مقالات في صحفه عن قصة حياته، ثم أعاد كتابتها – أثناء وجوده في فرنسا – مرة أخرى في صورة مذكرات مخطوطة، نشرها الدكتور إبراهيم عبده في كتابه السابق الذكر، ثم كتبها صنوع ونشرها – أثناء وجوده في فرنسا – للمرة الثالثة في شكل مقالة لجاك شيلي – منشورة في هذا الكتاب، وسيأتي الحديث عنها – وهذه القصص والمقالات والمذكرات كلها تحكي قصة صنوع منذ مولده وحتى سفره إلى فرنسا عام ١٨٧٨م، وكلها منشورة أثناء وجود صنوع في فرنسا!! والسؤال الآن: لماذا توقفت كل هذه الأعمال عند لحظة السفر إلى فرنسا؟! ألم يعش صنوع في فرنسا حتى وفاته عام ١٩١٢م؟! ألم تكن له مذكرات وقصص في فرنسا؟! لماذا لم يضمنها في مقالاته ومذكراته المنشورة أثناء وجوده في فرنسا؟! أليس هذا الفعل يثير الشك في هذه المذكرات؟! أليس كاتب هذه الأعمال هو شخص واحد، هو صنوع؟! ولماذا لم يكتب صنوع قصته في فرنسا، واكتفى بنشر قصته في مصر فقط؟! الإجابة – من وجهة نظري – أن صنوعاً أراد أن يوهم الفرنسيين بأكاذيب عن نفسه، أثناء وجوده في مصر، فاختلق القصص والأوهام، وصنع أسطورة لشخصيته، كي يعيش في باريس محاطاً بهالة من الأهمية!

الحزب الوطني المصري (*)

في العدد الخامس من أغسطس ١٨٩٧م، نقرأ في صحيفة " بريد فرنسا " ما يلي: هذا الحزب الوطني ينكر الإنجليز وجوده. وهو الآن أكثر ما يكون تألقاً وازدهاراً وإليكم تاريخ هذا الحزب كما يقدمه لنا، استجابة لطلبنا، مراسلنا الوطني في القاهرة.

ونحن من جانبنا ننشر هذه الوثيقة المهمة التي وصلتنا مكتوبة باللغة الفرنسية، لأننا على ثقة من أن قراء " بريد فرنسا " سيكونون ممتنين لنا، لأننا حافظنا على أسلوبها الشرقي.

بعد أن أفاض في الثناء علينا، وتقديم وافر التحية لنا، يبدأ " عمر غالب " كاتب هذه الوثيقة فيقول:

سمو الأمير سعيد باشا ابن محمد علي الكبير، الذي يدعو لنا الآن بالرحمة في مثوى الصديقين، هو الذي أنشأ الحزب الوطني الذي ما يزال، وبعد مرور أربعين عاماً، يملأ قلوبنا بحب الوطن.

(*) – نُشرت هذه المقالة باللغة الفرنسية في جريدة (أبو نظارة)، عدد ٨، بتاريخ ٢٠ ربيع أول سنة ١٣١٥ هـ، الموافق ١٨٩٧/٨/١٨م. ومن الواضح أن اسم كاتبها (عمر غالب) اسم وهمي، لأن كاتبها الأصلي هو صنوع نفسه، بدليل أن المعلومات الواردة فيها، نشرها من قبل صنوع في صحفه، ولم نجد سنداً يؤيدها إلا كتابات صنوع فقط!! وهذا هو أسلوب صنوع في ترسيخ كتاباته في أذهان القراء! فهو يكتب مقالات بأسماء مختلقة، ثم ينشرها – بواسطة أصدقائه أو أعوانه – في صحف أخرى، ثم ينقلها من الصحف الأخرى، وينشرها في صحفه؛ لتصبح معلومات مكتوبة من الآخرين عنه! وبذلك تتنوع، وتتجمع المراجع والمصادر عن صنوع!

LE PARTI NATIONAL EGYPTIEN

On lit dans le *Courrier de France* du 5 août 1897, ce qui suit :

Ce parti, dont les Anglais nient l'existence, est plus florissant que jamais. En voici l'historique, qu'à notre demande, nous donne notre correspondant indigène du Caire.

Nous publions, sans le retoucher, cet intéressant document qui nous arrive écrit en français, car nous sommes sûr que les lecteurs du *Courrier de France* nous sauront gré de lui conserver son style oriental.

L'auteur, Omar Ghaleb, après nous avoir comblé de salutations cordiales, de gracieux compliments et de souhaits sincères, dit ceci :

S. A. Saïd Pacha, fils du grand Mehemet Ali, dont l'âme pure et sainte prie pour notre salut au séjour des Elus, est le créateur du Parti National qui depuis bientôt quarante ans, maintient vivant dans nos cœurs l'amour de la patrie.

Dans un grand banquet de ministres et de notables, Son Altesse, de glorieuse mémoire, avait dit :

« Notre pays a besoin d'hommes sérieux et intelligents qui s'occupent des intérêts de la Nation et qui nous aident à rendre les enfants de l'Egypte heureux et prospères. »

De là naquit le Parti National qui, sous le règne de Saïd Pacha, ne négligea rien pour assurer la marche en avant de l'Egypte dans la voie du progrès et de la civilisation.

Sous le règne du feu khédive Ismaïl, ce parti ne fut pas encouragé et pendant six ans, il n'existait que de nom. En 1868, des Ulemas, des étudiants et des officiers aidèrent le cheikh Abou Naddara à fonder, d'abord, *Mahfat Attakaddom*, « le Cercle des Progressistes », et puis *Mouhebbi-el-Elm*, « la Société des Amis du Savoir », que le cheikh présida pendant toute leur existence.

Ces deux réunions patriotiques étaient fréquentées par les lettrés, les savants, les orateurs et les hommes politiques les plus en vogue à cette époque et on y traitait les questions les plus importantes du pays. On conseilla à Ismaïl de les supprimer.

Le conseil des rétrogrades fut malheureusement suivi. Mais l'élan était donné et le Parti National ne pouvait pas s'arrêter à mi-chemin ; il avait accepté et adopté la devise d'Abou Naddara : « *L'Egypte aux Egyptiens* »; il fallait donc continuer coûte que coûte, et on continua.

L'âme du parti était alors le cheikh Djemal-Eddin, l'Afghan, le feu grand philosophe d'Orient ; il conseilla à son ami Abou Naddara de créer un théâtre arabe, moyen efficace d'instruction populaire. Cela fut fait, et pendant deux ans on représenta, devant des milliers de spectateurs, 32 pièces du créateur de cette scène nationale, depuis la farce en un acte jusqu'à la tragédie en cinq. Le public prit goût à l'art dramatique et Abou Naddara reçut un jour quatre pièces de genres différents qu'il fit jouer par les acteurs qu'il avait formés. Le succès du théâtre arabe lui valut le titre pompeux de Molière égyptien qu'Ismaïl lui décerna un mois avant la suppression de son théâtre qui inspirait des idées libérales et patriotiques.

En 1874, feu Khédive Tewfik, père de notre bien aimé vice-roi actuel, reçut chez lui les chefs du Parti national ; il était alors prince héritier, et depuis, jusqu'à quelques semaines avant l'invasion anglaise, il fut le protecteur de ce parti, auquel appartenaient tous les officiers supérieurs de l'armée d'Arabi et tous les chefs du mouvement national.

Les Anglais, depuis leur occupation de la Vallée du Nil, font une guerre acharnée aux patriotes qui, sous différentes formes, continuent l'œuvre du Parti National égyptien, mais leur persécution augmente au

صورة جزء من مقالة (الحزب الوطني المصري)

في مأدبة فخمة، ضمت الوزراء والوجهاء، قال سموه، عطّر الله ذكره، ما يلي:

" إن بلادنا في حاجة إلى الرجال الأذكياء، ذوي الهمم، الذين يعملون مـــا فيـــه صالح الأمة ويعينوننا على جعل أبناء مصر ينعمون بالسعادة ورغد العيش ".

من هنا ولد الحزب الوطني، الذي لم يدخر وسعاً، طول عهد سعيد باشـــا، فـــي دعم وتأكيد مسيرة مصر في طريق الحضارة والتقدم.

وفي عهد الخديوي إسماعيل، رحمه الله، لم يلقَ هذا الحزب أي تشجيع لمدة ست سنوات. كان وجوده مجرد وجود إسمى. وفي عام ١٨٦٨م، قام بعض علماء الدين والطلاب والضباط بمساعدة الشيخ أبو نظارة على تأسيس جمعية " محفل التقدم " أولاً، ثم جمعية " محبي العلم " اللتين ظل الشيخ يرأسهما طول حياتهما (*).

هاتان الجمعيتان الوطنيتان، كانتا مقصد المثقفين والعلماء والخطباء ورجال السياسة المعروفين في ذلك العصر، الذين كانوا يجتمعون فيهما لمناقشة قضايا البلاد المهمة. وقد نصح بعضهم إسماعيل باشا بإلغائهما. وبكل أسف يبدو أن نصيحة أنصار التخلف قد ظلت قائمة. غير أن انطلاقة الحزب الوطني لم يكن بمقدورها التوقف في منتصف الطريق. فقد سبق أن قبل وتبنى شعار أبو نظارة الذي يقول: "مصر للمصريين" (**)؛ فكان لابد إذن من الاستمرار مهما كلف ذلك. وفعلاً استمر الحزب.

كان الشيخ جمال الدين الأفغاني، رحمه الله، فيلسوف الشرق الكبير، يمثل روح الأمة، وقد نصح أبو نظارة بإقامة مسرح عربي يكون وسيلة فعالة في تثقيف الشعب(***). وقد حدث ذلك. وخلال عامين اثنين قدم هذا المسرح، وأمام آلاف المشاهدين، اثنتين وثلاثين مسرحية من تأليف أبو نظارة، بدءاً من الفارص من فصل واحد وحتى التراجيديا ذات الفصول الخمسة. وقد انجذب الجمهور نحو الفن الدرامي واستطاع أن يذوقه. وفي يوم من الأيام تلقى أبو نظارة أربع مسرحيات من أنواع

(*) – أوضحنا في تعليق سابق، مزاعم صنوع بشأن هذين المحفلين، أو هاتين الجمعيتين.

(**) – من المعروف أن صاحب شعار (مصر للمصريين)، هو سليم خليل النقاش، الذي ألف كتاباً بهذا العنوان في عدة أجزاء عام ١٨٧٥م. كما أن هذا الشعار اتخذه عبد الله النديم – خطيب الثورة العُرابية – في كتاباته أثناء الثورة العرابية. ولم نسمع – ولم نجد دليلاً واحداً – على أن صنوعاً هو صاحب هذا الشعار! وإن كان اتخذه في بعض كتاباته في صحيفته (أبو نظارة)، ولكن بعد انتشاره في مصر بسنوات طويلة.

(***) – في صحف ومذكرات صنوع نقرأ عن سببين لنشأة مسرحه العربي المزعوم: الأول مشاهداته للعروض الفرنسية والإيطالية التي كانت تُعرض في مسارح الأزبكية. والآخر تشجيع الخديوي إسماعيل له. وفي هذه المقالة نقرأ عن سبب ثالث وهو نصيحة الشيخ جمال الدين الأفغاني!! ورغم تعدد هذه الأسباب، إلا أننا لم نحصل على دليل واحد لإقامة هذا المسرح المزعوم! والشيخ الأفغاني الذي تزعم المقالة بأنه نصح صنوعاً بإقامة مسرحه، هو الأفغاني نفسه الذي أنكر أية علاقة بصنوع – أثناء وجود صنوع في مصر – وقد أوردنا الدليل على ذلك في تعليق سابق!

مختلفة قام بعرضها الممثلون الذي سبق له أن اختارهم وأعدهم لذلك. وبفضل النجاح الذي حققه المسرح العربي على يد أبو نظارة، استحق الرجل لقب " موليير مصر " الذي خلعه عليه إسماعيل باشا قبل إلغاء هذا المسرح (*) الذي كان يبث الأفكار التحررية والوطنية.

وفي عام ١٨٧٤م، قام المرحوم الخديوي توفيق، والد مولانا ولي العهد الحالي، باستقبال رئيس الحزب الوطني (**)، ومنذ ذلك الوقت، وحتى قبيل الغزو الإنجليزي للبلاد ببضع أسابيع، ظل سموه حامي هذا الحزب الذي كان ينتمي إليه جميع كبار الضباط في الجيش وجميع زعماء الحركة الوطنية.

غير أن الإنجليز، ومنذ بدأ احتلالهم لوادي النيل، بدءوا حملة شعواء ضد الوطنيين الذين ظلوا بمختلف الأساليب يواصلون مشروع الحزب الوطني المصري. لكن اضطهاد الإنجليز للمصريين، بدلاً من أن يضعف حميتهم ونضالهم لتخليص البلاد، ضاعف من هذه الحمية وهذا النضال.

ومنذ عام ١٨٧٧م، لم يكن لهذا الحزب إلاّ صوت واحد هو صحيفة أبو نظارة(***) التي كانت سبباً في نفيه من البلاد. ولكن الصحف المستقلة اليوم، وبحمد الله، كثرت في القاهرة والإسكندرية. وظهرت المنابر التي راحت، مثل أبو نظارة نفسه، تدافع عن قضية الوطن المقدسة بالقلم وبالكلمة. كان أشهر هؤلاء المدافعين مصطفى كامل (****)، الذي كان ينتهز كل فرصة مناسبة لكي يذكّر العالم بأن مصر موجودة وأن هناك من يدافعون عنها.

(*) – ناقشنا أمر إغلاق مسرح صنوع كثيراً في تعليقاتنا السابقة.

(**) – هذه القصة نشرها صنوع – في شكل محاورة هزلية خيالية – في صحيفته بتاريخ ١٨٨٧/١/٢٢م، ثم عاد ونشرها في مقالة بعد وفاة الخديوي توفيق في صحيفته (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٩٢/١/٢٥. وهنا يصبح الحوار الهزلي الخيالي، والمقالة التي نُشرت بعد وفاة الخديوي توفيق – بما فيها من أكاذيب لا يستطيع تفنيدها إلا توفيق المتوفى – حقيقة تاريخية!!

(***) – لا دليل على هذا الزعم سوى صنوع نفسه، الذي قال في صحيفته (أبو نظارة) بتاريخ ١٨٩٠/٢/٢١: إن صحيفته هي لسان حال الحزب في باريس!

(****) – ربما إقحام اسم الزعيم الوطني (مصطفى كامل) في هذا الموضع، يعطي دلالة بأنه على علاقة بصنوع، أو متأثر به! والحقيقة أن لا علاقة بين الاثنين! وحقيقة الأمر أن صنوعاً وجد خطبة منشورة لمصطفى كامل في الصحف الأجنبية، فأشار إليها في صحيفته (أبو نظارة) بتاريخ ٢٠

أجل، يا سيدي العزيز، إن الحزب الوطني حي دائماً. والله تعالى الذي يحب العدل، سوف يكلل بالنجاح جهود أبنائه، أبناء مصر. وسوف يخلصهم من براثن الأخطبوط الإنجليزي. فاستمر أيها الزميل الفرنسي المحترم في الدفاع عن قضيتنا عبر صحيفتكم المعتمدة " بريد مصر ". وندعو الله تعالى أن يشملكم برعايته وبركته.

عمر غالب

رجب ١٣١٣ هـ، الموافق ١٨٩٦/١/٥م. وبسبب هذه الإشارة، وما جاء في هذا الموضع عن مصطفى كامل، ظنّ البعض وجود علاقة متينة – أو صداقة حميمة – بين مصطفى كامل وصنوع، ومنهم المرحوم محمد لطفي جمعة في كتابه (قطرة من مداد عن المتعاصرين والأنداد).

موليير مصر(*)

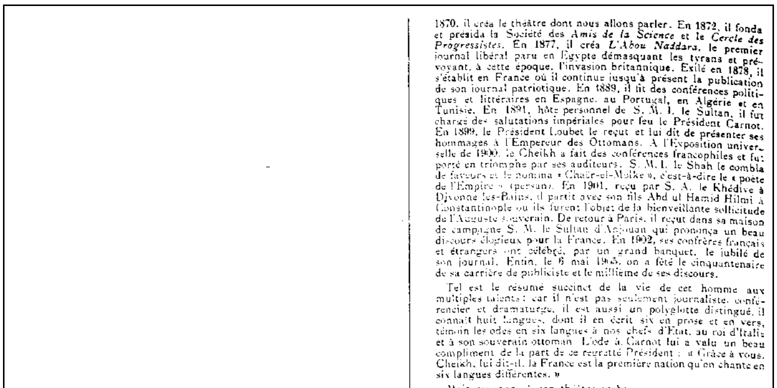
زميلنا العزيز السيد جاك شيللي، رئيس تحرير مجلة "لافون سين" وكاتب المقال التالي – وقبل نشره – تفضل بإرساله إلينا لكي يكون لنا سبق تقديمه لقرائنا وأصدقائنا. ونحن من جانبنا نقدم له جزيل الشكر والعرفان على هذه اللفتة الرقيقة(**)

(*) – هذه المقالة نُشرت في جزئين بصحيفة صنوع (أبو نظارة)، وكاتبها هو الصحفي جاك شيلي. الجزء الأول نُشر في العدد السادس بتاريخ (شهر رجب سنة ١٣٢٤ هجرية)، الموافق شهر أغسطس سنة ١٩٠٦، والجزء الآخر نُشر في العدد السابع بتاريخ (رمضان ١٣٢٤ هجرية)، الموافق شهر أكتوبر ١٩٠٦م. وهذه المقالة نشرها الدكتور فيليب سادجروف في ملحق كتابه (المسرح المصري في القرن التاسع عشر) – الذي نشر ترجمته المركز القومي للمسرح والموسيقى عام ٢٠٠٧ – تحت عنوان (حياتي شعراً ومسرحي نثراً)، بوصفها مذكرات صنوع. وهذه المذكرات – أو مقالة جاك شيلي – هي نفسها المحاضرة التي ألقاها صنوع في فرنسا عن حياته ومسرحه عام ١٩٠٢م، بعنوان (Ma vie en vers et mon theatre en prose). ونص هذه المحاضرة – أو المذكرات أو مقالة جاك شيلي – نُشر عام ١٩١٢م في كتيب صغير بفرنسا تحت العنوان نفسه (Ma vie en vers et mon theatre en prose)، بناءً على قول معاطي موسى في دراسته " يعقوب صنوع وظهور المسرح العربي في مصر" (Ya'qub Sanu' and the Rise of Arab Drama in Egypt) عام ١٩٧٤م (هامش ٢، ص٤١٤). وهذا الكتيب نشره بالعربية – بصورة متفرقة – الدكتور إبراهيم عبده في كتابه (أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر) عام ١٩٥٣م، وأيضاً نشر الدكتور أنور لوقا فقرات كثيرة منه في دراسته عن مسرح صنوع عام ١٩٦١م، في مجلة المجلة. ومما سبق يتضح لنا أن كل ما كُتب عن حياة صنوع في مصر، مصدره الوحيد هو صنوع نفسه!

(**) – هذا تقديم صنوع لهذه المقالة المنشورة في صحفه، وكلامه هذا يشير إلى أن المقالة سوف تُنشر في مكان آخر. وحتى الآن لم ينجح باحث واحد في إثبات أن هذه المقالة نُشرت في مكان آخر غير صحيفة صنوع، أو مذكراته! وربما لا يوجد صحفي باسم (جاك شيلي)، وكل ما في الأمر أن صنوعاً أراد نشر قصة مسرحه المزعوم، فاختلق قصة الصحفي ومقالته، كي ينسب المقالة لآخرين، وبذلك تتعدد مراجع حياته ومصادرها! والدليل على ذلك أن كل من كتب عن مسرح صنوع اعتمد على هذه المقالة اعتماداً كبيراً، وكانت حجته في ذلك أن كاتبها شخص اسمه (جاك شيلي)، وليس يعقوب صنوع!!

موليير مصر

هذا اللقب الرنان الطنان خلعه خديوي مصر عام ١٨٧٠م على صحفي من القاهرة لأنه كتب مسرحاً عربياً في بلاده. هذا الصحفي هو صديقنا الشيخ صنوع، أبو نضارة (شاعر الملك) الصحفي والمحاضر المصري الشهير الذي لا تقل شهرته على ضفاف السين عن شهرته على ضفاف النيل والبوسفور.



LE MOLIÈRE ÉGYPTIEN

Notre cher confrère, M. Jacques Chelley, rédacteur en chef de L'Avant-Scène, *auteur de la notice qu'on va lire, a bien voulu nous en communiquer le texte pour en donner la primeur à nos lecteurs et amis. Nous lui sommes très reconnaissants de cette gracieuse attention.* LA RÉDACTION.

LE MOLIÈRE ÉGYPTIEN

Ce surnom pompeux et flatteur, feu le Khédive Ismaïl l'a donné, en 1870, à un publiciste du Caire pour avoir créé un théâtre arabe dans son pays.

Ce publiciste n'est autre que notre ami le Cheikh J. Sanua Abou Naddara (Chaer-el-Molk), le journaliste et conférencier égyptien, aujourd'hui aussi populaire sur les rives de la Seine que sur celles du Nil et du Bosphore.

Avant de parler de son théâtre qui lui a valu ce beau surnom de Molière, présentons-le à ceux de nos lecteurs qui n'ont ni vu son journal *L'Abou Naddara*, cause de son exil, ni assisté à une de ses nombreuses conférences politiques et littéraires.

Le Cheikh a l'âge de M. Loubet.

Dans une audience privée, en 1889, le Président de la République lui a dit : « Comme moi, Cheikh, vous êtes né en 1839 » Et comme notre chef d'Etat, il porte vaillamment ses soixante-sept ans. Il a fait ses études d'abord au Caire, puis en Italie. En 1868, il fut nommé professeur à l'Ecole Polytechnique du Caire et examinateur des Ecoles du gouvernement égyptien. En 1870, il créa le théâtre dont nous allons parler. En 1872, il fonda et présida la Société des *Amis de la Science* et le *Cercle des Progressistes*. En 1877, il créa *L'Abou Naddara*, le premier journal libéral paru en Egypte démasquant les tyrans et prévoyant, à cette époque, l'invasion britannique. Exilé en 1878, il s'établit en France où il continue jusqu'à présent la publication de son journal patriotique. En 1889, il fit des conférences politiques et littéraires en Espagne, au Portugal, en Algérie et en Tunisie. En 1891, hôte personnel de S. M. I. le Sultan, il fut chargé des salutations impériales pour feu le Président Carnot. En 1899, le Président Loubet le reçut et lui dit de présenter ses hommages à l'Empereur des Ottomans. A l'Exposition universelle de 1900, le Cheikh a fait des conférences francophiles et fut porté en triomphe par ses auditeurs. S. M. I. le Shah le combla de faveurs et le nomma « Chaër-el-Molke », c'est-à-dire le « poète de l'Empire » persan. En 1901, reçu par S. A. le Khédive à Divonne-les-Bains, il partit avec son fils Abd ul Hamid Hilmi à Constantinople où ils furent l'objet de la bienveillante sollicitude de l'Auguste souverain. De retour à Paris, il reçut dans sa maison de campagne S. M. le Sultan d'Anjouan qui prononça un beau discours élogieux pour la France. En 1902, ses confrères français et étrangers ont célébré, par un grand banquet, le jubilé de son journal. Enfin, le 6 mai 1905, on a fêté le cinquantenaire de sa carrière de publiciste et le millième de ses discours.

Tel est le résumé succinct de la vie de cet homme aux multiples talents : car il n'est pas seulement journaliste, conférencier et dramaturge, il est aussi un polyglotte distingué, il connaît huit langues, dont il en écrit six en prose et en vers, témoin les odes en six langues à nos chefs d'Etat, au roi d'Italie et à son souverain ottoman. L'ode à Carnot lui a valu un beau compliment de la part de ce regretté Président : « Grâce à vous, Cheikh, lui dit-il, la France est la première nation qu'on chante en six langues différentes. »

Mais revenons à son théâtre arabe.

Nous avons sous les yeux un grand nombre de journaux et de revues d'Orient et d'Occident parlant du théâtre du Cheikh Abou Naddara et rendant compte de la plupart de ses pièces ; nous en prenons deux qui se publiaient à cette époque là au Caire par nos confrères français, MM. Jules Barbier et Jablin. Commençons par le *Karagoz*, feuille satirique de M. Jablin.

Dans son numéro du 6 mai 1876, ce journal fait une biographie du Cheikh et ajoute :

En 1870, le Cheikh osa entreprendre la création d'un théâtre arabe (XIIIe travail d'Hercule). Un succès fou couronna son audacieuse tentative et, faut-il le dire. Il composa et fit jouer sur la scène du théâtre de l'Ezbekie trente-deux pièces de son cru parmi lesquelles nous citerons : *la Bourse, l'Aristocrate, le Dandy, la Demoiselle à la Mode, les Tribulations du Molière Egyptien, la Constance récompensée,* etc., etc.

Et maintenant voici ce que dit du théâtre arabe notre distingué confrère M. Jules Barbier, en 1873, dans son journal *l'Ezbekié* :

Faut-il rappeler qu'en deux saisons, le Cheikh a donné cent soixante représentations, qu'il a fait jouer trente-deux pièces écrites par lui depuis la farce en un acte jusqu'au drame en cinq actes. Faut-il dire l'enthousiasme des spectateurs qui, pour la première fois, initiés aux séductions de la scène, exprimaient tout haut leurs sensations avec une naïveté enfantine.

Je le vois encore ce public animé, bruyant dans lequel on retrouvait toutes les classes de la société musulmane depuis le ministre jusqu'au simple ouvrier. J'entends ce rire sonore saluant un bon mot, une plaisanterie, une situation comique, et ce n'était qu'un long éclat ; car la langue arabe se prête merveilleusement au jeu de mots qu'il soit fin, spirituel ou simplement au gros sel. Oui, quel bon public et comme il était facile à empoigner !

L'élan était donné si bien que le Cheikh, Molière égyptien, trouva des imitateurs. Il reçut un jour une tragédie en vers arabes écrite par un professeur de l'Université de l'Azhar. Cette œuvre fut trouvée si excellente, qu'elle fut représentée par des étudiants de cette même Université et obtint un légitime succès.

Depuis, *le Tartuffe* de Molière a été traduit par Mohammed Osman Pacha qui, substituant aux personnages chrétiens des personnages musulmans, en a fait une pièce très originale à la portée des Egyptiens qui y trouvaient des types connus d'eux. Le même auteur a également traduit *le Malade imaginaire*. Enfin, *l'Avare* a été traduit par le fameux Abou Seoud.

On voit par ces articles écrits dans le pays même et bien documentés, que, non seulement le Cheikh Abou Naddara initia son peuple à l'art dramatique, mais qu'il a encouragé ses compatriotes à populariser nos auteurs ; car, depuis l'impulsion donnée par lui, on a traduit des drames et des tragédies de nos écrivains classiques, et ces traductions alternent avec les pièces originales arabes sur la scène du théâtre national égyptien, qui est aujourd'hui à son apogée.

Les grands journaux anglais comme *le Times, le Daily News, le Standard, le Pall Mall Gazette, le Truth, le Saturday Review*, etc., etc., qui ne sont pas tendres pour le Cheikh à cause de sa campagne contre l'occupation britannique de l'Egypte, font son éloge comme dramaturge et reconnaissent en lui le fondateur du théâtre arabe en Egypte.

Et maintenant que nos lecteurs connaissent le Molière égyptien, nous allons leur communiquer le récit textuel qu'il fit de son théâtre le 16 octobre 1902 dans sa conférence littéraire à la Société *La Coopération des Idées* présidée par M. Dehermes en l'honneur duquel le Cheikh a fait ces vers qu'on distribuait à l'entrée de la salle :

Salut, coopération
Des idées libres et savantes !
Salut, belle association
De conférences éloquentes !

صورة جزء من القسم الأول من مقالة (موليير مصر) لجاك شيلي

وقبل أن أتحدث عن مسرحه الذي كان سبباً في هذا اللقب، سأحاول أن أقدمه إلى قرائنا الذين لم يروا صحيفته " أبو نظارة "، التي كانت سبباً في نفيه عن وطنه، ولم يستمعوا إلى إحدى محاضراته السياسية والأدبية.

وجدير بالذكر أن الشيخ كان في عمر رئيس جمهوريتنا " لوبيه ". ففي جلسة خاصة من عام ١٨٨٠م قال له رئيس الجمهورية : " أنت يا شيخ مثلي من مواليد عام ١٨٣٩م ". فهو كرئيسنا يحمل على ظهره سبعاً وستين سنة بكل همة ونشاط. تلقى تعليمه أولاً في القاهرة، ثم في إيطاليا. وفي عام ١٨٦٨م، عين مدرساً بكلية الهندسة بالقاهرة ومفتشاً بالمدارس الحكومية المصرية (*).

في عام ١٨٧٠م كتب المسرح الذي سنتحدث عنه. وفي عام ١٨٧٢م أسس ورأس "جمعية أصدقاء العلم"، و" محفل التقدم". وفي عام ١٨٧٧م أسس " أبو نظارة"، أول صحيفة ليبرالية ظهرت في مصر لتفضح الطغيان وتتنبأ بالغزو البريطاني لمصر.

نُفي من وطنه عام ١٨٧٨م، وأقام في فرنسا حيث يواصل حتى الآن إصدار صحيفته الوطنية. وفي عام ١٨٨٩م ألقى محاضرات سياسية وأدبية في أسبانيا والبرتغال والجزائر وتونس. في عام ١٨٩١م كلفة جناب السلطان ليحمل تحياته إلى الرئيس الفرنسي كارنو رحمه الله. وفي عام ١٨٩٩م، استقبله الرئيس الفرنسي لوبيه، وعهد إليه بتقديم شكره وامتنانه للسلطان العثماني. وفي المعرض العالمي الذي أقيم عام ١٩٠٠م ألقى الشيخ بعض المحاضرات باللغة الفرنسية، ولقي حفاوة بالغة من الحاضرين. وفي العام ذاته، استقبله شاه إيران وخلع عليه لقب " شاعر الملك " وهي بالفارسية تعني شاعر الإمبراطورية.

(*) – أثبتنا في تعليق سابق أن صنوعاً لم يكن أستاذاً بمدرسة المهندسخانة، بل كان تلميذاً بها. ومسألة تلمذته هذه بناءً على أقواله في صحفه ومذكراته المكدسة بالمزاعم والأوهام. وهنا نجد زعماً جديداً بأنه كان مفتشاً بالمدارس الحكومية المصرية!! وهذا الأمر لم يقل به صنوع نفسه، رغم مزاعمه الكثيرة. ووجهة نظري في هذه المسألة، أن صنوعاً لم يكن في يوم من الأيام تلميذاً مصرياً في أية مدرسة حكومية. فلو كان مثلاً نال شهادة الابتدائية، لأصبح موظفاً مرموقاً في عهد سعيد باشا أو في عهد الخديوي إسماعيل، ولأصبح ذا شأن عظيم، وكنا سمعنا عنه وعن أفعاله. فما بالنا بزعمه إنه كان أستاذاً في المهندسخانة، وما شأن حاله لو كان فعلاً مفتشاً بالمدارس الحكومية المصرية. الواضح أن صنوعاً فشل في تعليمه، وفشل في الحصول على أية شهادة – حتى ولو كانت الابتدائية – فعوّض هذا النقص بأكاذيبه المنشورة في صحفه.

في عام ١٩٠١م استقبله سمو الخديوي في " جيفون – ليه – سان " وسافر بصحبة ابنه عبد الحميد حلمي إلى القسطنطينية، حيث كانا موضع اهتمام وتكريم فخامة السلطان. ولدى عودته إلى باريس، استقبل في منزله الريفي سلطان أنجوان الذي ألقى كلمة ثناء ومديح لفرنسا. وفي عام ١٩٠٢ أحتفل زملاؤه الفرنسيون والأجانب باليوبيل الفضي لصحيفته. وأخيراً، وفي السادس من مايو عام ١٩٠٥م أقيم احتفال بمناسبة مرور خمسين عاماً على عمله بالصحافة وإلقائه خطبته رقم ألف.

ذلك هو موجز شديد لحياة هذا الرجل ذي المواهب المتعددة؛ لأنه لم يكن صحفياً ومحاضراً وكاتباً درامياً وحسب، بل كان أيضاً يملك ناصية العديد من اللغات، فقد كان يجيد ثماني لغات، يكتب شعراً ونثراً بست لغات منها، دليل ذلك القصائد التي نظمها بست لغات في رؤساء جمهوريتنا وملك إيطاليا والسلطان العثماني (*).

مسرحي (**)

في المحاضرة التي ألقيتها مؤخراً بجمعية تعاون الأفكار بباريس، وبعد أن قمت بتمجيد فرنسا، والثناء على أمتها، والحديث عن أدب العرب، ودينهم، وعاداتهم، تحدثت أيضاً إلى جمهوري عن تاريخ المسرح العربي الذي قمت بتأسيسه في مصر.

أشكر لكم سيداتي وسادتي الحفاوة البالغة التي قابلتم بها كلمتي حول شعرائنا وعلمائنا وعاداتنا الشرقية. كما أرجو منكم مواصلة ترحيبكم، وسأكون شاكراً لكم ذلك. إن الحديث عن تاريخ مسرحي ليس بالأمر السهل؛ لقد جعلني هذا المسرح أذرف الكثير من دموع الفرح – هذا صحيح – ولكن أيضاً الكثير من دموع الألم.

لقد مضى على ذلك سنوات كثيرة. آه! ما أسرع مرور الأعوام! الله وحده هو الباقي، مالك الأكوان. لقد وُلد مسرحي فوق منصة مقهى موسيقي في الهواء الطلق،

(*) – الجزء السابق هو تقديم كاتب المقال (جاك شيلي) ليعقوب صنوع، وربما ينخدع القارئ عند قراءة هذا التقديم؛ ظناً منه إنه تقديم يحمل معلومات جديدة، غير معروفة جاء بها جاك شيلي بوصفه صديقاً لصنوع. والحقيقة أن المعلومات الواردة في هذا التقديم، لا جديد فيها، حيث إنها أخبار منشورة عن صنوع في صحيفته (أبو نظارة). أي من الممكن لأي إنسان مطلع على صحف صنوع الوقوف على هذه المعلومات بسهولة ويسر. وهذا الأمر يقوي ظننا بأن كاتب هذا الموضوع برمته هو صنوع نفسه.

(**) – ابتداء من هذا الموضع، وحتى نهاية المقال، المتحدث هو صنوع، وليس جاك شيلي.

وسط حديقة الأزبكية الجميلة بالقاهرة. في ذلك العصر، عام ١٨٧٠م، كانت هناك فرقة فرنسية من الموسيقيين والمغنين والممثلين، وفرقة مسرحية إيطالية ممتازة تقدمان المتعة للأقليات الأوروبية. كنت أشاهد جميع هذه العروض التي تُقدم في هذا المقهى؛ لأن اللغتين الفرنسية والإيطالية لغتان أحبهما حباً شديداً، وكما أنني درست المؤلفين الدراميين في هاتين اللغتين؛ هل من الضروري أن أعترف؟ إذن إن العروض التي قُدمت على هذه المنصة من: فارصات، وكوميديات، وأوبريتات، ودرامات، هي التي أوحت لي بفكرة إنشاء مسرحي العربي (*). وقد أعانني الله تعالى على ذلك.

ولكنني قبل أن أشرع في تأسيس مسرحي المتواضع، قمت بدراسة جادة للمؤلفين الدراميين الأوروبيين، وبخاصة جولدوني، وموليير، وشيريدان، وذلك في لغاتهم الأصلية، أي الإيطالية والفرنسية والإنجليزية.

حينما شعرت أنني أصبحت على درجة من التمكن من الفن الدرامي، قمت بكتابة أوبريت من فصل واحد باللغة الدارجة؛ لأن العربية كاليونانية، فيها اللغة الأدبية واللغة الدارجة. وقد استعملت بعض الألحان الشعبية في الكوبليهات وقمت بتدريس الأوبريت لمجموعة من الشبان الأذكياء، اخترتهم من بين تلاميذي (**). وقد ارتدى أحدهم الزي النسائي لأداء دور العاشقة.

بعد ذلك، توجهت إلى قصر سمو الأمير بعابدين، وقدمت المخطوط الخاص بالأوبريت إلى خيري باشا – أمين تشريفات صاحب السمو الخديوي إسماعيل باشا – راجياً من سيادته أن يقدمه مع خالص امتناني واحترامي إلى الخديوي، وأن يُذكّر سموه بأنه كان قد وعدني – قبل حلول عهده السعيد – أن يساعدني في الأخذ بيد المواطنين في طريق التقدم والحضارة الصعب.

(*) – قرأنا فيما سبق أن الذي نصحه بإنشاء مسرحه كان جمال الدين الأفغاني! وهنا نجد سبباً آخر! والأهم من السبب، هو عدم وجود – أو ظهور دليل واحد – منذ عام ١٨٧٠م وحتى الآن – على إنشاء هذا المسرح المزعوم!!

(**) – رغم عدم وجود دليل واحد يؤكد عمل صنوع بالتدريس، إلا أننا نتعجب من عدم معرفتنا – قراءة أو سماعاً – باسم تلميذ واحد من تلاميذ صنوع! بل ولم نجد فيما كُتب في هذا الزمان – من مقالات أو مذكرات أو يوميات – بأن أحداً قال إنه تتلمذ على يد صنوع، أو أنه يعرف صنوعاً بوصفه مدرساً، أو أنه شاهد صنوعاً يقوم بالتدريس؟!

أرجو إذن أن يتفضل سموه بأن يُشرّف برعايته السامية مسرحيتي المتواضعة، وأن يشجعني على إقامة مسرح من أجل المواطنين الذين لم يطلعوا بعد على الفن الدرامي، ولا يفقهون شيئاً من الأوبرات الإيطالية الكبرى والكوميديات الفرنسية الجميلة، التي من أجلها أنشأ حبيبهم الخديوي العظيم مسرحين عظيمين.

يبدو أن خيري باشا – الذي كان يكنّ لي وداً كبيراً – قد استغل بلاغته في توصيل رسالتي إلى سمو الخديوي، واستطاع أن يقرأ عليه الأوبريت الذي حظى بإعجابه، كما نجح في الحصول على الإذن بعرضه على مسرح الأزبكية (*). كان هذا الخبر السعيد حافزاً لي، ولأفراد فرقتي على حفظ الأدوار بالنسبة لهم، وبالنسبة لي على إعداد محاضرتي حول فوائد المسرح ومزاياه.

(*) – أشار صنوع إلى مسرحه العربي المزعوم في مصر، أكثر من مرة في صحيفته (أبو نظارة) في: ١٨٧٩/٧/١، ١٨٨٠/٢/٢٠، ١٨٨٧/١/٢٢، ١٨٩٦/٥/١٤، وفي كل إشارة يقول بأنه أنشأ المسرح العربي في مصر، وأنه مثّل العديد من المسرحيات، بمساعدة بعض الشبان من تلاميذه، دون أن يذكر تفاصيل هذه النشأة، أو ظروف ظهور هذا المسرح! وبدورنا نكرر القول: بأننا لم نجد دليلاً واحداً على هذا المسرح المزعوم لصنوع! ولكنه في هذا الموضع، نجده – أي صنوع – يحكي ولأول مرة قصة بداية مسرحه العربي في مصر. وهذه القصة رواها في محاضرة له ألقاها عام ١٩٠٢م، ونص هذه المحاضرة هو المنشور في هذا الموضع! ولكن الجديد أنه يروي أحداثاً اشترك فيها خيري باشا والخديوي إسماعيل. ولا يستطيع أحد تصديق أو تكذيب صنوع إلا شخصين، لا ثالث لهما، هما: خيري باشا والخديوي إسماعيل. والغريب أن صنوعاً – رغم إشاراته الكثيرة في صحفه عن مسرحه المزعوم – لم يذكر التفاصيل المتعلقة بخيري باشا والخديوي نهائياً، والتي حدثت عام ١٨٧٠م، ثم فجأة يتذكرها عام ١٩٠٢م، ويحكي عنها بالتفصيل! والسؤال الآن: لماذا لم يذكر صنوع هذه التفاصيل بعد حدوثها – وهو في شبابه، ويمتلك ذاكرة قوية – في صحيفته (أبو نظارة)، التي خصص صفحاتها للهجوم على الخديوي إسماعيل منذ عام ١٨٧٨؟! ولماذا تذكرها فجأة عام ١٩٠٢م، وهو في عُمر الثالثة والستين؟! الإجابة على ذلك يسيرة: فصنوع زعم بأنه أنشأ مسرحاً عربياً بمساعدة خيري باشا، والخديوي إسماعيل. وقال بذلك عام ١٩٠٢م، ونشر قوله هذا في مقالتنا هذه عام ١٩٠٦م في صحيفته! والإنسان الوحيد الذي يستطيع تكذيبه، هو شخص من اثنين: خيري باشا، والخديوي إسماعيل .. ولكن هيهات: فخيري باشا مات سنة ١٨٨٧م، والخديوي إسماعيل مات سنة ١٨٩٥م! وهكذا تظهر الحقيقة، فصنوع لم يذكر تفاصيل نشأة مسرحه المزعوم في حياة خيري باشا والخديوي إسماعيل، خشية التكذيب، أو النيل منه بسبب مزاعمه، وفضّل الادعاء عليهما بعد وفاتهما! وبذلك سيظل صنوع رائداً للمسرح العربي في مصر، رغم أنف جميع دارسيه، ممن صدقوا مزاعمه، ونقلوا عنه دون تدقيق أو تمحيص في أقواله المزعومه! وهل ريادة المسرح عصية على صنوع، بعد أن أوهم الدارسين والكُتّاب بأنه نبيّ من الأنبياء يُوحى إليه!!

كان افتتاح مسرحي حدثاً في القاهرة. ولم أنس تلك السهرة، بالرغم من الاثنين والأربعين سنة التي تفصل بيننا. منذ الثامنة، كانت جميع الأماكن في المقصورات والقاعة مشغولة. بل كان الواقفون من المشاهدين أكثر من الجالسين. رجال البلاط بأُسَرِهم، وجميع الوزراء، وجميع الدبلوماسيين الأوروبيين، كانوا حاضرين في تلك السهرة (*).

بدأ الأوركسترا بعزف السلام الخديوي، وإلقاء النشيد الوطني. ثم ارتفع الستار، فتقدمت أنا وحولي الممثلون إلى الجمهور. كان المشهد الذي كنت أراه أمامي طاغياً؛ وأنا لا أبالغ في ذلك. كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف شخص (**) رجالاً ونساءً من جميع الألوان، وفي ملابس من جميع أنحاء العالم. واستقبلنا سيل من التصفيق مصحوباً بصيحات إعجاب بجميع اللغات. وجعل قلبي يدق بقوة بحيث لم يمنعني من السقوط على الأرض إلا اثنان من الممثلين اعتمدت عليهما. وجاءت لحظة تقديم البرنامج، فاستجمعت قواي واستنفرت شجاعتي وأغلقت عينيّ بيديّ. لأن مشهد الحاضرين الهائل كان يخيفني. وبصوت واضح وقوي بدأت كلمتي.

شرعت بطبيعة الحال أكيل الثناء للخديوي، واصفاً سموه بباعث مصر، والمتمم للمشروع الحضاري الذي بدأه محمد علي باشا، مؤسس الأسرة الحاكمة لوادي النيل، إلخ، إلخ ... بعد ذلك أثنيت على فرقة الكوميدي فرانسيز وفرقة الأوبرا الإيطالية،

(*) – نُعلق على هذه الفقرة بهذا السؤال: ألم يهتم مشاهد واحد – من الواقفين أو الجالسين – أو من رجال البلاط، أو من أُسَرهم، أو وزير من جميع الوزراء الحاضرين، أو دبلوماسي واحد من الدبلوماسيين الأوروبيين بهذا العرض، أو بهذا الحدث الكبير والخطير، باعتباره أول عرض مسرحي عربي في مصر، ويسجله، أو ينشر أخباره، أو يكتب عنه في: مقالة، أو في حكاية، أو في تعليق، أو في مذكرات، أو في كتاب، أو في تقرير، أو في وثيقة .. حتى نجد الدليل الدامغ على مسرح صنوع؟!

(**) – في هذا الوقت كان في مصر مسرحان كبيران: الأول مسرح الأوبرا الخديوية وكان به من المقاعد ٨٥٠، والآخر مسرح الكوميدي الفرنسي، وكان به من المقاعد ٣٠٠، وذلك بناء على أقوال سادجروف – المعتمد فيها على الوثائق الرسمية – في كتابه (المسرح المصري في القرن التاسع عشر، ص ١٦٦). فمن أين جاء صنوع بمسرح يتسع لثلاثة آلاف شخص؟! علماً بأنه لم يذكر اسم المسرح، أو مكانه، أو مكان العرض! الاحتمال الأرجح، أن صنوعاً كان يعرض عروضاً للقراقوز، أو الحواة في ميدان عام، أو في حديقة الأزبكية، أمام حشد من الناس والمارة، لا أمام الوزراء والدبلوماسيين!

وختمت كلمتي بشرح معنى كلمة مسرحية لجمهور المواطنين، ولخصت لهم تقريباً موضوع الأوبريت. كانت كلمتي تُقابل بالتصفيق. ليس من أجل قيمتها، وإنما بسبب الشيء الجديد الذي تتحدث عنه. ثم أسدل الستار وارتفع بعد عزف مقطوعة موسيقية تركية.

أما الممثلون، الذين طلب أحد أغنياء المشاهدين من إدارة المقهى (*) تقديم مشروب لهم، فقد قاموا بأدائهم على خير وجه، بحيث أثاروا إعجاب الجميع، وقد طُلب منهم إعادة بعض المشاهد كاملة بين تصفيق الجماهير الحاد، وصيحات الإعجاب المجنونة، فكانت تلك أول مرة في حياتي أبكي فيها من شدة الفرح.

كان موضوع الأوبريت الذي قدمته، وهو فودفيل قصيرة، موضوعاً سهلاً للغاية. جميع الشبان الأوروبيين الذين كانوا يقومون بزيارة بلادنا كانوا يحلمون بشيء واحد: مغامرة في جناح الحريم. وهذا يعني أن يحقق نزوة إحدى المحظيات، ويتسلل إلى داخل القصر بمساعدة الأغا إلخ، إلخ. وأنتم تفهمون البقية. ومن النادر أن يزعم شاب أوروبي أنه قام بمثل هذه المغامرة. ولو حدث وتصادف أن قام أحدهم بها، فإنه لا يمكن أن يرويها لأحد إلا لتماسيح النيل وأسماك البوسفور الكبرى، لسبب بسيط وهو أن القصور مغلقة بإحكام، وعليها رقابة مشددة، بحيث لو جرؤ أي متهوّر على التسلل إليها فإنه لن يخرج منها حياً.

إذاً، كان بطل مسرحيتي أمير أوروبي تراهن بألف جنيه مصري – ستة وعشرين ألف فرنك – على أنه يكفيه شهر واحد يقيمه في مصر لكي يتمكن من التسلل إلى جناح الحريم. وقد قبل الرهان أحد أبناء الباشاوات. وبعد عدة أيام تلقى أميرنا رسالة رقيقة تخبره فيها إحدى نساء الحريم: إن عينيه الجميلتين أصابتا قلبها بنظراته الغرامية، إلخ .. باختصار، تخبره بأن يتواجد في مساء اليوم التالي بجوار

(*) – يا تُرى عبارة (إدارة المقهى) جاءت هنا عفوية، أم أنها سقطة صنوع، التي لم تكن في الحُسبان؟! أكان صنوع يعرض عرضه المسرحي العربي الأول في مسرح أم في أحد المقاهي ؟! أكان عرضه عرضاً مسرحياً مُقاماً على خشبة مسرح، أم كان عرضاً للقراقوز والحواة في أحد المقاهي الشعبية، التي تُقدم المشروبات؟! وربما يقول قائل: إن صنوعاً يقصد المقهى أي المقصف (الكافيتريا)، داخل المسرح. والرد على ذلك: أننا لم نسمع بوجود هذا الأمر في مسارح هذه الفترة، إلا في الأوبرا الخديوية! فهل كان صنوع يعرض عرضه هذا على خشبة مسرح الأوبرا الخديوية؟!

الهرم الأكبر بالجيزة حيث سيجد خادمها الذي سيقوم - بناءً على أوامر منها - باصطحابه إليها. وفعلاً يذهب الأمير إلى اللقاء الموعود، ويقوم الأغا بعصب عينيه حتى لا يعرف الطريق، ولا القصر الذي يقوده إليه، ثم ينطلق به على عربة يجرها جواد. وتظل العربة تسير ساعة كاملة بدت للأمير وكأنها يوم كامل عصيب من أيام الشتاء في أحد الأديرة. وحينما تصل العربة إلى المكان المحدد يعمد الخصيّ إلى إنزال الأمير منها، وعيناه ما تزال معصوبتين، ويقوده عبر ممرات طويلة يتخللها هبوط وصعود، يعلم الله وحده كم من الطوابق، ثم يدخله إلى مخدع سيدة القصر، محظية الباشا، وينزع عنه العصابة ويذهب لإحضار سيدته.



LE MOLIÈRE ÉGYPTIEN

(Suite et fin).

Après quatre mois d'existence de cette scène nationale, le Khédive Ismaïl m'invita avec ma troupe à donner une représentation dans son théâtre privé au palais de Kasr-el-Nil. Trois pièces furent jouées : *La Demoiselle à la Mode, le Dandy du Caire* et *les Deux Rivales*, toutes comédies de mœurs orientales avec fond moral. Après avoir vu les deux premières, le Khédive me fit venir à lui et me dit devant ses ministres et les hauts personnages de sa cour : « Nous vous devons la création de notre Théâtre national. Vos comédies, vos opérettes et vos tragédies ont initié notre peuple à l'art dramatique. Vous êtes notre Molière égyptien et votre nom restera. » Mais quand il vit la troisième pièce *les Deux Rivales*, pièce antipolygame; car les deux rivales étaient les femmes d'un seul mari qu'elles rendaient très malheureux par leur jalousie et leurs exigences, et lorsqu'il entendit la longue tirade du mari contre la polygamie, source des désunions dans les familles et même de crimes, sa gaieté se changea en courroux, me rappela et me dit d'un ton railleur : « Voyons, Molière, si vous n'avez pas les reins solides pour contenter plus d'une femme, il ne faut pas dégoûter les autres. » (1).

Les courtisans européens de Son Altesse trouvèrent très spirituelles les paroles de leur Auguste Maître et me conseillèrent d'éliminer cette pièce de mon répertoire, malgré les cinquante-trois représentations consécutives qu'elle avait eues. J'ai dû m'incliner pour sauver la vie à mon pauvre théâtre. L'année suivante, ou pour mieux préciser, après plus de deux cents représentations bien accueillies par le public, le Khédive me fit l'insigne honneur de jouer trois autres pièces au théâtre de la Comédie française de sa capitale, dans une soirée de gala. Ma troupe fut frénétiquement applaudie même par Son Altesse. Mais il y avait des gros bonnets dans la salle, ennemis jurés du progrès et de la civilisation. Ils persuadèrent le Khédive que dans mes pièces, il y avait des allusions fines et des insinuations malignes contre lui et son gouvernement. Il ordonna donc la fermeture de mon théâtre au grand mécontentement de la population; mais il fut réouvert sous le règne de son fils et son petit-fils et il marche en avant et on peut le comparer aujourd'hui aux meilleurs théâtres européens. Les dramaturges égyptiens et syriens ne manquent pas et ils se distinguent par leurs magnifiques productions. Je les félicite de tout mon cœur.

Et maintenant, Mesdames et Messieurs, permettez-moi de vous raconter quelques-unes des curieuses anecdotes de ma scène. Il faut vous dire que de mon théâtre, j'étais le directeur, l'auteur et quelques fois même le souffleur.

Commençons par l'anecdote du souffleur : Indisposé, il manquait à l'appel et moi, ayant par malheur les yeux très fatigués ce soir-là, je ne pouvais pas le remplacer. J'ai donné le manuscrit de la pièce à un de mes acteurs et me suis mis avec lui debout entre les coulisses en lui disant : « Lis la pièce à voix basse et laisse l'acteur te suivre. » L'animal fit le contraire, il le suivait : « Tu es un âne, lui dis-je, en le secouant fort. » Alors il sortit sa tête sur la scène et dit à l'acteur : « Ne cours pas si vite, ô mon frère. Ne sais-tu pas que la hâte n'appartient qu'à Satan ? Laisse-moi te souffler; tu répéteras ensuite. » Un éclat de rire général fut l'effet de ces paroles; cela me vexa tellement que j'ai tiré fort les oreilles du malheureux. Alors il traversa la scène en flanquant le manuscrit de la comédie à la figure du pauvre acteur. Une dispute surgit entre eux et je fus obligé de sortir sur la scène pour les séparer au grand amusement des spectateurs. Cet incident aurait été un scandale sur une scène européenne, mais dans mon théâtre, qui était alors dans son enfance, il eut beaucoup de succès et la soirée suivante, le public désira revoir cette scène comique et il en fut enchanté.

Encore une anecdote :

Après avoir écrit et représenté plusieurs farces et comédies en un acte, j'ai cru de mon devoir de moraliser. J'ai composé donc une pièce en deux actes : *La Demoiselle à la Mode*, dont l'héroïne étant coquette et ayant flirté avec divers prétendants à la fois, se vit abandonnée par tous et condamnée à coiffer Sainte-Catherine. Eh bien, on siffla la pièce et on m'appela sur la scène : « En quoi vous ai-je déplu, demandai-je au public ? »

« Tu sais, ô Molière, répondit un jeune homme, que M[lle] Safsaf qui joue le rôle de la coquette est une très honnête fille qui n'a jamais flirté avec personne hors du théâtre; elle mérite donc que tu lui pardonnes le flirtage que tu lui fais faire dans ta pièce. Tu devrais lui trouver un mari digne de sa grâce et de sa beauté; que la dernière scène de ta comédie soit consacrée à son mariage et nous t'applaudirons; autrement, nous ne remettrons plus les pieds dans ton théâtre. »

Je fus donc obligé d'ajouter une scène à la pièce, où la coquette reconnut ses fautes, se repentit et fut mariée, à la grande satisfaction des spectateurs. Faut-il dire que la pièce a eu un grand succès ? Elle eut plus de vingt représentations consécutives.

Encore une anecdote :

Dans la seconde année de son existence, mon théâtre commença à ressembler à ses aînés d'Europe; car mes amis et moi avions représenté sur sa scène, non seulement beaucoup de pièces originales, mais aussi des traductions du français, de l'italien et de l'anglais; pourtant, nous autres orientaux, nous aimons beaucoup la plaisanterie; ceci expliquera le succès de l'incident que je m'en vais raconter : il eut lieu dans une de mes comédies intitulée : *Le Dandy du Caire*. Dans la vie privée, l'acteur, qui faisait l'amoureux était, paraît-il, très antipathique à l'actrice qui jouait le rôle de l'amoureuse; mais il l'aimait si passionnément qu'il avait même demandé sa main. Je n'en savais rien, autrement j'aurais modifié les scènes d'amour de la jeune fille qu'involontairement, j'ai obligé de dire ceci au jeune homme dans notre style poétique :

« Demande aux astres de la nuit, tes frères en beauté, sur mes veillées. Je passe mes nuits sans repos à les contempler en pensant à toi, à toi qui es la lumière de mes yeux, à toi que mon cœur aime et mon âme adore. Ah ! si tu savais combien tu m'es cher, tu ne charmerais pas d'autres jeunes filles par tes divins regards et tes sourires angéliques. Pitié! Pitié de ta tourterelle et ouvre son sein à l'espérance de devenir un jour ton esclave en amour ! Ah ! si tu m'abandonnes, j'en mourrais. Pourtant si j'étais sûre que tu visiterais ma tombe, j'implorerais le Tout-Puissant d'envoyer l'ange de la mort prendre mon âme. »

L'acteur lui dit alors à l'oreille : « Béni soit le théâtre qui abaisse ton orgueil et t'oblige à me faire une si belle déclaration d'amour devant des milliers de personnes. »

L'actrice oublia alors qu'elle était sur la scène et vexée de ce qu'elle venait d'entendre donna un vigoureux soufflet au malheureux acteur, puis, se tournant vers le public, elle dit en colère :

« Les paroles d'amour que je viens d'adresser à ce jeune homme fat et stupide ne sont pas l'expression de mes sentiments réels envers lui, car je l'abhorre plus que la cécité. C'est l'auteur de la comédie, notre Molière égyptien, qui plaça ces belles paroles dans ma bouche. »

Une vive discussion surgit entre les deux acteurs couverts des applaudissements des spectateurs, qui, à la deuxième représentation, selon leur habitude, réclamèrent la répétition de cette scène comique. Ceci fut de bon augure pour ces deux acteurs; ils se marièrent un mois après à la grande joie des spectateurs qui croyaient que la répétition continuelle de la scène naturelle avait largement contribué à cet heureux résultat.

Voici ma dernière anecdote :

« *Leila*, une tragédie écrite par un de mes meilleurs camarades, le Cheikh Mohammed Abdel Fattah, fut représentée pour la première fois sur mon théâtre, qui avait acquis le titre de : « Théâtre national », devant les ministres égyptiens, les savants et les poètes du pays.

La tragédie était patriotique et sa dernière scène représentait le Cheikh, c'est-à-dire le chef d'une tribu arabe, un vénérable vieillard, qui criait vengeance contre son ennemi mortel, lequel tuait sous ses yeux ses quatre enfants. Or il arriva que les deux agents de police qui faisaient ce soir-là le service d'ordre, étaient deux paysans de la Haute Egypte, nouvellement enrolés. Un farceur parmi les spectateurs les aborda et leur dit à voix basse : « Vous ne devriez pas souffrir que de tels actes criminels soient commis en votre présence. »

A peine les deux policiers novices eurent-ils entendu ces paroles qu'ils se précipitèrent sur la scène et saisirent l'acteur qui jouait le rôle du tyran. Les éclats de rire et les applaudissements des spectateurs, leurs bravos, sont indescriptibles. Inutile de dire que cet incident fut le succès de la tragédie.

Ah ! si je devais raconter toutes les anecdotes et les péripéties de mon théâtre, il me faudrait tout un volume. D'ailleurs dans ma pièce *Les Tribulations du Molière égyptien*, qui eut un grand nombre de représentations, j'ai dit ce que j'ai souffert par mes acteurs et les employés de mon théâtre qui m'en faisaient de toutes les couleurs. Un détail pour finir. Il y avait toujours des spectateurs qui apostrophaient l'acteur ou l'actrice en scène en disant à l'un, par exemple : « Nous allons voir si tu vas te laisser enlever ta bien-aimée. » Et à l'autre : « Tu as tort de préférer cet imbécile de dandy à ce jeune homme riche et sérieux qui meurt pour toi d'amour. » Et moi, caché derrière les coulisses, je soufflais les réponses à mes acteurs; quelques fois la causette entre la scène et le public se prolongeait. A la fin de chaque représentation, on m'appelait sur la scène et il fallait bon gré, mal gré, dire quelque chose de gai, de nouveau aux spectateurs.

Aujourd'hui, le théâtre arabe en Egypte est aussi régulier qu'un de vos grands théâtres de Paris et le nombre de nos auteurs dramatiques augmente tous les jours.

Le Molière égyptien prépare une belle pièce pour un de nos grands théâtres. Versé comme il est dans notre littérature et connaissant à fond nos grands auteurs dramatiques, il a beaucoup de chance de réussir sur notre scène, en nous donnant des comédies de mœurs et coutumes arabes. Nous lui souhaitons tout le succès.

Jacques CHELLEY.

(1) Le Cheikh a changé les paroles textuelles du Khédive par celles-ci : « Si vous n'avez pas les moyens d'épouser plus d'une femme, etc. »

صورة جزء من القسم الثاني من مقالة (موليير مصر) لجاك شيلي

إن كل ما أرويه لكم، سيداتي وسادتي، إنما يقوله الأمير في انتظار تلك التي اخترق قلبها وأحشاءها سهامُ نظراته. والممثل الناشئ الذي يلقي هذا المونولوج يجتهد في أدائه ويبالغ، مما جعل الجمهور يطلب إعادة المشهد ثلاث مرات. وكنت أنا في الكواليس ألقّنه المزيد من العبارات الطنانة.

وأخيراً وصلت مُنْية القلب. كان يقوم بالدور فتى سوري في السادسة عشرة من عمره، جميل الصورة، قامت أخواته بتزيينه وتلبيسه زي المرأة، كما برعن في عمل الماكياج له. وكان يحفظ دوره عن ظهر قلب. وقد شرع، أو بمعنى أصح شرعتْ، في الاعتراف بحبها العارم للأمير، كما رسمت له صورة قاتمة لحياة الحريم في القصر. وتوسلت إليه أن ينتزعها ويخلصها من هذه الحياة. وهنا بدأ المتفرجون الوطنيون يتذمرون. فقد أثارت حفيظتهم فكرة أن يقوم شاب أوروبي باختطاف امرأة مسلمة. غير أن الممثل الشاب، أي سيدة القصر، همس لهم قائلاً: " مهلاً، مهلاً، أيها الإخوة!".

وسرعان ما هدّأت هذه العبارة من روع المشاهدين، وبخاصة أنها قيلت بكل رقة وعذوبة، وجعلتهم يميلون إلى سماع المرأة، وهي تعترف بحبها للأمير.

أود، سيداتي وسادتي، أن أترجم لكم إلى اللغة الفرنسية الكوبليهات التي تغنّت بها العاشقة بمصاحبة الأوركسترا، فأنا أحفظها عن ظهر قلب؛ ولكن ترجمة الشعر العربي إلى النثر يفقده كل قيمته. وهنا ارتفعت أصوات العديد من الحاضرين قائلين : " ترجم يا شيخ، ترجم ولا حرج ".

> " هل أنت ملاك من الفردوس، أم مخلوق أرضي؟ هل صورك الله بهذا الجمال لكي تسبي نفسي وتفتن فؤادي، أم لإلهابهما بالحب وجعلهما يلهثان وراءك؟ هل هاتان عينان بشريتان، أم هما نجمان سماويان يبرقان في وجهك الذي تنكسف أمام جماله شمس النهار؟ بنظرة من نظراتك الرقيقة، العذبة الفاتنة جعلتني أكثر إمائك طاعة وخضوعاً، رأيتك فانطبعت صورتك المعبودة في حدقة عيني. سمعت صوتك الرخيم ونبراته العذبة التي ما تزال ترن في أذنيْ. أفكاري لا تفتأ تسعى وراءك .. لا أرى سواك في الليل والنهار. وأنت الذي يلوح لي في أحلامي. أنقذني يا ابن أوروبا النبيل! انقذني من هذا القصر الكئيب، من قبر الأحياء هذا. انتزع يمامتك من يدي هذا الباشا العجوز الذي يدنّس جسدها الغض بيديه الخشبيتين، ويُذبل زهرة خديها بقبلاته الباردة. انتشلني وخذني إلى بلدك، وأقسم لك بالله الذي صورك في هذه الصورة الجميلة الألوهية، بأنني سأسعد حياتك بمداعباتي وبقبلاتي وبمفاتني.

وسرعان ما احتضنها الأمير بين ذراعيه، وغطى جبينها بالقبلات. ولكن ها هو الباشا العجوز يقتحم الحجرة، ومن خلفه أربعة من الضباط، وهو يصيح بهم قائلاً: "قيدوا الجناة جاعلين ظهر كل منهما للآخر، وضعوهما في جوال مع حجر كبير وألقوا بهما في النيل. فتماسيحنا تحب اللحم الغض الطري ".

أعقب ذلك مشهد مؤثر، حينما ألقت العاشقة بنفسها على قدمي الباشا، وهي تعترف بذنبها، وتدفع التهمة عن الأمير. توسلت وتضرعت وبكت؛ لكن الباشا لا يلين ولا يرحم. بل يكرر أوامره للجنود الذين يقبضون على الجانيين ويقيدونهما كما أراد، دون السماح لهما بالعناق. ويقاوم الأمير ويهدد، ويصف الباشا " بالقاتل الذميم ". وتتضرع العاشقة إلى الله، وتبتهل إليه أن ينزلها مع حبيبها منزل الصدِّيقين.

ويسأل الجنود الباشا العجوز: متى يضعون العاشقين في الجوال لتقديمهما فريسة للتماسيح، فيرد الباشا قائلاً: " الآن فوراً " ثم يردف قائلاً: " لكن على الأمير أولاً أن يخبرنا لمن نعطي الألف جنيه التي فاز بها، لأنه كان قد راهن صديقي أحمد أنه يستطيع خلال شهر من الزمان أن ينجح في الوصول إلى جناح الحريم في مغامرة غرامية ".

وهنا صاح الأمير قائلاً: " حقاً، لقد فزت بالرهان، وأنا أقدمه هدية لك يا باشا، بل أضاعفه لك إذا رددت علي حريتي، ووهبتني هذه الأَمَة المستعبدة. وهنا يُفتح باب الجناح، ويدخل بعض أصدقاء الأمير من الفرنسيين والمصريين، وهم يصيحون ويضحكون: " أحسنتم الأداء وبرعتم فيه ". وينزع الباشا لحيته البيضاء؛ فيتعرف الأمير على غريمه في الرهان والذي أوفى به. وتخلع الأَمَة الياشمك والمعطف؛ فإذا هي ضابط شاب ينطلق في ضحكة عالية. ويعتذر الباشا للأمير لأنه لعب عليه هذه اللعبة، وألقى في قلبه الرعب. ويدعوه إلى مأدبة غذاء على شرفه في حديقة القصر.

قمت بترجمة هذا الأوبريت إلى اللغة الفرنسية، وهو من فصل واحد، وأعطيته لأحد الأصدقاء لتلحينه؛ لكنه أخبرني بأنه فقده أثناء عملية نقل الأثاث بمنزله (*).

(*) – ألم ينتبه القارئ بأن جميع أدلة صنوع – عن بداية مسرحه العربي المزعوم في مصر – مفقودة! فخيري باشا الذي اشترك في تقديم نص هذا العرض إلى الخديوي مات سنة ١٨٨٧م، والخديوي إسماعيل الذي صرح بتمثيل النص مات سنة ١٨٩٥م، ونص العرض المُترجم إلى الفرنسية مفقود!

وقد كان نجاح هذا الأوبريت حافزاً لي على الاستمرار في هذا الطريق، وعدم التوقف. وكان من الضروري تكوين فرقة حقيقية تضم ممثلات نساء فعلاً، لا رجالاً متنكرين. وقد تم ذلك خلال تقديم الأوبريت القصير الذي أعجب الجمهور. وقد تمكنت من اختيار وضم فتاتين جميلتين فقيرتين وشريفتين في الوقت نفسه. استطاعتا في أقل من شهر تعلم القراءة، ونجحتا في حفظ الدورين القصيرين اللذين كتبتهما – بصفة خاصة – من أجلهما في مسرحياتي، وقد أحدث ظهورهما فوق المنصة تأثيراً عظيماً. كما كان التصفيق الذي قابلهما به الجمهور حافزاً لهما على الاستمرار وحفظ أدوار أكثر أهمية. وفي ظرف عدة أشهر، أصبحتا نجمتي المسرح الوليد فوق المنصة (*) التي قدمت فوقها لمدة عامين، اثنتين وثلاثين مسرحية من تأليفي المتواضع. هذا بالإضافة إلى المسرحيات التي ترجمتها عن الفرنسية (**).

ولكن صنوعاً لم ينتبه إلى أن حديثه كان عن النص المُترجم إلى الفرنسية! فأين النص العربي؟! فمن المؤكد أن هذا النص – لو صدقنا مزاعم صنوع عن مسرحه – كان معه عند سفره إلى فرنسا، وإلا ما استطاع ترجمته إلى الفرنسية، وإعطاءه إلى صديق من أجل تلحينه! فأين هذا النص؟! ولماذا لم يحصل عليه د.محمد يوسف نجم، ضمن ما حصل عليه من مخطوطات مسرحيات صنوع، التي نشرها في بيروت؟! ولماذا لم تقم ابنة صنوع (لولي) بإعطاء هذا النص إلى الدكتور إبراهيم عبده، عندما أعطته كل شيء عن والدها، كي يكتب كتابه الشهير عن صنوع؟! فهذا النص .. ربما يكون الدليل المفقود على صدق صنوع في زعمه بإنشاء مسرح عربي في مصر!

(*) – إذا كنّا لم نستطع الحصول على دليل واحد على وجود مسرح صنوع المزعوم في مصر، فمن الأولى أننا نجد مجموعة ضخمة من المقالات المنشورة عن ظهور أول ممثلتين مسرحيتين مصريتين، حيث إن ظهورهما – في عام ١٨٧٠م – يُعد حدثاً مهماً، سواء بالإيجاب لمن يمدحهما، أو بالسلب لمن يذمهما، لخروجهما على العادات والتقاليد الشرقية في مصر في ذلك الوقت!! ورغم أهمية هذا الحدث – المُتخيل من قبل صنوع – لم نجد سطراً واحداً عن قيام فتاة مصرية بالتمثيل في مصر عام ١٨٧٠م! ولم نجد مقالة – أو إشارة – عن ظهور المرأة باعتبارها ممثلة! والأرجح من وجهة نظري – في حالة قبول أوهام صنوع عن هاتين الفتاتين – أنهما فتاتان من فتيات الحواة أو القراقوز، كانتا تعملان لدى صنوع في عروضه الشعبية المقامة في الساحات والميادين والحدائق والمقاهي! لأن فتاة القراقوز والحواة، هي الوحيدة التي لم تهتم بها الصحافة، ولم تكتب عنها في تلك الفترة.

(**) – من يصدق أن صنوعاً قدم أكثر من اثنتين وثلاثين مسرحية في عامين! أي أقلّ من مسرحيتين في الشهر الواحد تقريباً. فهل أسبوعان مدة كافية لتأليف مسرحية، وتدريب الممثلين عليها، وتجهيز المسرح بأدواته، والإعلان عنها، ومن ثم تمثيلها؟! وهل يُصدق أن اثنتين وثلاثين مسرحية عربية تمّ عرضها في القاهرة، ولم نجد مقالة واحدة، أو إعلاناً واحداً منشوراً في الصحف، عن عرض واحد

وبعد مرور أربعة أشهر من إنشاء هذا المسرح الوطني، دعاني الخديوي إسماعيل مع فرقتي؛ لتقديم عرض على مسرحه الخاص في القصر بقصر النيل. وبالفعل قدمنا ثلاث مسرحيات هي: ***آنسة على المودة***، و***الغندور في القاهرة***، و***الضرتان***. وجميعها كوميديات عادات وتقاليد ذات هدف أخلاقي (*).

من عروض الاثنتين والثلاثين مسرحية؟! وهل يُعقل أن هذه العروض لم تلفت نظر أي إنسان، فيتحدث عنها في الصحف أو الكتب أو المذكرات أو الوثائق؟! وأين هذا المسرح الفذ، الذي عُرض على خشبته هذا العدد الضخم من العروض في عامين فقط؟! فالأوبرا الخديوية، ومسرح الكوميدي الفرنسي مجتمعين، لم يعرضا هذا الكم الهائل من المسرحيات في عامين، وهما مسرحان يتبعان الخاصة الخديوية مباشرة، وميزانيتهما تتبع ميزانية الخاصة الخديوية! ولماذا لم يذكر صنوع اسم هذا المسرح الأسطوري؟! الإجابة من وجهة نظري، أن صنوعاً - ربما - ألف اثنتين وثلاثين مسرحية، وعرضها في عامين، لأنها نصوص لعروض القراقوز والحواة والمحبظين، التي تعتمد على الارتجال، والتي لا تستغرق وقتاً في التأليف أو التمثيل أو التجهيز، وأن المسرح الذي يعرض هذه العروض، ما هو إلا علبة خشبية تُحمل على الظهر! هذا هو مسرح صنوع، وهذه هي عروضه!

(*) – هذه المعلومات مصدرها الوحيد صنوع فقط، ورغم ذلك فإنها تثير سؤالاً مهماً يقول: هل يُعقل أن يقوم صنوع وفرقته المسرحية عام ١٨٧١م – لأنه قال بعد أربعة أشهر من بدايته المسرحية سنة ١٨٧٠م – بتمثيل ثلاث مسرحيات في قصر الخديوي – وبدعوة منه وتحت رعايته – ولا نجد خبراً واحداً منشوراً في الصحف عن هذه العروض الثلاثة؟! فأي مُسوغ من الممكن أن يُقبل لمجلة وادي النيل على أنها تجاهلت هذه العروض المسرحية، ونشرت مقالة عن افتتاح الملاعب الخيلية في يناير ١٨٧١م ؟! وأي تفسير من الممكن قبوله لتجاهل جريدة الجوائب لهذه العروض، وفي الوقت نفسه نجدها تنشر أخباراً عن عروض الأوبرا والكوميدي الفرنسي في إبريل ١٨٧١م ؟! وأي منطق من الممكن قبوله لتجاهل مجلة الجنة لهذه العروض، واهتمامها في الوقت نفسه بعرض مسرحي أُقيم في مدرسة الفرير بالإسكندرية في سبتمبر ١٨٧١م ؟! وأي حجة من الممكن قبولها لتجاهل مجلة الجنان لهذه العروض، واهتمامها في الوقت نفسه بعروض حفلات حلوان الترفيهية في نوفمبر ١٨٧١م؟! وإذا صدقنا زعم صنوع عن هذه العروض، فلابد أن نضع احتمالين: الأول، يقول: طالما العروض تمت على مسرح الخديوي الخاص بقصره سنة ١٨٧١م، وأن صنوعاً كشف تفاصيلها سنة ١٩٠٢م، ولم يخبرنا بها قبل ذلك – رغم وجوده آمناً في فرنسا، ولديه صحيفة مخصصة للهجوم على الخديوي إسماعيل – فلابد أن تكون العروض المسرحية عروضاً خاصة – مثل مسرحها الخاص – ولم يحضرها إلا الخديوي فقط! والاحتمال الآخر – وهو الأرجح من وجهة نظري – أن هذه العروض كانت عروضاً لفنون الشارع مثل القراقوز وصندوق الدنيا، عُرضت لتسلية الخديوي، ولذلك لم يُلتفت إليها! والدليل على رجاحة هذا الاحتمال، أن من غير المعقول أن تكون عروض صنوع أمام الخديوي عروضاً مسرحية بالمعنى المتكامل والمعروف للمسرح، لأن من غير المعقول أن الخديوي يجلس ويرى عروضاً لثلاث مسرحيات متتابعة في ليلة واحدة! لأن هذا الأمر سيستغرق عشر ساعات متواصلة على الأقل! فهل هذا من الممكن حدوثه؟! أم المقبول حدوثه أن هذه العروض كانت عروضاً للقراقوز وصندوق الدنيا، عُرضت لتسلية الخديوي، حيث إن كل عرض يستغرق عدة دقائق؟!

بعد أن شاهد الخديوي المسرحيتين الأولتين، دعاني إليه وقال لي أمام وزرائه وكبار رجال البلاط: نحن مدينون لك بميلاد مسرحنا القومي. كوميدياتك وأوبريتاتك وتراجيدياتك عرّفت شعبنا الفن الدرامي. أنت موليير مصر، واسمك سوف يبقى خالداً(*). لكنه بعد أن شاهد المسرحية الثالثة (***الضرتان***)، وهى تعالج موضوع تعدد الزوجات، لأن المرأتين زوجتا رجل واحد تسببتا في شقائه بسبب غيرتهما ومتطلبتهما، وحينما استمع إلى الفقرة الطويلة التي يلقيها الزوج، ويهاجم فيها تعدد الزوجات؛ لأنه السبب وراء الشقاق بل والجرائم التي تقع في إطار الأسرة، حينئذ تحولت سعادة الخديوي إلى غضب شديد، وقال لي بلهجة ساخرة: " آه يا موليير، إذا كنت لا تتمتع بالقوة لإرضاء أكثر من زوجة فلا ينبغي أن تنفر الآخرين".

ومن ناحية أخرى، فقد وجد رجال البلاط الأوربيون في كلمات الخديوي عبارة في منتهى الذكاء، ونصحوني بأن أحذف هذه المسرحية من سجل أعمالي؛ على الرغم من أنها عرضت ثلاث وخمسين مرة متتالية وبنجاح. وفي العام التالي، وبالتحديد، بعد أكثر من مائتي عرض ناجح (**)، شرفني الخديوي بالسماح بعرض ثلاث مسرحيات أخرى على مسرح الكوميدى فرانسيز القاهري، وذلك في سهرة احتفالية. ولقد قوبلت

(*) – تصريحٌ ومنحُ لقب من قبل الخديوي إسماعيل لصنوع بأنه (موليير مصر). وهذا اللقب – من قبل الخديوي – يرقى إلى مرتبة الفرمان ومنح الأوسمة والنياشين، والغريب أننا لم نسمع به إلا من خلال أقوال صنوع فقط! أتصريح كهذا يصدره الخديوي أمام وزرائه وحاشيته تصمت عنه الصحف، ولا يأتي ذكره في كُتب التاريخ، بل يأتي ذكره فقط من خلال صنوع وحده ؟! .. مجرد سؤال !!

(**) – إذا كنا في تعليق سابق تعجبنا من تجاهل الصحف لعروض صنوع أمام الخديوي على مسرحه الخاص بقصر النيل، ألا يزداد تعجبنا هنا أكثر عندما نجد أن الصحف تجاهلت هذا الكم الهائل من عروض إحدى مسرحياته، وهي (الضرتان) التي بلغ عرضها ٥٣ ليلة عرض ؟! فهل يُعقل ألا نجد إعلاناً واحداً أو خبراً واحداً أو مقالة واحدة – مادحة أو قادحة – لعرض واحد من العروض – الـــ٥٣ لهذه المسرحية؟! وإذا كانت الصحف تجاهلت عروض هذه المسرحية، لماذا تجاهلت عروض صنوع الـــ ٢٥٠ في العام التالي؟! هذا التعجب من الممكن إزالته في حالة إقامة هذه العروض – التي بلغت المئات في عامين فقط – ضمن عروض الشوارع الفنية – مثل القراقوز، والحواة، وصندوق الدنيا، والمحبظاتية، وأولاد رابية – التي لا تهتم بها الصحف ولا تقيم لها وزناً.

فرقتي بموجات من التصفيق الحاد حتى من سموه (*). ولكن كان في القاعة بعض أصحاب القبعات الضخمة من أعداء التقدم والحضارة، تمكنوا من إقناع سموه بأن مسرحياتي تتضمن إشارات ذكية، وتلميحات خبيثة ضدّه، وضد حكومته. وعلى أثر ذلك أمر بإغلاق المسرح (**)؛ بالرغم من سخط الجماهير وغضبها، لكنه أعيد فتحه في عهد ابنه وحفيده (***). وهو لا يفتأ يزدهر ويمكننا اليوم أن نضاهيه بأرقى المسارح في أوروبا. ومن ناحية أخرى، فإن كُتّاب المسرح من مصريين وسوريين يثبتون وجودهم. وهم يتميزون بإنتاجهم الرائع ولا يسعني إلا أن أحييهم من كل قلبي.

والآن، سيداتي وسادتي، اسمحوا لي أن أقص عليكم بعض الحكايات المثيرة التي حدثت لي خلال مسيرتي الفنية. ومن واجبي في البداية أن أقول لكم بأنني، بالنسبة لمسرحي، فأنا المدير والمؤلف، وفي بعض الأحيان الملقن.

ولنبدأ بالملقن. فقد حدث أنه لم يحضر في الموعد، ومن سوء الحظ كانت عيناي متعبتين، ولم أتمكن من القيام بعمله. ومن ثم فقد أعطيت مخطوط المسرحية

(*) — حتى الآن لم يثبت أن مسرح الكوميدي الفرنسي بالقاهرة، عرض مسرحية عربية في الفترة ما بين عامي (١٨٧٠ – ١٨٧٢م) – وهي فترة مسرح صنوع المزعومة – وإذا افترضنا جدلاً أن صنوعاً عرض مسرحياته بلغة أجنبية، لكانت مجلة (وادي النيل) نشرت أخبارها وإعلاناتها، أسوة ببقية عروض هذا المسرح، التي نقلنا أخبارها في كتابنا (تاريخ المسرح في مصر في القرن التاسع عشر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨م). والاحتمال الأرجح لهذه العروض – إذا سلمنا بأقوال صنوع – أنها كانت فصولاً مضحكة تُقدم بين الفصول، مثل: القراقوز، أو البانتومايم، أو الجمباز، أو خيال الظل .. التي كان يقدمها حنا النقاش، وأحمد فهيم الفار، ومحمد ناجي.

(**) — القول بإغلاق مسرح صنوع المزعوم، ناقشناه كثيراً في تعليقاتنا السابقة.

(***) — هناك احتمالان لقول صنوع بإعادة فتح المسرح في عهد – الابن – الخديوي توفيق، وفي عهد — الحفيد — الخديوي عباس باشا حلمي الثاني: الأول، أن المقصود هو إعادة فتح مسرح صنوع، وهو احتمال غير وارد، لأن صنوعاً سافر إلى فرنسا عام ١٨٧٨م — في عهد الخديوي إسماعيل – وظل بها حتى وفاته عام ١٩١٢م. وهذا الاحتمال — للأسف – اعتمده د.لويس عوض في كتابه [تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩م – الجزء الأول – مكتبة مدبولي – ط١ — ١٩٨٦م — ص(٢٨٣)]. والاحتمال الآخر، أن المقصود بإعادة المسرح، هو المسرح العربي بشكل عام من خلال انتشار الفرق العربية في مصر، مثل: فرقة سليم النقاش ويوسف الخياط وسليمان القرداحي وسليمان الحداد .. إلخ، وهو الاحتمال المنطقي والمرجح، والمناسب لسياق الكلام الوارد فيما بعد.

لأحد الممثلين، ووقفت معه بين الكواليس، وأنا أقول له: " اقرأ المسرحية بصوت خفيض، ودع الممثل يتابعك ". غير أن الحيوان عمل العكس، وجعل يقرأ بعد الممثل. فقلت له وأنا أهزه بعنف: " أنت حمار". فما كان منه إلا أن أخرج رأسه فوق المنصة وقال للممثل: " لا تسرع هكذا يا أخي، ألا تعلم أن العجلة من الشيطان؟ دعني أولاً ألقّنك، ثم كرر من بعدي ". فضجت القاعة في قهقهة عالية، مما أثارني؛ فجذبت الممثل من أذنيه؛ فما كان منه إلا أن خرج من المنصة، وهو يلقي بالمخطوط في وجه الممثل. ونشبت بينهما معركة مما اضطرني إلى الصعود على المنصة للتفريق بينهما وسط صياح الجماهير وضحكاتهم. إن مثل هذا المشهد يمكن أن يسبب فضيحة لو حدث في مسرح أوروبي، لكنه في مسرحي الذي كان ما يزال في طور الميلاد، حقق نجاحاً كبيراً، حتى إن الجماهير، في الليلة التالية، أعربت عن رغبتها في رؤية هذا المشهد الكوميدي الذي أعجبها كثيراً.

وإليكم حكاية أخرى.

بعد أن قمت بتقديم العديد من الفارصات والكوميديات ذات الفصل الواحد، وجدت أن من واجبي أن أدعو إلى مكارم الأخلاق. وعليه، فقد كتبت مسرحية من فصلين بعنوان ***آنسة على الموضة*** بطلتها شابة لعوب تمشي مع أكثر من شاب في وقت واحد، وينتهي بها الأمر إلى أن يهجرها الجميع، وتندب حظها العاثر. هوجمت المسرحية، وطلب مني الجمهور الظهور فوق المنصة، فوجهت إليه هذا السؤال: ما الذي لم يعجبكم في المسرحية؟

وهنا انبرى شاب من الجمهور وقال: " أنت تعرف يا موليير أن الآنسة (صفصف) التي تؤدي دور الفتاة اللعوب، هي فتاة شريفة عفيفة لم تمشِ مع أحد خارج المسرح، فهي تستحق إذن أن تغفر لها التبذل الذي تجعلها تقوم به في المسرحية. وعليك أن تعثر لها على زوج جدير بها وبجمالها، وأن يكون المشهد الأخير من مسرحيتك مخصصاً لزواجها. وسوف نصفق لك، وإلاّ فلن نأتي إلى مسرحك مرة أخرى ".

اضطررت إذاً إلى إضافة مشهد إلى المسرحية، تعترف فيه الفتاة بأخطائها، وتعبر عن ندمها، وتتزوج وسط فرحة المشاهدين وغبطتهم. هل يجب أن أقول إن

المسرحية لقيت نجاحاً باهراً عظيماً؟ يكفي أن أقول إنها عرضت أكثر من مائة مرة متتالية (*).

حكاية أخرى.

في عامه الثاني، بدأ مسرحي يشبه إخوانه المسارح الأوروبية. لأنني وأصدقائي لم نكتفِ بعرض الكثير من المسرحيات المؤلفة، وإنما قمنا بعرض مسرحيات مترجمة عن الفرنسية والإيطالية والإنجليزية. ومع كل فنحن الشرقيون أيضاً نحب الدعابة، وهذا ما يفسر نجاح الحادثة التي سأرويها لكم، والتي وقعت أثناء عرض إحدى كوميدياتي بعنوان : ***الغندور في القاهرة***. كان الممثل الذي يقوم بدور البطولة في حياته الخاصة مكروهاً من الممثلة، التي تقوم بدور العاشقة. غير أنه كان يحبها كثيراً لدرجة أنه تقدم لخطبتها. لكنني لم أكن أعلم شيئاً من ذلك كله، وإلا لكنت غيرت المشاهد الغرامية، التي جعلت الفتاة تقول فيها للفتى ما يأتي في أسلوب شاعري مؤثر:

> " سل نجوم المساء. إخوتك في الجمال، عن سهري الليالي. أنا أقضي ليلي ساهرة أتأملها، وأنا أفكر فيك أنت. يا نور عيوني يا من يهواه قلبي ويعبده فؤادي. آه! لو تعلم كم أحبك، لما فتنت غيري من البنات بنظراتك الساحرة وابتساماتك الملائكية. الرحمة ! الرحمة ! بعاشقتك التي تدعو آملة أن تصبح يوماً ما عبدة هواك. آه ! لو أنك هجرتني لمت كمداً. ومع ذلك فلو تأكدت أنك ستزور قبري، لتوسلت إلى العلي القدير أن يرسل إليَّ ملك الموت ليقبض روحي".

وهنا همس الممثل في أذن الفتاة قائلاً: " بارك الله في المسرح الذي أذل كبرياءك وأجبرك على أن تصرحي لي بحبك أمام آلاف المشاهدين ".

(*) – تحدثنا في تعليق سابق عن عدد عروض مسرح صنوع المزعوم، حيث قرأنا أن مسرحية (الضرتين) تم عرضها ٥٣ مرة، وأن عروض مسرحياته في العام التالي بلغت ٢٠٠، وهنا يقول إن عرض مسرحية (آنسة على الموضة) وصل إلى مائة مرة، إذن فمجموع عروض صنوع المسرحية بلغت أكثر من ثلاثمائة ليلة عرض في عامين اثنين، أي بواقع عرض مسرحي كل يومين!! أيعقل هذا العدد الذي يفوق أكبر عروض مسارح العالم منذ ظهور المسرح الإغريقي إلى الآن؟! هذا العدد يمكن تصديقه في حالة واحدة، وهي أن هذه العروض .. عروض للقراقوز وصندوق الدنيا والحواة، تُعرض يومياً في الشوارع والميادين والحدائق العامة!

ونسيت الممثلة أنها على المنصة، وتملكها الغيظ مما سمعت. وانهالت بصفعة على وجه الممثل البائس، ثم توجهت إلى الجمهور وقالت وهي غاضبة: " عبارات الحب التي وجهتها قبل قليل إلى هذا الشاب التافه الأبله، لا تعبر عن حقيقة مشاعري نحوه، لأنني في الحقيقة أكرهه كُره العمى. ده مؤلف المسرحية، موليير مصر، هوّه اللي خلاني أقول الكلام ده ".

ونشبت مشادة عنيفة بين الممثلين غطاها تصفيق المشاهدين الذين طالبوا في العرض الثاني – على طريقتهم – بإعادة هذا المشهد الكوميدي. وقد كان ذلك فألاً حسناً لهذين الممثلين، فقد تزوجا بعد شهر واحد من هذه الحادثة، وسط فرحة الجمهور العارمة التي اعتقدت أن تكرار هذا المشهد الطبيعي أسهم في الوصول إلى هذه النتيجة السعيدة.

وإليكم الحكاية الأخيرة.

" ***ليلى***"، هي مسرحية تراجيدية كتبها واحد من أفضل أصدقائي، هو الشيخ محمد عبد الفتاح، وقد عرضت للمرة الأولى على مسرحي – الذي أصبح يعرف باسم " المسرح القومي" – وذلك أمام الوزراء المصريين، وعلماء البلاد وشعرائهم (*).

كانت مسرحية وطنية، وكان المشهد الأخير منها يمثل الشيخ – أي رئيس قبيلة عربية وهو شيخ مبجل – وهو يطالب بالثأر من عدوّه اللدود الذي قتل أمام عينيه أبناءه الأربعة. وتصادف أن الشرطيين اللذين كانا في ذلك المساء يقومان بالحراسة، كانا قرويين من صعيد مصر، دخلا الخدمة حديثاً. وحدث أن تقدم منهما متفرج خبيث وهمس لهما قائلاً: " لا يمكن أن تسمحا بوقوع مثل هذه الأعمال الإجرامية في حضوركما ".

(*) – هذه المسرحية تعرضنا لها بالدراسة والتعليق في دراستين سابقتين، وأوضحنا أنها مُثلت بالفعل عام ١٨٧٢م بواسطة الخواجة (جيمس الإنجليزي) – الذي منحه الخديوي إسماعيل تصريحاً بتمثيل بعض المسرحيات العربية بالأزبكية – وليس (جيمس سنوا – يعقوب صنوع). وإذا ثبت بالفعل أن ممثلها هو صنوع، فهذا سيجعلنا نُعيد النظر في شخصية صنوع، باعتباره إنجليزياً وليس مصرياً. وبالتالي لن يكون رائداً للمسرح العربي، بل سيكون أجنبياً عرض مسرحية، ضمن عروض مئات المسرحيات التي عُرضت في مصر – في تلك الفترة – من قبل الجاليات الأجنبية! للمزيد ينظر: د.سيد علي إسماعيل – مسيرة المسرح في مصر ١٩٠٠–١٩٣٥م: فرق المسرح الغنائي (الجزء الأول) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٣م – ص(٥٦٣–٥٦٩)، فيليب سادجروف – المسرح المصري في القرن التاسع عشر – السابق – تعليقات ص(١٨٩ – ١٩٢).

وما أن سمع الشرطيان هذه العبارات حتى اندفعا نحو المنصة، وقبضا على الممثل الذي كان يؤدي دور الجاني. وهنا ضجت القاعة بالتصفيق والضحك، وصيحات الاستحسان التي فاقت كل وصف. ومن نافلة القول أن أضيف أن هذه الحادثة كانت سبب نجاح المسرحية.

آه ! لو كان من الضروري أن أروي جميع الحكايات والأحداث التي وقعت لمسرحي، للزم لذلك مجلد كامل. وفي مسرحيتي بعنوان " ***ابتلاءات موليير مصر***" التي عرضت مرات عديدة، تحدثت عن جميع أنواع المحن التي كابدتها من الممثلين والموظفين الذين عملوا في مسرحي.

وإليكم آخر ما أسوقه في هذا الصدد. كان من بين المتفرجين عدد غير قليل دأبوا على مخاطبة الممثلين أو الممثلات أثناء التمثيل قائلين لأحدهم مثلا: " آه! حانشوف بقه إذا كنت حتسيب الواد ده يخطف البنت اللي بتحبها ". أو يقول أحدهم لإحدى الممثلات: " إنتي غلطانة إنك فضلتي الواد العبيط المغرور ده على الواد الجدع الغني اللي بيموت فيكي ".

وجدير بالذكر إنني كنت وأنا مختبئ داخل الكواليس، ألقّن الإجابات للممثلين، وفي بعض الأحيان كان النقاش بين المنصة والجمهور يمتد طويلاً. وفي ختام كل عرض، كانوا يدعونني للصعود على المنصة حيث أضطر بشكل أو بآخر، أن أقول شيئاً جديداً يلقي البهجة في النفوس.

اليوم أصبح المسرح العربي في مصر مسرحاً عادياً كأي مسرح من مسارحكم في باريس، كما أن المؤلفين المسرحيين عندنا في تزايد مستمر.

والآن، اسمحوا لي أن أختم هذا الحديث عن المسرح بأبيات من الشعر من نظمي، ألقيتها في مأدبة عُشاق موليير، برئاسة السيد مونڤال (Monval)، تلك المأدبة التي حضرتها قبل خمسة وعشرين عاماً.

ربة الشعر، كفكفي دموعـــــــــك
دعي أرض مصـــــــــــــــــر
وتعالي ذوقي هنـــــــــــــــا
مفاتن الفكر الباريسي الراقــــــــي
سترين أكثر من شاعـــــــــــــر

وأكثر من كاتب عظيـــــــــــم
زهرة الفنانين يحتفلـــــــــون
بموليير، أستاذي العبقــــــري
عبري إذن عن عرفانـــــــك
نحو هذا الأستاذ العظيـــــــم
وقدمي على شرفـــــــــــه
إحدى قصائدك الشجيّـــــــــة

إلى فرنسا

أحييك يا وطن مولـــــــــيير،
يا وطنا باركه الإلـــــــــه،
يا وطن التقدم، والنـــــــور،
والفكر، والعبقرية والشـــــرف
ما أكثر الأمم التي تديـــــن لك
يا فرنسا المجيـــــــــــدة
بنهضتها واستقلالهـــــــــا
وحضارتهـــــــــــــــا
ذات يوم، سأروي مجـــــــدك
من فوق قمة الأهرامـــــــات
وأتغنى بالشكر والعرفـــــــان
لأبنائك المغاويـــــــــــر.
في انتظـــــــــــار ذلك
أتضرع إلـــــــــــى الله
أن يسبغ عليك العـــــــــزّ
عشت يا فرنسا، يا وطني الثاني
وأنا أشرب نخب صحتـــــك.

هذه الأبيات المتواضعة ألهبت حماسة المستمعين الذين صفّقوا لي بحرارة بالغة فاقت كل ما أستحق.

أبو نضارة

تحت أيدينا عدد كبير من الصحف والجرائد الشرقية والغربية تتحدث عن مسرح الشيخ أبو نضارة، وتقدم تحليلاً لمعظم مسرحياته. وسنختار منها اثنتين كانتا تصدران في ذلك العصر في القاهرة، تحت إشراف زميلين فرنسيين هما جول باربييه وجابلان. ولنبدأ بـــ" *القره قوز* "، وهي صحيفة نقدية للسيد جابلان.

في عددها الصادر في ٦ مايو ١٨٧٦م، تقدم هذه الصحيفة السيرة الذاتية للشيخ، ثم تضيف قائلة:

> " في عام ١٨٧٠م أقدم الشيخ على إنشاء مسرح عربي. وقد تُوج عمله الجريء بنجاح منقطع النظير. وينبغي أن نقول إنه تمكن من أن يؤلف ويعرض على مسرح الأزبكية اثنتين وثلاثين مسرحية نذكر منها: ***البورصة، الارستقراطية، الغندور، آنسة على المودة، ابتلاءات موليير مصر*** ... إلخ (*)

والآن، إليكم ما يقوله زميلنا المعروف جول باربييه، عام ١٨٧٣م، في صحيفته *الأزبكية* (**):

(*) — هنا إشارة قوية عن مسرح صنوع العربي، فالكاتب يأتي بقول من مجلة (القراقوز) بتاريخ ٦/٥/١٨٧٦م! ولكن للأسف الشديد لم نجد مجلة بهذا الاسم في هذه الفترة! ولم نجد كتاباً أرخ للصحافة في مصر، ذكر اسم هذه المجلة في هذه الفترة! وهناك احتمالان لهذه الإشكالية: الأول، أن اسم المجلة وتاريخها ادعاء من صنوع! والآخر، أنها مجلة حقيقية لها وجود – وربما صدرت في عدد أو عددين ثم أُغلقت لسبب ما – وأن اسمها فعلاً (القراقوز). وأمام هذا الاسم نقول: إذا كانت المجلة اسمها (القراقوز)، إذن هي مهتمة ومتخصصة في هذا الفن! وهذا يعني أنها تحدثت عن عروض صنوع باعتبارها عروضاً لفن القراقوز! وهذا هو الاحتمال الأرجح في حال وجود مجلة بهذا الاسم في هذه الفترة!

(**) — إشارة قوية أخرى جاء بها صنوع من خلال جريدة (الأزبكية) لصاحبها جول باربييه – صديق صنوع – عام ١٨٧٣م، أثناء وجود صنوع في مصر، وقبل سفره إلى فرنسا. وبالبحث وجدنا جريدتين باسم الأزبكية : الأولى فرنسية صدرت في القاهرة عام ١٨٨٣م، والأخرى عربية صدرت في القاهرة أيضاً عام ١٩٠٣م. وبناء على ذلك فجريدة جول باربييه لا علاقة لها بهاتين الجريدتين، إلا إذا كانت الجريدة الفرنسية هي المقصودة، ويكون تاريخ جريدة جول باربييه عام ١٨٨٣م وليس ١٨٧٣م، وأن الاختلاف بين التاريخين كان من الأخطاء المطبعية، وبالتالي ستكون الإشارة مكتوبة عام ١٨٨٣م، أي أن معلوماتها منقولة من صحف صنوع! وهناك احتمال آخر بأن جول باربييه لم يكن صاحب جريدة الأزبكية، لأنه — في الواقع — صاحب مطبعة السنترال بالأزبكية، فربما كان يصدر نشرات من مطبعته، اعتبرها صنوع – أو جاك شيلي – جريدة صادرة

" هل من الضروري أن نذكّر أن الشيخ قدم مائة وستين عرضاً خلال موسمين اثنين، وأنه عرض اثنتين وثلاثين مسرحية من تأليفه، بدءاً من الفارص ذي الفصل الواحد وحتى الدراما ذات الفصول الخمسة؟ وهل من الضروري أن نتحدث عن حماسة الجماهير التي كانت تشاهد لأول مرة الفن المسرحي، تعبّر بأعلى صوتها عن مشاعرها بسذاجة صبيانية؟

" ما زلت أرى هذا الجمهور بضجيجه وجلبته يضم كافة أطياف المجتمع المسلم، بدءاً من الوزير وحتى العامل البسيط. ما زلت أسمع تلك الضحكة المجلجلة تحيي عبارة جميلة، أو مزحة لطيفة، أو موقفاً مضحكا. لأن اللغة العربية غنية باللعب بالألفاظ والمُلح على اختلاف مستوياتها من راقية وفجة. نعم، يا له من جمهور جيد وما أسهل تحريكه وإثارته "!

كانت الانطلاقة رائعة، حتى إن الشيخ، موليير مصر، وجد من يقلده. فذات يوم تلقى مسرحية تراجيدية شعرية من تأليف أستاذ بجامعة الأزهر. كانت مسرحية رائعة قام بعرضها طلبة الجامعة نفسها، وحققت نجاحاً كبيراً(*).

بعد ذلك، قام محمد عثمان باشا بترجمة مسرحية " ***طرطوف***" لموليير مع تحويل الشخصيات النصرانية إلى شخصيات مسلمة. فأخرج لنا مسرحية

من مطبعته بالأزبكية. ومهما يكن من أمر حقيقة هذه الجريدة، فإن المرجح عدم وجود جريدة باسم الأزبكية صدرت عام ١٨٧٣م. وبناءً على ذلك، يقوى احتمال الشك في كل ما كتبه جول باربييه عن صنوع ومسرحه، خصوصاً أن ما نشره جول باربييه – عن صنوع ومسرحه – في هذه الجريدة المزعومة، لم يصلنا إلا من خلال مقال جاك شيلي المنشور هنا. وأخيراً نقول للقارئ: تمعن في قول جول باربييه .. ستجده يتحدث عن عروض وجماهير فن القراقوز!! فعندما يقول إن العروض بلغت في موسمين مائة وستين عرضاً – دون وجود إشارة واحدة منشورة في الصحف عن عرض واحد منها – فلابد أن نقتنع أنها عروض القراقوز! وعندما يقول أن الجماهير تشاهد ولأول مرة الفن المسرحي – على الرغم من وجود مسرحي الأوبرا والكوميدي الفرنسي – فلابد أن نصدق أن الفن المقصود هو فن القراقوز، وليس الفن المسرحي! وعندما يصف الجماهير بأنها تصيح بأعلى صوتها، وتحدث ضجيجاً وجلبة، وتضم جميع أطياف المجتمع، يجب أن نقتنع بأنه يتحدث عن جمهور الشارع الذي يلتف حول عروض القراقوز! وعندما يتحدث عن تلفظ الممثلين بالألفاظ الفجة، فيجب أن نعترف بأنها ألفاظ لاعبي عرائس القراقوز!

(*) – من الواضح أن المسرحية المقصودة هي مسرحية (ليلى) للشيخ محمد عبد الفتاح، الذي زعم صنوع من قبل أنه مثلها! وهنا نجد صديقه جول باربييه يقول: إن طلاب الأزهر هم من مثلوها وليس صديقه (يعقوب صنوع)!!

مبتكرة في متناول المصريين الذين عثروا فيها على نماذج يعرفونها (*).
كما قام المؤلف نفسه بترجمة مسرحية " ***مريض الوهم***". وأخيرا ترجم أبو سعود المعروف مسرحية " ***البخيل*** ".

من خلال هذه المقالات التي كتبت في البلد نفسه، ودعمت بالوثائق، نعلم أن الشيخ أبو نضارة لم يُعرّف الشعب بالفن الدرامي وحسب، وإنما شجع مواطنيه أيضاً على تمصير مسرحياتنا، فبعد الدّفعة التي قام بها الشيخ، ترجم من مسرحنا الكلاسيكي مسرحيات درامية وتراجيدية. وتوالت هذه الترجمات مع المسرحيات العربية الأصلية على منصة المسرح القومي المصري الذي أصبح اليوم في قمة ازدهاره.

ومن الجدير بالذكر أن الصحف الإنجليزية مثل التايمز والديلي نيوز والستاندارد والبول مول جازيت، والستورداي ريفيو، إلخ، وهي معروفة بتحاملها على الشيخ بسبب هجومه على الاحتلال البريطاني لمصر، هذه الصحف أثنت عليه كدراماتورج، واعترفت به مؤسساً للمسرح العربي في مصر (**).

(*) – هذا الكلام ربما يُوحي بأن صنوعاً كان مؤثراً في محمد عثمان جلال مسرحياً، أو أن بينهما علاقة أو صداقة ما. ولكن الثابت – من خلال هذا الكلام – أن صنوعاً أسبق من محمد عثمان جلال في الكتابة المسرحية، وهذا إذا سلمنا بكلام جول باربييه صديق صنوع! والحقيقة تختلف تماماً عن هذا المعنى! والدليل أن محمد عثمان جلال عندما نشر أول كتاب مسرحي له سنة ١٨٧١م، وهو كتاب (النكات وباب التياترات)، قال في مقدمته: " لا أزال أجهد نفسي، وأعمل براعي وطرسي، حتى أجمع كتاباً لم يسبقني إليه أحد، ولم يكن ظهر في هذا البلد ". وهذا اعتراف صريح ومنشور من قبل محمد عثمان جلال بأنه أول من كتب مسرحيات عربية وقام بنشرها. ولو كان لصنوع – أو لمسرحياته – أي تأثير لأشار إليه جلال في هذه المقدمة. وللمزيد، انظر: مجلة روضة المدارس المصرية – عدد ٣ – ٥/٥/١٨٧١.

(**) – لا نعلم، لماذا لم يذكر كاتب المقال أعداد هذه الصحف وتواريخها المعروفة؟! وفي المقابل ذكر تاريخ مجلة (القراقوز) المجهولة، وذكر سنة جريدة (الأزبكية) المشكوك في إصدارها؟!

حصيلة خمسين عاماً من إنتاج أبو نظارة

(موليير مصر)

صحفياً، ومحاضراً، ودراماتورج (*)

(عن صحيفة " أتينيه فرنسا " في عددها الصادر في سبتمبر ١٩٠٦م)

أمام رغبة عدد كبير من القراء في نشر موجز لأعمال صديقنا المحترم الشيخ أبو نظارة، الذي احتفلنا قبل عام بيوبيله الذهبي الأدبي، بمشاركة بعض الزملاء الفرنسيين والأجانب. يسعدنا أن نتمكن اليوم من تلبية رغبتهم المشروعة، وذلك بفصل السيد بارتينيس الناشر المصري الذي تفضل بمدّنا بالوثائق اللازمة (**).

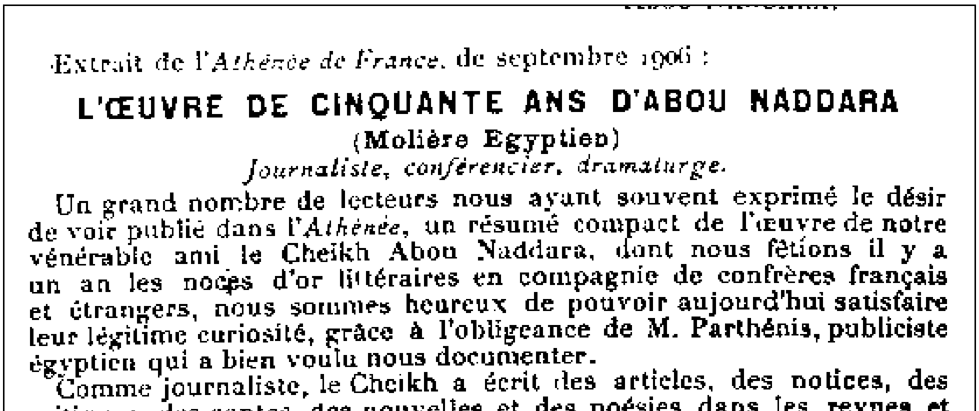
في مجال الصحافة، كتب الشيخ مقالات ودراسات نقدية وحكايات وقصصاً قصيرة، وقصائد، في جرائد وصحف مصرية وعربية (***) وفرنسية وإيطالية

(*) – نُشرت هذه المقالة باللغة الفرنسية، في صحيفة (أبو نظارة) العدد الثامن في شهر شعبان سنة ١٣٢٤ هجرية، الموافق (سبتمبر/أكتوبر ١٩٠٦م).

(**) – هذا يعني أنها مقالة مكتوبة بحاملة لصنوع من قبل أصدقائه!

(***) – لم يثبت حتى الآن أن صنوعاً نشر سطراً واحداً في أية صحيفة مصرية، طوال فترة وجوده في مصر! إلا إذا عددنا صحيفته (أبو نظارة) هي المقصودة بذلك! أما كونه كتب في صحف عربية، فهذا الأمر لم يثبته أي باحث حتى الآن! إلا إذا اعتبرنا مقالة جريدة (الحاضرة التونسية) عام ١٨٩٦م، كاتبها هو صنوع نفسه، لأنه أعاد نشرها في صحيفته – بتاريخ ١٨٩٦/٥/١٤ – هذا لو كانت المقالة منشورة أصلاً في جريدة الحاضرة!

وإنجليزية، وذلك منذ عام ١٨٥٥م (*). كما كان مؤسسا ومديراً ورئيس تحرير في عشرة صحف، ثلاثة منها موجودة حتى الآن، منها صحيفة **أبو نظارة** التي تواصل بفضل إداراته عامها الثلاثين وتوزع آلاف النسخ.



Extrait de l'*Athénée de France*, de septembre 1906 :

L'ŒUVRE DE CINQUANTE ANS D'ABOU NADDARA

(Molière Egyptien)

Journaliste, conférencier, dramaturge.

Un grand nombre de lecteurs nous ayant souvent exprimé le désir de voir publié dans l'*Athénée*, un résumé compact de l'œuvre de notre vénérable ami le Cheikh Abou Naddara, dont nous fêtions il y a un an les noces d'or littéraires en compagnie de confrères français et étrangers, nous sommes heureux de pouvoir aujourd'hui satisfaire leur légitime curiosité, grâce à l'obligeance de M. Parthénis, publiciste égyptien qui a bien voulu nous documenter.

Comme journaliste, le Cheikh a écrit des articles, des notices, des critiques, des contes, des nouvelles et des poésies dans les revues et journaux arabes, français, italiens et anglais depuis 1855. Il a été fondateur, directeur et rédacteur en chef de dix feuilles, trois existent encore, dont une l'*Abou Naddara*, qui sous sa direction marche dans sa trentième année et se tire à plusieurs milliers d'exemplaires.

Comme orateur, il a prononcé huit cent cinquante-trois discours et fait cent soixante-cinq conférences, dont deux à Lisbonne et à Paris, présidées en 1889 et 1890 par Dom Pedro, empereur du Brésil.

Comme écrivain et dramaturge, le Cheikh a composé en langues différentes, prose et vers, quarante ouvrages, dont trente-deux pièces de théâtre en arabe, cinq volumes en italien et dix en français, dont *Les Sœurs latines*, le dernier paru, en six langues, prose et vers, fut dédié à M. Loubet, en 1905, alors Président de la République Française et agréé par lui.

Et le Cheikh J. Sanua Abou Naddara, Chaër-el-Molk et Molière Egyptien, continue sa brillante carrière, le nombre des années n'abat pas son courage. Il répond aux attaques des envieux par ces vers du poète arabe.

« Lorsque Dieu veut exposer au grand jour une vertu qui restait cachée dans l'ombre, il arme contre elle la langue de l'envieux. Si la flamme ne s'attachait pas à tout ce qui l'environne, on ne connaîtrait pas le parfum exquis de l'aloès ».

Comme on le voit, le Cheikh a une vie bien remplie. Nous croyons qu'il y a peu de confrères qui puissent se flatter d'en avoir fait autant.

BONNEVAL,

Directeur de l'*Athénée de France*.

صورة المقالة

(*) – لم يظهر دليل واحد على أن صنوعاً كان يعمل بالصحافة قبل عام ١٨٧٨م. أي أنه لم يمارس الكتابة الصحافية قبل إصداره لصحيفته (أبو نظارة) في مصر عام ١٨٧٨م.

وفيما يختص بالمحاضرات، فقد ألقى ثمانمائة وثلاثاً وخمسين كلمة، ومائة وخمساً وستين محاضرة، اثنتان منها في ليشبونه وباريس حضرهما الدون بيدرو إمبراطور البرازيل عامي ١٨٨٩م و ١٨٩٠م.

وفي المسرح، كتب الشيخ بلغات مختلفة، نثراً وشعراً، أربعين مؤلفاً، منها اثنتان وثلاثون مسرحية باللغة العربية، وخمسة مجلدات باللغة الإيطالية، وعشرة باللغة الفرنسية، منها "الشقيقات اللاتينيات "، وصدر آخرها بست لغات، نثراً وشعراً، عام ١٩٠٥م، مع إهداء للسيد " لوبيه " حينما كان رئيساً للجمهورية الفرنسية.

وما يزال الشيخ صنوع أبو نظارة، شاعر المُلْك وموليير مصر، يواصل عطاءه الغزير ولم تقف السنون حائلاً دون ذلك. وهو يرد على ما يتعرض له من هجوم خصومه (*) بهذه الأبيات للشاعر العربي القديم التي تعني أن الله تعالى حينما يشاء أن يُعلى شأن إنسان مغمور فإنه يقيّض له حاسداً يتسلط عليه بلسانه فيذيع شهرته بين الناس.

وكما رأينا، فحياة الشيخ حافلة بالنشاط. ونحن واثقون من أنه قلما يوجد من الزملاء من يزعم أنه على مثل هذه الدرجة من الهمة.

بونفال

مدير صحيفة " أتينيه فرنسا "

(*) — لم نسمع .. ولم نقرأ أن شخصاً ما، هاجم صنوعاً أو كان له خصم، إلا ما كتبه الشيخ جمال الدين الأفغاني في حق صنوع وصحيفته، وقام الشيخ محمد عبده بنشره في جريدة (التجارة) عام ١٨٧٩م. وقد سبق ذكر هذا الأمر في تعليق سابق.

بدايات المسرح الحديث في مصر

جانيت تاجر (*)

المسرح هو روح الشعب، فروح الشعب تكمن في مسرحه. روح لا تخلد إلى النوم أبداً، تبكي أحياناً وأحياناً تضحك، حسب حالات سعادتها أو شقائها.

لن نتكلم هنا عن تمثيليات الحب والفكاهة التي تسجلها الآثار الفرعونية خيراً من الكتب. بل ولن نحاول الحديث عن المسرح الإغريقي الروماني لكي نصل إلى الهدف من هذه الدراسة وهي ميلاد المسرح المصري الحديث.

في القرن الثامن عشر، أي في عصر المماليك، لم يكن هناك وجود للمسرح بصورته الحالية في مصر. إن أول رحالة ذكر فرقة مسرحية محلية هو نيوبوهر وكان ذلك عام ١٧٩٠م. وقد أندهش الرجل لذلك. فكتب يقول: " لم نكن نتوقع أن نرى عرضاً مسرحياً في مصر. ومع ذلك فعند وصولنا إلى القاهرة، كانت هناك فرقة تتألف من عدد كبير من الممثلين، مسلمين ونصارى ويهود. كان مظهرها يدل على رثاثة الحال وقلة الحيلة؛ فكانت تعرض أعمالها في جميع البيوت التي كانت مستعدة لدفع أجرها المتواضع كثيراً. وكانت تعرض في الهواء الطلق، فقد كانت تتخذ من أحواش البيوت منصة للتمثيل حيث ساتر (بارافان) بسيط يقوم مقام الكواليس التي

(*) — هذه المقالة كتبتها بالفرنسية جانيت تاجر ابنة – أو زوجة – الدكتور جاك تاجر أمين المكتبة الخاصة بجلالة الملك فاروق الأول – ونشرتها في (كراسات التاريخ المصري) سنة ١٩٤٩م – العدد الثاني من السلسلة الأولى، ص(١٩٢ – ٢٠٧) – تحت عنوان (بدايات المسرح الحديث في مصر LES DEBUTS DU THEATER MODERNE EN EGYPTE). وهي ضمن مجلد مكتوب على غلافه: (المذكرات التي لم تُنشر للدكتور كلوت بك: من منشورات المكتبة الخاصة بصاحب الجلالة الملك فاروق الأول). وهذا المجلد محفوظ الآن بمكتبة دير الدومينكان بالعباسية في القاهرة.

يغيرون فيها الملابس. ولقد كان بعض التجار الأوروبيين، المقيمين في القاهرة منذ زمن بعيد، ولم يشاهدوا في حياتهم مسرحية مصرية، هم الذين قاموا بمهمة استقدام هذه الفرقة في منزل رجل إيطالي متزوج؛ غير أننا لم نجد في العرض ما يرضينا لا من ناحية الموسيقى ولا من ناحية الممثلين. وكانت المسرحية باللغة العربية. وأمام قلة معرفتي بهذه اللغة، فقد لجأت إلى بعضهم ليشرح لي مضمون المسرحية التي كانت بطلتها سيدة قام بدورها رجل في زي امرأة، وجد مشقة كبيرة في إخفاء لحيته: كانت هذه البطلة تجتذب إلى خيمتها جميع المسافرين. ثم تقوم بطردهم وضربهم بالعصا، بعد أن تكون قد استولت على حوائجهم. وبعد أن كررت ذلك مع عدد كبير منهم، شعر أحد التجار الشبان بالملل من هذا التكرار لهذه السخافات، فجاهر برأيه في العرض، مما حدا ببقية المتفرجين إلى إنكاره ليثبتوا أن ذوقهم لا يقل رفعة عن ذوق التاجر. كما أجبروا الممثلين على التوقف مع أن العرض كان ما يزال في منتصفه"(١).

تلك كانت الخاتمة المفاجئة لذلك العصر الساذج من المسرح، بدون ديكورات وبدون مدير! لكن نيوبوهر يعود فيقول: " وإذا كانت المسرحيات نادرة، فإن عروض العرائس كانت أكثر شيوعاً في القاهرة، بحيث كنا نشاهدها في جميع الشوارع." كان هناك أيضاً الفانوس السحري " (*) وهو مادة للتسلية منتشرة كثيراً في الشرق " على حد تعبير الرحالة الذي يضيف قائلاً: " لم أكن أميل كثيراً إلى مشاهدة هذه العروض، لأنها كانت تنتهي دائماً بالسخرية من عادات الأوروبيين وأزيائهم ".

لندع الآن هذه الفرقة الشعبية لحياتها البوهيمية، لأن المسرح الذي بدأ يظهر، هو مسرح أجنبي يمارسه الأجانب.

---

(١) – نيوبوهر، رحلة إلى بلاد العرب، ١٧٨٠م، الفصل العاشر، ص ١٤٨ وما بعدها.

(*) – والمقصود به (صندوق الدنيا)، وهو صندوق يحمله رجل ويدور به في الحواري والأرياف بمصاحبة مقعد طويل (دكّة). وهذا المقعد يكفي لثلاثة أطفال يجلسون عليه، وأمامهم الصندوق الذي به ثلاث فتحات دائرية مفرغة – أو عليها قطعة زجاجية شفافة – وكل طفل ينظر عبر الفتحة التي أمامه، فيرى مجموعة من الصور المتتابعة، التي تحكي بعض القصص. وفي بعض الأحيان كان الرجل يقوم بدور الراوي لأحداث هذه الصور. وهذا الفن شاهدته في طفولتي – في ستينيات القرن العشرين – في حواري (باب الشعرية).

أولاً: الحملة الفرنسية

إن نابليون بونابرت الذي جاء مصر وأسس " معهد مصر " والذي أوحى إلى جنوده وعلمائه حب الاكتشاف، كان لابد له من أن يفكر في تسلية هؤلاء الناس. في المجلد الثالث من موسوعة الحملة الفرنسية على مصر (*)، يقول جونكيير: " لقد شاهدنا بونابرت يشجع إقامة قاعات للموسيقى، كما أقام قاعة للعروض المسرحية قام على إنشائها بعض أعضاء لجنة الفنون. كذلك فقد تولى القطاع الخاص إقامة بعض المقاهي، بل أقاموا " تيفولي " وهو عبارة عن مكان فسيح للاجتماعات، يوفر لضباط الحملة والجالية الفرنسية وسائل التسلية واللهو التي ظلوا محرومين منها زمناً طويلاً. وقد صاحب إنشاء هذا الصرح تنظيم عرض عسكري أطلق فيه أحد المناطيد" (١).

في عددها الصادر في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م تتحدث دورية " البريد المصري " عن هذه المنشأة التي أقامها المواطن " دوجيفال " وهو ضابط في الجيش، وذلك بعد حصوله على موافقة القائد العام. فقد اختار دوجيفال بيتاً وبحديقة واسعة بالقرب من ميدان الأزبكية. " أكبر وأجمل حديقة في القاهرة، تغطيها أشجار البرتقال والليمون وغيرها من الأشجار الفواحة. وكان في البيت كل وسائل التسلية، وجميع وسائل الراحة التي يتوق إليها الإنسان والمسموح بها في ذلك العصر. كما كان بالبيت قاعة للأدب تضم مجموعة من الكتب المختارة. باختصار، كان المكان يوفر للزائرين كل ما يمكن أن يساهم في تحقيق المتعة لهم.

كان هذا التيفولي يفتح أبوابه يومياً من الساعة الرابعة حتى العاشرة مساء. ولقد شاهد هذا المكان الكثير من المغامرات. وفيه قابل بونابرت بولين فورّيه" (٢).

وقد بلغ علمنا أن فرقة مسرحية قامت بعرض بعض الأعمال في التيفولي. دليل ذلك أن بونابرت حينما غادر مصر أوصى خليفته كليبر بالعناية به.

لكن المؤرخ الجبرتي، الذي عاش في ذلك العصر، كتب يقول:" في ذلك العصر، تم إنشاء المبنى الذي أقيم في حي الأزبكية بالقرب من باب الهوا والذي كان

(*) – المقصود بهذه الموسوعة كتاب (وصف مصر) الشهير.

(١) – حملة مصر (١٧٩٨م – ١٨٥١م) المجلد الثالث، ص ٣٨٢.

(٢) – ذكر ذلك أيضاً جونكيير.

يسمى "كوميديا". وكان المهتمون يجتمعون فيه مرة كل عشرة أيام لقضاء السهرة، ومشاهدة بعض التمثيليات أو العروض، على مدى أربع ساعات تقريباً. ولدخول هذا المكان، كان من الضروري الحصول على بطاقة وارتداء زي معين" (١)(*). يبدو كذلك أن بونابرت حاول بعد ذلك أن يرسل من باريس إلى الجيش في مصر فرقة مسرحية، كما يؤكد ذلك هذه الرسالة التي بعث بها مينو إلى اللورد كيث في ١٣ يونيو ١٨٠١م حيث يقول: " تريد يا ميلورد أن ترسل لي فرقة مسرحية تبعثها الحكومة الفرنسية إلى مصر. ويشرفني أن أخبرك بأن أخطار الحرب وما تثيره من اضطرابات لا يتلاءم كثيراً مع المسرح وما يقدمه من ألوان المتعة (٢).

هل كان الأمر يتعلق بمسرح مستقل بخصوص تيفولي؟ وعن أي نوع من العروض يتحدث المؤرخ؟ وهل كانوا كما كانت الحال في باريس، يعرضون الأعمال الكلاسيكية؟ أم أن المثقفين من أعضاء الحملة كانوا يتسلون بتأليف بعض المشاهد المسلية؟ مازلنا نجهل ذلك (**)؟

---

(١) – عجائب الآثار، الترجمة الفرنسية، الجزء السادس، ٢٦٨.

(*) – نص هذا الاقتباس كما كتبه الجبرتي باللغة العربية، يقول: " وفيه كمل المكان الذى أنشأه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهو المسمى في لغتهم بالكُمدي وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلي والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة". والاسم المعروف به هذا المسرح هو مسرح الجمهورية والفنون. وهذا المسرح هُدم أثناء ثورة القاهرة أيام الحملة الفرنسية، ولم نسمع عنه بعد ذلك. وعندما جاء الخديوي إسماعيل وأراد إعادة بناء الأزبكية بصورة حضارية، فكر في إعادة بناء مسرح حديقة الأزبكية، ضمن المنشآت الترفيهية، وعهد بذلك إلى المهندس فرانس. وهذا المهندس بنى مسرح الحديقة في المكان نفسه الذي كان مبنياً عليه مسرح الجمهورية والفنون – ربما كان موجوداً على هيئة أطلال – والدليل على ذلك أن وثيقة أمر الخديوي ببناء هذا المسرح كانت مؤرخة بـ ١٨٦٩/٥/٦م، واشتملت على عبارة أن بناء المسرح يكون " بمحل التياترو القديم بالأزبكية ". وللمزيد انظر: عبد الرحمن الجبرتي – تاريخ الجبرتي – الجزء الثالث – مطبعة الأنوار المحمدية – ١٩٨٦ – ص (٢٠٢)، دار الوثائق القومية – دفاتر المعية السنية – دفتر س٣٩/١/١ – ص(٩٥)، سليمان حسن القباني – بغية الممثلين – مطبعة جرجي غرزوزي بالإسكندرية – ١٩١٢م – ص(٣٢)، حسين شفيق – مذكراتي في التمثيل – جريدة النيل المصورة – ١٩٢٤/١١/١٣.

(٢) – كليبر ومينو في مصر، وثائق نشرها ف. روسو ص (٤٠٩ – ٤١٠).

(**) – بعض الأمور التي كانت تجهلها جانيت تاجر عام ١٩٤٩م، أصبحت معلومة الآن. وللتعرف على بعض هذه الأمور، ينظر: د.سيد علي إسماعيل – الرقابة والمسرح المرفوض – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧م، د.سيد علي إسماعيل – تاريخ المسرح في مصر في القرن التاسع عشر – السابق، د.فيليب سادجروف – المسرح المصري في القرن التاسع عشر – السابق.

LES DÉBUTS DU THÉATRE MODERNE EN ÉGYPTE.

L'âme d'un peuple est son théâtre, une âme qui ne s'endort jamais, qui tantôt pleure et tantôt rit, selon qu'il est heureux ou malheureux.

Nous ne parlerons pas des jeux de guerre et d'humour que les stèles pharaoniques perpétuent mieux que des livres; nous n'essaierons pas non plus d'évoquer le théâtre gréco-romain pour arriver au but de cette étude : la naissance du théâtre moderne.



Cheikh Abou Naddara.

Au XVIIIe. siècle, du temps des Mamluks, le théâtre sous sa forme actuelle n'existait pas. Le premier voyageur qui fait mention d'une troupe locale en 1780, Niebuhr, s'en étonne: "Nous ne nous étions pas attendu à voir un spectacle en Égypte. Il se trouvait, cependant, à notre arrivée au Caire, une troupe nombreuse de comédiens, composée de mahométans, de chrétiens et de juifs. Leur extérieur annonçait le peu de fortune qu'ils faisaient dans cette contrée. Ils allaient représenter leurs pièces dans toutes les maisons où l'on voulait leur payer un très modique salaire.

صورة الصفحة الأولى من المقالة

في عام ١٨٠١م، غادر الفرنسيون مصر، واختفت باختفائهم الحياة المسرحية. ولم يتأثر المصريون بذلك، ولم يشعروا بالرغبة في إقامة " تيفولي وطني ". كذلك فإن محمد على، الذي استغرقته الشئون السياسية والعسكرية، لم يهتم بذلك.

في تلك الأثناء كثرت أعداد الأوروبيين، وبخاصة الفرنسيين منهم، الذين استقدمهم ولي العهد، وكانوا يعملون لحسابه. ولم يكن هؤلاء من الجنود كما كانت الحال أيام الحملة، وإنما كانوا موظفين، مثقفين. مما يتوقع معه مولد مسرح. وباستطاعتنا أن نكوّن فكرة عما كان يعرض آنذاك بالرجوع إلى الاتصالات الخاصة بالقنصلية الفرنسية. من ذلك ما كتبه " مينو " في الثامن من نوفمبر عام ١٨٢٩م، يقول: " لقد حدد مواطنونا الفرنسيون مساء الثالث من هذا الشهر موعداً لافتتاح مسرح للهواة كانوا قد وضعوا مشروعه منذ وصولي. بعض الشبان منهم وبعض الشابات اللائى ينتمين إلى إحدى الأسر الفرنسية المحترمة، قاموا بعرض مسرحية "المحامي بطلان " ومسرحية " درالاكول المفلس " سبقتهما تقدمة شعرية من تأليف أحدهم اتسمت بالبساطة. وكنت قد دعوت الفنانين المهرة الذين كانوا في صحبة السيد " شامبليون " لتصميم الديكورات. والحقيقة أننا لم نشاهد شيئاً كهذا في هذه البلاد. ولأن المشاركين كانوا يتمتعون بموهبة حقيقية، فقد قوبل الجميع بموجه من التصفيق الحاد" (١).

بعد ذلك بعدة سنوات، علمنا عن طريق " جيرار دى نيرفال " (٢) عن وجود مسرح القاهرة Teatro de Cairo الذي أمضى فيه سهرة يصفها لنا بالتفصيل حيث يقول: " عند منعطف الشارع التركي الذي يفضي إلى الموسكي، شاهدت فوق أحد الجدران ملصقات مطبوعة على مطبعة حجرية تعلن عن عرض يقدم في الليلة نفسها، وذلك على مسرح القاهرة. فلم أتردد في صرف " عبد الله ". وذهبت لتناول العشاء عند " دوميرج " حيث علمت أنهم جماعة من الهواة من المدينة هم الذين يقدمون العرض لصالح الفقراء من فاقدي البصر، وهم للأسف كثيرون في القاهرة.

(١) – رسالة من مينو إلى أمير بولينياك، الإسكندرية، ٨ نوفمبر ١٨٢٩م.

(٢) – شاعر فرنسي عظيم من القرن التاسع عشر. زار مصر وجاب أحياء القاهرة وعشق أهلها وكتب عنهم (المترجم).

" في نحو السابعة مساء كان الشارع الضيق الذي يفضي إلى زقاق " واغورن " مكتظاً بالناس. وكان العرب منهم مندهشين وهم يرون كل تلك الجماهير تدخل بيتاً واحداً. وكان الحدث يمثل عيداً كبيراً بالنسبة للمتسولين والحمارين، الذين كانوا يجاهرون بطلب الإحسان والبقشيش. كان المدخل المظلم يؤدي إلى ممر مغطى، ينتهي في العمق بمقهى روزيت (١) وكان الداخل يذكّر بقاعاتنا الشعبية الصغيرة.

" كانت الصالة مليئة بالإيطاليين واليونانيين الذين كانوا يرتدون الطرابيش ويحدثون ضوضاء عالية؛ وظهر عند المنصة بعض ضباط الباشا، وكانت المقصورات (الألواج) حافلة بالسيدات وغالبيتهن بالزي الشرقي ... وعند رفع الستار، تعرفت المشاهد الأولى من مسرحية " سندرة الفنانين " حيث كان بعض الشبان من مرسيليا يقومون بالأدوار الرئيسة، أما البطلة فكانت تقوم بدورها " مدام بوهوم " مديرة المكتبة الفرنسية.

" وعند الخروج من المسرح، بادرت جميع النساء بارتداء الحبرة السوداء. وكن يبدين زينة صاخبة. كما قمن بتغطية وجوههن بالبرقع الأبيض، ثم امتطين الحمير كما تفعل المسلمات الملتزمات، وذلك على ضوء المشاعل التي يحملها السياس" (٢).

لم نتحدث حتى الآن إلا عن فرق المناسبات. ولكن سرعان ما ازداد عدد المسارح ونظم الممثلون أنفسهم، بحيث أصبح من الضروري وضع لائحة لهم. كانت أول لائحة عثرنا عليها تختص بالمسرح الإيطالي الذي يقع في ميدان القناصل بالإسكندرية.

---

(١) – المقصود حدائق القنصل روزيتّي.

(٢) – نساء القاهرة، ١٨٨٦م، ص ١٢٦.

لائحة المسرح (*)

مادة (١) : المسرح يخضع لتشريعات السلطات المحلية. وكل من له علاقة به ويسئ إلى الجمهور بالقول أو بالفعل، يقدم للمحاكمة ويودع السجن في نهاية العرض.

مادة (٢) : أي شخص يسمح لنفسه بإثارة الضوضاء وإزعاج الجمهور، لسبب أو لآخر، يتم طرده فوراً في المرة الأولى، وإذا عاود الكرة يستبعد نهائياً من المسرح. يخضع لهذه اللائحة الأشخاص الذين يتصرفون ضد النظام.

مادة (٣) : ممنوع منعاً باتاً التدخين في المسرح. وكل من يخالف ذلك يطرد فوراً.

مادة (٤) : كذلك من المحظور الصفير والضرب على الأرض بالعصي أو بالأقدام أو الهمس. والمخالفون يطردون أيضاً.

مادة (٥) : في الحالات التي لم ترد ذكرها في هذه اللائحة، يتم اتخاذ الإجراءات المناسبة طبقاً لحجم المخالفات.

مادة (٦) : ثمانية جنود وجاويش يتواجدون داخل المسرح، لتنفيذ أوامر رئيس الشرطة الذي يقوم بتعيينهم.

انقضى عهد محمد على دون أن يولد المسرح العربي، ثم نهض على شاكلة إحدى الفرق اللبنانية التي قدمت في عام ١٨٤٨م عروضها الأولى في بيروت تحت إدارة مارون النقاش.

في تلك الأثناء، واصل المسرح الأوروبي مسيرته في مصر، ولكن بصورة متواضعة. فقد كان يعتمد على نفسه. ولم تتوافر له مصادر التمويل اللازمة لتطويره. في هذا الصدد كتب الرحالة " رينو " الذي وصل مصر عام ١٨٥٤ يقول: " لم أجد

(*) – هذه اللائحة، هي منشور أرتين بك المشتمل على لائحة البوليس الخاصة بالمسرح الإيطالي بالإسكندرية، الصادرة في ١٨٤٧/١٠/١٦م. وقد نشرها د.فيليب سادجروف في الملحق الأول من ملاحق كتابه (المسرح المصري في القرن التاسع عشر) السابق ذكره، ونشرها من قبله يعقوب لاندو في كتابه (دراسات في المسرح والسينما عند العرب)، ونشرتها أيضاً اعتدال ممتاز في كتابها (مذكرات رقيبة سينما).

في الإسكندرية سوى مسرح في الهواء الطلق شاهدت فيه مسرحية إيطالية. بطلتها فتاة مصرية سمراء الجبين، ولكن ذات لكنة إيطالية. وقد أثارني أكثر من المسرحية مشهد المدخنين في الصالة الذين كان دخان سجائرهم يتصاعد، عبر الأسقف المفتوحة، إلى السماء المرصعة بالنجوم مع صوت بطلة المسرحية " (١).

حتى بعد مرور عشر سنوات، كان المسرح الأوروبي ما يزال يعاني من المشكلات نفسها. فقد كتب أدليربيرج يقول: " أمام قصر رأس التين، مررنا بعشة من الخشب دائرية الشكل، فيها فرقة فرنسية من الممثلين المتجولين، جاءوا من أجل تسلية الباشا بعروض يتخللها الرقص، كانت تحظى بإعجاب سموه. كان يصدر عن هذا المكان مزيج من الموسيقى الرديئة والصياح والضوضاء من كل نوع، وذلك من خلال الألواح الخشبية الرقيقة والمفككة التي بني منها الكوخ. وكان ثمة مجموعات من الفضوليين يتزاحمون حول الكوخ لاختلاس بعض النظرات النهمة من خلال الفراغات التي بين الألواح الخشبية.

" وأمام دهشتنا من تلك الفرصة المفاجئة، التي أتاحت لنا مشاهدة عرض فرنسي في مصر، أردنا أن نعرف حقيقة هذه الفرقة من المغامرين. كان الوقت موعد البروفة. وكانت الفكرة في حد ذاتها غريبة، لأننا لم نأت إلى مصر من أجل مشاهدة بعض الممثلين المتواضعين يعملون في جو من الحرارة الشديدة في فضاء مغلق داخل كوخ مبني فوق الرمال معرض لحرارة الشمس، أضف إلى ذلك أن الباب كان مغلقاً ليس بالمفتاح وحسب، وإنما بواسطة مسامير، وذلك طوال فترة العرض. وذلك حتى لا يقوم السذج في الخارج باقتحام المكان. لذلك فقد أسرع السيد سليمان وهو يدور حول الكوخ بالنداء على المدير وإخباره بأن هناك أشخاصاً مهمين يرغبون في مشاهدة العرض، فأمر الرجل بتحطيم الباب ليسمح لنا بالدخول. ولكن بدلاً من أن يقوموا بنزع المسامير واحداً واحداً في تريث وعناية، قاموا بتحطيم الباب بالفئوس، الأمر الذي أسعد السذج المجتمعين في الخارج فأسرعوا بالمشاركة في تحطيم الباب الذي كان يحول دون دخولهم، فتطاير حطامه في الهواء قطعاً غير متجانسة. كان الهجوم شديداً مما أثار ضحكنا من هذا العمل الذي قاموا به من أجلنا، لكن سرعان ما شعرنا بالندم. كانت الحرارة الشديدة تخنق المكان الذي سرعان ما أعادوا إغلاقه بالمسامير.

---

(١) – رحلة إلى الشرق، ص ٤٣٨.

أما فيما يتعلق بالعرض، فلن أحاول أن أتناوله بالنقد، فقد كان عرضاً من تلك العروض السيئة الخاصة بالمهرجانات، والتي نحاول بها تسلية جمهور القرويين. كان المغني الأول يمزج أغانيه بالرقص وبالصفير بشفتيه.

" كنا غارقين في العرق، ولكن ما الوسيلة للخروج بعد أن هدموا الجدار لإدخالنا؟ كان ينبغي علينا أن نتحمل العذاب في صمت. ولما فاض بي الكيل، تجاوزت كل شعور بالحرج، وشكرت المدير على معروفه معنا، وطلبت منه الخروج متعللاً بوعكة صحية. وبدأ تحطيم الباب مرة أخرى ولذنا بالفرار، وأسرعنا إلى سيارتنا. في تلك اللحظة، هبت علينا ريح بحرية منعشة من كل مكان، فقضت على التأثير الاستوائي الذي تعرضنا له داخل قاعة العرض" (١).

هل يمكن أن نصدق أن سعيد باشا، الذي لم يكن يزدري عروض الهواة دائماً، يشجع الحركة المسرحية في مصر؟ يبدو أن الجواب بالنفي. وهذا ما يؤيده الرحالة "ستاكيه " الذي كتب يقول : " كثر الحديث في أوروبا عن قاعة للعروض أقيمت في مصر؛ كان الإعلان عنها أشبه بالإعلان عن أعجوبة دعمها السخاء الذي عرف عن سعيد باشا. الحقيقة أن ولي العهد لم يهتم بهذا الأمر على الإطلاق. كل ما هناك أن الموضوع لم يتجاوز كوخاً خشبياً حقيراً في أحد طرق الأزبكية، قامت إحدى الفرق باستغلاله. لكنها لم تستطع أن تعمل منه شيئاً ذا قيمة. وحينما وصلنا إلى القاهرة، كانوا ما يزالون يعرضون فيه أعمالهم، ولكن سرعان ما أفلس المدير ووجد الفنانون البائسون أنفسهم بلا مصدر للرزق" (٢).

ومما يجدر ذكره، أن هذا الكوخ الحقير استبدل به عام ١٨٦٨م، وفي حي الأزبكية نفسه، قاعة بديعة أطلق عليها اسم مسرح الكوميديا (*)، وفي عام ١٨٦٩م

---

(١) – ذكريات وخواطر من الشرق، ج ١، ص ٥٦.

(٢) – د. ستاكيه، مصر، النوبة وسيناء، ص ٦٣.

(*) – ليس المقصود أن مسرح الكوميدي الفرنسي بُنِيَ مكان الكوخ، ولكن المقصود أن مسرح الكوميدي كان بديلاً لهذا الكوخ في عرض المسرحيات.

مسرح الأوبرا الخديوي (*)؛ في حين أن الإسكندرية التي لم تكن أقل حظاً، قد زودت بمسرح ظريف في زيزينيا (**).

لقد تغير كل شيء. فنحن الآن في عصر الخديوي إسماعيل الذي كان يحب المسرح ويشجعه من كل قلبه.

في عام ١٨٧٦م، سمح لفرقة مارون النقاش اللبنانية بدخول مصر (***)، وهي الآن بإدارة سليم النقاش ابن شقيق الفقيد. وقد عرضت هذه الفرقة على مسرح زيزينيا برنامجاً مسرحياً (ريبيرتوار) مترجماً بالكامل عن الفرنسية، ولكن بلغة عربية ركيكة؛ لذلك لم يحقق النجاح، فما كان من العضوين الرئيسين في هذه الفرقة، إلا أن هجرا

(*) — قال بعض الدارسين: إن الأوبرا الخديوية افتتحت بعرض أوبرا (عائدة)، والبعض الآخر قال بأن افتتاحها كان بعرض أوبرا (ريجوليتو). والحقيقة أن افتتاح الأوبرا الخديوية كان في الأول من نوفمبر ١٨٦٩م، ولم يتم الافتتاح بعرض مسرحي، بل بقصيدة غنائية باللغة الفرنسية من تأليف أديب فرنسي في مدح الخديوي إسماعيل، قام بإلقائها الممثلون والممثلات وهم ملتفون حول صورة الخديوي الموضوعة وسطهم على منضدة. وكانت القصيدة تحمل رموزاً تمثل صفات الخديوي مثل: العدل، والحلم، والشهرة. أما أوبرا ريجوليتو فقد تم عرضها في اليوم التالي — ١٨٦٩/١١/٢ — وللأسف لم تُعرض بصورة كاملة، إذ شب حريق أثناء تمثيلها، مما جعل الممثلون يهرولون خارج المسرح خوفاً من الحريق. للمزيد عن ذلك، انظر: مجلة وادي النيل — ٥ و١٨٦٩/١١/١٢، جريدة الوقائع المصرية ١٨٦٩/١١/١٠.

(**) — أطلق على هذا المسرح اسم (مسرح زيزينيا)، نسبة إلى صاحبه الأول الكونت زيزينيا (١٧٩٣-١٨٦٨م). وهو قنصل جنرال دولة بلجيكا في الإسكندرية، وأحد أكبر تجار الإسكندرية في منتصف القرن التاسع عشر. وقد وافته المنية في أوائل يونية عام ١٨٦٨م بمنزله بمنطقة رمل الإسكندرية، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين. وبني مسرح زيزينيا في شارع دي لابورت دي روزيت بالإسكندرية عام ١٨٦٢م، بناه المهندس أفوسكاني. وكانت خشبته واسعة، جيدة التنسيق، تسمح بعروض الأوبرا الكبيرة، والمسرح يتسع لألفي شخص. وقد آلت ملكيته بعد ذلك إلى بنك الأنجلو إجبشيان بالإسكندرية، وتعاقب عليه الأمير طوسون فالأمير يوسف كمال. وأجريت على المسرح إصلاحات جوهرية في ١٨٨٢م، وأعيد بناء أجزاء منه لتوسيع رقعة الصالة. وقد أغلق في السنوات الأولى من القرن العشرين، ولم يكن يسمح لأية فرقة باستغلاله إلا بإذن من الأمير يوسف كمال، وظل على هذا الحال حتى أزيل البناء عقب الحرب العالمية الأولى، وبُنِيَ مكانه الآن مسرح سيد درويش.

(***) — من المعروف أن مارون النقاش مات سنة ١٨٥٥م، وبناءً على ذلك تعتقد الكاتبة أن فرقته ظلت تحمل اسم (فرقة مارون النقاش) حتى عام ١٨٧٦م، وأنها أصبحت بقيادة سليم خليل النقاش ابن شقيق مارون النقاش.

المسرح لكي يلمعا بعد ذلك في مجال الصحافة (*). وقد تولى ممثل ثالث في الفرقة، وهو يوسف خياط، إدارتها. وانتقل إلى القاهرة عام ١٨٧٨م، حيث استقبله الخديوي إسماعيل بحفاوة بالغة وأمر بأن يفتح له مسرح الأوبرا أبوابه ووعده بأن يشاهد أحد العروض. وقد أوفى بوعده فعلاً. وكان عنوان المسرحية هو " الطاغية " أو "المستبد". وقد توهم الخديوي أن الفرقة تنتقد أسلوبه في حكم البلاد، فأمر بطردها من الأراضي المصرية (**)، ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٨٨٢م، لم تتمكن أية فرقة عربية من العرض على مسرح الأوبرا.

في ١٧ ديسمبر ١٨٧٦م، جاء في صحيفة " المونيتور المصري " التفصيلات التالية: " هذه الفرقة المكونة من الفنانين السوريين والتي كانت تضم أثنى عشر ممثلاً وأربع ممثلات، كانت تنوي تقديم العديد من المسرحيات باللغة العربية على مسرح زيزينيا. وقد اجتهد السيد سليم النقاش رئيس الفرقة، في مواصلة المشروع الذي كان عمه الشهير مارون النقاش قد بدأه منذ عشرين عاماً وتوقف بموته المفاجئ. كان سليم النقاش متعمقاً في الشعر والأدب والموسيقى العربية. وسار على نهج عمه بإضافة العديد من مسرحيات أخرى من تأليفه إلى المسرحيات الثلاثة التي تركها عمه. ومن جهة أخرى، فقد تمرس الفن المسرحي في مدرسة الممثلين التي أنشأها عمه، واختار عدداً جديداً من الممثلين وأيضاً من الممثلات، وهو أمر أصعب بكثير بالنسبة لسوريا ... وبعد عامين أو ثلاثة من التمرين المتواصل والعمل الدءوب، حقق سليم النقاش نتائج مرضية مقارنة بالصعوبات التي تكتنف مثل هذه المهمة في بلد مثل سوريا. ومن بين المسرحيات التي عرضها تبرز بعض التراجيديات المترجمة عن الفرنسية مثل مسرحية " هوراس " لصاحبها كورنييْ ومسرحية " ميتريدات " لراسين، ثم أوبرا " عايدة " الجديدة.

(*) – المقصود بالعضوين الرئيسين هما: سليم خليل النقاش، وأديب إسحاق. حيث إنهما أصدرا وبنجاح جريدتي مصر والتجارة عام ١٨٧٨م، وجريدتي العصر الجديد والمحروسة عام ١٨٨٠م. يرجع في ذلك إلى: فيليب دي طرازي – تاريخ الصحافة العربية – الجزء الثالث – المطبعة الأدبية – بيروت – ١٩١٤ – ص(٥٤ – ٥٩).

(**) – هذا الأمر ناقشته بعض الدراسات، وأثبتت عدم حدوثه. وللمزيد ينظر: د.فيليب سادجروف، السابق، ص(٢٢٩ – ٢٣٤).

ولم يعان المسرح العربي كثيراً بسبب طرد الفرقة اللبنانية، إذ أن يعقوب صنوع الشهير بأبو نظارة استلهم تجربة مارون وسليم النقاش التي شجعته على أن يبذل في مصر جهوداً مماثلة لتلك التي بذلها زميلاه في لبنان (*).

ولم تكن خبرة الشيخ أبو نظارة الذي لقبه الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٠م "بموليير مصر "، محصورة في مجال المسرح، ولكنه كان أيضاً صحفياً ومحاضراً. كذلك فقد كان متعدد اللغات حيث كان يتحدث ثماني لغات وينظم الشعر.

ولد أبو نظارة في عام ١٨٣٩م، ودرس في القاهرة أولاً، ثم سافر إلى إيطاليا. في عام ١٨٦٨م عُيّن مدرساً بمدرسة الهندسة في القاهرة ومفتشاً لمدارس الحكومة المصرية. وفي عام ١٨٧٠م أنشأ المسرح الذي سنتحدث عنه، غير أنه لم يلبث أن اتجه إلى السياسة وأسس في عام ١٨٧٢م " جمعية أصدقاء العلم " و " نادي التقدم ". وفي عام ١٨٧٧م أصدر صحيفة " أبو نظارة " التي كانت سبباً في نفيه بعد ذلك بعام.

كيف ولد مسرحه؟ هو نفسه يجيب على هذا السؤال في محاضرة ألقاها في باريس عام ١٩٠٢م، حيث يقول: إن تاريخ مسرحي يصعب شرحه. لقد جعلني هذا المسرح أذرف دموع الفرح، هذا صحيح، ولكنه غالباً ما جعلني أذرف دموع الألم أيضاً. لقد ولد هذا المسرح على منصة أحد مقاهي الموسيقى في الهواء الطلق وسط

(*) – هذا القول من قبل كاتبة المقال – جانيت تاجر – لا يستقيم تاريخياً! فإذا كان صنوع بنفسه، وجميع دارسيه – وكذلك جانيت تاجر فيما سيأتي – قالوا إن صنوعاً بدأ نشاطه المسرحي العربي المزعوم في مصر سنة ١٨٧٠م، فكيف يكون استلهم تجربة سليم النقاش المسرحية، التي بدأت في مصر سنة ١٨٧٦م ؟! فتاريخياً – إذا صدقنا مزاعم صنوع ودارسيه – يكون مسرح سليم النقاش هو المتأثر بمسرح صنوع، وليس العكس!! وإذا أرادت الكاتبة تأريخ بدايات المسرح العربي في مصر، لبدأت بصنوع ثم بسليم النقاش! ولكنها هنا بدأت بمسرح سليم النقاش عام ١٨٧٦م، ثم نجدها تتحدث عن مسرح صنوع عام ١٨٧٠م! وهذا الخلط التاريخي – من وجهة نظرنا – راجع إلى أن الكاتبة وجدت في مراجعها ومصادرها أن سليم النقاش، هو أول من عرض مسرحيات عربية في مصر، فكتبت ذلك. ولكنها فوجئت بمقالة (موليير مصر) لجاك شيلي، تتحدث عن مسرح صنوع، فنقلت منها من غير تدقيق أو تمحيص، لأنها وجدت اكتشافاً جديداً – غير معروف – اسمه مسرح يعقوب صنوع. ومقالة جاك شيلي كانت المرجع الرئيس لجانيت تاجر، فيما يتعلق بمسرح صنوع المزعوم! والدليل على ذلك أن مقالة جاك شيلي لم نعرفها إلا من خلال مقالة جانيت تاجر، ولم يطلع على أصل مقالة جاك شيلي أغلب الدارسين، كما ذكرت في دراستي لهذا الكتاب. ولهذا السبب وضعت مقالة جاك شيلي في هذا الكتاب، لتكون متاحة للدارسين فيما بعد.

حديقة الأزبكية الجميلة. في ذلك الوقت من عام ١٨٧٠م، كانت إحدى الفرق الفرنسية التي تضم موسيقيين ومطربين وممثلين، وفرقة تمثيلية إيطالية ممتازة، تقدمان عروضاً لمتعة الجاليات الأوروبية في القاهرة. وقد شاهدت جميع عروض هذا المقهى لأنني أحب اللغتين الفرنسية والإيطالية، كما أنني درست كبار الكتاب الدراميين في هاتين اللغتين. وهل ينبغي أن أعترف؟ نعم، إن العروض التي قدمت فوق هذه المنصة من فارص وكوميديا وأوبريت ودراما، هي التي ألهمتني إنشاء مسرحي العربي، وقد وفقني الله في ذلك.

ولكن قبل الشروع في إنشاء مسرحي الحديث، قمت بدراسة أهم الكتاب المسرحيين الأوروبيين دراسة جادة، وبخاصة جولدوني وموليير وشيريدان وذلك في لغاتهم الأصلية. وحينما شعرت بتمكني في الفن الدرامي، كتبت أوبريت من فصل واحد باللهجة الدارجة. كما قمت باقتباس بعض الألحان الشعبية مزجتها بمقاطع الأوبريت، ودرّست المسرحية لنحو عشرة من الشبان الأذكياء من بين تلامذتي. ارتدى أحدهم زي المرأة لأداء دور العاشقة. بعد ذلك توجهت إلى القصر الملكي بعابدين، وقدمت مخطوط الأوبريت إلى خيري باشا رئيس تشريفات الخديوي إسماعيل، راجياً إياه أن يعرضه مع أسمى آيات الاحترام والتبجيل، على سموه وتذكيره بأنه كان قد سبق قبل توليه سدّة الحكم أن وعدني بالمساعدة لكي أقود شعبنا في طريق التقدم والحضارة الوعر. فليتفضل سموه إذن بالنظر بعين العطف إلى مسرحيتي المتواضعة، ومساعدتي في إنشاء مسرح للمواطنين الذين لم يطلعوا على الفن الدرامي، وبالتالي فهم يجهلون كل شيء عن الأوبرات الإيطالية الكبرى والكوميديات الفرنسية البديعة التي من أجلها أنشأ سمو الخديوي المحبوب مسرحين عظيمين.

" ويبدو أن خيري باشا الذي تربطه بي صداقة وطيدة، قد استعمل كل بلاغته لتوصيل رسالتي إلى سمو الخديوي ونجح في أن يقرأ عليه الأوبريت التي كتبتها والتي حظيت بإعجابه. وحصل على الإذن من سموه بعرضها على مسرح حديقة الأزبكية.

لقد أثلج هذا الخبر صدري وصدور الممثلين، وشجعنا على دراسة وحفظ الأدوار عن ظهر قلب. أما أدوارهم فهي المخصصة لكل منهم في المسرحية، وأما دوري فهو حفظ الخطبة التي سألقيها حول مزايا المسرح.

كان افتتاح مسرحي العربي حدثاً على مستوى القاهرة. ولا أنس تلك السهرة بالرغم من الاثنتين والثلاثين سنة التي تفصل بيني وبينها. فمنذ الثامنة مساء، كانت الصالة والمقصورات كاملة العدد. بل كان الواقفون من المتفرجين أكثر من الجالسين. جميع رجال البلاط وجميع الوزراء وجميع الدبلوماسيين الأوروبيين كانوا حاضرين. وبدأت الأوركسترا الوطنية تعزف النشيد الوطني وتردده، ثم ارتفع الستار وتقدمت إلى الجمهور وقد أحاط بي جميع الممثلين. كان المشهد الذي واجهني في القاعة رهيباً. وأنا لا أبالغ في ذلك ... كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء من جميع الألوان وفي أزياء جميع بلدان العالم. استقبلتنا عاصفة من التصفيق وصيحات استحسان بجميع لغات الأرض. وجعل قلبي ينبض بشدة، وكدت أترنح لولا أن اثنين من الممثلين سنداني وحالا دون ذلك. وأعلن عن إلقاء الخطبة التي يتضمنها البرنامج. فاستجمعت شجاعتي وأغلقت عيني، لأن رؤية الجمهور الغفير كانت تخيفني. وبدأت كلمتي بصوت واضح وقوي.

" وفي ختام كلمتي شرحت للمستمعين من المواطنين معنى المسرحية، ولخصت لهم فكرة الأوبريت. وقد قوبلت الكلمة بالتصفيق، ليس بسبب قيمتها، وإنما بسبب حداثة الموضوع. وأنزل الستار، ثم رفع بعد قطعة موسيقية تركية ...

" ولقد شجعني نجاح هذه المسرحية الأولى على ألا أتوقف في هذا الطريق وأن أواصل المسيرة. وكان لابد من تكوين فرقة حقيقية تضم ممثلات من النساء فعلاً بدلاً من الرجال المتنكرين. وكان من حسن حظي أني عثرت على فتاتين فقيرتين. جميلتين، لكنهما شريفتان. وفي أقل من شهر، تمكنتا من تعلم القراءة ولم تجدا صعوبة في حفظ الدورين الصغيرين اللذين كتبتهما خصيصاً لهما في مسرحياتي. وقد كان لظهورهما على المسرح وقع عظيم، وكان التصفيق الذي قوبلا به حافزاً لهما على الاستمرار وحفظ أدوار أكبر. وفي ظرف عدة شهور، أصبحتا نجمتي المسرح الوليد، الذي عرضتُ على منصته خلال عامين اثنين وثلاثين مسرحية من تأليفي المتواضع، وذلك بالإضافة إلى المسرحيات المترجمة التي قدمها لي بعض الزملاء.

" وبعد أربعة أشهر من عمر هذا المسرح الوطني، دعاني الخديوي إسماعيل، أنا وأعضاء الفرقة، إلى تقديم عرض على مسرحه الخاص في قصر النيل. وبعد أن شاهد سموه المسرحيتين الأوليين، دعاني إليه وقال لي أمام وزرائه وكبار رجال

البلاط." نحن مدينون لك بمولد مسرحنا الوطني. وإن كوميدياتك وأوبريتاتك وتراجيدياتك قد علّمت شعبنا الفن الدرامي. أنت موليير مصر وسيظل اسمك خالداً"(١).

ومن نافلة القول أن أذكر أن الممثلين، بسبب قلة خبرتهم، نسوا أنهم يمثلون أمام جمهور، مما أدى إلى وقوع بعض الأحداث المضحكة التي يذكرها يعقوب صنوع نفسه. ولنبدأ بحادثة الملقن. يقول صنوع: " لم يكن الملقن مستعداً وتخلف عن موعده. ولما كانت عيناي متعبتين للغاية، فلم أتمكن من أن أحلّ محله فأعطيت مخطوط المسرحية لأحد الممثلين، وقبعت أنا وهو واقفين بين الكواليس. وقلت له: " اقرأ المسرحية بصوت خفيض واجعل الممثل يتابعك. " إلا أن الحمار قام بعكس ما طلبت منه، فجعل يتابع الممثل فقلت له: " أنت حمار " وأمسكت به وهززته بشدة. فما كان منه إلا أن أخرج رأسه فوق المنصة وقال للممثل: " لا تسرع هكذا، يا صاحبي، ألا تعرف أن العجلة من الشيطان؟ اعطني الفرصة لكي ألقّنك، ثم ردد أنت بعد ذلك." فأثار بقوله ضجة من الضحك مما أغاظني وجعلني أجذب هذا الحيوان من أذنيه. فما كان منه إلا أن اجتاز المنصة وألقى بالمخطوط في وجه الممثل المسكين. ونشب بينهما عراك. فاضطررت إلى الخروج إلى المنصة لكي أفرّق بينهما مما أثار ضحك المشاهدين. ومن الطبيعي أن مثل هذه الحادثة لو وقعت في أوروبا لأثارت فضيحة، ولكنها في مسرحي الذي كان ما يزال في طور الطفولة حققت نجاحاً كبيراً؛ بل إن الجمهور في الليلة التالية أراد أن يرى هذا المشهد الذي سرّ به كثيراً.

حادثة أخرى: " وقعت خلال عرض مسرحية لي بعنوان: " غندور القاهرة ". كان الممثل الذي يؤدي دور العاشق مبغوضاً من الممثلة في حياتهما الخاصة، أما هو فكان يحبها حباً شديداً بحيث طلبها للزواج. ولم أكن على علم بذلك وإلا لكنت غيرت الأدوار. لكنني للأسف جعلت الفتاة تقول للفتى في المسرحية: " أنا ما بانمش طول الليل من كتر ما بفكر فيك، ارحم طيرك وافتح له باب الأمل إنه يبقى في يوم من الأيام عبدك في الغرام " حينئذ همس الشاب في أذنها قائلاً: " ربنا يبارك في المسرح اللي خلاّكي تتواضعي وتنسي غرورك وتقولي لي الكلام الحلو ده وتعترفي ليّه بحبك أدام آلاف المتفرجين " عندئذ نسيت الفتاة أنها في مسرح وفي غمرة غضبها قامت بصفع الممثل المسكين. ثم توجهت إلى الجمهور قائلة وهي غاضبة: " كلام الحب اللي

(١) – انظر جاك شيللي، موليير مصر، ص ٥ وما بعدها.

أنا قلته للأفندي التافه ده مش بيعبر عن شعوري الحقيقي بالنسبة له لأني في الحقيقة بكرهه كره العمى. ده مؤلف المسرحية موليير مصر هوّه اللي خلاني أقول الكلام الحلو ده ". وجرى نقاش حاد بين الممثلين طغى عليه تصفيق الجمهور الذي طالب في العرض التالي للمسرحية بإعادة هذا المشهد المضحك كما هي عادته. "

والآن، ما نوع الكوميديا التي كنا نقدمها؟ الحقيقة أنها كانت مسرحيات فودفيل ألفها بالعربية يعقوب صنوع، تمتزج فيها العناصر المصرية بالعناصر الأوروبية. كان بطل أولى المسرحيات أمير أوروبي.

في المسرحيات الأخرى واصل صنوع الهدف الأخلاقي! من ذلك أنه في مسرحية "هزيمة راس الطور " جعل الغرور والمباهاة الفارغة يلقيان عقابهما؛ وفي مسرحية " شيخ البلد " يوجه رسالة إلى الآباء حتى لا يتعجلوا الموافقة على تزويج بناتهم من أول طارق قبل أخذ رأيهن وموافقتهن؛ أما مسرحية " زوجة الأب " فتتضمن درساً للشيوخ الذين يتزوجون من فتيات صغيرات مما يضر بسعادة وهدوء أسرهم الأولى؛ وأما مسرحية " زبيدة " فهي انتقاد موجه للفتيات الشرقيات اللائي يتسرعن في تقليد الأوروبيات وبخاصة في عيوبهن.

وإذا كان صنوع لم يهمل القيام بترجمة بعض المسرحيات الأجنبية، غير أن المسرحيات التي كتبها بنفسه لاقت اهتماماً أكثر من جانب النقاد الذين أفاضوا في التعليق عليها.

في التاسع من يوليو عام ١٨٧١، كتبت صحيفة " مصر " تقول: " قد يضحك قراؤنا الأوروبيون المتعودون على الفن الدرامي الراقي من سذاجة الوسائل (التي يستعملها الكاتب في حبكة). ومع ذلك فهي ترضي الجمهور العربي الذي يهرع إلى هذه العروض، مما يبشر بمستقبل مشرق يحدوه التفاؤل. إن الكاتب والفنانين والجمهور يتعاونون معاً محققين التقدم في هذه المسيرة (*). وتختلف صحيفة " مصر

(*) – لم نطلع على صحيفة (مصر L,EGYPTE) الفرنسية، ولم يجدها أي باحث حتى الآن، وبعض الدارسين نقلوا هذا الاقتباس واعتمدوه - بنصه – من غير الإشارة إلى مصدره. ومهما يكن من الأمر، فسنوافق جدلاً أنه اقتباس يخص مسرح صنوع، ولنا عليه ملاحظتان: الأولى، أن الاقتباس لم يأتِ به اسم صنوع مطلقاً! وهذا يعني أنه من الممكن أن يكون اقتباساً يخص فناً درامياً آخر غير المسرح. والأخرى، أن الاقتباس يتحدث عن فن درامي ساذج في وسائله، ويُرضي الجمهور العربي، وهذا الجمهور يهرع إليه، وأن الكاتب والفنانين والجمهور يتعاونون في تقديمه وعرضه .. إليس هذا الوصف ينطبق على عروض القراقوز وصندوق الدنيا والحواة؟!

" الناطقة بالفرنسية عن زميلتها الناطقة بالإيطالية " مستقبل مصر " التي ترثى للابتذال الذي يتسم به مسرح صنوع، وتنصحه باللجوء إلى الآداب الأجنبية (*). وفي مقال آخر بتاريخ ١٩ أكتوبر من العام نفسه، كتبت الصحيفة تقول:" إن المسرح العربي جديد بالنسبة للجمهور. وهو يبرر بدء الكاتب باللجوء إلى مسرحيات كوميدية قصيرة بدلاً من التراجيديات والدرامات الراقية " (**). وفي ٤ يناير كتبت الصحيفة تقول: " إن نجاح هذه المسرحيات الذي لا يختلف عليه اثنان والتي يتكرر الطلب عليها من الجمهور مراراً، لدليل على أن جمهور الماضي المتزمت أصبح اليوم يذوق الأعمال الأدبية. لقد تشكل الذوق وصارت المنافسة تدفع الشباب المستنير وكثير من الشبان المصريين ينتظرون بفارغ الصبر إنتاج مسرحيات جديدة يعرضها المسرح العربي يومين في الأسبوع في قاعة المسرح الفرنسي. لقد نضج الممثلون واستوى عودهم وأصبحوا يبرهنون عن ذكاء لافت. ومن ثم فنحن نستطيع أن نؤكد جهاراً أن المسرح المصري قد تأسس فعلاً " (***).

(*) – للأسف الشديد لم تذكر الكاتبة عدد جريدة (مستقبل مصر) ولا تاريخها! ولا نعلم لماذا لم تأتِ باقتباس منها، واكتفت بفحوى موضوعها عن مسرح صنوع! لأنها لو فعلت ذلك لكانت جاءت بأول دليل على مسرح صنوع، لأن الجريدة – كما تقول الكاتبة – ذكرت عبارة (مسرح صنوع)! ونحن حتى الآن لم نجد خبراً مسرحياً واحداً منشوراً في أية جريدة مصرية أو عربية أو أجنبية به اسم (صنوع)!! وإذا سلمنا جدلاً بصدق الكاتبة في رؤيتها لهذا الخبر، فسيكون خبراً عن مسرح القراقوز الخاص بصنوع! ألم يشر الخبر إلى عروض فنية مبتذلة؟! وهل هناك ابتذال أكثر ما يكون إلا في عروض القراقوز؟!

(**) – ملاحظاتنا على هذا الخبر – إذا كان صحيحاً – أنه لا يتضمن اسم صنوع، أو أي اسم آخر! كما أنه خبر عن بداية مسرح جديد أقيم في أكتوبر ١٨٧١م، وصنوع – حسب زعمه – قال إنه بدأ نشاطه المسرحي عام ١٨٧٠م! كما أن الخبر يتحدث عن مسرحيات كوميدية قصيرة، وهذا الوصف ينطبق على عروض القراقوز!

(***) – هذا الخبر مؤرخ في الرابع من يناير، دون ذكر السنة! ونحن نعتقد أن السنة هي ١٨٧٢م، لأن الأخبار السابقة – للجريدة نفسها – انتهت في أكتوبر ١٨٧١م. والخبر يتحدث عن عروض أدبية لمسرح عربي جديد تأسس في هذا الوقت، أي أنها عروض بعيدة عن عروض القراقوز. أي أنها مسرحيات أدبية بالفعل، من الممكن أن تكون لمسرح صنوع. وهنا نسأل: كيف يكون هذا المسرح الناشئ المؤسس سنة ١٨٧٢م، وصنوع قال إن مسرحه أُغلق سنة ١٨٧٢م؟! كيف يكون تاريخ بداية تأسيس المسرح، هو نفسه تاريخ إغلاق هذا المسرح؟! هذا يعني أن الخبر يخص مسرحاً عربياً أدبياً آخر، غير مسرح صنوع! وهذه هي الحقيقة؛ لأن هذا المسرح يخص الخواجة جيمس الإنجليزي، الذي صرح له الخديوي إسماعيل بعرض مسرحيات عربية في حديقة الأزبكية. وهذا الأمر ناقشناه بإسهاب في مقدمتنا وتعليقاتنا على كتاب فيليب سادجروف (المسرح المصري في القرن التاسع عشر)، كما أشرنا إليه في نهاية دراستنا لهذا الكتاب.

وختاماً نذكر هذه السطور التي جاءت على لسان " جول باربييه " عام ١٨٧٣م في صحيفته " الأزبكية " حيث يقول: " هل من ضرورة لكي نذكر القارئ أن الشيخ أبو نظارة (*) قدم خلال عامين اثنين فقط مائة وخمسين عرضاً، وأنه عرض اثنتين وثلاثين مسرحية من تأليفه، بدءاً من الفارص وحيد الفصل حتى الدراما من خمسة فصول. هل من الضروري الحديث عن حماسة الجمهور الذي يستمتع بالمسرح لأول مرة، ويعبر بصوت مرتفع، عن مشاعره بكل سذاجة الأطفال ... لقد كانت الانطلاقة جيدة بحيث أن "موليير مصر " وجد من يقلده. فذات يوم تلقى مسرحية تراجيدية شعرية باللغة العربية كتبها أستاذ في جامعة الأزهر. وقد كانت هذه المسرحية من الروعة بحيث قام بعرضها بعض الطلاب من الجامعة نفسها وحققت نجاحاً يليق بها".

في هذه العجالة السريعة، استطعنا أن نأخذ فكرة عن المسرح الأجنبي في مصر، وعن تأثير هذا المسرح في مولد المسرح العربي؛ وأخيراً، ختمنا هذه الدراسة بكلمة عن رائد هذا المسرح وهو الشيخ أبو نظارة. الذي لم تذهب جهوده هباءً، بحيث أن المسرح المصري، بعد رحيله، سوف يواصل وجوده ويستمر في تطوره.

جانيت تاجر

(*) — في تعليق سابق أظهرنا بعض الشك حول صحيفة (الأزبكية)، وما نشره فيها جول باربييه – صديق صنوع – عام ١٨٧٣م. وهنا يتأكد شكنا في مصداقية الجريدة وتاريخها، وما جاء فيها عن مسرح صنوع! فالاقتباس الذي نقلته جانيت تاجر، يقول فيه جول باربييه: " هل من ضرورة لكي نذكر القارئ أن الشيخ **أبو نظارة**، قدم خلال عامين اثنين فقط مائة وخمسين عرضاً .. إلخ". واللافت للنظر في هذا القول أن جول باربييه ذكر اسم (**أبو نظارة**)، وهو اسم الشهرة لصنوع الذي التصق به بعد إصداره لجريدته (**أبو نظارة**) ابتداءً من عام **١٨٧٨**م — عام صدور أول عدد من الجريدة — ولم يكن مشهوراً به من قبل! فكيف نصدق جول باربييه — صديق صنوع — بأنه نشر هذا الاسم عام **١٨٧٣**م، قبل أن يُشتهر به صنوع بأربع سنوات؟!

المُترجم في سطور

الاسم: حماده إبراهيم محمد إسماعيل

المؤهل العلمي: دكتوراه الدولة فى الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون بباريس مع مرتبة الشرف الأولى، يوليو سنة ١٩٧٥م.

الوظيفة الحالية: أستاذ ورئيس قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون (من عام ١٩٩٣ حتى يونيو ٢٠٠٦ . وحالياً أستاذ متفرغ بالمركز).

الوظائف السابقة:

- محاضر بقسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الجامعي الشرقي بنابولى بإيطاليا (١٩٧١-١٩٧٥).
- مدرس مكلف بقسم العلوم السياسية بالمعهد المذكور (١٩٧٥ – ١٩٨١).
- أستاذ مساعد (مشارك) ومشرف على قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب – جامعة المنصورة (١٩٧٨ – ١٩٨٠)
- أستاذ مساعد (مشارك) ومشرف على قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب – بجامعة طنطا

  (١٩٨١ – ١٩٨٢).
- أستاذ زائر بجامعة أم درمان (١٩٧٦).
- أستاذ زائر بمعهد الخرطوم الدولي التابع للألكسو (المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة) (١٩٧٧).
- أستاذ (مشارك) ووكيل قسم الدراسات العليا (علم اللغة التطبيقي) – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٩٨٢ – ١٩٨٤).
- أستاذ مساعد (مشارك) بقسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب – جامعة المنوفية (١٩٩١).

- التدريس بمعهد الفنون المسرحية التابع لأكاديمية الفنون منذ عام (١٩٧٦)، وكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر، وكلية الآداب بجامعة المنيا، والجامعة الأمريكية بالقاهرة.

الإنتاج العلمي :

أولاً: أعمال إبداعية:

أ – كتب باللغة الفرنسية:

١ - De la mort de l’entente à la mort biologique dans le théâtre de Ionesco. The periodical of the faculty of Arts, Mansourah University, Mai, ١٩٧٨.

٢ - La Conception du couple dans le théâtre d’Eugène Ionesco, Les Livres de france, ١٩٧٩.

٣ - Samuel Beckett, De la périphérie au noyau, Istituto Orientale di Napoli, Italia, ١٩٧٩.

٤ - Beckettland, L'Enfer ici et maintenant, Librairie al-Nahda, Le Caire, ١٩٨٦.

٥ - La Contestation, prologue au nouveau théâtre, The Anglo-Egyptian Bookshop, Le Caire, ١٩٨٦ .

٦ - Les Langages scéniques paraverbaux, The Anglo-Egyptian Bookshop, Le Caire, ١٩٨٧ .

٧ - Aspects du théâtre nouveau, Les Livres de France, ١٩٨٨.

٨ - Jean Tardieu, dramaturge initiatique, Les Livres de France, ١٩٩٠ .

ب – كتب باللغة العربية:

- الاتجاهات المعاصرة فى تدريس اللغات الحية لغير الناطقين بها، دار الفكر العربي (١٩٨٦).
- التقنية فى المسرح، مكتبة الأنجلو، القاهرة (١٩٨٧).
- المسرح المعاصر من المعارضة إلى الإبداع، دار الفكر العربي (١٩٨٨).
- عشرة كتب فى كتاب، دار الفكر العربي (١٩٨٨).
- لغة المسرح، الثقافة الجماهيرية، (١٩٩٥).

- بانوراما المسرح الفرنسي (الكلاسيكية)، هيئة الكتاب، القاهرة (١٩٩٨).
- إبداع الأطفال، هيئة الكتاب (١٩٩٩).
- الحامي والحرامى، هيئة الكتاب، (١٩٩٩).
- بانوراما المسرح الفرنسي (السريالية) هيئة الكتاب، القاهرة، (٢٠٠٢).
- ينابيع الهدى، هيئة الكتاب، (٢٠٠٢).
- بانوراما المسرح الفرنسي (الكلاسيكية)، ط٢، هيئة الكتاب، ٢٠٠٦.
- عالم صمويل بيكيت (الجحيم في هذه الحياة الدنيا)، هيئة الكتاب، ٢٠٠٦.
- اللغة الدرامية، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦.
- قراءة في الشعر العالمي، هيئة الكتاب (٢٠٠٧).
- بانوراما المسرح الفرنسي (المسرح الحديث) هيئة الكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.
- مطاردة الصبي، هيئة الكتاب، تحت الطبع.
- اقرأ مع العالم، هيئة الكتاب ؛ تحت الطبع.
- الهاتف وقصص أخرى، هيئة الكتاب، تحت الطبع.
- العجل الذهبي، هيئة الكتاب، تحت الطبع.
- التلبيس والتدليس، هيئة الكتاب، تحت الطبع.

ج – عروض مسرحية:

١- أولاد العم كام، مسرح الطليعة عام (١٩٩٥) .
٢- فى انتظار الكلاب، مسرح ١٥ مايو عام (١٩٩٨) .
٣- الطواغيت، البرنامج الثقافي بالإذاعة عام (١٩٩٨) .
٤- المتراس، المسرح الكوميدى (١٩٩٨) .
٥- المتحف، البرنامج الثقافي بالإذاعة عام (١٩٩٩) .
٦- ألعاب الموت، الثقافة الجماهيرية، (٢٠٠٠) .
٧- شد حيلك، المسرح العائم (٢٠٠١) .

ثانيا : دراسات وترجمات لأعمال أجنبية :

- الأعمال المسرحية الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي " أوجين يونسكو " صدرت فى خمسة مجلدات فى الكويت (١٩٧٣-١٩٨٨) ثم فى هيئة الكتاب (٣٤ مسرحية، فى مجلدين، القاهرة ١٩٩٨): المجلد الأول : التحيات، المغنية الصلعاء،

الدرس، جاك أو الامتثال، المستقبل فى البيض، الكراسى، ضحايا الواجب، المستأجر الجديد، أميديه، اللوحة، مرتجلة ألما، سفاح بلاكراء، فتاة للزواج، مشاجرة رباعية، خراتيت، الغضب، السائر فى الهواء. المجلد الثانى : الملك يموت، تخريف ثنائي، الثغرة، البيضة المسلوقة، لتحضير بيضة مسلوقة، العطش والجوع، معرض للسيارات، فنون الموت، فتى للزواج، مكبت، هذا الحان العجيب، تدريبات فى المحادثة، ذو الحقائب رجل بمتاع)، الطين، زيارة الموتى..

- الأعمال المسرحية الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي " ألفريد جارى "، الكويت، فى ثلاث مجلدات (١٩٩١ / ١٩٩٣) : المجلد الأول : أوبو ملكا، المجلد الثاني : أوبو عبداً. المجلد الثالث : أوبو فوق التل، أوبو زوجاً مخدوعاً.
- مسرح الغرفة، عشر مسرحيات للكاتب المسرحي الفرنسي " جان تارديو "، القاهرة (١٩٩٨) : من هناك، الأدب العقيم، قدس الأقداس، قطعة الأثاث، المتراس، شباك التذاكر، السيد أنا، أوزوالد وزينابيد، كان هناك جمهور غفير فى القصر، هم وحدهم يعرفون الموضوع.
- الدعوة للقصر " جان أنوى "، مجلة المسرح (١٩٦٤).
- الأمير الصغير " أنطوان دى سانت اجزوبيرى "، القاهرة (١٩٦٧).
- دائرة الانتقام " كاتب ياسين "، القاهرة، (١٩٦٧).
- أنترمتزو لـ " جان جيرودو "، الدار القومية، القاهرة (١٩٦٨).
- خيال الظل " جورج سيمنون "، القاهرة، (١٩٦٨).
- سباق الملوك "تييرى مونييه"، سلسلة " من المسرح العالمي"، الكويت (١٩٧٠).
- مجموعة قصصية بعنوان (القربان وقصص أخرى)، الرياض (١٩٩٠).
- مجموعة قصصية بعنوان (فى مواجهة الموت وقصص أخرى)، الرياض (١٩٩٠).
- العرض المسرحي المتحرر، " برنارد دور "، القاهرة، (١٩٩٣).
- التعبير الجسدى للممثل، " جان دوت "، القاهرة (١٩٩٤).
- مدرسة المتفرج، " آن أوبرسفيلد "، القاهرة (١٩٩٤).
- فضاءات العرض المسرحي "جان دو فينيو"، "جاليله"، القاهرة (١٩٩٧).
- الأعمال الكاملة للكاتب الفرنسي أوجين يونسكو، ط٢، هيئة الكتاب، ١٩٩٨.
- نهضة مصر، هيئة الكتاب، القاهرة ط عام ١٩٨١، ط٢، عام ٢٠٠٠.

- بلبل واحد لا يصنع ربيعا، الثقافة الجماهيرية، القاهرة، (٢٠٠١).
- اليوم السادس " أندريه شديد "، المجلس الأعلى، القاهرة (٢٠٠٢).
- إيزابيل، " أندريه جيد "، المجلس الأعلى، القاهرة، (٢٠٠٢).
- برنـــار كولتيس، فى ملتقى الكتابـــات المعاصـــرة، مجموعـــــة من الباحثـــين، القاهـــــــرة (٢٠٠٢).
- الأعمال المسرحية للكاتب الفرنسي " ألفريد جارى"، هيئة الكتاب، ط٢ (٢٠٠٢).
- الإسلاميون الجزائريون " سيفرين لابا " المجلس الأعلى، القاهرة، (٢٠٠٣).
- موسوعة " وصف مصر " لعلمـــاء الحملة الفرنسية على مصر (مشاركة)، هيئـــة الكتاب، (٢٠٠٣).
- سينّا، بيير كورنييْ مع إخراج شارل دولان، المركز القومي للمسرح، ٢٠٠٥.
- الأعمال الكاملة للكاتب المسرحي الفرنسي جورج فيدو : الجـــزء الأول ويـــضم مسرحيات: خلي بالك من أميلى، حب وبيانو، قالت هورتانس " ميهمنيش "، حكايـــة إدوار، خطبة في الأحلام. (المركز القومي للمسرح، ٢٠٠٥ .). الجزء الثـــاني : ويضم مسرحيات : أنا اللي شربت المقلب، الدبة وصاحبها، تيجي تصيده يـــصيدك، جلسة ليلية، يشتري سمك في المية. (المركز القومي للمسرح، (٢٠٠٥). الجـــزء الثالث ويضم مسرحيات : نام ! نام !، الدور عليك !، ندي شربة للولد، أنا لا أخون زوجي. (المركز القومي للمسرح،(٢٠٠٦). الجزء الرابع ويضم مسرحيات : من النافذة، إنها سيدة راقية، فندق الحرية (لوكاندة الفردوس)، الشك !، ليـــوني تضع قبل الموعد. (المركز القومي للمسرح،(٢٠٠٦).
- عشر مسرحيات معاصرة : عشاق المترو، تأليف جـــان تـــارديو، لعبـــة الحـــب والموت، فدائيون، تأليف داريو فو، الهروب، تأليف بـــول جـــوت، الامتحانـــات لا تنتهي أبدا، تأليف إدواردو دى فيليبو، زيارة غير مناسبة، تأليف راؤول دامـــونتى بوتانا، الجثمان المطوّق، تأليف كاتب ياسين، ثرثرة بعد جنـــازة، تـــأليف ياســـمين رضا، سباق الملوك، تأليف تييرى مونييه، مجهولة آراس، تأليف أرمان سالاكرو، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥.
- مهن النشر، تأليف برتران لوجوندر ، هيئة الكتاب، ٢٠٠٧.
- الأعمال الكاملة للكاتب الفرنسي أوجين يونسكو، ط٢، هيئة الكتاب، ٢٠٠٦.

ثالثا : مراجعـــات :

١- خمس مسرحيات طليعية، الـدار القوميـة، (المسـرح العـالمي)، العـدد ٣٦ (١٩٦٧).

٢- ليالي الغضب، لـ " أرمان سالاكرو "، الدار القومية، (من المسرح العـالمي)، العدد ٤٤، (١٩٦٧) .

٣- روبسبير لـ " رومان رولان "، الكـويت، (من المسرح العـالمي)، العـدد ٨١، (١٩٧١) .

٤- ١٤ يوليو، لـ "رومان رولان"، الكويت، (من المسرح العالمى)، العـدد ٢٠، (١٩٧١) .

٥- خادم سيدين، " كارلو جولدوني"، (المسرح العـالمي)، الكويـت، العـدد ٩٦، (١٩٧٤) .

٦- من الأعمال المختارة، للكاتب الإيطالي " لويجى بيرانـدللو " (مـن المسـرح العالمي)، الكويت، العدد ٩٩، ١٩٧٥ .

٧- الحصان المغمى عليه، لـ " فرانسواز ساجان"، (المسرح العـالمي)، الكويـت، (١٩٧٨) .

٨- المسرح ... فناً حياً، " روجيه ديلديم "، القاهرة، (١٩٩٤) .

٩- السينوجرافيا اليوم، تأليف مجموعة من المتخصصين، المهرجـان التجريبـي، (١٩٩٥) .

١٠-جان فيلار والمسرح المواطن، " إيمانويل لوابيه "، القاهرة، (١٩٩٧) .

١١-الزنجى والكلاب، برنار كولتيس، (٢٠٠٢) .

١٢-الممثل الكوميدي، أندريه فيلبيه، هيئة الكتاب، (٢٠٠٣) .

١٣-موسوعة "وصف مصر"، تأليف علماء الحملة الفرنسية على مصر (مشاركة)، هيئة الكتاب، ٢٠٠٣.

رابعـا :

- دراسات ومقالات وقصص قصيرة، نشرت فى مجلة المسـرح ومجلـة الشعر ومجلة القصة ومجلة إبداع ومجلة الفن المعاصر بالقاهرة ومجلة العربي بالكويت.

خامسا : إعداد برامج :

١- إعداد دورة لتعليم اللغة لغير الناطقين بها (تم بثها من البرنامج الأوروبي بإذاعة الرياض على الموجة القصيرة، وذلك ثلاث مرات في عامي ١٩٨٥ –١٩٨٦ .)

٢- الاشتراك فى إعداد سلسلة من الكتب المتخصصة فى تعليم اللغة العربية لغير العرب إصدار جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

سادسا : أعمال إنشائية :

١- إنشاء قسم اللغة الفرنسية بجامعة المنصورة عام ١٩٧٨ .

٢- إنشاء قسم اللغة الفرنسية بجامعة طنطا عام ١٩٨١ .

٣- إنشاء قسم علم اللغة التطبيقي بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض عام ١٩٨٢ .

٤- إنشاء قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون عام ١٩٩٢ .

سابعا :

المشاركة فى عدة مؤتمرات وندوات حول تدريس اللغات القومية والأجنبية، عقدت فى القاهرة (ألكسو) وروما، ونابولي، وبالرمو، أعوام : ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٨٧، ١٩٨١.

ثامنا : أعمال إذاعية قدمت فى البرنامج الثقافي بالإذاعة :

١- مسرحيات مؤلفة :

١- الحامي والحرامى، ١٩٩٦ .

٢- الطواغيت، ١٩٩٩ .

٣- المتحف، ٢٠٠٠ .

٢- قصص مؤلفة : (برنامج " قصص قصيرة مؤلفة ")

١- الطفل فى المولد .

٢- دماء الشهيد .

٣- فيلسوف الكلمة .

٤- فى قصر السلطان .

٥- الهاتف .

٦- البدائل .

٧- المرأة العصرية .

٣- مسرحيات مترجمة :

١- لعبة الحب والموت، لــ " رومان رولان " .
٢- شكوى ضد مجهول، لــ " جورج نوفو " .
٣- مكبث، لــ " أوجين يونسكو " .
٤- هروب، لــ " بول جوت " .
٥- شباك التذاكر، لــ " جان تارديو " .
٦- قطعة الأثاث، لــ " جان تارديو " .
٧- تخريف ثنائي، لــ " أوجين يونسكو " .
٨- السقطة، لــ " أوجين يونسكو " .
٩- أميديه، لــ " أوجين يونسكو " .
١٠- العطش والجوع، لــ " أوجين يونسكو " .
١١- ثلاثية الأب " أوبو "، لــ " ألفريد جاري " .
١٢- انترمتزو، لــ " جان جيرودو .
١٣- فدائيون، لــ " داريوفو " .
١٤- فنون الموت، أوجين يونسكو .

٤- رسائل أدبية (مجموعة من الرسائل الأدبية بقلم نخبة من الكتاب العالميين)

٥- عالم الآداب (دراسات حول عدد من الكتاب نذكر منهم) :

١- موليير .	٢- راسين .	٣- كورنييْ .
٤- بومارشيه .	٥- ماريفو .	٦- جان أنوى .
٧- فيكتور هوجو .	٨- ألفريد جارى .	٩- أوجين يونسكو.
١٠- صمويل بيكيت	١١- جان تارديو .	١٢- رومان رولان.
١٣- كاتب ياسين .	١٤- جورج شحاده .	

٦ - عالم الرواية (دراسات في الرواية العالمية) :

١- (اليوم السادس) والكتّـــاب العرب الناطقون بالفرنسية .
٢- (خيال الظل) والرواية البوليسية .
٣- (الأمير الصغير) والخيال العلمي
٤- (جيل بلا) ورواية المغامرات .
٥- الرواية المصرية الناطقة بالفرنسية .

بالإضافة إلى دراسات وبحوث وأعمال أخرى مترجمة نـشرت فـي دوريـات متخصصة وجرائد في كل من مصر والكويت والسعودية وإيطاليا، مثل : مجلـة المسرح، مجلة إبداع، مجلة الشعر، مجلة فصول، ودورية الفن المعاصر وصـحيفة القاهرة (مصر) ؛ ومجلة العربي (الكويت)، ومجلة الفيصل، ومجلـة المنهـل، ومجلة التوباد، والمجلة العربية (السعودية) ؛ ودورية المعهد الجـامعي الـشرقي بنابولي (Annali dell' Istituto Orientale di Napoli) دوريـة الـشرق الحـديث بجامعة روما (Oriente Moderno)

المُقدم/المعلق في سطور

الاسم: سيد علي إسماعيل علي

الميلاد: ١٩٦٢/٢/٨ القاهرة

التاريخ الوظيفي:

- مدرس مساعد بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة المنيا ١٩٩٣-١٩٩٤م.
- مدرس بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة المنيا ١٩٩٤-٢٠٠٠م.
- مدرس بالمعهد العالي للفنون المسرحية بالكويت ١٩٩٧-٢٠٠٠م.
- أستاذ مساعد بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة المنيا ٢٠٠٠-٢٠٠٦م.
- رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة المنيا ٢٠٠٠-٢٠٠٢م.
- أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات العربية ٢٠٠٢-٢٠٠٦م.
- أستاذ بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم جامعة المنيا ٢٠٠٦م وحتى الآن.
- أستاذ بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم، جامعة قطر ٢٠٠٦ وحتى الآن.

الدرجات العلمية:

- الليسانس، قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٥م.
- الماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٩م.
- الدكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٩٤م.

أولاً: الكتب المنشورة:

- مسرحيات إسماعيل عاصم: الأعمال الكاملة، مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٦م.
- إسماعيل عاصم في موكب الحياة والأدب، مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٦م.
- قضية النص المسرحي بين الفصحى والعامية في مصر، مطبعة أبو هلال بالمنيا، ١٩٩٧م.

- مخطوطات مسرحيات محمد لطفي جمعة: الجزء الأول (المسرحيات المؤلفة)، مطبعة أبو هلال بالمنيا، ١٩٩٧م.
- الرقابة والمسرح المرفوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- تاريخ المسرح في مصر في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م. (وطبعة أخرى عام ٢٠٠٥ بمكتبة الأسرة).
- تاريخ المسرح في العالم العربي في القرن التاسع عشر، مؤسسة المرجاح للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٩م.
- تاريخ المعهد المسرحي بدولة الكويت، دار قرطاس للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٩م.
- توظيف التراث العربي في المسرح المعاصر، (رسالة الدكتوراه)، دار قباء بالقاهرة، ودار المرجاح بالكويت، ٢٠٠٠م.
- مخطوطات مسرحيات محمد لطفي جمعة (الأعمال الكاملة)، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م.
- محاكمة مسرح يعقوب صنوع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- الملكة بلقيس: تأليف لطيفة عبد الله ١٨٩٣م، (دراسة)، سلسلة نصوص مسرحية، عدد١١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١م.
- مسيرة المسرح في مصر ١٩٠٠-١٩٣٥م، الجزء الأول، فرق المسرح الغنائي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م.
- حافظ نجيب الأديب المحتال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م.
- مخطوطة مسرحية (أمانة الحب) تأليف إسكندرة قسطنطين الخوري عام ١٨٩٩م: نشر وتقديم ودراسة، سلسلة نصوص مسرحية، عدد ٥٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ديسمبر ٢٠٠٤م.
- عنوان التوفيق في قصة يوسف الصديق، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، عام ٢٠٠٥م.
- مسرحية (الآلهة) لأحمد زكي أبو شادي، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، عام ٢٠٠٥.
- الأزهر وقضية حمادة باشا، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، عام ٢٠٠٦م.

- مسرح علي الكسار (جزآن)، سلسلة تراث المسرح المصري – عـدد ١٢ و١٣، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٦م.
- مخطوطات مسرحيات عباس حافظ، سلسلة تراث المسرح المصري – عـدد ١٧، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧م.

ثانياً: كتب منشورة بالاشتراك:

- المسرح المصري في القـرن التاسـع عـشر ١٨٨٢/١٨٩٩ – تـأليف فيليـب سادجروف، ترجمة د.أمين العيوطي– تقديم وتعليق د.سيد علي إسماعيل – سلـسلة دراسات في المسرح المصري – عدد ٩ – المركز القومي للمـسرح والموسـيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، عام ٢٠٠٧.

ثالثاً: دراسات ومقالات:

- تاريخ نشاط الفرق المسرحية في أقاليم مـصر ١٨٨٧–١٩٢٣م: دراسـة نقديـة وثائقية. كتاب: دراسات وبحوث المؤتمر العاشر لأدباء مصر في الأقاليم، سلسلة كتابات نقدية، عدد ٤٧، الجزء الثاني، الهيئة العامـة لقـصور الثقافـة، ينـاير ١٩٩٦م.
- المسرح المصري المجهول: بداية مواسم الأوبرا الخديوية، مجلة المسرح، عـدد ١٠١، إبريل ١٩٩٧م.
- المسرح في الأقاليم .. بيت المصراوي والأصـالة والمعاصـرة، مجلـة آفـاق المسرح، العدد الخامس، يولية ١٩٩٧م.
- المسرح المصري المجهول: الفخ المنصوب للحكيم المغصوب .. ريادة مـسرحية مجهولة لمحمد عثمان جلال، مجلة المسرح، عدد ١١٢، مارس ١٩٩٨م.
- مصطفى ممتاز بين الفن والحياة، مجلة البيـان، الكويـت، عـدد ٣٤٤، مـارس ١٩٩٩م.
- صفحات مجهولة في تاريخ المسرح الكويتي، مجلة البيان، الكويت، عـدد ٣٥٧، إبريل ٢٠٠٠م.
- إبراهيم رمزي بين عطاء المسرح وظلم الحياة، مجلة الكويت، عدد ٢٠٥، نوفمبر ٢٠٠٠م. ومجلة الكتاب والنشر، المجلس الأعلى للثقافة، العـدد الأول، فبرايـر ٢٠٠٢م.

- المسرح العربي من منظور التأصيل، مجلة الوسطية، العدد السابع، سبتمبر ٢٠٠١م.
- مزاعم لويس عوض عن يعقوب صنوع، مجلد أبحاث مؤتمر (المشروع الثقافي للويس عوض)، سلسلة أبحاث المؤتمرات، عدد١١، ٢٠٠٢م.
- فتاة من جمهور المسرح تثير الرأي العام، مجلة آفاق المسرح، عدد ١٩، ٢٠٠٢م.
- الوثائق المجهولة للدكتور محمد صبري السربوني، المجلس الأعلى للثقافة، مجلة الكتاب والنشر، العدد الثاني، يوليو/ديسمبر ٢٠٠٢م
- أثر أسرة اليازجي في تاريخ الأدب العربي، مجلة وقائع تاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية بكلية الآداب جامعة القاهرة، يونية ٢٠٠٤م.
- دور المرأة في الصحافة العربية، مجلة الضاد، جامعة الإمارات العربية، عدد ٦، يونية ٢٠٠٤م.
- أثر الوثائق في تغيير المفاهيم، كتاب أبحاث المؤتمر الدولي حول مناهج التجديد في العلوم الإسلامية والعربية، الجزء الثالث، ٢٠٠٥م.
- أسطورة المكان في الإمارات، كتاب مؤتمر البحوث السادس لجامعة الإمارات العربية، المجلد الثاني، ٢٠٠٥م.
- بداية المسرح التسجيلي في مصر، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، عدد ٣٨، ٢٠٠٦م.
- نشأة مسرحة المناهج في مصر: مسرحية يوسف الصديق نموذجاً، كتاب سلسلة أعلام اللغة والأدب المعاصرين: اللغوي الأديب محمد حماسة عبد اللطيف، إعداد وتقديم د.محمد عبد الرحمن الريحاني، التيسير للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م.
- قضايا المسرح عند يعقوب لاندو: المسرح في مصر نموذجاً، كتاب المؤتمر الدولي الثاني حول " المستشرقون والدراسات العربية والإسلامية "، المجلد الثالث، ٢٠٠٦م.
- الحياة الأدبية والثقافية في دول الخليج العربي في أوائل القرن العشرين، كتاب مؤتمر البحوث السابع لجامعة الإمارات العربية، المجلد الثاني، ٢٠٠٦م.
- وثائق منسية لأعلام عربية: أبو السعود أفندي، مجلة الضاد، جامعة الإمارات العربية، عدد ٨، مايو ٢٠٠٦م.

- توظيف الشخصية الدينية في المسرح، كتاب المؤتمر الدولي الثالث حول " العلوم الإسلامية والعربية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة "، المجلد الثالث، ٢٠٠٧م.
- أثر مسرحيات محمود أبو العباس على شخصية الطفل، مجلة البحرين الثقافية، عدد ٤٨، إبريل ٢٠٠٧م.
- أثر بحوث الأدب العربي الحديث ونقده في بناء حضارة الأمة: حولية كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر نموذجاً، كتاب المؤتمر العالمي الأول للغة العربية حول " إسهامات اللغة والأدب في البناء الحضاري للأمة الإسلامية "، المجلد الأول، ٢٠٠٧.
- من رواد التعليم والقضاء في الإمارات: حميد بن فلاو الزعابي) – مجلة تراث الإماراتية – عدد ١٠٠ – نوفمبر ٢٠٠٧.
- متحف الشيخ فيصل آل ثاني في قطر ملتقى العصور الإسلامية) – مجلة تراث الإماراتية – عدد ١٠١ – يناير ٢٠٠٨.
- كرنيليوس فانديك أمريكي عشق الشام – مجلة البحرين الثقافية – عدد ٥١ – يناير ٢٠٠٨.
- الإمارات وأول مسابقة ثقافية سنة ١٩٧٠ – مجلة تراث الإماراتية – عدد ١٠٤ – إبريل ٢٠٠٨.
- أول مقالة تُنشر عن الكويت عام ١٩٠٤ – مجلة تراث الإماراتية – عدد ١٠٥ – مايو ٢٠٠٨.

رابعاً: أجزاء من كتب:

- عشرة موضوعات نُشرت ضمن (موسوعة المرأة عبر العصور)، التي أصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بوزارة الثقافة عام ٢٠٠٤م. وتوزعت هذه الموضوعات في المجلدات الأول والخامس والسادس والثامن والتاسع. ومن هذه الموضوعات: دور المرأة في المسرح المصري، والصحافة النسائية العربية، ودور المرأة المصرية في الفنون التشكيلية. فضلاً عن تراجم: أمينة السعيد، وسهير القلماوي، وعائشة التيمورية، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ونبوية موسى، وهدى شعراوي.

خامساً: مقدمات لكتب منشورة:

- مقدمة بعنوان " قيم جديدة لكتابات قديمة "، لكتاب الدكتور سمير سرحان " كتابات في المسرح "، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.
- مقدمة كتاب " الكوميديا في مسرح جمال عبد المقصود " لمحمد عبد الله نجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- مقدمة كتاب " سمير سرحان مبدعاً وناقداً مسرحياً "، لنسرين فوزي خورشيد، مكتبة غريب بالقاهرة، ٢٠٠١م.
- مقدمة كتاب " المسرح المصري: الموسم المسرحي ١٩٢١ "، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٢م.
- مقدمة كتاب " المسرح المصري: الموسم المسرحي ١٩٢٢ "، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٢م.
- مقدمة كتاب " الأسلوب في مسرح جمال عبد المقصود "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م.
- مقدمة كتاب " الموسم المسرحي ٢٠٠٢/٢٠٠٣ "، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤م.
- مقدمة كتاب " المسرح المصري: الموسم المسرحي ١٩٢٣: الجزء الأول "، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤م.
- مقدمة كتاب " المسرح المصري: الموسم المسرحي ١٩٢٣: الجزء الثاني "، المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، وزارة الثقافة، ٢٠٠٥م.

سادساً: أبحاث في مؤتمرات:

- المؤتمر الدولي الأول " قضايا المسرح في العالم العربي "، كلية الآداب جامعة الاسكندرية، ١٩٩٦م.
- مؤتمر " محمد لطفي جمعة أديباً موسوعياً "، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م.
- مؤتمر " المشروع الثقافي للويس عوض "، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م.
- مؤتمر " البردي والمخطوطات العربية في أفريقيا "، معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة، ٢٠٠١م.
- مؤتمر " العائلة والبيت في التاريخ "، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤م.

- المؤتمر الدولي " مناهج التجديد في العلوم الإسلامية والعربية "، كلية دار العلوم جامعة المنيا، ورابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٥م.
- مؤتمر " علاقة المسرح بالتربية وتنمية الذائقة الفنية من الطفولة حتى الشباب "، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالجمهورية العربية السورية، ٢٠٠٥م.
- المؤتمر الدولي " بادية الإمارات بين فاعلية الوثيقة ومنطق الرواية "، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية، ٢٠٠٥م.
- مؤتمر " التراث الشعبي: وحدة الأصل والهدف "، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ٢٠٠٥م.
- الندوة الفكرية لـ" مهرجان الكويت المسرحي الثامن "، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ٢٠٠٥م.
- مؤتمر " الإمارات والخليج العربي في النصف الأول من القرن العشرين "، مركز زايد للتراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية، ٢٠٠٦م.
- المؤتمر الدولي الثاني " المستشرقون والدراسات العربية والإسلامية "، كلية دار العلوم جامعة المنيا، ورابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٦م.
- المؤتمر الدولي الرابع " تدبير الجودة في منظومات التربية والتكوين "، الجمعية المغربية لتحسين جودة التعليم بالاشتراك مع جامعة الحسن الثاني، مدينة الدار البيضاء، المملكة المغربية، ٢٠٠٧م.
- مؤتمر " إسهامات اللغة والأدب في البناء الحضاري للأمة الإسلامية "، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠٠٧..
- ندوة العوتبي الصحاري الدولية، وحدة الدراسات العمانية بجامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٨.
- الندوة الفكرية لـ" مهرجان الكويت المسرحي العاشر "، حول " المسرح والديمقراطية"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ٢٠٠٨م.

فهرس

ستاربرس للطباعه والنشر
٤٠ش المحولات - الهرم/ت ٠١٠١٥٣٣٣٥٧٨
رقم الأيداع ٧/ ٢٠٣٨ /٢٠٠٨
الترقيم الدولي I.S.B.N.
٩٧٧-٥٣٠٤-٣٨-٥

هذه السلسلة

تنبثق الهوية القومية من الأحاسيس المشتركة التى توفرها عناصر اللغة ، والدين ، والعادات ، والمسرح ترجمة لمثل هذه الأحاسيس ، وبيان تركيبها ، وتعقيدها ، وفرزها . فهذا يشكل علامة كبري دالة على كل عصر ومرحلة .

ومن هنا تأتى أهمية هذه السلسلة من إصدارات المركز القومي للمسرح والموسيقي والفنون الشعبية ، التى توفر جدلاً لابد منه مع الماضي والحاضر على حد سواء . استشرافاً للمستقبل وبما يمكننا من الإجابة على الأسئلة :

من نحن ؟ وإلى أين نحن ماضون؟

باختصار: تحديد موقعنا داخل عالم يتميز بإيقاعات متسارعة .

د. سامح مهران